جورجي كنعان

تاريخ يهوه



تَارِيخ يَهْوَهُ

الطبعة الثانية ١٩٩٤

جورجي كنعان

تاريخ يهوه

منشورات



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

هاتف : 860138 - 861311 ـ ص . ب : 13-5574
تلكس : KHATAB 21713 LE - ABGAD 21583 LE
بيروت ـ لبنان

الكاتب يعي أنه يغنّي في وادٍ ، والعالم يحتفل في وادٍ آخر . ومن يصدّق أن كاتباً يستطيع أن يمسح الغشاوة عن بصائر شعوب (أوروبا وأميركا) ، ضحية وعي زائف ، تعتقد أن يهوه هو الله ؟ .

اسمحوا لي أن أُقدّم كتابي ، بمحبة ، إلى الأدمغة المغسولة والعقول المعطّلة في العالم . ففي اعتقادي أن استئصال فكرة خاطئة من رأس إنسان ، لأجدى كثيراً من استئصال ورم في الجسد ، كما يقول لوسيان السميساطي (ابن بلدنا) .

وكتابي ليس أكثر من عرض لنصوص مقدّسة ، نتج عنها كوارث لمن آمن بها ، ولآخرين دفعوا ثمن هذا الإيمان .

عـرض حـال

عمـدت إلى تكـرار بعض العبـارات والأفكـار والنصـوص في محـاولـة لتحـريـر الأدمغـة المغسولة والعقول المعطلة من الأحكـام المقررة ، ومن دوائـر التصديق التي تـدور في متاهـاتها على غير برهان . وفي رغبة لتلقيـح الوعي الـذي ما يـزال أرضاً بكـراً ، تمطرهـا سحب الوقـائع الشائهة وتجتاحها رياح الدعاية المخادعة وتهوّم في أجوائها غيوم التضليل المتعمّد .

وأرجـو أن يعذرني الـذين ينسبون إليّ التكـرار والترداد . فـالأدمغة المغسـولة كثيـرة . وما التكرار إلاّ تعبير عن رغبتي الجامحة في تحرير ما يمكن تحريـره من أدمغة غسلهـا كتاب التـوراة اليهـودية(العهـد القديم) فـاستعبدهـا . وجعل عقـول مئات المـلايين في أوروبا وفي الـولايات المتحـدة الأميركيـة ودول أميركـا اللاتينية وفي الدول العـربيـة أيضـاً ، وفي أغلب بقـاع العـالم (باستثناء الصين طبعاً) ، جعلها كالصفحة البيضاء تتقبل ما يكتب فيها وما يرسم عليها دون تأفف أو تذمّر . وجعل أشداقها كأشداق الوديان تردّد أصـداء ما يصـطدم فيها من أصـوات دون تغيير أو تبديل . ودون أي محاولة ، على الأقل ، في التفكير بما سمعته ، والتبصّر في ما ألقي إليها .

سأعتبر أي كتـاب من مؤلفاتي قـد كوفىء بسخـاء إذا ما استـرعى انتباه فضـلاء الناس إلى موضوع مهم ومهمل بشكل يثير الدهشة والاستغراب . وإذا ما دفع أحداً بينهم إلى تطويـر عملي هذا ، أو إلى رعايتـه : إعادة طبـع مثلاً ، أو تـرجمة ونشـر في وجوه الأدمغـة المغسولـة والعقول المعطلة التي تدب في مستنقعات من التخلّف وتسرح في فراغ ذهني مريع .

ولكم أرجو وآمل أن تبلغني دعوة من زعيم عربي أو من سيّـد مثلاً ، أنعم الله عليـه بالثـراء الفكري والمادي ، فيأمر بترجمة هذا الكتاب إلى شعـوب أوروبا والأميـركتين التي تعتقد أن إلـه التوراة (العهد القديم) يهوه هو الله . والتي تؤمن بإسرائيل ووجودها إيمانها بهذا الإله .

وإذا ما أدركني الموت قبل أن يدركني هذا الأمـل أو الرجـاء ، فسيبقى كتـابي على رفـوف

المكتبات ينتظر اليد التي تمسح عنه غبار السنين ، وتجمع بعض ما فيه إلى بعض ما في غيره ، في دعوة لاعتاق المخصيين ذهنياً من أُطر (المقدسات) ومن قيود (الحقائق الثابتة) .

وفي كلمة من القلب إلى الصيدوني الطيّب النبيل محمد علي الشماع : كنت شمعة مضيئة في دربي ، في وقت قلّت الشموع وندرت المشاعل .

بلغني أنك تبرّعت بمبلغ مليون ليرة لاقامة نصب ما يذكّر بالعالم اللبناني الراحل رمّال رمّال . وغداً عندما يبلغكم نبأ وفاتي ، قد تقوم أنت أو سواك بتأليف لجنة لجمع التبرّعات بهدف اقامة نصب ما يذكّر بالمفكر الذي ظل طوال حياته يهوس حول فكرة استئصال الاغلاط الخطرة من أذهان الناس . وليس أدلّ على خطورة هذه الاغلاط من أن الباحثين جميعهم في الغرب والشرق ، بلْهَ الساسة وعامة الناس ، يعتقدون أن يهوه هو الله .

لا . لا أودّ أن تصنعوا لي قبراً من رخام . ولا أودّ تخليد ذكري بلوحة أو نصب . ولا أرغب بحفلات التكريم في حياتي أو بعد مماتي . فعندما أموت ارموني في البحر . أودّ فقط أن تكون لي القدرة على طبع ما أكتب . وآمل أن تؤلفوا لجنة لجمع التبرّعات بهدف لملمة تراث هذه الأرض المبعثر في جامعات ومتاحف العالم ، لصالح مكتبة ما في وطني . فتكون المكتبة التي تحتضن هذا التراث مشعل هداية للأجيال القادمة ، وبالتالي من أغنى وأشهر المكتبات في العالم .

ترى ، هل تُنجب هذه الأرض سيداً ، أنعم الله عليه بالثراء الفكري والمادي ، فيؤدّي هذا العمل الجليل ؟ ! .

مقدمة

لكم يؤرّقني السؤال . ولكم أتمنّى أن يكون السؤال خلية حيّة في ذهنك ، تتحرك بحيوية ونشاط ، تفعل وتؤثر ؟ .

ـ إلامَ يبقىٰ وعينا أرضاً بكراً ، تمطرها سحب الوقائع الشائهة ، وتجتاحها رياح الدعاية المخادعة ، وتهوّم في أجوائها غيوم التضليل المتعمّد ؟ .

ـ متى نستطيع أن نكون طليقين من الأحكام المقررة ، المهيمنة علينا ؟ . ومتى نتحرّر من دوائر التصديق التي ندور في متاهاتها على غير برهان ؟ .

ـ من منكم استطاع أن يحرّر عقله من قبضة الخوف والاعتياد ، وأن يخلّص نفسه ، ولو للحظة واحدة ، من الوسط الاجتماعي الذي يحيط به ، وما غرسه في نفسه من عادات وتقاليد ومفاهيم أُصولية ؟ .

ـ هل تعتقد أن بإمكان الكاتب ، أي كاتب ، كبح ، أو على الأقل تعديل استعداد الناس للتصديق ، وتغيير ميلهم إلى الإنقياد ؟ .

ـ إلى متى نظل نحشو أذهاننا بمفاهيم مغلوطة . ونقاوم أي دعوة لمجابهتها بالتساؤل أو التعرّض لها بالتفكير ؟ .

ـ ما هي قيمة معلومات أساتذتك إذا كانوا لا يستطيعون التفريق بين حبة القمح وبين حبة الزؤان في تلال الوعي الذي يدّعون ؟ .

ـ هل خلوت يوماً إلى صمت الغرفة ، فانتصب أمامك شبح فكرك الديني ، يرهقك إقلاقاً ويضنيك تساؤلاً مرّاً واستفهاماً أخرس ؟ .

ـ هل سألت نفسك يوماً : لماذا أراد إلٰه التوراة (يهوه) تأسيس مملكته في أرض معينة

(فلسطين) ؟ . وأراد أن يعمّر بيته على جبل صهيون ؟ . وأراد للأمم ، كل الأمم ، أن تأتي إليه ، تقدم الطاعة والخضوع ؟ . وهل تعتقد أن مملكة الله تكون في الأرض ؟ .

ـ ولماذا اختار الله (على اعتبار أن يهوه هو الله) جماعة بني إسرائيل من بين سائر الشعوب والأمم ؟ . وكان إلهاً خاصاً بهم ؟ . ولماذا اصطفىٰ فلسطين وطناً لهم ، وموطناً لبيته وسكناه ؟ .

ـ ولماذا لا تتم عبادة يهوه (الله) إلاَّ على جبل صهيون ؟ . ولماذا لا يجد اليهودي ربه إلاَّ في فلسطين ، وفي هيكل أورشليم ، وعلى جبل صهيون ؟ .

ـ ألا تعتقد أن المؤثرات الأرثية التي حصرت نفوس الغرب في قوالب منذ ألفي سنة ، لا تزال متماسكة حتى اليوم . وأن من الواجب أن تمرّ عليها أمواج الزمان غير مرّة حتى تمحوها أو تمحو بعضها ؟ .

ـ ألا ترى أن الناس بغالبيتهم سعداء في بساطتهم ، مطمئنون إلى إيمانهم ، راضون بحكم الله وعدله ؟ . أما المبهمات فأسرار ليس للناس أن يعرفوها . والمتناقضات ألغاز ليس لعقولهم أن تدركها . وكلما كان في الدين اغراق في الغموض وإغراب في المعنى ، كلما استولى على مشاعر الناس وعقولهم نوع من السحر الأخاذ .

ـ هل تعلم أن أكبر عملية تزييف في التاريخ ، تتم بصمت وتآمر ، هي عملية تهويد المسيحية ؟ .

ـ وهل تعلم أن دعوات الصهيونيين تغلغلت في صدور المسيحيين بفعل نصوص «العهد القديم» من كتابهم المقدس ؟ .

ـ وهل تعلم أن كيان إسرائيل الديني كان ، ولا يزال ، متجذّراً في صدور المسيحيين الغربيين ، للعلاقة القائمة بين التوراة وبين الإنجيل . وأخذ هذا الكيان ينمو ويكبر مع نشوء القوميات في القرن التاسع عشر ، حتى صار كياناً سياسياً ، عملت انجلترا على زرعه في فلسطين ، وجاءت أميركا تسقيه من عيون أبنائها ومن دمائهم ؟ .

ـ رب سائل : ما السرّ الذي جعل السياسة البريطانية العاهر تضع نتيجة ليلة سفاح مع الصهيونية هذا (الطفل المدلّل) ـ إسرائيل . ومن ثم تسلّمه إلى المربية أميركا ترأمه وترعاه وتحميه لدرجة تمنع الطعام عن أفواه بنيها لكي تشبعه حتى التخمة ؟ .

يجيبك وايزمن (١٨٧٤ ـ ١٩٥٢) أول رئيس لدولة إسرائيل ، بقوله «من حقك أن تسأل : ما هي أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود ، وشدة عطفهم على أماني اليهود في فلسطين ؟ . والجواب أن الإنجليز ، لا سيما أصحاب المدرسة القديمة ، هم أشد الناس تأثراً بالتوراة . وتديّن الإنجليز هو الذي ساعدنا في تحقيق آمالنا . لأن الإنجليزي المتديّن يؤمن بما

جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين . وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية من هذه الناحية أكبر المساعدات»[1] .

ـ ألا تعتقد أننا لا نعاني من تزوير التاريخ وتشويه الحقائق ، بقدر ما نعاني من الجهل في التاريخ ، والغفلة عن رؤية الحقائق الصراح ؟ .

ـ ألا تظن أن المصيبة ليست في جهلنا الحقيقة . فقد تتوفر القدرة والعزيمة والتصميم لإزاحة أستار الجهل عن وجه الحقيقة . ولكن المصيبة أننا لا نجرؤ على قول كل ما هو حقيقي ؟ .

ـ فهل فكرت يوماً في أن تكون من حملة الفوانيس الهادية في حلكة هذا الليل الباسط فوق الوجوه أجنحة الجهل والتخلّف وضحالة الوعي ؟ .

ـ لماذا لا نحاول إلقاء بقعة من الضوء على الأسفار التي ينشرها الصهيونيون في وجه العرب والعالم كمستند شرعي وكصك تمليك ، يمنحهم الحق باستملاك أرض فلسطين ؟ .

ويروّج لهذه الأسفار ويدعو لها أنصار لهم من أصحاب الأدمغة المغسولة والعقول المعطّلة ، خاصّة طوائف الإنجيليين والسبتيين وشهود يهوه والمتجدّدين ، وسائر الفرق والطوائف المتفرعة من البروتستانتية أو المنشقة عنها . جميع هؤلاء وكثيرون غيرهم من شتى الطوائف ومختلف النزعات ، جعلوا همهم في الحياة الدعوة في صفوف عامة الشعب إلى تقبّل دعوات الصهيونية المضمَّنة في هذه الأسفار .

وقد استطاعوا أن يغرقوا بدعواتهم الفكر العربي ، فضلاً عن الفكر الأوربي ، والأميركي ، بشتّى السبل ومختلف الوسائل : من كتب إلى منشورات متنوعة . ومن طوائف وجمعيات مختلفة إلى اجتماعات كنسية ، وعلى المستويات كافة : الأكاديمية والترفيهية (سينما وتلفزيون وروايات) . كلها يبشر وكلها يدعو . والهدف واحد . غسل الدماغ ليصبح مستعداً لتقبّل ما يُلقى إليه ، دون محاولة للنقد والشك ، أو البحث والتحليل .

فإلامَ نتجاهل ونتغافل ونتعامى عنهم ، بينما يشهرون هذا السلاح بوجوهنا ؟ . وتجاهل السلاح لا يفله ولا يثلمه . بل يزيده إمعاناً في الشراسة والضراوة . لماذا لا نجابههم بالسلاح ذاته ، وبالكتاب عينه ؟ .

ـ ألا تعلم أن كتاب «العهد القديم» ألغى تاريخ فلسطين حين أرادها أرضاً مطهّرة من أصحابها الشرعيين ، ومعقمة من جميع بناهم الحضارية . تنتظر جماعة وعدها إلهها الخاص بإعطائها هذه الأرض ميراثاً أبدياً ؟ . من ذلك مثلاً قول محرر التوراة «في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات . سفر التكوين ١٥ : ١٨» . وقول يهوه لجماعة بني إسرائيل «أتخذكم لي شعباً ، وأكون لكم

إلٰهاً . . وأدخلكم إلى أرض فلسطين التي رفعت يدي . . أن أعطيكم إياها ميراثاً . سفر الخروج ٦ : ٧ ـ ٨» .

ـ ألا تعلم أن الصهيونيين ، حتى العلمانيين أو مدعّي العلمانية منهم ، يشعرون بحاجتهم إلى التراث اليهودي ، بغض النظر عن مدى إيمانهم به ، لتوحيد وحشد اليهود . ولتقديم مبرر قوي ومقنع كأساس لحركتهم . ولأن إلحاح الصهيونيين على احتلال فلسطين ، وإدعاء وجود حق تاريخي لهم بها ، سيتخذ طابع الغزو والعدوان إذا لم يقترن بالحديث عن صدور وعد من الرب بمنح هذه الأرض لهم ملكاً أبدياً بصفتهم شعبه المختار ؟ .

ـ هل سمعت أو قرأت ما يقوله البروفسور اليهودي الإسرائيلي يعقوب تالمون «إن الحق اليهودي التاريخي بفلسطين يفتقر إلى أساس ثابت في ما لو تمّ اقصاء مسألة الإيمان بالوعد الإلٰهي ، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه . مما يؤدي حتماً إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الفاتحين والإمبرياليين»[٢] .

ـ ألا تعتقد أخي المسيحي ، اليهودي أن في العالم متسعاً لجميع المعتقدات التي تربط الإنسان بالإلٰه ، شريطة ألاّ تمس هذه المعتقدات بوجود الغير : بأرضهم وبحقوقهم وبتراثهم ؟ .

ـ هل حاولت يوماً أخي المسيحي ، اليهودي التعرّض لمعتقداتك الدينية بالتساؤل عن مغزاها الأخلاقي . والتعرّف على الطبائع المكتسبة من هذه المعتقدات ؟ . هل تؤمن بحرية الفكر ؟ . وهل تحترم الحقيقة ، أو تؤمن بها ؟ .

من البديهي أن المعتقدات أو الأديان تربّي معتنقيها أو المؤمنين بها على المحبة المطلقة ، والتخلّق بالفضيلة ، وفعل الخير ، وما شابه ذلك مما يندرج تحت عنوان القيم والفضائل . فهل فكرت يوماً في ماهية الأخلاق والقيم والفضائل التي يدعو إليها كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) المقدس لدى الطوائف المسيحية كافة ؟ .

ـ لماذا نؤمن ، نحن المسيحيين ، أو على الأقل نأخذ بالتراث الميثولوجي اليهودي . بينما نتجاهل أو نتغافل عن التراث الميثولوجي السوري . مع أن الفرق بين الإثنين كبير جداً لدرجة لا يجوز فيها المقارنة بينهما ؟ . والمؤسف إلى حد الاختناق أن الإنسان السوري نسي تراثه الميثولوجي أو تناساه . جهله أو تجاهله ، لا فرق . أما اليهودي فقد آمن بتراثه الميثولوجي إيماناً عميقاً . ففعل فيه ولا يزال يفعل حتى يومنا ، محدّداً له شخصيته ، وواضعاً له المقومات التي تقوم ، أو ينبغي أن تقوم ، عليها حياته .

ـ لماذا تأخذ الشعوب الأوروبية والأميركية ، التي تعتبر دولها مركز الثقل السياسي والفكري في العالم اليوم ، تأخذ بالمعتقدات اليهودية ، وتؤمن بالأحداث والتصورات الميثولوجية التي تؤلف هذه المعتقدات ؟ .

ـ لماذا يقبل العـالم ، خاصـة الأوروبي والأميركي ، إدعـاء اليهود بـأن أرض فلسطين هي «أرض إسـرائيـل» . وأن لليهـود المـواطنين في الـدول سـائـرهـا ، الحق بـ (العـودة) إلى هـذه الأرض . في وقت يرفض مجرد النـظر في حق الفلسطينيين الـراسخ رسـوخهم في أرضهم لأكثر من خمسة آلاف سنة ؟ .

ـ كيف استطاع اليهود أن يملأوا الدنيا بإدعـاءاتهم ودعاواتهم ؟ . وكيف قبلهـا العالم ؟ . ولماذا ؟ . وما القوّة أو التأثير أو الخلفية التي ترتكز عليها هذه الإدعاءات ، حتى تصبح في عرف المبوّقين بها والسامعين لها ، أشبه بالحقائق أو المعتقدات ؟ .

ـ لمـاذا ظل اليهـودي يحلم بـ (العـودة) إلى أرض فلسـطين لأكثـر من ألفين وخمسمـائـة سنة ؟ . ما هي علاقته بها ؟ . وهل كانت وطناً لـه ؟ . ولماذا يـطلق على حياتـه في وطنه ، أيـاً كان هذا الوطن ، صفة التشتيت ؟ . وهل هو مشتت فعلاً عن وطنه ؟ .

ـ ولماذا تجمّع بنو إسرائيل من كافـة أصقاع العـالم في النصف الأول من القرن العشـرين بعـد المسيح ، واستـولوا على أرض فلسـطين بدعم ومسـاندة الامبـرياليـة العالميـة ؟ . وما هـو الداعي لذلك ؟ . وبأي حق ؟ .

ـ ما هي «المشكلة اليهودية» ؟ . ولماذا كان حلّها على حساب الشعب الفلسطيني ؟ . مـا الأُسس الدينية والميثـولوجيـة التي قامت عليهـا هذه المشكلة ؟ . ولمـاذا كان اليهـود يتعرضـون للاضطهاد في جميع البلدان التي توطنوا فيها ، باستثناء البلدان العربيـة ؟ . ولماذا لم ينصهـروا في المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها ، واعتبروا جـزءاً منها ؟ . ومـا العائق الـذي حال دون إنصهار اليهودي وإندماجه في المجتمع الذي وُلد ونشأ وعاش فيـه ؟ . ولماذا ظـل شعار الغـربة يلوّح في وجدانهم أنّى حلّوا وحيثما رحلوا ؟ .

من البديهي أن قضية فلسطين قضية فريدة في التـاريخ . فـلا نعرف في التـاريخ أن شعبـاً أُقتُلع من أرضـه بالقمـع والترهيب . وجيء بـأفراد من شتى بقـاع الأرض ، لا رابط يجمع بينهم غيـر المعتقـد الـديني . فـزرعهم أصحـاب المشـروع في هـذه الأرض ، وأطلقـوا عليهم صفـة الشعب .

والسؤال : لماذا لم يثر هذا الإنتهاك الصارخ للحقوق الإنسانية أي سخط أو احتجاج لدى الشعـوب الأوروبية والأميـركية ؟ . ولـم يؤدِّ إلى إتخـاذ الخـطوات الفعـالـة لإزالـة الـظلم ورفـع الغبن ؟ . ولماذا أعارت تلك الشعـوب سمعها للطرف الـذي اقترف الإثم والعـدوان . وأسبغت عليه كل مظاهر العـطف ومقومـات التأييـد . وفي الوقت ذاتـه صمّت عن أصوات الضحـايا ؟ . ولماذا حسبت المزاعم الإسرائيلية على مقدار بديهي من الصحة بحيث لا تحتاج معه إلى مناقشة أو تفنيد ؟ .

وقضية فلسطين قضية معقدة : الوجه الإمبريالي يبدو واضحاً . آلاف المجلدات عالجت موضوع الإمبريالية وسعيها الدؤوب لخنق الثورات الإشتراكية المحرّرة . ولقهر الشعوب السائرة في دروب التحرر والتقدم .

والوجه الصهيوني يبدو واضحاً أيضاً . آلاف المجلدات تناولت الصهيونية فكرة وحركة : مبادئها وأهدافها . تأثيرها في يهود العالم . وإصرارها على دفعهم إلى أرض فلسطين . إلتقاءها وتعاونها مع الإمبريالية وسائر القوى الإستعمارية لتدمير قوى التحرر العربية ، وتبديد مطامحها وخنق أهدافها وتطلعاتها ، وعرقلة نموها وإزدهارها .

الوجه الديني وحده بقي بعيداً عن أقلام الدارسين وأفكار الباحثين . ظل غامضاً ، مهملاً ، منسياً ، عن قصد أو غير قصد ، لا يهم . المهم أنه لم يعرض أمام الرأي العام العالمي بالشكل الذي يؤهل لفهمه ووعيه ، ويؤدي بالتالي إلى وضع الدراسات لادراكه والخطط لحلّه .

ولفهم الوجه الديني لا بد من العودة إلى الجذور ، إلى الأزمنة الأُولى ، لأن معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أُصوله . والفكر اليهودي الديني (الميثولوجي) هو الأُصول التي ينبغي العودة إليها لتفهم شخصية اليهودي المعاصر ، والتعرّف على عقلية بني إسرائيل الحاضرة ، وعلى الطبائع التي اكتسبوها من تاريخهم المقدس .

والفكر اليهودي الديني (الميثولوجي) متأصّل في الفرد اليهودي ، وفي الفرد المسيحي أيضاً ، المؤمن بمفهومنا الديني المعاصر وفي الفرد غير المؤمن . ولا يزال يفعل فيهما معاً في مجالات عديدة ومختلفة . والواقع أن إنسان اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين ـ عصر الرقي الفكري والتقدم العلمي والتكنولوجيا المذهلة) لا يزال وجدانه يتغذى منذ نشأته بالفكر الديني على قدر معيّن وبشكل من الأشكال ، في أي مجتمع وأي وسط وأي حضارة . ولا يزال يحمل في وجدانه طبيعة دينية ، سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن . ومن الممكن تفسير الكثير من تصرفاته على أساس العقلية الدينية (الميثولوجية) التي اكتسبها عبر العصور .

ومثلما كان للأفكار الدينية (الميثولوجية) أثر مهم ودور أساسي في حياة الإنسان البدائي وتصرفاته . فإن لها في الإنسان المعاصر أثراً ، وتلعب في حياته دوراً .

وإذا كان التاريخ يصنع الإنسان ، فإن القصص الميثولوجية والمفاهيم الدينية التي ينشأ عليها ويؤمن بها الإنسان هي التي تفعل فيه وتحدّد له شخصيته وترسم معالمها . والحقيقة أن للمفاهيم الدينية قوة تتيح لها أن تأسر ألباب الأفراد والشعوب . وليس من السهل تغيير المفاهيم الدينية المتواترة منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام . ولذلك فإن العودة إلى الفكر اليهودي الديني ضرورية لتفهّم عقلية اليهود وعقلية الشعوب المسيحية التي تهلّل لإدعاءاتهم وتروّج لمزاعمهم .

وفي عودتنا إلى الفكر اليهودي الديني لا ننوي التعرّض للإيمان الذي يعمر صدور البشر

بأشكال متباينة ونسب متفاوتة . ولا للمفهوم الديني ـ الخلاص لدى أي فرد أو شعب أو أمة . ولا نقصد إلى تفريغ المفاهيم الدينية من قدسيتها ، أو مما تنطوي عليه من قيم دينية . ولا غاية لنا في تناول أي معتقد بالهدم أو التجريح . ولكننا نرغب في تحديد الدين بالوظيفة الإجتماعية التي يمارسها ، باعتباره ظاهرة إجتماعية لا يخلو منها مجتمع . وقوة محركة موجهة ومؤثرة في الكيان الإجتماعي . ويهمنا الكشف على النزعات القومية والعنصرية والسياسية التي حملها بعض المعتقدات . والتعرّف على السلوكية الأخلاقية التي دعت إلى انتهاجها تلك المعتقدات .

ولا نريد أن نحكم على عقلية اليهود القدماء بمقاييسنا الشخصية : الثقافية أو الإجتماعية أو الأخلاقية . ولكننا نحكم على جماعة بني إسرائيل الذين لا يزالون يحملون عقلية أجدادهم القدماء (آباء التوراة) . ويؤمنون إيماناً عميقاً بقصصهم الميثولوجية على أنها حقائق خالدة . ويعتبرون أن مصيرهم قد تقرر في ما ورد في تلك القصص من أحداث . ويتقرر في ما تضمنته من وعود بأحداث أخرى . وهم يسلكون في الحياة على هذا الأساس . ومن الواجب ، باعتبارهم ، فهمهم وفهم سلوكهم على هذا الأساس . وقد نضطر إلى إصدار الأحكام ، والأحكام الجارفة إحياناً ، على عقليات الشعوب والمجتمعات المسيحية التي لا تزال تعتبر القصص التي رواها الأحبار اليهود والمفاهيم التي علّموها أو دوّنوها ، كتابها المقدس . وعلى عقليات الشعوب التي تمحضها الاحترام أو التقديس .

إن ما يحملني ، وكثيراً من الباحثين المختصين ، على التعرّض لمعتقدات دينية ، هو أن جماعة بني إسرائيل يتخذون من هذه المعتقدات وثيقة شرعية تجيز لهم ، باعتبارهم طبعاً ، اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه بالطرد أو الإبادة ، وإقامة وطن قومي يهودي فوق هذه الأرض .

وإذا ما تناولنا معتقدات دينية بالنقد ، وبالتجريح أحياناً ، فإن تناولنا لها تبرّره الانحرافات الأخلاقية التي ولدتها هذه المعتقدات ، والأذى والويل اللذان سببتهما للمؤمنين بها ولآخرين دفعوا ثمن هذا الإيمان .

تمهيد

هذا البحث محاولة لإلقاء بقعة من الضوء على أخطر مسألة دينية ، فكرية ، إجتماعية ، وسياسية تواجه العالم ، وهي : كيف ، ولماذا نسيت أو تناست الشعوب المسيحية مفهوم العالي (عل - إيل - إله - الله) الذي ساد في العالم القديم ، وأخذ به سيد المسيحية - يسوع المسيح . وراحت تتعبّد في محراب يهوه - رب بني إسرائيل القومي العنصري ؟ .

والحديث عن يهوه الذي يترجمه كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) المقدس لدى الطوائف المسيحية كافة ، إلى «الله» ، له مبرراته بالنسبة للشعب الفلسطيني الذي اقتلعه الصهيونيون من أرض فلسطين في أواسط القرن العشرين بعد المسيح ، باسم هذا الإله . وبالنسبة للشعوب المسيحية المغسولة الأدمغة ، المعطلة العقول ، التي رضيت بهذا التفسير وأخذت به إيماناً وعقيدة .

صحيح أن الحركة الصهيونية انبثقت من عصر الإستعمار والإمبريالية الأوروبية ، التاريخي . وتوجّهت ، أول ما توجهت ، إلى الدول العظمى لتتحالف وتتعاون معها من أجل تحقيق مصالح مشتركة . وارتبط قيامها ، وهي لما تزل فكرة أو مشروعاً ، بالمطامع الإستعمارية ، والمصالح الاستراتيجية ، والمنافسات على الأسواق والطرق التجارية . ومن هذا المنطلق باشر هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) أفكاره وأعماله في سلسلة من المفاوضات المتلاحقة مع القائمين يومها على الإمبراطوريات الكبرى . فتفاوض مع حكام الإمبراطورية العثمانية ، ومع حكام الإمبراطورية الالمانية . ثم قابل ملك إيطاليا والبابا بيوس العاشر . وقابل وزير الداخلية القيصري . وفي المراحل الأخيرة من حياته ركّز في مفاوضاته مع أهم الشخصيات ذوات الفعل والتأثير في الإمبراطورية البريطانية ، مثل جوزف تشمبرلن واللورد بلفور واللورد كرومر . وعبّر عن توجهه الأخير بقوله «منذ اللحظة الأولى اتجهت أنظاري إلى انجلترا»[٣] . كما اعتبر انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن (١٩٠٠) كناية عن «إنتقال الصهيونية السياسية إلى لندن لكي تقدم نفسها رسمياً إلى العالم الإنجليزي وتطلب تأييده»[٤] .

ويبدو أن فكرة التلاقي في المصالح بين بريطانيا كقوة استعمارية ، وبين الصهيونية

كأيديولوجية استعمارية ، قد أسرته . وقد عبّر عن هـذه الفكرة الآسـرة بقولـه «إن الإنجليز كـانوا أول من أدرك ضرورة التوسع الاستعماري في العـالم الحديث ، ولـذلك يـرفرف علم بـريطانيـا العظمى فوق البحار . وأعتقد بأن الفكرة الصهيونية ، وهي فكرة استعماريـة ، ستحظى ، أو من الواجب أن تحظى في انجلترا بفهم سريع وسهل»[٥] .

وكان بعض بناة الإمبراطوريـة البريطانية من أمثـال اللورد شافتسبـوري (١٨٠١ ـ ١٨٨٥) واللورد بـالمرستـون (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥) ، وبعض القادة العسكـريين من أمثال تشـرشل وكـونـدر وغاولر ، قد حاولوا الإستعانة باليهود عن طريق زرعهم في فلسطين لخدمة الامبريالية الإنجليـزية ومصالحها الإستعمارية في المنطقة . ولذلك كان من الطبيعي أن تسعى انجلتـرا ، متجاوبـة مع الحركة الصهيونية ، إلى تمكين اليهود من إستعمار فلسطين ، وإقامة دولة لهم فيها ، تكون خيـر دعم للمصـالح البـريـطانيـة في المنـطقـة وإلى الشـرق منهـا . فعملت على استغـلال الحـركـة الصهيونية التي استغلت بدورها بؤس اليهود في أوروبا الشرقية .

وهكذا تلاقت مصالح الإستعمـار البريـطاني مع مـطامع الصهيـونية . وتبلور هـذا التلاقي أحيراً بشكل عملي في فرض الإنتداب البريطاني على فلسطين (٢٤ تموز ١٩٢٢) ، ليعمل على تهيئة البلاد لهجرة يهودية واسعة ، ومساعدة اليهود على إقامة الكيان الذي وعدهم بـه بلفور (في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧) .

ولكن الصهيونية لم تبدأ من هنا . وإنما بدأت من رؤيـا نائيـة وتطلع ديني يعـود إلى ثلاثـة آلاف سنة . فالصهيونية في جوهرها عقيدة دينية متطرفة ، استمدت أصولها من التـوراة اليهوديـة التي تنص على أن رب اليهود (يهوه) قد وعد شعبـه الخاص ـ بني إسـرائيل ، بـأرض فلسطين ، ملكاً أبدياً . وخصّهم بها ميراثاً أزليـاً . خذ مثـلاً قولـه لإبراهيم «وأقيم عهـدي بيني وبينك وبين نسلك من بعـدك في أجيالهم عهـداً أبديـاً ، لأكون إلٰهـاً لك ولنسلك من بعـدك ، وأعطي لـك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ، ملكاً أبدياً ، وأكون إلٰههم . سفر التكـوين ١٧ : ٧» . وقوله لموسى «اتخذكم لي شعباً ، وأكون لكم إلٰهاً . . وأدخلكم إلى أرض فلسطين التي رفعت يدي . . . أن أعطيكم إياها ميراثاً . سفر الخروج ٦ : ٧ و٨» .

وبعـدما لفـظتهم أرض فلسطين خـارج تخومهـا ، ظل إلٰههم أو الحبـر الناطق بـاسم هـذا الإلٰـه ، يعدهم بـإعادتهم إلى هـذه الأرض . خذ مثـلاً قولـه : «هـانـذا أخلّص شعبي من أرض المشـرق ومن أرض مغرب الشمس . وآتي بهم ، فيسكنـون في وسط أورشليم . ويكـونـون لي شعباً ، وأنا أكون لهم إلٰهاً . سفر زكريا ٨ : ٧ و ٨» . وقولـه «وأجعل عيني عليهم وأرجعهم إلى هـذه الأرض . وأبنيهم ولا أهدمهم . وأغـرسهم ولا أقلعهم . وأعـطيهم قلبـاً ليعـرفـوني اني أنـا يهوه . فيكونوا لي شعباً ، وانا أكون لهم إلٰهاً . سفر أرميا ٢٤ : ٦ و٧» .

مثـل هذه الـرؤى والتنبؤات حمل اليهـودي ، بعد ألفي سنـة من التشتت في شتى أصقـاع

العالم ، على تسخير جميع القوى والعوامل للعودة إلى الأرض التي حدّدتها التوراة ، ليعيد عليها تاريخه القديم وسيرته الماضية . فكانت إسرائيل تحقيقاً سياسياً للشعب (المختار) في الأرض (المختارة) . كانت تجسيداً لرؤى الأحبار وتنبؤات الكهان التي حضنها اليهود ما يزيد على ألفي سنة .

فالصهيونية المتجسدة في دولة إسرائيل ليست بنت وعد بلفور ، كما يظن معظم الدارسين . وإنما هي بنت الوعد الأول ، وعد الرب لإبراهيم في حدود القرن الثامن عشر ق .م . وليست صنيعة هرتزل نبي الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر . بل هي صنيعة موسى ، نبي الصهيونية الأول في حدود القرن الرابع عشر ق .م .

الصهيونية لم تبدأ من مؤتمر بال Basle بسويسرا . ولا من جماعة «محبي صهيون» في روسيا . وليست فكرة حديثة ، وإن لم تتكشف سماتها وتظهر للعالم إلاّ في غضون القرن التاسع عشر ، تحت اسم اليهودية العالمية . إلى أن عرفت في أخرياته باسمها الحالي ، كحركة سياسية ذات عقيدة متبلورة في مذهبية محددة ، وفي أهداف معينة . ولكنها تمتد في جذورها إلى أبعاد تاريخية أكثر عمقاً تضرب في أرض التوراة . وهي قديمة قدم النصوص التوراتية التي تعتبر ركيزتها ودعامتها . أو قل هي بمثابة الصيغة السياسية والقومية للديانة اليهودية . وقد ظلت منذ ما تم قذف الرعاة اليهود خارج أرض فلسطين ، حيّة كعقيدة في مثل هذه النصوص المقدسة ، تساور أخلاد أشياعها ، خاصة الأحبار منهم والكهّان الذين ظلوا يذكون جذوتها حيناً بعد حين .

الصهيونية دعوة دينية وحركة قومية ، حقنت الفكر اليهودي بمفهوم جديد للعيش الجماعي ، وحس مسيائي مستحدث ، «واتخذت من تاريخ (الشعب) اليهودي ، كما ورد في التوراة ، أساساً لها ، مؤكدة أنها استمرار له . وأشاعت على الملأ في الشرق والغرب أن برنامجها السياسي يهدف إلى إنجاز «الوعد» بـ «العودة» الذي قطعه يهوه (الرب) لشعبه المختار»[٦] . ومن الطبيعي أن فكرة «العودة» إلى «أرض الميعاد» تستمد نسغ الحياة من النصوص التوراتية . وترتبط بفكرة «الشعب المختار» الذي وعده ربه «يهوه» بأرض فلسطين ملكاً أبدياً .

قامت الصهيونية كحركة سياسية قومية تنادي بهجرة اليهود من جميع أصقاع الأرض إلى فلسطين . وعملت بمختلف السبل على تهجيرهم ، لإقامة دولة عن طريق الإستعمار الإستيطاني ، على اعتبار أن فلسطين هي وطنهم القديم و «أرض الميعاد» التي وعدهم بها (الله) . وعلى هذا ارتكز بناء الصهيونية ، منذ نشأتها . على أسس من الدمج بين الفكر الديني وبين الفكر السياسي ، وما فتئت حتى اليوم تربط كيانها السياسي ـ إسرائيل ، بالدين . وتجعل من الدين أساساً لوجود الدولة العبرية وحجة في اغتصاب الأرض ، ومن ثم استملاكها . المهم أنها ولدت فكرة دينية . واستمدت مبدأ وجودها من نصوص توراتية ، تتخذ منها حجتها ويقوم

عليها منطقها . وأربابها الأوائل هم مفكرون عقائديون . خذ مثلاً :

الحاخام الصربي يهودا القلعي[٧] (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨) الذي تجوّل في العواصم الأوروبية موجهاً النداءات إلى كبار المتمولين اليهود أمثال موسى مونتيفيوري وأدولف كريميو ، محاولاً استنهاض الهمم في صليبية يهودية تسعى إلى إستعمار فلسطين . وفي عام ١٨٣٤ نشر كراساً بعنوان «اسمعي يا إسرائيل» دعا فيه إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد . وفي عام ١٨٤٣ نشر كراساً آخر بعنوان «الخلاص الثالث» ، قال فيه «إن شعب إسرائيل كله يجب أن يعود إلى الأرض التي هي إرث آبائنا لاستلام الأمر الإلهي . وقد تنبأ بهذه العودة الجماعية جميع الأنبياء» .

ومثلاً آخر حاخام الطائفة اليهودية في مدينة ثورن بالمانيا ، زفي هيرش كاليشر[٨] (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) الذي توجه أيضاً إلى عائلتي روتشيلد ومونتيفيوري ، مقترحاً شراء فلسطين من حاكمها محمد علي ، لإقامة مستوطنات يهودية فيها . وفي عام ١٨٦٢ نشر كتابه «السعي إلى صهيون» ، شدّد فيه على إبراز العلاقة بين اليهودي وبين الأرض المقدسة . قال «إن العلاقة بين اليهود وبين أرض إسرائيل وبين التوراة هي علاقة إلهية أزلية» .

وكذلك فعل الحاخام البولوني سموئيل موهيليفر[٩] (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨) . فقد سافر إلى باريس لكي يثير اهتمام البارون ادموند روتشيلد والبارون دي هيرش في مساعدة الإستيطان اليهودي في فلسطين . وفي أيامه الأخيرة بعث برسالة إلى المؤتمر الصهيوني الأول (بال ١٨٩٧) ، ناشد فيها المؤتمرين الرجوع إلى «وصايا التوراة الأساسية لتبرير مشروعات الإستيطان اليهودي في فلسطين . واعتماد التوراة كأساس لحركة الاحياء اليهودي في أرض الميعاد» . لأن «التوراة ركيزة دولتنا . ومن دون توراة لا وجود لشعب إسرائيل» كما يقول بيريتز سمولنسكن[١٠] (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) . ولأن «إسرائيل والتوراة شيء واحد» كما يقول حاييم نحمن بياليك[١١] (١٨٧٣ ـ ١٩٣٤) .

المفكرون اليهود كثيرون[١٢] . و «أرض الميعاد» بمثابة النقطة من الدائرة في كل ما كتبوا . لأن اليهودي ظل ، على الرغم من كل مظاهر إندماجه في البيئة التي يعيش فيها ، محتفظاً بسماته اليهودية المميزة ، عاملاً على تحقيق ذاتيته اليهودية التي ظلت تلازم اليهود عبر القرون . وظلت تجمعهم أبداً حول الشعار الذي ما فتيء يغرس في نفوسهم على مرّ العصور ، وهو أنهم شعب (الله) المختار . وأن بقاءهم رهن بتمسكهم بمرساة أمتهم : الأرض الموعودة ، حيث يوجد هيكل أورشليم ، وحيث يثبون منها لتحقيق ما وعد به (الله) نسل يعقوب (إسرائيل) من أرض تمتد من نهر مصر إلى نهر الفرات .

ادمون فليغ[١٣] (١٨٧٤ ـ ١٩٦٣) المفكر الفرنسي اليهودي ، وضع عام ١٩٢٧ كتابه «لماذا أنا يهودي ؟» . قال فيه «إن أصول الصهيونية تمتد بعيداً إلى أيام الأنبياء الأوائل . وقد وعدت التوراة يهود الشتات بأنهم سوف يعودون إلى الأراضي المقدسة» . وفي عام ١٩٣١ وضع

كتاباً آخر بعنوان «أرض الميعاد» .

هوراس كالن[١٤] (١٨٨٢ ـ) المفكر الالماني اليهودي ، وضع عام ١٩٢١ كتابه «الصهيونية والسياسة العالمية» ، قال فيه «إن الصهيونية هي التعبير لمجهود الشعب اليهودي الصامد في تحقيق الوعد بأرض الميعاد» .

أما الحاخام الروماني سولومون شيختر[١٥] (١٨٤٧ ـ ١٩١٥) فقد ظل يدور في مقالاته حول محور واحد : «أرض الآباء» و «أرض الميعاد» و «أرض الله الخاصة» .

ومثله كان المفكر الإنجليزي اليهودي ريتشارد غوتهيل[١٦] (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) يشدّد في مقالاته على «المكان (فلسطين) الذي اختارته العناية الإلهية لليهود» .

وظل مارتن بوبر[١٧] (وُلد في فيينا ١٨٧٨ وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٨) يؤكد في مقالاته على أن «إسرائيل قامت من خلال العهد مع إله إسرائيل» . كما ظل جابوتنسكي[١٨] (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠) يردّد في كل مناسبة مقولته المشهورة «إن للشعب اليهودي حقاً تاريخياً لا يقبل الجدل في أرض إسرائيل ، بحسب وعد إله إسرائيل» .

وعندما ولدت الصهيونية السياسية في مؤتمر بال ١٨٩٧ استندت إلى النصوص التوراتية في كل ما يتعلق بالكيان القومي اليهودي المزمع إنشاؤه . ويتضح من قراءة مقررات المؤتمرات الصهيونية التي عقدت ، وما فتئت تعقد دوريا ، أن أهداف القائمين على الحركة قد تحدّدت في التركيز على :

١ ـ أن فلسطين هي أرض إسرائيل التاريخية . وأنها ملك لليهود بحكم نشأتهم التاريخية فيها . وبحكم إرتباط الدين اليهودي بها أيضاً .

٢ ـ وأن فلسطين هي أرض اليهود الموعودة في الكتب المقدسة لدى اليهود والمسيحيين .

وهكذا اعتمدت الصهيونية في بناء دعوتها السياسية على العقيدة الدينية المتجذّرة في كل صدر في الغرب الأوروبي والأميركي . وكانت نصوص التوراة هي الحجة الوحيدة التي تسلّح بها الصوت الصهيوني من على منبر الأمم المتحدة يوم طالب بالإعتراف بقيام دولة إسرائيل . وعقب نيل الإعتراف (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) وقف ممثّل الدولة اليهودية الحديثة مخاطباً ممثلي دول العالم بقوله «قد لا تكون فلسطين لنا على أساس حق سياسي . ولكنها لنا على أساس حق روحاني» .

وراح الزعماء الصهيونيون يستغلون النصوص التوراتية في مناظراتهم السياسية والإجتماعية ، لأن مثل هذه النصوص راسخ في الوجدان الشعبي اليهودي والمسيحي أيضاً . ومن السهل تحريك الجماهير عن طريقها . وطفقوا يتوسلون بمقولة «العودة» إلى «أرض الميعاد» كعامل إثارة لحماس اليهود الديني والعاطفي . ومن ثم استغلال هذه الحماس لاقتلاعهم من

مواطنهم ، وتهجيرهم إلى فلسطين . أو لانتزاع التأييد والمساندة المادية والمعنوية . فهرتزل مثلاً وضع كتابه «دولة اليهود» (١٨٩٦) بإيحاء من عنوان مغروس في ذهنه هو «أرض الميعاد» . يتحدث فيه عن هؤلاء الذين لم يفقدوا إيمانهم بأرض الميعاد» . وعن الذين يحملون في أذهانهم «قسماً من أرض الميعاد» . مؤكداً أنه «سيريهم الطريق إلى أرض الميعاد»[١٩] . قال «إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودتنا إلى اليهودية . لأن هدف الصهيونية هو تنفيذ النص الوارد في الكتاب المقدس والقاضي بإنشاء وطن قومي يهودي في أرض فلسطين»[٢٠] . وحاييم وايزمن قال أمام اللجنة الملكية البريطانية (١٩٣٧) «إن الله قد وعد اليهود بإعطائهم أرض فلسطين . هذا هو ميثاقنا»[٢١] . وفي مناسبة أخرى قال «إنني أعلم أن الله قد وعد أبناء إسرائيل بأرض فلسطين . ولكنني لا أعرف الحدود التي رسمها»[٢٢] .

وفي عام ١٩٣٩ كان الصهيونيون الذين تظاهروا محتجّين على «الكتاب الأبيض» الصادر عن الحكومة البريطانية ، يحملون لافتات كُتب عليها «التوراة ، لا الإنتداب البريطاني ، تعطينا حقنا في هذه الأرض»[٢٣] .

وقبل إنشاء دولة إسرائيل بحوالي خمس سنوات وقف بن غوريون أمام حشد يهودي في فلسطين قائلاً : «إن يهود العالم يكوّنون شعباً واحداً . شعباً لا وطن له ولا خلاص إلاّ بالعودة إلى أرض الميعاد»[٢٤] .

وفي المؤتمر الأيديولوجي الذي انعقد في القدس ١٨ تموز ١٩٥٧ خطب بن غوريون قائلاً : «إن ما ضمن بقاء الشعب اليهودي عبر الأجيال وعلى مرّ العصور ، وأدى إلى خلق دولة إسرائيل ، هو تلك الرؤيا المسيائية لدى أنبياء إسرائيل ، ورؤيا خلاص الشعب اليهودي والإنسانية قاطبة» . وأضاف «إن دولة إسرائيل هي أداة لتحقيق هذه الرؤيا المسيائية» ـ جيروسالم بوست ١٩ تموز ١٩٥٧ .

والواقع أن رؤيا الخلاص المسيائي تؤلف جوهر إيمان اليهودي ومنبع طاقاته البناءة والطافحة بالحيوية والنشاط ، كما يقول بن غوريون ، الذي يرى «أن عودة بني إسرائيل إلى فلسطين هي حركة مسيائية تعمل على تحقيق رسالة الأنبياء العبرانيين» . وهو يبرّر هجرة عشرات الآلاف من اليهود ، وقيام الدولة اليهودية ، بالإيمان العميق برؤيا الخلاص . قال «من العسير أن نفهم كل شيء حصل في أيامنا ، من إعادة تعمير الدولة اليهودية ، إلى هجرة عشرات الآلاف من اليهود الذين لم يسمعوا قط بأسماء هس وبنسكر وهرتزل . وربما لم يسمعوا باسم الصهيونية ، دون أن نأخذ بعين الإعتبار رؤيا الخلاص على يد المسيح المنتظر التي تنغرس عميقاً في قلب الشعب اليهودي»[٢٥] .

وظل طوال حياته يؤكد على هذه المقولة ـ المفهوم ـ الإدعاء . من ذلك مثلاً قوله : «إن

الصهيـونيـة لم تبـدأ بهـرتـزل ومؤتمـر بـال ، ولا بـوعـد بلفـور ، ولا بقـرارات الأمم المتحـدة عام ١٩٤٨ . ولكنها بدأت يوم وعد الله أبانا إبراهيم بأرض فلسطين ملكاً أبدياً»[٢٦] .

وهو يعترف بـ «أن ما يربط اليهود ليس الدين اليهـودي ، فاليهـود الملحدون يهـود أيضاً . وليس العرق ، فهم ليسوا من عرق واحد . وليس اللغة ، فهم يجهلونها . ولكن رؤيا العودة إلى أرض الميعاد»[٢٧] .

والمـلاحظ أن التشديـد المتعمّد على النـواحي المسيائيـة والرؤيـوية في التـراث اليهودي الديني . والربط بينها وبين الصهيونية ودولة إسرائيل ، يهدف إلى تحقيق جملة أمور . فمن جهة يمكنه إتاحة المجال أمام تمويه الطابع الإستعماري للفكرة الصهيونية . وتغليفها بغشاوة طوبـاوية أو مسيائية . ومن جهـة أخـرى يعمـل على تزويـد يهود العـالم بعقيدة معينـة ، تجعل استكمـال يهـوديتهم رهناً بهجـرتهم إلى إسرائيـل ، للإقـامة فيهـا والمشـاركـة في تحقيق فكـرة الخـلاص الديني . وقد ظل بن غوريون طوال حياته يناشد الحـاليات اليهـودية في العـالم أن تعتبر الهجـرة إلى إسرائيل بمثابة حركة مسيائية تعمل على تحقيق رسالة الأنبياء . يقول «إن أهم ركن من أركان الدين اليهودي هو الإرتباط بـالإرض . ولذلـك فإن مس واجب اليهـودي تحقيق العودة إلى أرض الميعـاد . وكل يهـودي متدين ينتهـك الوصـايا اليهـودية وتـوراة إسرائيـل يومياً طـالمـا بقي في (المنفى) . وكل من يعيش خارج أرض إسرائيل فإنه يعتبر بلا إلـه» ـ نيويـورك تايمـز ٢٩ كانـون الأول ١٩٦٠ .

ومنذ ما تمّ إنشاء الكيان الصهيوني في أرض فلسطين (١٤ أيـار ١٩٤٨) لم يتوقف زعمـاء الصهيونية وإسرائيل عن دعوة يهود العالم لـ «العودة» إلى «أرض الميعـاد» . وقد دأبـوا على رفع شعـاراتهم في جميع الـوجوه ، وتسميـر دعاواتهم في كـل العيـون : فلسـطين «أرض إسـرائيـل التاريخية» تنتظر عودة اليهود ليستلموا الميراث الذي خصّهم بـه (الله) . المسلّمة الأسـاسية التي صاغتها رئيسة وزراء إسرائيل ، غولدامئير ، تقول «لقد وجدت هذه البلاد تنفيذاً لـوعد صـدر عن الرب بالـذات . ومن السخف أن نسألـه بيانـات عن شرعيـة ذلك» . (لـومونـد ١٥ تشرين الأول ١٩٧١) . وتقـول المسلمة التي صـاغها وزيـر الدفـاع الإسرائيلي مـوسى دايان «إذا كنـا نمتلك الكتـاب المقدس ، ونعتبـر أنفسنـا شعب الكتـاب المقـدس ، فينبغي أن نمتلك أرض الكتـاب المقدس» ـ (جيرو سـالم بوست ١٠ آب ١٩٦٧) . وتقـول المسلمة التي صـاغها كبيـر حاخـامي إسرائيل «إن أراضي دولة إسرائيل تراث لكل يهودي . لقد وعدنـا الله بها . ولـذلك لا يحق لأي سلطة دينيـة أو زمنية أن تتخلّى عن شبر واحد من هـذه الأراضي» . وأضاف «إن القـدس وسائـر أراضي إسرائيل هي مقدسة لنا ، وقد وعدنا الله بهـا . ولذلـك يحظر على أي يهـودي إعادة ، أو مجرد التفكير باعادة ، أي جزء من أراضي أجدادنا» ـ جيرو سالم بوست ١٩٦٧/١٠/٣١ .

مثـل هذه المسلمـات شكل الأسـاس الأيديـولوجي للصهيـونية السيـاسيـة . أمـا الـدعـاة

فكثيرون . الوزير يسرائيل غليلي قال «لقد ثقفت على النظر إلى الضفة الغربية وشاطىء البحر الأبيض المتوسط حتى العريش ، كوطني التاريخي . وطناً بالروح والميراث والكتب» ـ يديعوت احرونوت ١٨/٤/١٩٧٩ .

عضو الكنيست الإسرائيلي حاييم دروكمان أكد «أن حدود إسرائيل مقررة وثابتة . ولن تستطيع أي قوة في العالم تغييرها» . وأضاف موضحاً رأيه بشأن الحدود الجنوبية «وفي ما يتعلق بالحدود الجنوبية لأرض إسرائيل يوجد رأيان مختلفان : يجزم الأول بأن «وادي مصر» المذكور في كتاب الكتب (التوراة) هو النيل ذاته . وثمة رأي آخر يجزم بأنه وادي العريش . ومهما يكن من أمر فإن قطاع يميت بأكمله ضمن حدود أرض الميعاد» ـ معارف ٤/١٢/١٩٨١ .

زعيم عصبة الدفاع اليهودية ، عضو الكنيست ، الحاخام مئير كاهانا ، قال «لا يمكن التمييز بين الدولة وبين التوراة ، لأن دولة إسرائيل لم تقم بفضل قرارات الأمم المتحدة ، بل بفضل التوراة» ـ يديعوت احرونوت ٢١/٥/١٩٧١ .

الحاخام الأكبر لتل أبيب شلومو غورين قال «لا يمكن الفصل بين أرض إسرائيل وبين تعاليم اليهودية . إن حدود أرض إسرائيل حدّدت في التوراة . وفصل قيم التوراة عن وصايا استيطان البلد هو بمثابة فصل الروح عن الجسد» هارتس ٢١/١/١٩٧٢ .

وكرر حاخامو اليهود في اميركا أقوالاً عجيبة مثل : ممنوع في التوراة على اليهود أن يتنازلوا عن شبر واحد من الأراضي التي هي الآن في قبضة إسرائيل . الجولان قسم من إسرائيل . وكذلك حبرون ونابلس . ألم يكن القاضي يفتاح يحكم هناك ؟ . ألا يوجد لديكم كتاب التوراة ؟ أهل التوراة موجودون ، وأرض التوراة موجودة[٢٨] .

ومثل هذه المسلمات شكل البند الأساسي في المبادىء التي يقوم عليها الحزب الديني القومي (المفدال) ، والقرار الأول في كل مؤتمر يعقده ، أو برنامج يتخذه . ففي ٢٧ شباط ١٩٧٣ مثلاً عقد الحزب مؤتمره العام وأكد في قراراته على «حقنا التاريخي في الأرض الموعودة» ـ (هاتسوفيه ٨/٣/١٩٧٣) . وفي انتخابات الكنيست الثامن صاغ الحزب برنامجه الإنتخابي بالقول «يؤيد الحزب الديني القومي المبادىء الآتية : ـ حقنا الديني والتاريخي في أرض الميعاد . ـ يرفض الحزب كل مشروع ينطوي على أي تنازل عن جزء من أرض إسرائيل التاريخية ـ ميراث آبائنا» معاريف ١٢/١٢/١٩٧٣ .

وعشية الإنتخابات الإسرائيلية التي جرت في شهر أيار ١٩٧٧ نصّ برنامج المفدال على أن «المبادىء الأساسية التي يجب أن توجه حكومة إسرائيل وممثليها ، هي : حقنا الديني ـ التاريخي في أرض الميعاد» ـ هاتسوفيه ٦/٥/١٩٧٧ .

وفي المؤتمر الخامس للحزب (١٥/٥/١٩٧٨) نصت القرارات الأساسية على «حقنا التاريخي في أرض الميعاد كلها» ـ هاتسوفيه١٨/٥/١٩٧٨ .

والجدير بالذكر هنا أن مثل هذه المسلمات يشكل القاعدة الأيديولوجية للأصولية اليهودية . فهي نقاط الإلتقاء ومصطلحات الكلام المتداولة في المناقشات التي تدور في صفوف الأصوليين .

ولعل أشهر الدعاة لهذا الأساس الأيديولوجي هو الزعيم الصهيوني مناحيم بيغن . ففي الخطاب الذي ألقاه في الكنيست الإسرائيلي لنيل الثقة بحكومته ، قال «باسم تراث الآباء الذي يعود إلى آلاف السنين ، أعلن أن حكومة إسرائيل لن تطلب من أي أمة قريبة أو بعيدة ، صغيرة أو كبيرة، أن تعترف بحقنا في الوجود . لقد حصلنا على حقنا في الوجود من آلهة آبائنا في فجر الحضارة الإنسانية ، منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة» ـ هآرتس ٢١/٦/١٩٧٧ .

وفي كلمته أمام وفد للجباية اليهودية في فرنسا قال «لم نطلب من مصر إعترافاً بحقنا في الوجود ، بل إعترافها بملكيتنا لأرضنا . إن رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو الذي منحنا حقنا في الوجود» ـ هآرتس ٢٠/١/١٩٧٨ .

فحجة اليهود بإدعائهم الحق في امتلاك أرض فلسطين ، قائمة على اعتبار أن هذه الأرض هي الوطن التاريخي لبني إسرائيل . وأنها منحت لهم بوعد إلهي . ولذلك فهم يتحدثون أبداً عن الرباط المقدس ، والإلهي أيضاً ، الذي يشد اليهود إلى «أرض الميعاد» . وعن شعب إسرائيل الذي أصبح أمة بـ «الوعد» على جبل الطور في سيناء .مؤكدين أن هذا الشعب لايمكنه تحقيق النهضة والبعث الديني إلاَّ في أرض الميعاد وحدها . أو قل إنه «لا يستقي بأسه وشبابه وتفتحه الروحي إلاَّ من العلاقة بالأرض المكتوبة له» كما يقول الصهيوني فيربلوفسكي . ويضيف «إن هذه العلاقة هي جزء من معطيات وجدان اليهود التاريخي ، ومن هويتهم الدينية والقومية» . «وإذا ما كان هنالك شعب مختار ، فثمة أيضاً أرض مختارة»[٢٩] .

والملاحظ أن مقولة «الوعد الإلهي» تعتبر من أهم المبررات التي رفعها الصهيونيون في وجه العالم ، لتهجير اليهود إلى فلسطين ، وإنشاء الدولة اليهودية فيها . وهي تمنحهم ، باعتبارهم طبعاً ، حقوقاً مقدسة وخالدة أيضاً لا تتأثر بأية حقوق ومطالب أخرى . ولا يمكن لأحد ، حتى للفلسطينيين ـ أصحاب الأرض ، أن يكون لهم حقوق أقوى ، أو على الأقل مماثلة ، لحقوق اليهود في فلسطين . وهذا ما عبّر عنه الحاخام ميمون ، أول وزير للشؤون الدينية في دولة إسرائيل الحديثة ، بقوله «إن الرباط بين إسرائيل وبين أرضها ليس كالرباط الذي يشد الأمم سائرها إلى بلادها . فهو لدى تلك الأمم ، وفي أجلى مظاهره ، ربط سياسي ، علماني ، خارجي ، عرضي ومؤقت . بينما الرباط القائم بين الشعب اليهودي وبين بلاده كناية عن سرّ خفي من القداسة . فالشعب والأرض قد أنعم عليهما بتاج القداسة ، والرباط الذي يشدهما رباط سماوي وأبدي»[٣٠] .

لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين . وأن اليهود يعيشون في

أوطانهم التي وُلدوا فيها وانتموا إليها .ولكن الرابطة المقدسة الأبدية بين (الشعب) اليهودي وبين أرض فلسطين هي التي تجعل من اليهود مشتتين أو منفيين عن أرضهم . وهي التي تنكر على الفلسطينيين حقهم بالوجود على أرضهم . وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية .

وفي ظل هذه القداسة يذوب الفلسطينيون ، وتصبح مطالبهم أمراً هامشياً وتافهاً . ويصبح الإستعمار الإستيطاني هو عودة (الشعب) اليهودي إلى «أرض الميعاد» . وتكتسب العنصرية شرعيتها من فكرة الشعب ذي الرسالة الخالدة . ويصبح الفلسطينيون مجرد سكان مؤقتين في هذه الأرض ، لا بد من طردهم أو إبادتهم .

ومن الواضح أن إدعاء الحقوق الأبدية لليهود في أرض فلسطين ، الذي يفترض هامشية السكان الأصليين ، هو شكل من أشكال الإعتذاريات ، يتسم بدرجة كبيرة من اللاأخلاقية تفوق لاأخلاقية الإعتذاريات العنصرية التقليدية التي تنسب التفوق الحضاري للمستغِل ، والتدني الحضاري للمستغَل .

فالإعتذاريات العنصرية التقليدية تعترف بوجود الشعب المستعمَر . أما الإدعاءات الصهيونية فترفض الإعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، بله حقوقه .

وتتميز إدعاءات اليهود بالحقوق الأبدية على أرض فلسطين بأنها لا تسبّب الحرج للصهاينة أو لمؤيديهم في الغرب الأوروبي والأميركي ـ رائم الصهيونية وحاضنها ، لأن الإدعاءات تستند إلى الكتاب المقدس لدى الشعوب الأوروبية والأميركية .

إن الصهاينة لا ينظرون إلى الموسويين على أنهم جماعة دينية ، مثلهم مثل المسيحيين والمحمديين . وإنما ينظرون إليهم كجماعة عائلية (بنو إسرائيل) . يجمعها رباط روحي (التوراة) ، ورباط عرقي (بنو إسرائيل) . ويرون أن قوميتهم هي نتيجة علاقتهم الخاصة بالله .

والكيان اليهودي الذي أقاموه في أرض فلسطين ، يستند إلى مجموعة من العوامل الدينية والعنصرية والتاريخية . فهذا الكيان تجمعه رابطة قوية هي الديانة اليهودية . ويوحّده إعتقاد اليهود بأنهم يشكلون عنصراً جنسياً متميزاً . أما التاريخ فيدّعون أن تاريخهم وحده كاف لجمع اليهود في رابطة قوية لا تنفصم عراها . وهذه العوامل الثلاثة مترابطة . فعنصرهم المتميّز حدا بـ (الله) كي يختارهم شعباً خاصاً به .وهو إلههم الخاص وعدهم بإعطائهم «كل أرض كنعان ملكاً أبدياً . سفر التكوين ١٧/٨» .

فإسرائيل تربط كيانها السياسي بالدين . وتجعل من الدين أساساً لوجودها وحجة في اغتصاب الأرض ومن ثم استملاكها . واليهود في إسرائيل يعتبرون أن كل يهودي في العالم هو جزء منهم . وأن لا فرق ، من الناحية القومية ، بين اليهود الذين يعيشون في إسرائيل وبين اليهود في أميركا أو فرنسا أو انجلترا أو الأرجنتين أو روسيا مثلاً . فالدين بالنسبة لهم هو العنصر الأساسي في القومية .

والـواقع أن الـولاء للدين هو العـامل الـذي يجمع بين اليهـود ، في الظاهـر على الأقل . وحجة الآخذين بهذا الرأي تقوم على عناصر :

ـ أن «الحق التـاريخي» الذي يخـوّل اليهود الإستيـلاء على فلسـطين ، يستمـد مقـومـاتـه الجوهرية من الديانة اليهودية .

ـ أن البقاء اليهودي عبر العصور هو أشبه بالمعجزة أو الأعجوبة التي لا يمكن تفسيـرها إلاَّ على أساس الدين .

ـ أن مبـرّر وجود إسـرائيـل ، لا بـل حقهـا في الـوجـود ، يقـوم في نهـايـة المـطاف على الدين(٣١) .

«وإذا ما كانت إسرائيل قد أسست من أجل يهـود العالم . وإذا مـا كانت غـايتها لمّ شمـل اليهـود الذين تنتـظمهم ديانـة مشتـركـة ، فهـل يمكن فصـل فكـرة الـوطن اليهـودي عن الـدين اليهودي ؟» كما يقول عضو الكنيست أوري افنيري(٣٢) .

من المعروف أن اليهود لا يشكلون أمة واحدة .ولا يكوّنون مجموعة قومية أو عرقية . وليس هناك خليط عرقي متجـانس . ولا وجود لجنس يهـودي مميّز . وإنمـا هم من جميع الأجنـاس ، حتى الزنوج والمنغوليين . وليس لهم لغة واحدة ، بل يتكلمون لغات الشعوب التي يعيشون بين ظهـرانيها . وليس لليهـود عادات مشتـركـة وتـاريـخ مشترك. فسلوكهم يعكس تقـاليـد وعـادات المجتمعات في أوطانهم الأصلية .

وفي غيـاب هذه العـوامل الهـامة التي تسـاعد على صهـر الجماعـات الإنسانيـة وتكـوين الأمم ، لا يتبقّى ، كرابط بين اليهود ، غير عامل الدين ، وقد عبّر عن هذه الفكرة الوزير اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية ، السير ادوين مونتاغو ، في مذكرة رسمية قدّمها إلى حكومته بعـد إصدارها تصريح بلفور ، بقوله «لا توجد أمـة يهودية . إن أفراد أسرتي مثلاً الذين عاشوا في هذا البلد (بريطانيا) عدة أجيال ، لا يربطهم بأي أسرة يهودية في أي بلد آخر ، أي اتفـاق في رأي أو رغبة . ولا يجمعهم بها أي شيء آخر أكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة الـديانـة نفسها . ولا يصح القول إن اليهودي في انجلترا واليهودي في المغرب ينتميان لأمة واحدة . كما لا يصـح القول إن المسيحي في انجلترا والمسيحي في فرنسا ينتميان لأمة واحدة»(٣٣) .

إذاً فالكيان السياسي (إسرائيل) الذي أقاموه في أرض فلسطين ، يحمل في تكوينه القومي كـل الخلافـات العرقيـة . فهناك اليهـودي القفقـاسي واليهـودي الأوكـراني واليهـودي الالمـاني واليهودي العراقي واليهودي اليمني واليهودي الأثيـوبي واليهودي الإنجليـزي واليهودي الأميـركي و . . ولا بـد أنك قـرأت أو رأيت أو سمعت عن الألوان والعـروق التي ينتمي إليها اليهـود الذين ساقتهم الصهيونية بسوط الديانة والقومية اليهودية إلى فلسطين . هؤلاء الـذين ينتمون ، بمـوجب

الإحصاءات اليهودية نفسها ، إلى أكثر من مائة وخمسين بلداً وأكثر من ثمانين شعباً ولغة . ونشأوا على إتجاهات فكرية وثقافية مختلفة تجاوز الأربعين . ولكن الدين اليهودي هو الذي وحّد ، أو يحاول أن يوحّد ، هذه المجموعات من الأجناس والأقوام والعروق . والرابطة الدينية وحدها هي التي تجمع ، أو تحاول أن تجمع في ما بين اليهود . ولعل هذا هو السبب في الأهمية الخاصّة التي تعلقها الصهيونية على هذا العامل ، حتى بعد قيام الدولة اليهودية .

ويبالغ الأيديولوجيون الصهيونيون في تقويم دور الدين ، بحيث يبدو وكأنه قادر على التعويض عن غياب جميع العوامل الأخرى لحفظ الوحدة القومية اليهودية . يقول المنظّر الصهيوني أحاد هاعام (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) «لقد كنا يهوداً لمدة ثلاثة آلاف سنة ، لأنه لم يكن بوسعنا أن نكون شيئاً آخر، ولأن قوة جبارة تربطنا بالديانة اليهودية ، وتفرض نفسها على قلوبنا . ولأن الديانة اليهودية تعيش فينا جنباً إلى جنب مع جميع الغرائز الطبيعية التي تنمو في الإنسان منذ ساعة ولادته»[٣٤] .

ويؤكد الأيديولوجيون الصهيونيون أن اليهودي ينتمي إلى البلد الذي يعيش فيه . ويأخذ بالثقافة التي ينشأ عليها . ولكنه يبقى في الوقت ذاته متفاعلاً مع التراث الديني والتاريخي الخاص به .

وثابت أن الصهيونية استغلت الأفكار الدينية ووظفتها لصالحها ، لأن مثل هذه الأفكار راسخ في الوجدان الشعبي . ومن السهل تحريك الجماهير عن طريقها . وثابت أيضاً أن القوى التي تسيطر على التجمع الإسرائيلي في أرض فلسطين تدرك تماماً أهمية العقيدة الدينية . إنها تؤيد الدين وتوجّه اليهود به لخدمة أهدافها . تناصر رجال الدين ، وتذود عن فرضهم للسلوك الديني على المجتمع . الدين هنا يساهم في تدعيم البنية الروحية لوجود الشعب . وبهذا المعنى هو ظاهرة منفصلة عن التديّن الذي يمكن أن يكون أو لا يكون في حياة الأفراد والأحزاب . من دون أن يعطل غيابه لدى القطاعات الخاصة حضور الدين في المجتمع الواحد .

هل تصدّى إسرائيلي مارق واحد لنبذ الدين ؟ . يقول بن غوريون «أنا يهودي أولاً ، وإسرائيلي بعد ذلك . إن دولة إسرائيل وجدت لأجل الشعب اليهودي بأسره» ـ جيرو سالم بوست ١٩٥٧/٧/١٩ .

صحيح أن الصهيونيين المتدينين لم يستطيعوا في نهاية الأمر ، إقامة دولة يهودية متديّنة ، بدليل أن أكثر يهود إسرائيل هم من العلمانيين . ولكنهم من خلال امتداد نفوذهم إلى مجالي التعليم والثقافة على الأقل ، استطاعوا تثبيت بعض مفاهيمهم في وعي الصهيونيين والإسرائيليين جميعهم ، حتى وإن كانوا من أكثر العلمانيين ليبرالية . ومن أبرز هذه المفاهيم ذلك الإدعاء الأكثر إلحاحاً في الأنشطة الدعائية اليهودية الذي ينص على وعد (الله) شعبه الخاص ـ بني

إسرائيل بأرض فلسطين ميراثاً أبدياً . فهم لا ينفكون يصرّحون به دون ما ملل أو كلل . يبوّقون به على رؤوس الملأ ، ويجهرون به في المجالس ، ويدافعون عنه في المجامع ، ويدعمونه في الأندية ، ويثبتونه في المؤلفات ، وينشرونه عبر وسائل الإعلام جميعها ، حتى أصبح لكثرة التركيز عليه ، جزءاً لا يتجزأ من وعي الفرد اليهودي ، متديناً كان أم علمانياً . ونقطة الإنطلاق العقائدية الأساسية التي لا تجوز مناقشتها .

ومن الواضح أن ترسيخ مثل هذه المفاهيم يلعب دوراً بالغ الأهمية ، بل يكاد يكون أساسياً ، في دعم التصلّب والرفض الإسرائيليين . فإذا كانت أرض فلسطين «ملكاً» لليهود . وعلاقتهم بها «تاريخية» و «أزلية» و «ربانية» ، مستمدة من (الله) والتوراة ، فلا تجوز مطالبتهم بالإنسحاب من أجزاء منها . وكل مطلب من هذا القبيل من قبل الفلسطينيين العرب ـ أصحاب أرض فلسطين ، أو غيرهم هو ، باعتبارهم طبعاً ، عمل «غير أخلاقي» . لأن «الأمر التوراتي الذي يلزم الشعب اليهودي بالإستيطان في طول أرض إسرائيل وعرضها ، لا يخضع لأي سلطة دنيوية»[٣٥] كما يعتقد جماعة غوش إيمونيم .

ومن الظواهر الملفتة للنظر أن المذهب المسيطر على الحياة في إسرائيل هو اليهودية الأرثوذكسية. والأرثوذكس يؤمنون بالعودة الشخصية للمخلّص ، وبالعودة إلى فلسطين . وبأن إسرائيل هي شعب الله المختار . والفروق بين اليهودية المحافظة وبين اليهودية الأرثوذكسية طفيفة وغير جوهرية ، فكلتاهما تؤمنان بالعلاقة الوثيقة التي تربط الله بالشعب وبالأرض .

وتشهد الدولة اليهودية إحياء دينياً على نطاق واسع ، يتمثل في تكاثر المدارس الدينية ، وظهور حركة «حملة الإحياء» التي تدعو إلى إحياء التعاليم القديمة. وفي تعاظم أثر الأحزاب الدينية التي تقوم بدور مهم في الحياة السياسية في إسرائيل . فهي تسعى مثلاً إلى فرض الشريعة اليهودية على الحياة العامة ، وإلى إقامة دولة دينية تكون التوراة دستورها والشرائع اليهودية قوانينها .

وبعد غزوة حزيران ١٩٦٧ تعزّزت الإتجاهات اليمينية داخل المجتمع وضمن الحياة السياسية في إسرائيل .ونشأت في أعقاب تلك الغزوة حركات شعبية يمينية متطرفة مثل «حركة أرض إسرائيل الكاملة»، وحركة «غوش ايمونيم» ـ (جماعة الإيمان) . وكان تشكيل حركة «هتحيا» ـ (الإنبعاث) عام ١٩٧٩ التعبير الأبرز لهذا الإتجاه .

والواقع أن فوز تكتل الليكود في الإنتخابات الإسرائيلية التي جرت في أيار ١٩٧٧ أكد أن لليمين الصهيوني المتطرف قاعدة شعبية عريضة ، وجذوراً ما فتئت تتعمق داخل المجتمع الإسرائيلي . وأن التوجه نحو اليمين والتعصب والشوفينية هو ميزة الجمهور اليهودي في إسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ . وقد تسارعت وتيرته في أواسط السبعينات ، خاصة بعد اعتراف الرئيس المصري أنور السادات بالكيان اليهودي في أرض فلسطين ، وبحقه في الوجود والأمن . ونجاح

زعيم الليكود ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، مناحيم بيغن ، في فرض شروطه على النظام المصري .

وأخيراً تمثّلت الإتجاهات اليمينية داخل المجتمع وضمن الحياة السياسية في إسرائيل ، بالأصولية اليهودية ، التي تشكلت من مجموعة من المؤسسات ، والأحزاب السياسية ، والشخصيات البارزة ، وجماعات الحرس المتطوعين ، والمعاهد ، ومن منظمة غوش ايمونيم . وأخذت بالتطور بسرعة مذهلة ، فأضحت في أعقاب حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ قوة سياسية وثقافية كبرى على الساحة الإسرائيلية . ففي انتخابات ١٩٨٤ مثلاً حصلت الأحزاب المستندة إلى برنامج أصولي معلن (تحيا ، الدائرة القومية ، كاخ ، وموراشا) على ثمانية مقاعد في البرلمان الإسرائيلي (من أصل ١٢٠) . إلاّ أن التأييد القوي والحاسم الذي تتلقاه الحركة إنما يأتيها من الليكود ومن الحزب الديني القومي اللذين حصلا على ٣٧ بالمائة من أصوات الناخبين في إسرائيل . ولذلك فإن الأصولية اليهودية هي من «أشد القوى الإجتماعية والثقافية حيوية في إسرائيل» كما يقول المحلل الإسرائيلي ايهود شبرينتساك(٣٦) .

وشدّد غيره من دارسي الحركة الأصولية على ضرورة الانتباه إلى الأثر الثقافي والنفسي والديني الواسع الذي خلفته غوش ايمونيم في المجتمع الإسرائيلي . يقول دافيد شنال «لا مجال للشك في أن غوش ايمونيم قد أثرت تأثيراً عميقاً في النظام السياسي الإسرائيلي . ولكن تأثيرها الجوهري كان في نسيج المجتمع الإسرائيلي بطرائق تتخطى ساحة السوق السياسية ، وتتعلّق بقلب المجتمع الإسرائيلي»(٣٧) .

الأصولية مصطلح ، إستعماله أشيع من تعريفه . وفي حديثنا عن الأصولية اليهودية لا نقصد الأصولية التي تعني المبالغة في التدين ، والإيحاء بصور التعصب ، وأساليب التفكير الساذجة ، القائمة على الإعتقاد بتعليم ديني محدد المعالم ، أو بتقليد ديني متمسك بتفسيرات معينة للكتاب المقدس ، ولا نقصد الأصولية السائدة في قطاعات واسعة من أتباع الديانات التقليدية التي يقودها الإلتزام بالطقوس والشعائر إلى الإنصراف الكلي عن المجتمع . أو إلى العمل بجهد وإخلاص يصلان إلى حدّ التضحية بكل شيء من أجل تحقيق تغيير جذري في المجتمع . وإعادة بنائه بحسب ما يمليه المصدر السامي للقيم المطلقة الذي يصدرون عنه في سلوكهم .

وإنما يهمنا في الأصولية اليهودية العقائد التي تبعث الحياة فيها ، وتروّج لها . والأيديولوجية المتحكمة فيها . والأهداف التي ترمي إليها . وما تمثله من قوة سياسية وإجتماعية وثقافية على الساحة الإسرائيلية .

لعل أهم عقائد الأصولية اليهودية هو الولاء المتفاني لـ «أرض إسرائيل» . والتزامهم المطلق تحقيق الوعود التوراتية المقطوعة لـ (الشعب) اليهودي . وتحقيق الحد الأقصى من

الطموحات الصهيونية . أما شعارهم فهو «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل بحسب توراة إسرائيل»[٣٨] .

ويشكّل «الخلاص» التوراتي نواة الأيديولوجية المتحكمة في الأُصولية اليهودية ، سواء أتحقق الخلاص بالانابة إلى الله ولزوم فرائضه ، أم رافقه نشاط سياسي وعسكري . المهم أن علاماته تعرف بعودة اليهود من (المنفى) إلى (أرض إسرائيل) ، وبسط السيادة اليهودية عليها .

وتتمثل الأيديولوجية في مجموعة من الطامحين إلى السلطة ، ممن يقدرون على إحياء صورة الخلاص الوشيك ، ويحسنون استغلال الأوامر الإلهية القاطعة من أجل بسط السلطة اليهودية الحصرية بحسب أُصول الشريعة اليهودية على (أرض إسرائيل) كلها . ويبنون نشاطاتهم على مقتضيات لا تقبل المساومة والتسوية . ويعتبرون أن سلوكهم موجّه بفضل إتصال مباشر بمصدر السلطة المتعالية .

أما أهداف الأُصولية اليهودية فتتمثل في بسط الحكم اليهودي على «أرض إسرائيل الكاملة» . والعمل على تعجيل عملية «الخلاص» التاريخية العالمية التي يقوم (الشعب اليهودي ودولة إسرائيل فيها بدور مركزي . وفي تسويغ أعمال العنف ضد المواطنين الفلسطينيين ، والدول العربية ، أو ضد بعض الأهداف السانحة كالأماكن الإسلامية المقدسة في القدس ، باعتبارها من الوسائل القادرة على التعجيل ، من وجهة نظرهم ، في عملية خلاص كونية ، ودفعها إلى الإمام .

ويندرج تحت هذا الهدف دعوات الأُصوليين في حل (المشكلة العربية) المعاصرة إلى الإقتداء ، بما أنزله يشوع بن نون بالكنعانيين من عمليات طرد وإبادة ، على رواية التوراة .

ولعل أفضل السبل للوقوف على الأيديولوجية المتحكمة في الأُصولية اليهودية ، وعلى الأهداف التي يرمي إليها أربابها ، هو تأمل أفكار بعض الدعاة المتحمسين من النخبة الأُصولية الذين أجادوا في التعبير عن التزامهم المطلق تحقيق الوعود التوراتية المقطوعة لـ (الشعب) اليهودي ، والمتمثلة في بسط السيادة اليهودية على «أرض إسرائيل» الكاملة ، وفق ما جاء وصفها في التوراة . وإعادة بناء الهيكل في القدس تنفيذاً للخلاص المسيحاني الذي قضاه (الله) . نذكر من هؤلاء الدعاة الحاخام تسفي يهودا كوك ابن الحاخام الروسي ابراهام إسحاق كوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ، الذي ركّز تركيزاً خاصاً على الأهمية الحاسمة التي يتصف بها إستيطان اليهود في كل أجزاء الأرض التي وعد (الله) اليهود بها والسيطرة السياسية عليها مثلما ركّز على قداسة دولة إسرائيل نفسها من حيث هي الأداة التي عيّنها (الله) من أجل إعادة أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل . يقول «لقد خلقت جمعية الأُمم المتحدة دولة إسرائيل وانشأتها بأمر من رب العالمين المطلق ، من أجل ان يتم الأمر الواضح الوارد في التوراة ، والقاضي بأنهم سيرثون الأرض ويسكنونها»[٣٩] .

وهـو يعتبر كسـائر الأُصـوليين المتدينين أن أرض إسـرائيل هي القيمـة الأسمى في الحياة اليهـودية . يقـول «لقد اختيـرت الأرض من قبل مـا اختير الشعب نفسـه . فـالأرض المصـطفـاة والشعب المختار يكونان وحدة إلٰهيـة كاملة ، قـد ضُم بعضها إلى بعض عنـد خلق العالم وخلق التاريخ . وهما يكونان وحدة حيوية متكاملة»[٤٠] .

ومن الدعاة الأُصوليين هارولـد فيش ، الرئيس السـابق لجامعـة بار إيـلان الدينيـة ، الذي يرى أن فرادة اليهود الأبدية ناتجة عن العهد الـذي أقامـه (الله) معهم في جبل سينـاء . يقول «إن العهد بين الله وبين اليهود قائم على علاقة ثلاثية : الله ، والأرض ، والشعب . فالأرض مقـدسة لأن الله اختارها مقاماً له . واختار أن نقيم معه عليها . أبْعد البعد اللاهوتي تتلاشَ الصهيونية ذاتها هباء منثوراً»[٤١]

ويولي فيش أهمية خاصة لبعض الإقتباسات التوراتية التي تذكّر اليهود بوضعهم التعـاهدي الفريد في أعين رب العالمين، كما في قوله : «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعـدك ، في أجيالهم عهداً أبـدياً ، لأكـون إلهاً لـك ولنسلك من بعدك . وأعـطي لك ولنسلك من بعـدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً ، وأكون إلٰههم . سفر التكوين ١٧/٧» .

وينفي فيش أن يكون الفلسطينيون بمنزلة النقيض للشعب اليهودي . فاليهود ، بـاعتباره ، هم الأُمة التي عيّنها الله الحي شعباً شرعياً أبدياً ، لا مطعن في حقه في أرض إسرائيل كلها . أما الفلسطينيون فـلا حق شرعيـاً لهم على الإطلاق في إدعـاء المواطنيـة أو المطالبـة بأي قـطعة من البلد . وهم لم يعـانـوا أيـة آلام حقيقيـة ، ولم يتكتلوا في كيـان واحـد إلاَّ من جـــراء معـاداتهم اليهود . وكفاحهم كفاح انتحاري للقضاء على دولة إسرائيل وشعبهـا . ولما كـانوا كـذلك وجب على إسرائيل أن تنزلهم في منزلة أشد تجليات العداء العربي خطراً وتـدميراً . وأن تقف مستعـدة للقضاء عليهم ، إذ يسعون لتلبية «رغبتهم في الموت» الجماعي[٤٢] .

ويرى فيش أن «العهد بين شعب إسرائيل وبين إلٰهه ، ذلك العهد الذي تعتبر أرض الميعاد جزءاً لا ينفصل عنه ، هو غاية مهمة من غايات خطة الخليقة . وهذا الواقع هو ما يـرسّخ العـلاقة بين شعب إسرائيل وبين أرضه . وهذه العلاقة راسخـة في الإرادة المتساميـة للذي خلق الكل في جلاله»[٤٣] .

في هذا الإطار تعتبر الحجج الداعية إلى مقايضة الأرض بالسلام ، أو إلى دولة يهودية أكثر تجانساً ، باطلة من وجهة نظر الأصوليين . ولا يقل عن هذا بطلاناً ، وربمـا فاقـه خطورة ، كمـا يعبّرون ، ما يقدمه بعض الإسـرائيليين من مسوّغـات لضرورة الحفـاظ على السيادة اليهـودية في هــذه النـاحيــة أو تلك من الأرض . فحق اليهـود في الأرض ، الأرض كلهــا ، كمــا يعتقــد الأُصـوليون ، لا يتعلّق بـاعتبارات متغيّرة في جوهـرها ، أو ظـرفية ، كـالضرورات الأمنيـة ، أو الإقتصادية ، أو السكانية . فأرض إسرائيل كلها هي أرض الميعـاد التي يجب «فتحها وامتـلاكها

والإستيطان فيها» . يقول حانان بورات «لا عيب خلقياً في إعلاننا على الملأ أن أرض إسرائيل هي أرض الشعب اليهودي بأمر من الله منقوش بالحديد والدم»(٤٤) .

ويرى فيش أن اليهود وحدهم يختصون من دون سائر الخلق بأن علاقتهم بأرضهم قد اقتضاها قضاء الله الذي لا يرد . وقد بيّن حانان بورات هذا الأمر بوضوح ، قال «إن إرتباط إسرائيل بأرض إسرائيل إرتباط فريد لا نظير له بين الأمم . فهو يختلف جذرياً عن الروابط التي تربط الفرنسيين والإنجليز والروس والصينيين و . . كل شعب بأرضه . فأرض إسرائيل بالنسبة إلينا هي أرض قدرنا ، أرض مصطفاة ، لا مجرد وطن يحدّد تحديداً وجودياً»(٤٥) .

في كتيّب معد للتدريس أصدرته دائرة التوراة والتربية والثقافة في الشتات التابعة للمنظمة الصهيونية ، تتصدّر المقولة ـ المفهوم ـ الأيديولوجية التي يتبناها الأصوليون ، ومفادها أن الشعب اليهودي المختص بمصير إلٰهي مميّز يختلف عن كل أمة أخرى موجودة أو وجدت أو ستوجد . ومن الواجب أن يدرك الآخرون مزاياهم الخاصة على أنها بيّنات على «تفوقهم الجوهري» . أو أنها ناتجة عن كونهم قد اختارهم الله(٤٦) .

ويترتب على هذه المقولة ـ المفهوم ـ الأيديولوجية أن الأوامر الإلٰهية التي تلزم اليهود «تتجاوز المفاهيم الإنسانية وتتعالىٰ عليها» ، وتلغي القوانين الخلقية التي تقيّد سلوك الأمم الأخرى ، كما يرى واحد من أغزر منظري غوش ايمونيم وأشدهم نفوذاً . شلومو أفينر .

ويبيّن أفينر أن الله ، وإن ألزم الأمم الأخرى بطاعة قوانين العدل والإستقامة ، فإن هذه القوانين المجرّدة لا تلزم اليهود . يقول «إن منظومة قيمنا ليست من النواميس الذاتية أو من نتاج العقل البشري ، بل هي منظومة نواميس إلٰهية صادرة عن مهندس الكون الإلٰهي وعن نظامه الخلقي» . ويضيف «لقد كنا على خطأ من وجهة نظر الأخلاق الإنسانية ، في إنتزاعنا الأرض من الكنعانيين . إن هناك سرّاً واحداً فقط : لقد أمرتنا مشيئة الله أن نكون شعب أرض إسرائيل»(٤٧) . ولذلك فهو يرى أن «ثمة خطراً توراتياً مطلقاً لتحويل أي قطعة من أرضنا المقدسة إلى أي حكم أجنبي . أما أولئك الذين يناقشون التنازلات الإقليمية فيرتكبون خطيئة امتهان اسم الله»(٤٨) .

وفي طرحه المسلمة السائدة في الذهنية الأصولية ، يقول «ليس هرتزل ولا بن غوريون من أسس الدولة اليهودية ، ولا الصهيونية السياسية أو العملية ، بل هو الله العلي القدير» ـ معاريف ٤ أيار ١٩٨٤ .

وفي مقالة تعليمية مسهبة مكتوبة على صورة حوار في عدد أرتسي (ARTZI) الأول يقول أفينر «العالم كله يعلم أن أرض إسرائيل مرتبطة ، كما هو مكتوب في التوراة ، بشعب إسرائيل . فلماذا يثيرون في وجهنا كل هذه المضايقات ؟»(٤٩) .

ومـا يميّز الأصـوليين هو اعتقـادهم بأن مقـولات مذهبهم مقتضيـات قطعيـة ساميـة . وأن التزاماتهم شاملة يقينية لا تقبل النقاش ولا التسوية . ولذلك فهم غير مستعدين إجمالاً للمساومـة مع الواقع في سعيهم لتنفيذ التغييرات الإجتماعيـة الجذريـة التي يمليها بصـورة قاطعـة المصدر السامي للقيم المطلقة الذي يصدرون عنه في سلوكهم . ومن هنـا يزعم بعض الأصـوليين اليهود لنفسه سلطة الصدور في تصرّفه عن لون من العلاقة المباشـرة بالمشيئـة الإلٰهية . والمثـال الأبرز والأهم لذلك هو يهودا عتسيون الناطق الأيديولوجي الرسمي باسم المنظمات الإرهابيـة اليهوديـة السـرية . ففي أثنـاء محـاكمتـه على دوره في الإعتـداء على رئيسي البلديتين العـربيين والكليـة الإسلامية في الخليل ، وفي المؤامرة لتفجير جبل الهيكل ، أقر معتزاً بصحة الإتهامات . ولكنـه تحدّى حق المحكمة في إصدار الأحكام على فعاله . وقد بيّن عتسيون في إفادته أمـام المحكمة أن دواعيـه ودواعي المتآمـرين معه تستنـد إلى إعتقادهم بـأن الله كلفهم تكليفاً شخصيـاً تعجيـل عملية الخلاص عن طريق العمل الجذري المباشر . وفي إشارة إلى إعادة بناء الهيكل قال «لقـد رأيت نفسي مسؤولاً عن تنفيذ أعمال أعدها بمثابة تطهير لجبل الهيكل ـ المكان المقدس الوحيد لدى شعب إسرائيل ـ من البنى القائمة الآن عليه في موقع قدس الأقدس ، المبنى المعروف بقبة الصخرة»(٥٠) .

وفي مقـالات مسهبـة نشـرت في نيكـودا (Nekuda) ذهب عتسيون إلى أن الأمر الإلٰهي القاضي بأن يبني اليهود الهيكل ، لا يمكن تجاهله . وقد وصف أعماله وأعمـال رفاقـه المتآمـرين معه بأنها تستمد تسويغها مبـاشرة من الله عن طـريق التوراة . قـال «إن الأمر الـذي خفق به قلب يشوع بن نون والجيل الذي قهـر كنعان ، وخفق بـه قلب داود وسليمان وجيلهمـا ، كلمة الله في تـوراته هي ، كمـا أعلنت في نقائهـا الأول ، ما يحـرك دواعينا» . وأضـاف «إن مصـدر سلطتنـا سيكون تطوعنا من أجل القدوس ، لأننا ما جئنا إلاّ لنعيد إسرائيل إلى غايتها وقدرها الحقيقيين : التوراة والقداسة»(٥١) .

«والأمر الذي خفق به قلب يشوع» وحرك دواعي عتسيون ورفاقه ، فالتزموا العمل الجذري العنيف لاستعجال عملية الخلاص . بإعتقادهم طبعاً ، هو الأمر ذاته الذي يبوّق به دعـاة آخرون من الأصوليين المتطرفين . تقول استير ازولاي «لقد تكلفت التوراة أن تشرح لنا غاية الله من أخذ الأرض من شعب ، وجعلها داراً لشعب آخر . والمسألة هنـا ليست مسألـة (من هو على البـاطل) ومن هو على الحق . فالسؤال هو عن المصدر الذي صدرت الكلمات منه . ثمة فارق نوعي بين خُلُق شعب إسـرائيل التـوراتي وبين الشرائـع الخلقية التي تـدين الشعوب المنتشـرة على سـطح الأرض بها . والتي تستمد أصـولها من رؤى للعـالـم تدور حـول الإنسان . ويمثـل الإنسان فيهـا مركز الشرائع . ويعتبـر القيمة العليـا . فالـرؤية اليهـودية للعـالـم هي ، على النقيض من ذلك ، إلٰهية المركز . إذ أن مصدر العمل والإيمان عند المؤمن هو أمر الله»(٥٢) .

إن الأُصـوليين اليهود يعتقـدون أن لدور إسـرائيـل في الحقبـة المعـاصـرة معنى تـاريخيـاً عالمياً . وينظر معظمهم إليه نظرته إلى عملية خلاص قد بـدأت ، وسوف تبلغ ذروتهـا في إقامـة «ملكوت إسرائيل» . ويعتقدون أيضاً أن الله يرحب بأي عمل ضروري لدفع عملية الخلاص إلى الأمام . وأنه سوف يستجيب لها . ويـرى الطليعيـون منهم أن عملية الخـلاص ، وإن كانت قـد ابتدأت ، وإن كان من الممكن إتمامها في المستقبل القريب ، فمن الواجب الإقدام على أعمال حاسمة لـ «خلق الوقائع» الضرورية لاستمرار العملية . ولذلـك يشدّد معـظم الطليعيين على دور المجهود البشري الحاسم في تحقيق مشيئة الله . يقول شلومو أفينر «لقد أمرنا إله إسرائيل وخالق الخلق بأن نستولي على هذه الأرض كلها بحدودها المقدسة»[٥٣] . ويقول الحاخـام تسفي يهودا كوك «لقد أمرنا إله إسرائيـل بأن نستـولي على هذه الأرض وبـأن نستوطن . ومعنى الإستيـلاء هو الغزو . ونحن إذ نؤدي هذه الفريضة ، نستطيع تأدية الأخـرى ـ فريضـة الإستيطان . لقـد فرض علينا في توراتنـا المقدسـة أن نستعمر الأرض . لا قِبَـلَ لنا بـإجتناب هـذه الفريضـة : التوراة ، الحرب ، والإستيطان»[٥٤] .

في حـزيـران ١٩٧٩ صــادر الحكم العسكـري ٨٠٠ دونم من أراضي قـريـة روجيب الفلسطينية لجماعة غـوش ايمونيم الـذين أقامـوا عليها مستعمـرة ايلون موريـه . توجـه أصحاب الأرض المصادرة إلى المحكمة وطعنـوا في شرعيـة مصادرة أراضيهم لأغـراض عسكريـة . وفي جلسة للحكومـة الإسرائيليـة زعم رئيس الحكومـة . مناحيم بيغن ، أن المصـادرة تمت لأسباب أمنيـة . ولكن وزير الـدفاع عـازر وايزمن رفض تـأييد «فـخ الأسبـاب الأمنيـة» . وذهب إلى أن الأُسطورة القومية المؤيدة للمستعمرات باعتبارها نقاطاً أمنية ، ما هي إلاّ وهـم من الأوهام[٥٥] .

لم يكن في وسع المحكمة العليا أن تتجاهل هذا الوضع الشاذ جداً ، الـذي لم يكن له ، على حد قول القاضي فيتكين «مثيل في القـوانين والإجتهادات» ، حيث يـطلب من أحد القضـاة أن يختار واحداً من رأيين . أحدهما هو الوزير المسؤول عن الموضوع . والآخر هو الرجل الذي يقف على رأس الجهاز التنفيذي» . وقد تساءل القاضي فيتكين متعجباً «إذا كـان وزير الـدفاع لا يرى ضرورة لإقامة هذه المستعمرة ، فمن أنا لأجادله؟»[٥٦] .

واستنتجت المحكمة ، بحسب ما قال القاضي لنداو ، أن الدوائر الحكومية كانت «متـأثرة بصورة حاسمة بأسباب تكمن في نظرة صهيونية إلى الإستيطان في أنحاء أرض إسـرائيل» . وقـد أعلنت المحكمة أن الدواعي السياسية والأيديولوجية كانت هي العوامل الغالبـة . وقد شـدّد أحد المستـوطنين على أن الأوامـر الإلهيــة هي التي أوحت بـإنشــاء المستعمـرة ، لا الضــرورات الأمنية[٥٧] .

فهذا المستوطن وأصحابه يريدون الإستيـطان في المكان الـذي اختاروه لا لأسبـاب الأمن القومي ، بل لأن الله ، باعتقادهم ، أمر الإسرائيليين بأن يرثـوا أرض كنعان . والعهـد التاريخي

قد سلّم إليهم بحيث أُبيح لهم ، لا بل أُلْزِموا ، التصرّف من دون إقامة أدنى اعتبار لشرائع الدولة وللأخلاق الإنسانية . وقد باركت العناية الإلٰهية ، باعتقادهم طبعاً ، مهمتهم ، كما يعبّر البروفسور في الجامعة العبرية يعقوب تالمون ، في مقالة عرّى فيها فرادة الرؤية الصهيونية(٥٨) .

وهذا المستوطن ـ يقول عاموس ايلون ـ واحد من ذلك الخليط أو التحالف الناشىء بين الأُصوليين المتخرجين في المدرسة الدينية (مركاز هاراف) وجماعة غوش ايمونيم وحزب تحيا (الإنبعاث) الذي يشدّد برنامجه على بسط السيادة اليهودية ، بأمر إلٰهي طبعاً ، على الأراضي التي احتلت في حزيران ١٩٦٧ كلها .

وتدور مناقشات الأُصوليين المتدينين للحدود الملائمة للدولة اليهودية ، حول الأوصاف التوراتية المتنوعة لأرض الميعاد . وحول التأويلات المختلفة لما هو مطلوب أو مباح في غزو هذه الأراضي والإستيطان فيها وتوارثها . فمن ذلك مثلاً أن يهودا إليتسور ، من أكابر علماء غوش ايمونيم ، قد رسم عدة أشكال إقليمية للدولة اليهودية مبنية على مصادر توراتية . وتدور في معظمها بشكل دوائر ذوات مركز واحد . فهو يعتبر أن الحدود «الموعودة» أو حدود «الآباء» ، الممتدة حتى نهر الفرات ، وجنوب تركيا ، وعبر الأردن ، ودلتا النيل ، هي «الحدود المثالية» . والحدود التي تظهر في الأراضي التي احتلها الجيل الذي غادر مصر ، ومن جملتها شمال شرق سيناء ، ولبنان ، وغرب سوريا وهضبة الجولان ، ومعظم عبر الأردن ، هي الأراضي التي ينبغي لإسرائيل أن تحتلها وتستعمرها . أما حدود العائدين من منفى بابل فتضم جنوب لبنان وجنوب غرب سوريا ، ونصف عبر الأردن شمال النقب ، وشمال شرق سيناء . وينبغي في ما يرى إليتسور ، ألّا تعد هذه الحدود ، ولا الحدود الأصغر الموصوفة في سفر حزق ايل والتي تضم نهر الأردن في الشرق ، من جملة الحدود المرشحة لأن تكون دائمة . ويذهب إليتسور إلى أن حدود حزق ايل ، التي تطابق إلى حد ما الأراضي التي تحكمها إسرائيل حالياً ، إنما كان القصد منها وصف الشكل الذي سيكون لإسرائيل في «فجر الخلاص» . وهو شكل لا بد من توسعه مع تقدم عملية الخلاص . ويخلص إليتسور إلى القول إن إستيطان اليهود العام المكرّس لميراث الأرض ، في أي جزء من الأرض التي احتلها قدماء الإسرائيليين أو وُعدوا بها ، يكفي من أجل تحويل تلك الأرض إلى جزء من «أرض إسرائيل المقدسة»(٥٩) .

أما ما تمثّله الأُصولية اليهودية من قوة سياسية واجتماعية وثقافية على الساحة الإسرائيلية ، فيمكن ملاحظته من التأييد الكبير الذي يلقاه فكر غوش ايمونيم في صفوف يهود إسرائيل . والإستعداد المتنامي للموافقة على تنفيذ عناصر أساسية في البرنامج السياسي الأصولي . ووجود المشاعر والمفاهيم التي من شأنها ، متى ما أُتيحت لها الأوضاع المؤاتية ، أن تسهّل مساعي غوش ايمونيم لحمل قطاعات كبرى من يهود إسرائيل على اعتناق أيديولوجيتها .

ويمكن ملاحظته أيضاً في التفاني الذي أظهرته نخبة طموحة ذات مركز اجتماعي مهم ،

إذ تمكنت هـذه النخب من ربط القيم اليهودية والخلاصية العليا بـأهداف الصهيـونية السيـاسية التقليدية في الإستيطان والسيادة(٦٠) .

وهكذا تمكنت غوش ايمونيم من نقل المنظور الأصولي إلى شـرائح واسعـة من المجتمع اليهودي في أرض فلسطين . وتوصلت إلى اجتذاب نفر غير قليل من الدعاة المتحمسين ، وإلى التمتع بالدعم السياسي والإداري والإقتصادي من قبل أبرز الأحزاب السياسية ، وإلى أسر مخيلة قـطاعـات واسعـة من المجتمـع اليهـودي في أرض فلسـطين . فمنـذ قيـام الحـركـة في أواسط السبعينات انخرط الألوف من الإسرائيليين في نشاط سياسي نضالي من أجل أهـداف أصوليـة . وقـد أثبتت الحركـة مرات عـدة قدرتهـا على القيام بـالعمل السيـاسي الجيد التنـظيم في قضايـا متنوعة .

وفي ضوء مدى إنتشار الدعـاة الأصوليين وأنصـارهم في صفوف العـاملين في المؤسسات التربوية في القطاع الديني . ونسبة المـواليد الفـائقة الإرتفـاع في صفوف الجمـاعات الأصـولية الرئيسية ، كمستوطني غوش ايمونيم . فالأقرب إلى المؤكد أن عـدد الإسرائيليين الـذين يخضع تفكيرهم لهذه المفاهيم ، والذين ينـذرون حيواتهم لتحقيق الأهـداف الأصوليـة ، سوف يتـزايد شيئاً فشيئاً(٦١) .

وقبل الحديث عن يهوه ، والوعـود المقطوعـة لـ (الشعب) اليهودي ، أرى من الضـروري إلقاء بقعة من الضـوء على حضارة بني إسـرائيل في أرض فلسـطين ، التي انبثق عنها مفهـومهم للألوهة ، وما يلحق بـه من مفاهيـم الشعب الخـاص ، والمختار ، والمميـز ، و . . التي تشكل قطب الدائرة في الأيديولوجية اليهودية .

بقعة ضوء على حضارة بني إسرائيل
في أرض فلسطين

أبـواق ومنابـر

لقد تذرّع الصهيونيون بجميع الوسائل للإستيلاء على أرض فلسطين . وبرعـوا في تكوين الذرائع وفي تنويعها ، صياغة وإخراجاً ، حتى لقد نفذوا إلى كل قلب وسيطروا على كل عقل . أو قـل إنهم استطاعـوا غسل كـل دماغ في الغـرب الأوروبي والأميركي . ومن هنـا كـان تجنيـد حكومات وشعوب أوروبا وأميركا جميع قواها لخدمة الصهيونية .

وأعتقد أن أكثر الذرائع الدينية التي توسلوا بها ، وما زالوا ، اثنتان : إدعاؤهم بأن فلسطين هي «أرض الميعـاد» التي خصّهم بها (الله) في مـا عقد من عهـد بينه وبين آبـائهم الأولين . وأن لهم حضارة وأمجاداً فوق هذه الأرض .

وقـد مسّت هاتـان الـذريعتـان شغـاف القلوب في أوروبـا وأميـركـا ، لأن شعـوب هـاتين القارتين ، بجميع طوائفها ومختلف نزعاتها الدينية ، اتخذت من التوراة اليهوديـة «عهداً قـديماً» في كتابها المقـدس . وهذا الكتـاب (التوراة) يؤرخ لجمـاعة بني إسـرائيل فتـرة غزوهم جنـوبي سوريا حوالي القرن الثـاني عشر ق . م . وإستيـطانهم بعض مرتفعـات فلسطين ، في عمليـات تسلّل وبعد معارك دامت قرابة قرنين بينهم وبين أصحاب الأرض . وقـد ضمّنه الأحبـار والكتّاب اليهود ، أثناء السبي البابلي ، العهود والمـواثيق المعقودة ، بـاعتبارهم ، بين (الله) وبين آبـائهم الأولين . والشرائع والقوانين التي ما فتىء اليهود حتى اليوم يمنّون بها على البشرية .

جاء في بيان «إعلان استقلال» إسرائيل (١٥ أيار ١٩٤٨) قولهم : «إن أرض إسـرائيل هي مهـد الشعب اليهودي . هنـا تكوّنت هـويته الـروحية والـدينية والقـومية . وهنـا أقام دولتـه للمرة الأولى ، وخلق قيمـاً حضـاريـة ذات مغـزى قـومي وإنسـاني . وفيهـا أعـطى للعـالم الكتـاب المقدس»(٦٢) .

وقانون التعليم الحكومي في دولة إسرائيل يدعو إلى توجيه الجهود كافة نحو «إنعاش الثقافة اليهودية في أرض إسرائيل» و «تعميق معرفة اليهودي بالقيم اليهودية» . و «تنشئته على التوراة وما قدمته للحضارة الإنسانية»(٦٣) .

والمؤتمرات الصهيونية جميعها تبنّت في برامجها ، من ضمن ما تبنت ، الأهداف والمبادىء الآتية :

ـ «تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ـ أرض إسرائيل ، عن طريق الهجرة من كافة البلدان .

ـ تدعيم دولة إسرائيل التي قامت على أساس رؤيا الأنبياء .

ـ الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال رعاية التربية اليهودية والتعليم اليهودي وتعزيز القيم الروحية والحضارية اليهودية»(٦٤) .

وقد شمل هذا التوجه في المؤتمرات الصهيونية ، إتحاد الحاخامين الاصلاحيين الأميركيين . ففي سنة ١٩٧٣ عدّل دستوره بحيث صار يشمل ، بالإضافة إلى الأهداف الأخرى ، «إغناء وتقوية دولة إسرائيل بوصفها المثل الأعلى النابض للقيم اليهودية الأزلية»(٦٥) .

وجاء في الخطوط الأساسية لحكومة مناحيم بيغن الثانية ، كما قدمها إلى الكنيست الإسرائيلي ، مايلي : «إن التعليم يرتكز على القيم الأبدية لتوراة إسرائيل . وعلى القيم اليهودية والصهيونية» ـ هآرتس ١٩٨١/٨/٦ .

هذه نماذج مما صدر في قوانين دولة إسرائيل السياسية والتعليمية . وما تُبنيّ في المؤتمرات الصهيونية والبيانات الحكومية . وجميعها تركّز على نقطة واحدة ، وتدور حول محور واحد : «القيم الحضارية ، والرسالة الأخلاقية و . . » التي امتاز بها الشعب اليهودي ، وبها تميّز عن سائر الشعوب .

ويبدو أن بناة الصهيونية من رجال السياسة هم متفقون أبداً في مقدماتهم المنطقية وتصريحاتهم العلنية على القول بأن الشعب اليهودي شيّد صروحاً من الحضارة ، وأقام نظاماً ، وأسس مملكة ، ومجداً سياسياً وأخلاقياً وعمرانياً في أرض فلسطين .

رئيس حكومة إسرائيل ، دافيد بن غوريون ، قال «كانت ثقافتنا غنية وعظيمة في أفكارها الإنسانية والأخلاقية ، وفي رؤياها للحياة الأبدية . وحتى اليوم ، وبعد مرور ألفين وخمسمائة عام ، وبعد كل التقدم والتطورات ، لم تبدأ البشرية بعد من الإقتراب من تحقيق هذه الرؤيا» . وأضاف «كان وضع الشعب اليهودي الفريد هو القوّة التي تركت أثرها في تاريخ الإنسان . وبواسطتها تمكن هذا الشعب من الإستمرار كقوة مبدعة في عالم اليوم» .

«إن الشعب اليهودي شعب صغير ، لكنه أعطى العالم حقائق ووصايا أخلاقية عظيمة .

وهو مؤمن بأن عليه أن يؤدي رسالته الرائدة إلى العالم أجمع . تلك الرسالة التي بشّـر بها جميـع أنبياء إسرائيل»[٦٦] .

وهذا الشعب ذو «الرسالة التـاريخية العـظيمة»[٦٧] . والـوضع الفـذ بين الأمم . وصاحب هـذا «التراث التـاريخي العظيم»[٦٨] ، «سـوف يصبح من جـديد شعبـاً مختاراً ، بعـد استعادتـه سيادته القومية . وينيـر الطريق أمـام العالم»[٦٩] . «ومن يـدري ؟ ! فربمـا يكون مقـدراً لمملكة يهوذا التي ستولد من جديد ، أن تؤدي دوراً عظيماً وهاماً في عالم الغد ، مثلما قـدّمت إسرائيـل للعـالم يوم كـانت تعيش فوق أرضهـا . وربما كـان مقدراً لنـا أن نساهم مـرة أخرى في مضمـار الحضا ة الإنسانية»[٧٠] .

ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، نـاحوم غـولدمـان ، قال «إن محـاولة وصف الشعب اليهودي بأنه جماعة تتميّز بالجنس والديانة أو بالوحدة الثقافية أو القومية ، يعد مـوضوعـاً غير ذي أهمية . فتاريخه الفريد قد خلق وحـدة جماعيـة فريـدة» . وأضاف «من الـواجب إن يلتقي يهود العالم في أرض فلسطين لمتابعة اسهامهم في الحضارة الإنسانية التي قدموا لهـا الكثير» . وظـل غولدمـان طوال حيـاته يـدور حول المـطلقات الصهيـونية المختلفـة من مثل «الشعب الفـريد في تـاريخ البشـرية» . و «خصـائص الشعب اليهودي الفـذّة التي تفسّر وتبـرّر الفكرة الصهيـونيـة» . ومثـل «التاريخ اليهودي الذي يعبّر عن تفرّد الشعب اليهودي» و «العبقرية اليهودية الخلاقة التي ساهمت في الحضارة الإنسانية بالشيء الكثير»[٧١] .

وكذلك ظل عضـو الكنيست الإسرائيلي مئيـر يعـري يؤكـد دائمـاً على «حضـارة الشعب اليهودي وتراثه التاريخي» . وعلى «الأثر الدائم الـذي كان للتـاريخ اليهـودي على قسم كبير من الإنسانية المتحضّرة»[٧٢] .

سياسي آخر ، سفير إسرائيل في واشنطن ، أبا إيبان ألقى محاضرة في جامعة جورج تاون (٦ نيسان ١٩٥٧) قال فيها : «إن اليهود رفعوا أقدم صوت للبشرية . وأقامـوا أقدم حضـارة لها . ولقد رسم اليهود ملامح التطور الفكري للأجيال قاطبة ، أكثر مما فعلت بلاد الاغريق» . وأضاف «لقد خطا هذا الكوكب من البربريـة إلى الحضارة في اللحـظة التي غمره فيهـا نور إسـرائيل عن طريق اشعاع الفكر اليهودي المشرق»[٧٣] .

ضابط في الجيش الإسرائيلي ، يهوشفط حركبي ، عبّر في ما كتب عن اعتزازه بـ «التفوّق اليهودي» . وبـ «القيم الثقافية التي أنماها الشعب اليهودي طيلة إقامته في وطنه الأم»[٧٤] .

مثال آخر ، الصحافي الإسرائيلي نسيم رجوان ، يعتز أيضاً بـ «الحضارة الدينية اليهـودية» التي شعّت من أرض فلسطين . وبـ «الثقافة التي أنماها بنو إسرائيل في هذه الأرض»[٧٥] .

الأمثلة كثيرة ، والإعتقاد واحد : فضل اليهودية في إرسـاء أسس الثقافـة وقواعـد الأخلاق في حضارة الإنسان .

أما بناة الصهيونية من رجال الفكر فهم مصابون بعقدة التعالي على البشرية ، والتفاخر بأنهم حملة الرسالة الرائدة في الحضارة والأخلاق إلى العالم . فموسى هس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) مثلاً يشدّد في كتابه «روما والقدس» على «العبقرية الدينية اليهودية» . وعلى «الروح القدسية التي للأمة اليهودية» . وعلى «العبقرية الخلاقة في الشعب اليهودي ، التي نبعت منها التعاليم اليهودية» . مؤكداً أن «تاريخ الإنسانية أصبح مقدساً من خلال اليهودية» . وفي نبرة معلم أو واعظ يقول «على اليهودية في الشتات أن تهتم بربط الأخلاق مع الحياة ، التي اقصيت بعضها عن بعضها في العالم المسيحي» . وعلى «اليهودية المتسامحة أن تعلّم مبادىء الإنسانية إلى المسيحية غير المتسامحة» .

ويمضي في الحديث عن «رسالة الشعب اليهودي الحضارية» لتمدين وتثقيف شعوب آسيا وافريقيا (المتخلفة) ، معتبراً «الشعب اليهودي» بمثابة «شمس الشعوب الذي أُنيطت به مهمة إنقاذ العالم وإرشاده إلى طريق الخير والسلام»(٧٦) .

ومثله كان الحاخام يهوذا ماغنس (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨) يقول إن «اليهودية ظاهرة معقدة : إنها دين وفلسفة وأخلاق وسياسة» . ثم إن لها «رسالة أخلاقية عظيمة» . ويضيف «إن كل أدبنا ووثائقنا وتاريخنا . وكذلك جميع المثل الدينية والأخلاقية والاجتماعية العظيمة المذكورة في التوراة ، تفيد في عملية التطور في الحاضر والمستقبل»(٧٧) .

وكان أحد واضعي الأيديولوجية الصهيونية ، احاد هاعام (أشر غينسبرغ) (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) يؤكد على إحياء ثقافة الشعب اليهودي وتجديدها عن طريق النخبة ، «فتتجدّد اليهودية وتُبعث لتشع مؤثراتها الروحية على العالم» كما يقول . جاء في مقالة له نشرت عام ١٩٠٩ قولة «إن الشعب اليهودي من الشعوب الخالدة ، يملك تراثاً عريقاً من الحياة الثقافية والقيم الروحية ورصيداً من الطاقة المبدعة التي لا يمكن حصرها ضمن حدود ضيقة» .

وفي تعبيره عن إيمانه بالتفوق الأخلاقي اليهودي ، قال «اكتسبت الأُمة اليهودية قوتها الروحية من إيمانها الذي لا يتزعزع برسالتها الأخلاقية» . وأضاف «إنني أُومن بتفوقنا الأخلاقي والعقلي . وأومن بأهليتنا لأن نكون نموذجاً لإنقاذ وخلاص الجنس البشري»(٧٨) .

وكان يعقوب كلاتزكين (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) يتحدث دائماً عن «القيم الروحية اليهودية» . وعن «قوة الأخلاق اليهودية» . وعن «روح اليهودية وفلسفتها ونظرتها العالمية» . وعن «روح الشعب اليهودي الأخلاقية» . وعن «القوة الأبدية للمذهب اليهودي الأخلاقي» . ويصف اليهودية بأنها «نظام أخلاقي ونظرة عالمية فريدة» . وهي «المثل الأعلى للعدالة الإجتماعية» . قال في مقالته «الحدود» إن «هدف الصهيونية هو في إستيطاننا في أرض آبائنا التي ستصبح مركزاً لروح شعبنا الأخلاقية ، والتربة القومية لتطور ثقافتنا ، والمجال القومي لتفجير إبداعنا . إن الروح اليهودية هي كنزنا القومي الفريد . ورسالتنا تكمن في نشر نور أخلاقياتنا بين جميع أفراد

الجنس البشري»[٧٩] .

وهذه الأفكار كانت المحور الذي دارت حوله مقالات نحمن سيركين (١٨٦٧ ـ ١٩٢٤) . من ذلك مثلاً قوله «كانت روح إسرائيل تشمل دائماً أفكاراً سامية وإنسانية استطاعت أن تحفظ السمو الأخلاقي لهذا الشعب» . وقوله : «إن اليهودي يرمز إلى المعركة من أجل الحقوق الإنسانية . وستخسر الإنسانية هذه المعركة إذا ما اختفى اليهودي . لأن القضاء على اليهودي يعني القضاء على الإنسانية» . وقوله «يجب مقارنة إسرائيل بمارد نائم ينهض من هوة يأسه وظلامه ويرفع رأسه عالياً إلى اللانهاية . إن وجهه محاط بهالة من أشعة الأمجاد . وهو يعرف أن مهمته هي في تطبيق العدل وإعلان الحقيقة . وقد أوكل إليه تاريخه رسالة سامية هي أن يخلّص العالم الذي صلبه»[٨٠] .

والرسالة ، بتعبير ميخا جوزف بيرديشفسكي (١٨٦٥ ـ ١٩٢١) ، هي في «نقل نورنا القديم إلى الأجيال المتلاحقة» ، «وأن تكون ثقافتنا الأخلاقية الرفيعة نوراً للأغيار»[٨١] .

وقد جاء في دفاتر دعاتهم وكُتب مفكريهم ، في الحديث عن حضارة بني إسرائيل في أرض فلسطين ما يملأ المجلدات . يقول الحاخام أبراهام إسحاق كوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) «نحن شعب عظيم . ومن الأخطاء الأساسية التي نرتكبها أننا نديرظهورنا لمصدر عظمتنا . ونتخلّى عن فكرة كوننا الشعب المختار . إننا لسنا مختلفين عن بقية الأمم ، ولنا تجربة تاريخية فريدة لا يمكن إيجاد ما يوازيها ، فحسب . ولكننا من مرتبة روحية أسمى وأعظم . وعلينا أن نعي عظمتنا» . ويضيف «إن ماضينا عظيم بما يتضمن من مثل عليا ، من حكمة وإبداع ، ومن قيم أخلاقية عظيمة قدمناها للعالم . وليس حاضرنا سوى ظل لماضينا العظيم» . ويمضي كوك في التفاخر بـ «التفوق المميز» للشعب اليهودي . والإعتزاز بما في اليهودية من «نور روحاني» و «تراث روحي» و «عظمة روحية» و «نور سماوي جاء ليدفىء العالم وينير سبله» و «روح تضم جميع القيم» . يقول «إن الله اختار هذا الشعب ليطهّر العالم من النجاسة والظلام . وإذا كانت الحضارة البشرية قد بدأت تنهار ، والروح الإنسانية أخذت تهن ، والظلام شرع يغلف الكون ، فإن جميع حضارات العالم ستتجدد بولادة شعبنا من جديد . وسترتدي كل الأديان حلة جديدة ثمينة بعد أن تنزع عنها كل ما هو موحل وغير نظيف ، وكريه»[٨٢] .

وظل كوك طوال حياته يتغنّى بـ «جلال الأمة الغابر» وبـ «ملوك إسرائيل الذين كانوا يمتازون بشمائل روحية رفيعة المستوى»[٨٣] .

وهذا الشعب بمفهوم حاييم نحمن بياليك (١٨٧٣ ـ ١٩٣٤) «أنجب رجالاً ، معظمهم من أصل متواضع : رعاة وزارعي جميز ، ولكنهم كانوا مثل اخوانهم ، يحملون عاصفة روح الله في قلوبهم ، وزلازله ورعوده في أفواههم . وكانوا في نهاية المطاف هم الذين أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العالم» .

ويتحدث بياليك عن «أمة عريقة ، لها ماضٍ عمره أربعة آلاف سنة من الثقافة التوراتية» . وهذه الثقافة هي «كنوز التراث اليهودي الكلاسيكي» . وهي «قلاعنا الروحية التي تسمو بالإنسان فوق جميع المخلوقات»[٨٤] .

«وصوت الإنسان الذي ينطلق اليوم من هذا الكتاب (التراث) ، يقول مارتن بوبر (١٨٧٨ - ١٩٦٥) ، هو وحده الحياة البشرية السائرة في إتجاه حياة سماوية واحدة تفصل الصواب عن الخطأ ، والحقيقة عن الكذب» . ويضيف بوبر «إن القيم العظيمة التي انتجناها» و «الرسالة الأخلاقية» التي حملناها «ساهمت في صنع مستقبل العالم»[٨٥] .

والفكر الصهيوني غني بالحديث عن القيم الحضارية والروحية والثقافية التي كانت لبني إسرائيل فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين في القرن العاشر ق .م . «حيث بلغوا ذروة تطورهم ، وانبثقت عنهم تلك التأثيرات الروحية والمعنوية الرفيعة القيمة إلى العالم أجمع»[٨٦] كما جاء في المذكرة التي رفعها المؤتمر اليهودي الأميركي (فيلادلفيا ١٧ كانون الأول ١٩١٨) إلى الرئيس الأميركي ولسون . فيعتقد بنو صهيون أنهم حملة الرسالة الأخلاقية في العالم . وانهم زوّدوا البشرية بكل ما تعرفه من قيم حضارية وأفكار إنسانية ومبادىء خلقية . وأنهم «شعب عريق . شعب جعلته ثلاثة آلاف سنة من الحضارة ، يوجد ديناً وثقافة وشخصية تمكنه من تقديم الكثير من أجل تقدّم الحضارة الإنسانية في المستقبل ، كما كان شأنه في الماضي»[٨٧] ، كما يقول الزعيم الأميركي الصهيوني لويس برانديس (١٨٥٦ - ١٩٤١) .

وهم يعتقدون أيضاً أنهم «حملة رسالة دينية»[٨٨] كما يقول كليمنت لسلي . و «حملة أسمى فكرة لدى الإنسانية»[٨٩] كما نصت المبادىء التي تبنّاها مؤتمر فيلادلفيا الصهيوني عام ١٨٦٩ . ولذلك فإن «دورهم في التاريخ فريد من نوعه»[٩٠] كما يرى مارتن بوبر .

ويرى مفكروهم أن الذين يعرفون اليهودية «وينشأون على تعاليمها الإنسانية وقيمها المطلقة»[٩١] كما يقول مارتن بوبر . ويرتبطون بـ «اليهودية كظاهرة ثقافية خارقة»[٩٢] كما يقول سموئيل اتينغر . وبـ «الحضارة اليهودية»[٩٣] كما يقول فيربلوفسكي . ويؤمنون بـ «مثل إسرائيل العليا»[٩٤] كما يقول الحاخام سولومون شيختر (١٨٤٧ - ١٩١٥) . وبـ «قيمها الروحية والثقافية»[٩٥] كما يقول هارون دافيد غوردون (١٨٥٦ - ١٩٢٢) ، «هم وحدهم المهيأون لقيادة الكون»[٩٦] كما يقول اليهودي الإنجليزي بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١) رئيس الوزارة البريطانية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

ويحلو للكتاب الصهيونيين أن يخلعوا صفة الأزلية على الشخصية اليهودية . وأن يؤكدوا أن الله اختصهم دون غيرهم ليكونوا معلمي الإنسانية في الأخلاق والسلوك . وأن يبثّوا في نفوس قومهم مفهوم رؤية اليهودي لنفسه على أنه «مخلوق فريد ، له طبيعة أزلية وتراث حضاري مستقل عن التراث الإنساني»[٩٧] كما يقول شمعون دوبنوف (١٨٦٠ - ١٩٤١) . وأن يزرعوا في

صدورهم الإيمان بأنهم شعب مختار ، ذو رسالة قومية وأخلاقية وحضارية ، سرمدية تتخطى حدود التطورات التاريخية وتعلو عليها . خذ مثلاً ما تحاول الكاتبة الصهيونية ترود فايس - روز مارين تأكيده في كتابها «البقاء اليهودي»[٩٨] الذي أغرق سوق الفكر في عالم الغرب . فالكاتبة تتحدث عن الآداب والأخلاق المميزة للحضارة اليهودية ، مؤكدة في حديثها أن «اليهودية حضارة ووحدانية خلقية» . وأنها «نظام من الحضارة الدينية أو الدين الحضاري» . تقول «إن اختيار اليهود لأداء رسالة معيّنة ، هي إنارة السبل للأمم ، كان على أساس عبقرية الشعب اليهودي» . وتقول في موضع آخر من كتابها «إن فكرة اختيار الله لبني إسرائيل قامت على أساس الثروة الروحية والدينية للشعب اليهودي . وأن هذا الإختيار سيكون منارة خلاص لجميع الشعوب» .

وتتحدث الكاتبة عما «في اليهودية من قيم إنسانية وفضائل خلقية ، تسمو على جميع الحضارات . . ويمكن القول إن ما حققه العالم الغربي من إنسانية أصيلة ، إنما تمّ بفضل التراث اليهودي . فالفكرة الديمقراطية ، والمثل العليا ، إنما زرعت أصلاً ، ثم أثمرت في إسرائيل القديمة . ومن ثم انتشرت إلى أربعة أركان العالم . وإذا كنت تجد في عالم الغرب نوعاً من الحس الإنساني ، والوعي الإجتماعي ، والرغبة في السلام . فمرد ذلك كله إلى التراث اليهودي الذي أعطى العالم دينه وأخلاقياته» .

ثم يتملّك الكاتبة الزهو ، ويسيطر عليها حسّ المباهاة ، والمنّ بفضل اليهودية على الحضارة الغربية في مختلف ميادين العلم والفن والأدب . ودورها في غرس أصل الضمير ومفهوم الأخلاق في تربة الحضارة . فترى أن التوراة بأشخاصها ووقائعها كانت وراء كل ما ظهر في عالم الغرب من آداب وفنون . كما أن أفكار التوراة ومثلها العليا عن الحكومة كانت هي الأساس الذي قامت عليه جميع الدساتير الديمقراطية . وبذا «يمكن القول بأن كل ما في الحضارة الغربية من أفكار ومثل عليا ، كالمساواة بين الناس ، والإهتمام بالضعفاء والمحرومين ، والعدالة والسلام . جميعها دخل عالم الغرب من التوراة . . والحقيقة أنه لا يوجد جانب واحد من العلاقات الإنسانية ؛ لم يتناوله الفكر اليهودي الديني ويضفي عليه رقة وسمواً وروحانية» .

ومثلاً آخر في كتاب «العقل اليهودي»[٩٩] لليهودي الهنغاري الدكتور رفائيل باتاي ، الذي عمل محاضراً في الجامعة العبرية بالقدس ، وفي سنة ١٩٤٧ هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث عمل أستاذاً ومحاضراً عن «حضارات الشرق الأوسط وشعوبه» في جامعات عديدة . له مؤلفات كثيرة في التاريخ اليهودي وكتب عديدة عن الشرق الأوسط نذكر منها كتابيه «صراع الحضارات» و «الإحتكاك الحضاري وعمله في فلسطين الحديثة» .

هذا اليهودي الذي يحمل شهادتي دكتوراة ، والباحث المتخصص في «تاريخ حضارات الشرق الأوسط» . وأستاذ الأبحاث العلمية . والمؤلف الذي أصدر المؤلفات العديدة في مادة

تخصّصه ، يحاول أن يقنعك ببحثه المموّه بالجد والرصانة ، المخرج بقالب الأسلوب العلمي الدقيق ، بأن اليهود هم «شعب الله المختار» و «الأمة المتفوقة في عبقريتها على الشعوب جميعها» . «وما من جماعة بشرية أخرى تستطيع الإفتخار بسجل مشابه ، ولو مشابهة طفيفة ، لسجل التاريخ اليهودي» الذي كان معلماً للبشرية منذ بدء التاريخ يزودها بالمبادىء القويمة ويدفق في وجدانها الفضائل والقيم الأخلاقية .

ثم يتحدث المؤلف عن «عبقرية الشعب اليهودي وعن تفوقه» . وينسب إلى اليهود ثلاث صفات يسميها «جوهر اليهودية» هي «الإحسان والتواضع والعطف» .

وبعد أن يسرد المؤلف بإيجاز رحلة إبراهيم من «أور» في الشمال السوري ، إلى أرض كنعان في جنوبي سوريا ، يزعم أن أسباط بني إسرائيل استطاعوا أن «يطوّروا اللغة الكنعانية لكي يتمكنوا من التعبير عن المفهومات اللاهوتية الرفيعة ، والأفكار الأخلاقية السامية ، وأن يبدعوا فيها روائع أدبية ودينية عظيمة ، تُعرف بمجملها باسم التوراة ، كان لها أثرها الفعال في حضارات الشعوب .

ويزعم المؤلف أن «العبقرية اليهودية تغطي التاريخ والكرة الأرضية» . «وما أقل المناطق المعمورة في عالم اليوم التي لم تتأثر فيها حياة الإنسان ولو بمعتقد واحد أصيل ، أو بمعتقد يقوم على العقيدة اليهودية» .

وقد لعب الأدب اليهودي الذي كان بمجمله أدباً دينياً في ذاته وفي حوافزه وأهدافه ، لعب دوراً بارزاً في خدمة الأغراض والأهداف الصهيونية . ووظّفه أصحابه في أهم ميادين الحياة ـ السياسة . فلجموا العالم ، وقادوا دعاتهم إلى النفخ بأبواقهم من على منابرهم ، أو إلى صياغة أفكارهم وأهدافهم ونواياهم بالأسلوب الذي يشاءه الأديب ، وبالصورة التي يريد .

خذ مثلاً رواية ليون أوريس «اكسودس»(١٠٠) التي كانت قيمتها في إنتشارها الواسع جداً . فقد بيع منها الملايين . وقلما بقيت مكتبة عامة لم تستلم نسخاً منها للعرض . وإنه لمن المحزن ، يقول الفرد ليلنثال(١٠١) ، أن يصرّح المرء بحقيقة مذهلة هي أن كتاب «اكسودس» هذا ربما كان ثانياً للإنجيل من حيث عدد نسخه المطبوعة ، ومن حيث التأثير الذي تركه في عقول القُراء الأوروبيين . وقد منح الدعاة العنصريون الرواية قيمة أعمق بالإصرار عليها ونشرها بصورة دؤوبة .

المهم أن المؤلف يدور حول فكرة واحدة «التفوق المطلق» للشعب اليهودي ، على الشعوب سائرها . «التفوق الحضاري والفكري والأخلاقي» . ومن هنا جاءت العبارات التي وضعها على ألسنة شخصياته معبّرة عن هذه الفكرة . من أمثلة ذلك قول إحدى الشخصيات «إن اليهود يشعرون في أرض فلسطين بأمجاد شعبهم تحيط بهم من كل الجهات» . وقول أخرى «إن إسرائيل هي منارة للجنس البشري بأكمله» .

مفكـر ، وسياسي ، وحـاخام ، وأديب ، وسـوقي ، وأعضاء مؤتمـر ، وواضعو قـانـون ، دعاة إصلاح ، و ـ جميعهم يعتقدون «أن اليهود هم الصفـوة العليا من البشـر» كما يقـول يهودا هاليفي (١٠٨٥ ـ ١١٤٠)[١٠٢] . وأن القيم الإنسانية لا وجود لهـا إلاّ في كتابهم . وأن التعـاليم الخلقية التي نادى بها الأنبياء والحكمـاء هي في صميم رسالتهم . وأن التـربية الإسـرائيلية التي ظلّلها العناية الإلٰهية ، جعلت منهم أعظم معلّمي السلوك والآداب . وأن «التوراة وضعت أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العـالم»[١٠٣] كما يقول نحمن بياليك . وأنها «تنـطوي على معنى أوسع وأشمل من الدين اليهودي لأنها لا تشتمل على التعاليم والأحكام الـدينية فحسب ، وإنمـا على القوانين وقواعـد السلوك التي تنظمّ العـلاقات في مـا بين الأفراد»[١٠٤] كمـا يقول القـاضي إسحاق كيستر .

ومثل هذه الإدعاءات الشوفينية المتطرفة يأخذ حجم ظاهرة طاغيـة في الفكر الصهيـوني . وإستناداً إلى مثل هـذه الأفكار التي يحملهـا كل صهيـوني في وجدانـه وعقله ، وضعت الحركـة الصهيونية برنامجها التربوي الذي أوضحه بعبارات مختصرة لويس فولك ، نائب رئيس المنظمـة الصهيونية في أميركا . قال «علينا أن ننشر تعاليمنا ونشاطنا التربوي بين النشء الجديـد . ونقوّي حركة الشبيبة اليهوديـة . وننشر في صفـوفها التـربية العبـرية . ونـدعم المؤسسات الثقـافية التي تستمد تعاليمها من أهدافنا ، لننشىء جيلاً مشبعاً بروحنا وأخلاقنا وتعاليمنا»[١٠٥] .

ولإنشاء الأجيال المتشبّعة بروحهم وأخـلاقهم وتعاليمهم يعمـل الصهاينـة على بعث أعتق الأفكار العنصرية ، وإحياء اعتق العـواطف الدينيـة المتعصبّة ، في محـاولة لكسـر ولاء اليهودي نحو البلد الذي يعيش فيه وجره ، في عمليـة تجميع ، إلى فلسـطين تحقيقاً للنبـوءات التوراتيـة و «تجسيداً لرسالة اليهود السرمدية التي تتخطّى حدود التطورات التاريخية وتعلو عليها»[١٠٦] كما يقول شمعون دوبنوف .

في كتيّب معد للتدريس أصدرته دائرة التوراة والتربية والثقافة التابعة للمنظمة الصهيـونية ، تأكيد على أن الشعب اليهودي المختص بمصير إلٰهي مميّز ، يختلف عن كل أمة أخرى مـوجودة أو وجدت أو ستوجد . ومن الواجب إدراك مزايا اليهود على أنها بيّنات على تفوقهم الجـوهري . وأنهـا السبب الذي من أجله اختـار الله الشعب اليهودي . أو أنهـا ناتجـة من كونهم قـد اختارهم الله[١٠٧] .

ودولة إسرائيل تحرث دائماًفي حقل التربية والتعليم لكي تجعل من يهودهـا أمة قـومية لهـا طابعها المميّز وصفاتها الخاصّة . فهي تشحن صغارها بالغرور القومي . وتقص عليهم الأعمـال (المجيـدة) التي تـزعم الأسفـار أن أجـدادهم قـامـوا بهـا . وتنشئهم على التزوّد بـالمبادىء الصهيونية . وتجعل دراسة هذه المبادىء جزءاً لا يتجزأ من عملية تنشئة الفرد اليهودي .

والمـلاحظ أن في إسرائيـل نـوعين من المـدارس : المـدارس الحكـوميـة ، والمـدارس

الدينية . وأن الهيئات الدينية لم تكتفِ بما حققته من تبنّي الدولة للمدارس التي تخضع لإشرافها ، بل عملت على نيل الاعتراف التام بنظام التعليم الديني في المرحلة الثانوية . وتمكنت عام ١٩٥٧ من حمل الحكومة على إدخال مادة جديدة في البرنامج ، وجعلها الزامية في جميع المدارس . هي مادة «الوعي اليهودي» التي تهدف إلى «تعميق معرفة اليهودي بالقيم اليهودية» . ويشتمل منهاجها على تلقين الطالب أمثولات في المعتقدات والشعائر والطقوس الدينية اليهودية . وتعليمه التوراة والتلمود . بالإضافة إلى الفكر اليهودي الديني . أي أن الغاية من إدخال مادة «الوعي اليهودي» في منهاج التدريس هي العمل على تهويد الطلاب وتنشئتهم على «القيم التربوية اليهودية» .

واليهودي يغذّى دائماً ، وقبل كل شيء ، سواء في المدرسة أم في البيت ، بأنه «شيء ما» أكثر من كونه مؤمناً بـ «شيء ما» . وبأنه يعتز بكونه يهودياً ، أكثر من إعتقاده باليهودية . ومنذ نعومة أظفاره يشرّب بأفكار عن عالم فيه «نحن» و «هم»[١٠٨] .

ولذلك فإن لدى اليهود جميعاً اقتناعاً طاغياً بمشاعر العرق المتفوق . يقول القاضي لويس برانديس «إن من يجري الدم اليهودي في عروقهم يكشفون عن تفوق معنوي أو فكري أو عن عبقرية أو موهبة خاصّة»[١٠٩] . ويقول المؤرخ الصهيوني ناحوم سوكولوف[١١٠] «إن اليهود يمثلون أنقى عرق وأعرق أمة بين جميع الأمم المتمدنة» . ويقول المنظر الصهيوني آرثر روبين «إن اليهودي يمثل نمطاً راقياً للحضارة الإنسانية» . ويرى اليهود «العنصر الأرقى حضارة» . وتزخر دراسته «اليهود اليوم» بالدفاع عن نقاء العنصر اليهودي وعن تفوقه أيضاً . ويذهب أحاد هاعام إلى أبعد من ذلك ، فيؤكد أن اليهودية سبقت النيتشوية بفكرة الرجل اليهودي المتفوق ، والذي هو غاية في حد ذاته . والذي خُلِقَ العالم من أجله[١١١] .

وانطلاقاً من موقع التركيز العرقي المتعالي ينسب الصهاينة إلى اليهود صفات عرقية مثل المحافظة على الروابط القبلية النقية ، والكمال الخلقي والتفوق العقلي «والإحتفاظ بالتفرّد التاريخي والنفساني والثقافي والديني» كما يقول سموئيل اتينغر[١١٢] .

وطالما أشار المنظّرون الصهيونيون إلى ظاهرة بقاء اليهود كل هذه القرون الطويلة ، دون بقية الأمم ، كدليل على تفوقهم وشرف عرقهم . خذ مثلاً موسى هس الذي كان ينشد إقناع اليهود بـ «نقاوة عنصرهم ، وتفوقهم على العناصر البشرية الأخرى»[١١٣] . وليو بنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) الذي كان يؤكد أن اليهود «عنصر متميّز عن باقي الشعوب»[١١٤] . وهرتزل الذي كان يتحدث عن اليهود كـ «عرق متميّز» .

وكان إعتقادهم بأنهم شعب مختار سبباً في تقوية ما في نفوسهم من نزعة إلى التعالي على سائر البشر . . والفخر بما لهم من فضل في إرساء قواعد الضمير والخلق في حضارة الإنسان .

وقد سعت الصهيونية في مستهل القرن العشرين إلى تأكيد وترسيخ مشاعر العرق

المتفوق ، مطوّرة مقولة «الشعب المختار» إلى معنى جديد ، عبّر عنه أحاد هاعام في معرض حديثه عن التكتل العنصري اليهودي ، بقوله «إن أمة إسرائيل ، كأمة متفوقة ، هي النسخة الحديثة للشعب المختار ، قادرة على أن تصبح نظاماً حقيقياً . وعندما تستقر من جديد فوق أرض فلسطين ، سوف تتاح لها الفرصة لأن تنمّي عبقريتها الخاصّة ، وتحقق رسالتها كأمة متفوقة» . وقوله في مناسبة أخرى «لكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت ومستقر حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته وإبلاغ رسالته كاملة متفوّقة»(١١٥)

وعبّر عنه ناحوم غولدمان في معرض حديثه عن «الرابطة التاريخية بين الشعب اليهودي وبين أرض فلسطين» . قال «ربما كان الدافع إلى تجميع اليهود في أرض فلسطين هو الخوف من إضمحلال المساهمة اليهودية في الحضارة الإنسانية . ومن حرمان العبقرية اليهودية الخاصّة ، التي أعطت الكثير إلى البشرية ، من التعبير عن نفسها بواسطة إبداع متميّز ، وذلك نتيجة التشتت ، أو نتيجة تحرّر قسم من الجماعات اليهودية . وقد كان هذا الدافع ضرورياً للحفاظ على العبقرية اليهودية الخلاقة ، التي ساهمت في الحضارة الإنسانية بالشيء الكثير(١١٦) .

مدرسة الأخلاق

وبعد ، فإن دعوات اليهود الصهيونيين من أرباب الفكر والسياسة ، المقتبسة من آيات أمجادهم ومفاخرهم ، تملأ المجلدات . وإن آدابهم غنية بالحديث عن القيم الحضارية والروحية والثقافية التي كانت لبني إسرائيل فترة إستيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين حوالي القرن العاشر ق . م . ثم إن قوانينهم التعليمية ومناهجهم التربوية تدور في مجملها حول المبادىء القويمة والأفكار الإنسانية والرسالة الأخلاقية التي امتاز بها الشعب اليهودي ، وبها تميّز عن الشعوب سائرها .

وجدير بالذكر أن ما اقتبسته من دناتر دعاتهم وكُتب مفكريهم ، مما يندرج في صفحة الأخلاق اليهودية ، من مثل قول يعقوب كلاتزكين «اليهودية نظام أخلاقي ومثل أعلى للعدالة الإجتماعية» ، . وقول بن غوريون «لقد أعطى شعبنا للعالم حقائق ووصايا أخلاقية عظيمة» . وقول موسى هس «إن التعاليم الخلقية المسيحية تنبع من اليهودية» ، كان أمثلة، وأمثلة يسيرة جداً مما يبوّقون به من دعوات ، وما ينشرونه على الملأ من مؤلفات . والواقع أن جميع المنظّرين الصهيونيين والمتعاطفين معهم يؤكدون بإصرار غريب أن اليهود يتميزون بصفات أخلاقية أزلية خصّتهم بها العناية الإلهية دون غيرهم . ويزعمون أن التراث الخلقي للبشرية كلها ينبع من اليهودية ، وأن الله اختارهم من دون سائر الشعوب ، وأوكل إليهم تربية الأمم على تعاليمهم وأخلاقهم . فأحاد هاعام ، زعيم الجناح الثقافي في الحركة الصهيونية ، كان يرى في اليهود «شعباً متفوقاً في جوهره» . ويرى أن إنشاء دولة يهودية في أرض فلسطين ، من شأنه أن

يتيح لليهود الإدراك بأن «رسالتهم كشعب تنطوي على كونهم أمة عليا بالمعنى الأخلاقي» . وقد عبّر عن رؤياه لدور اليهود التاريخي بكلمات تشعر وكأنه صاغها بلغة العقل والمنطق . قال «لا بد من وجود أمة واحدة ، تؤهلها خصائصها المتأصلة على نحو أفضل مما تؤهل غيرها ، للتطور الأخلاقي . ويتحكّم في خطة حياتها قانون أخلاقي يعلو على النمط الشائع للأخلاق ، بحيث تتمكن من توفير الظروف المناسبة لنمو الإنسان الأعلى الذي نريده»[١١٧] .

وفي مفهوم موسى هس أن اليهود «شعب يصنع التاريخ . وهم مدعوون مصيرياً لتحويل العالم» . «ولكي يتسنّى لهم أداء رسالتهم وجب أن يعيدوا بناء حياتهم القومية بفلسطين ، فيكتشفوا أنفسهم من جديد كشعب ، ويقدموا للعالم قدوة من ذلك الإستشراق التركيبي . لذا فإن تطوير حركة قومية يهودية لا يشكل المفتاح الجوهري لمستقبل اليهود فحسب ، بل لمستقبل البشرية جمعاء»[١١٨] .

ومثله كان يهوذا ماغنس يربط بين أرض فلسطين وبين تأدية اليهود للرسالة الأخلاقية التي حملوا مشعلها لانارة العالم . يقول «إن أرض فلسطين هي التي تمكّن هذا الشعب اليهودي الفريد من تأدية رسالته الأخلاقية العظيمة . فهو يريد العمل في تربتها لإقامة مجتمع أخلاقي ، ولتحقيق تعاليمنا النبوية العظيمة»[١١٩] .

وقد عبّر عن هذا الرابط بين الأرض وبين الرسالة ، سموئيل اتينغر ، بقوله «إن نهضة اليهود الروحية والحضارية لا تتم إلاّ في أرضهم» . وقوله «إن إنبعاث الشعب اليهودي على أرض وطنه الأصلي ، من شأنه أن يساعد هذا الشعب على حمل رسالته التاريخية ، والمحافظة على ثرواته الروحية»[١٢٠] .

أما الكاتبة الصهيونية ترودفايس - روزمارين فتعتبر بكتابها «البقاء اليهودي» نموذجاً للكتاب والمفكرين اليهود الذين دأبوا على تلقين الغرب ، في براعة واحكام ، دروساً في فضل اليهودية الفكري والخلقي على العالم . حتى استقر في الوجدان الغربي شعور بتفوق اليهود وإيمان بحضارتهم . تقول «إن اليهود شعب فريد ، وحسبهم أنهم أعطوا الغرب كل ما لديه من معتقدات دينية ومثل عليا خلقية . وأنهم ساهموا في رفد الحضارة الإنسانية بالأدب والأخلاق المميزة للحضارة اليهودية» . وترى الكاتبة أن عبقرية اليهود الإبداعية اكتشفت جميع الحقائق الإجتماعية والخلقية التي عرفها الإنسان .

وعن «الأخلاق المميزة للحضارة اليهودية» تحدث فرويد[١٢١] ، قال «لقد توصل هذا الشعب إلى إعلاء شأن القيم الفكرية والأخلاقية عظيم الإعلاء» . وتحدث موسى منوحن عن الوصايا العشر والقوانين التي أعلنت في صحراء سيناء ، «فتم بها الأساس الأخلاقي لليهودية العالمية لكل الأزمان» كما يقول[١٢٢] .

وهكذا يتحدث اليهود ومشايعوهم عن فضل اليهودية في تزويد العالم بالحقائق والتعاليم

الأخلاقية والفضائل الإنسـانية . ويضفـون صفات الأخـلاق والقيم النبيلة ، والأهمية الحضـارية على مـا يسمونـه دورهم الحضاري في تـاريخ الإنسـانية . ويـزعمون أن لهم رسالـة أخـلاقيـة عالمية . وأن مفهوم الشعب اليهودي يتضمن الإصطفاء لتأدية هذه الرسالة . ولذلك ظل المرشـد الأيديولوجي العام لغوش ايمونيم ، موسى ليفنغر ، يتحدث عن هدف اليهـودي الصالـح : تبنّي كفاح شعب إسرائيل من أجل تحقيق رسالته ، والمشاركة في هذا الكفاح»[١٢٣] . ولهـذا السبب زعم مانحو جائزة نوبل للكاتب الإسرائيلي سموئيل عجنون عام ١٩٦٦ ، أن كتاباته «تمثل رسالة إسرائيل إلى عصرنا . وتكـافح كفـاحاً رائعـاً من أجل تقـديم التراث الأخـلاقي والثقافي للشعب اليهودي ، عن طريق الكلمة المكتوبة» .

وللسبب عينه أيضاً زعم دافيد لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ، في حديثـه مع وايزمن ، أن «الحركة الصهيونية تناضل من أجـل مبادىء إنسـانية وأفكـار عظيمـة . وتمثل تـراثاً أخلاقياً رائعاً ، يكن له الغرب المسيحي أعظم التقدير»[١٢٤] .

وهذا التراث ، يقول بياليـك ، «يشمل أكثـر من ‹دين› أو ‹معتقد› . وأكثـر من ‹أخلاق› أو ‹وصـايا› أو ‹تعليم› . إنـه ليس مجرد مجمـوع لهـذه الأمـور كلهـا ، ولكنـه شيء يتخـطاهـا إلى البعيـد . إنه مفهـوم كوني لا يـدرك العقل كنهـه . فالتـوراة هي أداة الخالق . بهـا ولأجلها خلق الكون . إنها أقدم من الكون . وإنها أسمى فكرة وروح حية في العالم»[١٢٥] .

ولما كان الـوجود اليهـودي يرتبط كله خلقيـاً وإجتماعيـاً وسياسيـاً ، ومن جميع الـوجوه ، بمجموعة التراث ـ التوراة ، فمن الطبيعي أن تزخر الكتابات الصهيونيـة بنصوص وأفكـار متشبّعة بنـزعة الإستعـلاء التوراتيـة ، التي تؤكد نقـاء اليهود العـرقي ، وتميزهم الحضـاري ، وتفـردّهم الأخـلاقي . ومن الطبيعي أيضـاً أن يـأتي الفكـر الصهيـوني الـديني والسيـاسي والأدبي ، غنيـاً بـالحديث عن أمجـاد إسـرائيـل في أرض فلسـطين . هـذه الأمجـاد التي أضحت شعـاراً علنيـاً وصريحاً ، ترفعه الحركات المختلفة في المنظمـة الصهيونيـة العالميـة ، في فلسطين المحتلة ، وخارجها .

وفي محـاولتي تقصّي جذور هـذه الأمجاد ، والقيـام بعـرض تـاريخي لهـا ، لم أجـد من ضرورة للعودة إلى وقائع التـاريخ وحقـائقه ، التي تـوصل علمـا الآثار والتـاريخ إلى اكتشـافها ، والتحقق منها وإقرارهـا ، بغية الإستنـاد عليها في تـوضيح المـلابسات التي تحيط بنشـأة التصوّر الصهيـوني لهذه الأمجـاد . ولم أعمد إلى تحليـل التصريحـات التي يـطلقهـا زعمـاء إسـرائيـل والصهيونية في كل إتجاه ، ويرفعونها في كل وجه . وإنما قـادني البحث في طبيعة هـذه الأمجاد ودلالاتها إلى الرجوع نحو مصادرها الأولى وأصولها القديمة . فالعودة إلى الجذور ، في محاولة لتفهّم عقلية اليهود القدماء ، بين العقليات والمعتقدات التي عاصروها ، تقود إلى التعـرّف على مدى الإنسجام بين عقلية اليهود القـدماء ، وبين عقليتهم الحـاضرة التي غـذّتها نـزعة التفـوق ، والشعور بالتميز عن الآخرين ، والميل إلى تحديد الذات بكلمات التفرّد والإختيار .

وإذا ما كانت معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أصوله ، فإن العودة إلى التاريخ اليهودي القديم ، ضرورية لتفهّم شخصية اليهودي ، والتعرّف على طبائعه المكتسبة . لأن فكر اليهود الديني والتاريخي متأصل في نفوسهم . والوجود اليهودي الصهيوني يرتبط فكرياً وسياسياً واجتماعياً وحضارياً بما يسمى التراث اليهودي .

فسبيلنا إذاً إلى فهم الأمجاد الأخلاقية والحضارية التي يدّعيها بنو إسرائيل ، سيكون بالرجوع إلى التراث الذي خلّفوه . وأول مصادر هذا التراث هو التوراة .

والتوراة هي الكتاب المقدس الأول لدى اليهود . ينشئون صغارهم على التزود بما فيها من توجيه وأحكام وشرائع . ويجعلون دراستها جزءاً لا يتجزأ من عملية تنشئة الفرد اليهودي . ولذلك طبعت حياتهم بطابعها الخاص . واختلطت مفاهيمها بحياتهم ، في مختلف جوانبها الفكرية والروحية والعملية والإجتماعية . ثم كانت الموجّه في مختلف المعاملات والمناسبات ، وفي كل ما يتصل بمجالات التعبير الذاتي في حياة الفرد اليهودي .

وهم أبداً يزهون بأنفسهم ، ويمنّون على البشرية ، أن كانت لهم هذه التوراة . ولذلك تبدأ نظرتنا إلى اليهود من خلالها ، في محاولة أمينة لرؤيتهم على حقيقتهم ، لأن التوراة مرآة أُسقِط عليها الخلق اليهودي بما كتب اليهود عن أنفسهم بأنفسهم .

الدروس الأخلاقية الأولى

يطلع علينا محرّر التوراة (العهد القديم) في مستهل السفر الأول ، بخبر مفاده أن «الرب قال لأبرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى الأرض التي أريك . . فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه ، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا ، والنفوس التي امتلكا في حاران (في الشمال السوري) ، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان (في الجنوب السوري) .

فأتوا إلى أرض كنعان . . وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . .

وحدث جوع في الأرض . . فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرّب هناك . . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته . فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أُختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك .

فحدث لما دخل ابرام مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً . ومدحوها لدى فرعون . فأُخِذت المرأة إلى بيت فرعون . فصنع فرعون إلى ابرام خيراً بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال . سفر التكوين ١٢ : ١ ـ ١٦» .

يبدو هنا أن محرّر التوراة أراد أن يوحي للقارىء أن إبراهيم هو الذي كيّف الأوضاع ورتّب

لأمور بحيث أصبح من الممكن أن يسمع فرعون بأن في مصر رجلاً غريباً وأن معه امرأة «حسنة جداً» . فيرسل فرعون في طلبها ، ويكون لزوجها خير بسببها . وفي قول ابرام لامرأته «قولي إنك أختي» تشعر وكأنه يرسم خطة لما يأمل أن يتم . فهو يصرّح سلفاً بقصده «ليكون لي خير بسببك» . وتوقّع الخير دليل على الرغبة فيه قبل حدوثه . والرغبة في الخير شيء . والخوف من الشر شيء آخر .

والملاحظ أن محرر السفر يروي ، مع خالص التأييد وفرط الإعجاب ، كيف تخلّى ابرام طواعية عن شهامته وكبريائه . وتحلّل من رجولته عن طيب خاطر ، لقاء أجر من بقر وغنم وجمال ، إذ قدّم زوجته لفرعون وأغراها على قبول التضحية بعرضها . وقد رضخت زوجته لمشيئته .

ويضيف المحرر «فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام . فدعا فرعون ابرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ . لماذا قلت هي أختي ، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ؟ . والآن هوذا امرأتك . خذها واذهب . وأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له . تكوين ١٢ : ١٧ ـ ٢٠» .

ترى ! ما ذنب فرعون لكي يتعرّض هو وبيته لضربات عظيمات ؟ . والرجل لم يغتصب امرأة ولم يرتكب إثماً ، بل أخذ امرأة جميلة غير مرتبطة على علمه بزوج . ثم إنه كان لطيفاً معها ومع أخيها ابرام ، فصنع إليه خيراً بسببها . وقبل ابرام الخير شاكراً . فلِمَ الضربات العظيمات ؟ .

هذا هو مثال العدل الذي يفهمه اليهودي . فإذا قصد أن يكون مخطئاً عن عمد . وأخطأ غيره من دون قصد . فالذي يتحمّل العواقب السيئة هو البريء لا المذنب .

ابرام استهان بعرض زوجته لا صوناً لحياته من خشية توهمها ، بل طمعاً في كسب رجا أن يناله من جراء ذلك . ثم تراه ينجو . وتقع الضربة بفرعون ، لا لشيء إلّا لأنه أكرم وفادة هذا الغريب عن أرض مصر (ابرام) ، وخلع عليه النعم ، إذ تزوج من أخته ساراي بطيبة قلب ونقاء سريرة .

وكأني بمدوّني التوراة الذين جعلوا من إبراهيم سفيهاً ومن سارة بغيّاً ، أرادوا أن يعطوا مثالاً لأحفادهم كي يستعينوا بنسائهم لنيل مآربهم . ووضعوا القصة ليبيّنوا لبني جنسهم أن اليهودي مهما كذب ومهما ارتكب من منكرات وأتى من موبقات ، فجريرة ذنبه ستقع حتماً على غيره ، بينما يكسب هو الخيرات .

ومن حقنا أن نطرح هنا أكثر من سؤال : كيف استطاع ابرام أن يصل إلى ما توقّعه ، مستنداً إلى علة افترض حصولها وهو يدخل مصر لأول مرّة ؟ . ولماذا قصد ابرام الهارب من جوع أرض كنعان أن يمتطي راحلته ويحتقب امرأته مولياً وجهه شطر العاصمة المصرية ؟ .

ولماذا ساقه محرّر السفر إلى مدينة الملك ؟ . لقد كان في طريق ابرام منتجعات كثيرة لو كان يبغي الإنتجاع . وكان لكل مدينة في طريقه أمير إقطاعي يمكن أن يكون بطل الرواية المدوّنة في هذا السفر . ولكن يبدو أن الراوي شعر بأن القصة لا تكتسب بريقها إلاّ إذا كان بطلها فرعون ، ولا أحد غير فرعون .

وجدير بالذكر أن ابرام ارتحل من أور في الشمال السوري إلى أرض كنعان في جنوبي سوريا ، ثم إلى مصر ، في وقت كانت شعوب هذه المناطق تعيش في إطار مقاييس أخلاقية وإنسانية سامية ، ونظم حضارية غاية في السمو والرقي . وكانت القوانين المرعية في الشمال السوري ناضجة ومهيأة ليجمعها أمورابي على ذلك الأثر الخالد الذي يحمل صورته وهو يتلقاها من الإله . ولقد أبرزت تلك القوانين حكمها الصارم على من يقترف جريمة الزنا من الزوجين . وفي مصر كان جزاء من ينتهك عرض امرأة حرة أشد العقوبات . وغني عن البيان أنهم لم يصلوا إلى تلك المقاييس الأخلاقية والنظم الحضارية بين عشية وضحاها . وإنما كان وراءها أجيال من التجارب والتطور .

ولا يفوتنا أن الفترة التي يفترض أن ابرام عاشها في مصر ، تقع في عصر الأسرة الثانية عشرة ، الذي يعد من أزهى العصور في تاريخ مصر القديمة . فقد كانت همة الملوك في هذا العصر عالية تتطلع إلى عظائم الأمور : من توحيد الدولة إلى القضاء على الأعداء المتربصين في الداخل والخارج ، فإلى النهوض بعمران البلاد ، وغير ذلك من الأعمال العظيمة التي لا يزال العالم يقف بدهشة واحترام بالغين أمام ما حققته هذه الأعمال في ميادين الحضارة والعمران .

ويبدو أن ابرام استمرأ التجربة مع فرعون ، وقرّت عينه بما أفاءت عليه الرحلة الميمونة . ولهذا ثنّى برحلة أخرى مماثلة في ملابسات مماثلة . فانحدر بامرأته صوب الجنوب السوري حتى حطّ رحاله في مملكة جرار الفلسطينية . يقول محرر التوراة «وتغرّب إبراهيم في جرار وقال عن سارة امرأته هي أختي . فأرسل أبو مالك ، ملك جرار ، وأخذ سارة . فجاء الرب إلى أبي مالك في حلم الليل وقال له : ها أنت ميّت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل . ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها . فقال يا سيد : أأمة بارة تقتل ؟ . ألم يقل هو لي إنها أختي . وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي ؟ . بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا . .

فبكر أبو مالك ودعا إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ . وبماذا اخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ؟ . أعمالاً لا تعمل عملت بي . وقال أبو مالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء ؟ . فقال إبراهيم : والحقيقة هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة . وحدث لما أتاهني(*) الله من بيت أبي أني قلت لها : في

(*) لاحظ الكذب والتضليل الذي يمارسه إبراهيم أو محرّر السفر . فهو يقول هنا «أتاهني الله من بيت أبي» . وكان قد قال في الفصل الثاني عشر من سفر التكوين إن الرب هو الذي أمره بالذهاب إلى أرض كنعان .

كـل مكان نـأتي إليه قـولي عني هو أخي . فـأخذ أبـو مالـك غنماً وبقـراً وعبيداً وإمـاء وأعطاهـا لإبراهيم ، وردّ إليه سارة امرأته ، وقال : هوذا أرضي قدامك . اسكن في ما حسن في عينيك . وقال لسارة : إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة . ها هو لك غطاء عين من جهة كـل ما عنـدك وعند كل واحد . فأنصفت . تكوين ٢٠ : ١ ـ ١٦» .

أول مـا يتبادر إلى أذهـاننا سؤال : هـل كانت سـارة أُختاً لابـرام من أبيه ، كمـا قال لأبي مالك ؟ . إن سفـر التكوين لم يصـرّح بذلـك أثناء سـرد قصة ابـرام . فقد ذكـر محرر السفـر أن ساراي هي كنة تارح وامرأة ابنه ابرام (تك ١١/٣١) . فلو كانت ابنة تارح لكان من باب أولى أن يذكر هذه الصلة التي هي أقرب من صلة الكنـة . إلاّ إذا رغب محرر السفـر أن يخفي ذلك على سبيل التشويق وربط العقدة هناك ليحلها هنا .

وسؤال آخـر : هل لنـا أن نتصوّر مبلغ الإغـراء في سـاراي وهي التي جـاوزت الخـامسـة والستين ، على روايـة التوراة ، لمـا تغربت مـع زوجها في جنـوبي سوريـا وفي مصر ؟ . وهـل أذهلت بجمالها الأخّاذ ملوك مصر وفلسطين ، فبذلوا لزوجها (باعتباره أخاهـا) ما جعله يغـدو من ذوي الثروات وأصحاب النفوذ والجاه ؟ . ثم ، هل كان فرعون مصر أو ملك جرار الفلسطيني ، رجلاً همجياً يغتصب النساء من بيوتهن لمجرد كونهن جميلات ؟ .

والمـلاحظ أن قصة سـارة مع كـل من فرعـون وأبي مالـك ، كانت مثـار جدل طـويل بين الكتّاب ورجال الـدين في مختلف العصور . ولم يجـد من دافعوا عن مـوقف إبراهيم ، كمـا هو مدوّن في سفر التكوين ، إلاّ أن يقولوا بأن الـواقعتين بين سارة وبين كـل من فرعـون وأبي مالـك كانتا لمصلحتها ومصلحة زوجها .

ولو سألت وتساءلت : ما هي المصلحة التي حققها ابـرام وسارة من هـاتين الحادثتين ؟ . لجـاءك الجواب فـوراً : بقر وغنم وفضـة وذهـب ، وأرض واسعة يختـار ابرام منهـا مـا حسن في عينيه .

ثم تكرّرت الروايـة للمرة الثـالثة . وفي هـذه المرة كـانت البطلة رفقـة كنة سـارة ، زوجة إسحـاق بن إبراهيم . وكـان البطل أبـو مالـك ملك جرار أيضـاً . يقول محـرّر السفر «وكـان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم . فذهب إسحاق إلى أبي مالك ، ملك الفلسـطينيين ، إلى جرار . . وأقـام في جـرار . وسـألـه أهـل المكـان عن امـرأتـه ، فقـال هي أُختي . . وحدث إذ طالت له الأيام هنـاك أن أبا مـالك ، ملك الفلسـطينيين ، أشرف من الكـوة فـرأى إسحاق يـلاعب رفقة امـرأته . فـدعاه إليـه وقـال : إنمـا هي امـرأتـك . فكيف قلت هي أُختي ؟ . ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحـد الشعب مع امـرأتك فجلبت علينـا ذنباً . تكوين ٢٦ : ١ ـ١٠» .

هذه صورة من أخلاق شعوب سوريا القديمة : يأثم الفرد فيتحمّل قومه الإثم . إذاً فالرجل يتحاشى الإثم من أجل الشعب كله . كان هذا الاعتقاد سائداً بين شعوب سوريا الطبيعية . فما كان يصيب الشعب من كوارث طبيعية كالزلازل والسيول والأوبئة ، كان يُعزى للشر الذي يصنعه الشعب في عيني إلهه .

فحين ظهر الرب لأبي مالك في الحلم وتوعّده بشأن سارة ، قال له أبو مالك : «يا سيد . . أأمة بارة تقتل ؟» . ثم قال لإبراهيم «بماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ؟» .

وفي الحادثة الثانية قال أبو مالك لإسحاق «ما هذا الذي صنعت بنا ؟ . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً» .

هذه القيم والدوافع التي لا تعرف قانوناً مكتوباً ، والتي كانت تنظّم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية في جنوبي سوريا . وتكسب النظام الإجتماعي إطراداً وثباتاً ، أصبحت مع الزمن طبيعة ثانية للفرد ، إذا جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار . وذلك هو أصل الضمير والحس الأخلاقي الذي يفرق بين الإنسان وبين الحيوان . والضمير في مراحل تطوره العليا يصبح وعياً إجتماعياً ، أي شعور الفرد بأنه ينتمي إلى جماعة معينة ، وأنه مدين لها بشيء من الولاء والإحترام .

ومثل هذه القيم والدوافع كان سمة تميّز الشعب الفلسطيني في جنوبي سوريا . ويعبّر عن مفاهيم أخلاقية عالية . فخطيئة الأفراد ، باعتبارهم ، تجلب «القتل على الأمة» ، كما قال أبو مالك لإبراهيم . و «تجلب الذنب على الشعب» كما قال لإسحاق . ولذلك فهو يعاتب إبراهيم بلوم يقرب من التأنيب : «ماذا فعلت بنا ؟ . أعمالاً لا تعمل عملت بي» . ويعاتب إسحاق بمثل هذه اللهجة التي تعبّر عن شعور المطعون بإيمانه بالقيم الأخلاقية السامية في نفسه : «ما هذا الذي صنعت بنا ؟» . أي لماذا حاولت خداعنا بهذه الصورة التي لم تتشكّل خطوطها وألوانها ؟ . وبهذا الأسلوب الذي لم يتجسّد على الواقع ؟ . وبشعور من سلم من ارتكاب الذنب، ونجا من الإنزلاق في الحفرة التي أُعدت له ، قال «لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً» . ولكن ، امتنع الإضطجاع فامتنع الذنب ، فكانت الراحة النفسية في صدر أبي مالك للذنب الذي سلم من ارتكابه ، وللحفرة التي نجا من السقوط فيها .

ومن جهة بني إسرائيل ، فإن هذه الحوادث تدل على مدى استخفافهم بالقيم الأخلاقية التي كان لها قيمة كبرى في حياة المجتمعات في تلك العصور ، كما بدا في تصرّف أبي مالك إزاء إبراهيم وابنه إسحاق . هذه القيم التي لم يُقم بنو إسرائيل لها شأناً ، ولم يرعوا لها عهداً . ولذلك جاء تاريخهم حافلاً بالفضائح والمنكرات ، مشحوناً بأبشع ما يسيء إلى المثل والقيم والأخلاق ، مزحوماً بحوادث ارتكاب الآثام والموبقات في سبيل الوصول إلى غاياتهم .

والمؤسف إلى حد الإختناق أن ما تنطوي عليه هذه القصص من إيحاء ضمني بإباحة استخدام الزوجة اتقاء لضرّ متوّهم، أو ابتغاء لكسب مرجو ، قد أفسح أمام اليهود ، منذ أقدم العصور ، مجالاً فريداً لتطبيق القاعدة اللاأخلاقية : تبرير كل وسيلة تحقق الهدف ، دون اعتداد بالقيم الخلقية أو احتفال بالفضائل الإنسانية . أي أن الغاية تبرّر الواسطة . أياً كانت الغاية ، وكيفما كانت الواسطة .

وكأن مدوني التوراة (العهد القديم) ما خلعوا على أنبيائهم وملوكهم أبشع الصور وأقذرها ، إلاّ ليُبيحوا لأنفسهم ، ولأتباعهم من بعدهم ، ارتكاب المعاصي والرذائل ، والاستخفاف بالقيم والأخلاق ، في سبيل الوصول إلى غاياتهم . وإذا كان القدوة قذراً سافلاً ، فلا لوم على المقتدي أن يكون كذلك .

وكأنهم قصدوا من تدوين هذه الحوادث المنكرة في أسفارهم المقدسة ، أن يتركوا دروساً (أخلاقية) للأجيال اليهودية ، ممهورة بتواقيع مقدسة ، في مقدمتها توقيع رب الجنود (يهوه) ، وإلى جواره تواقيع الآباء الأولين ألكبار لبني إسرائيل ، وهم في عرفهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهذه الدروس هي التي حدّدت لليهودي شخصيته ، وهي التي رسمت معالم العقلية اليهودية .

وإذا انتابك شعور من الرثاء والإشفاق . وحاولت تبرير مواقفهم بقولك مثلاً : إن العوز المادي والروحي قد استعبدهم ، فكان هذا الإنهيار الأخلاقي الرهيب . فإن ما ينقض تبريرك هو واقع الجماعة الذين لم يستطيعوا ، أو لم يريدوا ، تحرير أنفسهم من العوز المادي والروحي ، لأنهم لم يشاؤا جبل الرغيف بعرق الجبين . ولم يقصدوا إلى بناء حضارة روحية بالحرف الواعي والمعرفة الإنسانية . ولماذا الهمّ والتعب ما دام إلههم قد وعدهم بأكل ثروة الأمم والتأمّر على أمجادها ؟ . (أشعيا ٦١ : ٥) .

النموذج الأخلاقي

ونستطيع أن نجد في قصص من جاء بعد إبراهيم من الآباء ، لا سيما يعقوب ، فنوناً لا تبارى في حبك صنوف الحيل وحوك ألوان من الختل والخداع . من قبيل ذلك ما رواه محرر سفر التكوين من سيرة يعقوب . فمن قبل أن يولد صوّره لنا محرر السفر جنيناً ماكراً حاول أن يخرج من بطن أمه (التي كان في بطنها توأمان) قبل شقيقه . ولما أخفق وفاز عيسو بالبكورية ، لحق به ممسكاً بعقبه . ومن هنا «دُعي اسمه يعقوب . تكوين ٢٥ : ٢٦» .

وعندما شبّ وبلغ صوّروه لنا تجسيداً حيّاً للمكر والدهاء وسعة الحيلة . ونسيجاً فريداً في المخادعة والتلوّن والنفاق . يقول محرر السفر إن عيسو أتى من الحقل يوماً وقد أعياه التعب . وكان يعقوب في البيت قد طبخ عدساً . «فقال عيسو ليعقوب : أطعمني من هذا الأحمر . . فقال

يعقوب : بعني اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت ، فلماذا لي بكورية ؟ . . وباع بكوريته ليعقوب . تكوين ٢٥ : ٣٠ ـ ٣٣» بصحن من طبيخ العدس .

لقد استغل يعقوب حاجة أخيه إلى الطعام ، فساومه على بكوريته ، على الرغم من أن ترتيب الولادة أمر لا يجوز أن يكون موضع مساومة بيعاً أو شراء . وقد تكون العبرة من هذه القصة تشجيع الوصولية والإنتهازية حتى بين أقرب الأقربين . واستغلال حاجة الغير إلى القليل لإغتصاب حقهم في الكثير .

وكأن هذه القصة ، قصة فوز يعقوب ببكورية أخيه عيسو ، مقابل صحن من طبيخ العدس ، لم ترق لبعض محرري التوراة . فصاغوها بأسلوب آخر ، فيه من المقدمة والعرض والتشويق ، ما يجعل القصة أكثر إكتمالاً من تلك الروايات التي كان أبطالها أبوه إسحاق وجده إبراهيم . وفيها من شخصية يعقوب صورة نسجت خطوطها وألوانها من المكر والخداع والغش والحيلة ، ما يمكن القارىء العادي من الوقوف بيسر وسهولة على الصفات المستحبة عند الفرد اليهودي .

يقول المحرر «وحدث لما شاخ إسحاق وكلّت عيناه عن النظر ، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له . . أخرج إلى البرية وتصيّد واصنع لي أطعمة . . حتى تباركك نفسي قبل أن أموت . تكوين ٢٧ : ١ ـ ٤» .

ويبدو أن رفقه زوجة إسحاق وأم التوأمين كانت واقفة على الحديث . وكانت تؤثر بحبها ابنها يعقوب (أو قل إن محرر التوراة هو الذي رتّب ذلك لأن يعقوب 'إسرائيل' سيكون أباً ومؤسساً لشعب) . فلما انصرف عيسو إلى الصيد ، أسرعت إلى يعقوب واتفقت معه متآمرة على أن ينتحل شخصية أخيه ويتقدم إلى أبيه بطعام تعدّه أمه على أنه طعام الصيد الذي جاء به أخوه ، معتمدين في ذلك على كلال بصر إسحاق .

يقول محرّر السفر «وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو . . فكلمت يعقوب قائلة : خذ جديين من المعزى ، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب . فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لأمه رفقة : هوذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسّني أبي فأجلب على نفسي لعنة لا بركة . فقالت له أمه : لعنتك علي يا ابني . . فذهب وأحضر إلى أمه . فصنعت أمه أطعمة . . وألبست يدي يعقوب وملاسة عنقه جلود جديي المعزى . . فدخل يعقوب إلى أبيه وقال : أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني . إجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك . فقال إسحاق : أسرعت يا ابني . فأجابه يعقوب : إن يهوه إلهك قد يسّر لي . فقال إسحاق ليعقوب : تقدم لأجسّك ، أأنت هو ابني عيسو ، أم لا ؟ . فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه ، فجسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه . . فباركه» . وكانت البركة ما اعتاد يهوه أن يبارك بها رجاله الخلّص أو شعبه

المختار . قال «ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل . كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك . تكوين ٢٧ : ٥ ـ ٢٩» .

ثم جاء عيسو بالصيد «فصنع أطعمة ودخل إلى أبيه وقال : ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك . فقال له إسحاق : من أنت ؟ . فقال : أنا ابنك ، بكرك عيسو . فارتعد إسحاق إرتعاداً عظيماً جداً ، وقال . . قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . وقد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً . فقال عيسو : ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ . باركني أنا أيضاً . ففتح اسحق فاه ، وكانت بركته لعنة . قال «بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش ، ولأخيك تستعبد . تكوين ٢٧ : ٣١ ـ ٤٠» .

ترى ! أما كان بوسع الأب المخدوع أن يسحب بركته ممن اغتصبها زوراً وغدراً ، ويمنحها لصاحب الحق فيها ، أو على الأقل منحها للإثنين على قدم المساواة ؟ . خاصّة وأن الأب كان قد عقد العزم على مباركة عيسو . ثم إن حصول يعقوب على بركة لم يكن يستحقها ، ألا ينطوي ضمناً على مكافأة الحيلة ، مهما تبلغ من الخسّة . والإقرار لصاحبها بحقه في الحصول على مغانمها؟ .

هذا الفصل من سيرة يعقوب غني في الدلالة على الأخلاق غير السامية التي كانت ليعقوب . والأعمال غير الفاضلة التي قام بها . وإذا كان هذا هو سلوك الأب الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، فهل يمكن أن يكون هناك بعد ذلك شيء محرم في سلوك ذلك الشعب ؟ . ألا توحي هذه القصة بأن الرغبة هي الفيصل الوحيد في ما يصدر عن الإنسان من سلوك . وأن المصلحة ، المصلحة الذاتية وحدها ، هي الدافع الذي يتحرك الإنسان بمقتضاه ؟ . ألا توحي بأن الكذب والغش والخداع والخيانة والتآمر والإستهانة بالغير ، واستباحة حقوقهم ، تضحي جميعاً من المباحات في سبيل تحقيق الأهواء والمطامع الشخصية ؟ .

كتب المؤرخ جيمس فريزر معلقاً على أخلاق يعقوب ، فقال «كان يعقوب مثالاً للتاجر السامي الحاذق اللبق الوافر الحيلة ، الذي يحرص على المكسب . وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق والمهارة . ولا يتردّد في اختيار الوسائل غير الأخلاقية التي يبزّ بها منافسيه ، ويتفوق بها عليهم . فصفات الجشع والمكر التي تميّزت بها شخصية يعقوب تكشف عن نفسها في الحوادث المبكرة في حياة يعقوب . أعني تلك الحيل التي سعى عن طريقها لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه في الإرث ، بعد ما سلبه من بركة أبيه . أما الوسائل التي سعى يعقوب عن طريقها إلى سلب أخيه الأكبر من حقوقه فكانت ببساطة مواقف حادة من المؤامرات والعمل بالوشاية والخديعة ، تدل على طبعه الملتوي وخلقه النهّاز . فقد انتهز الفرصة في بداية الأمر مستغلاً جوع أخيه واشترى منه حقه في الوراثة مقابل وقعة من الثريد . ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيه ، واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، وتظاهر لأبيه الكفيف أنه عيسو . وبذلك

اغتصب بركة أبيه التي هي من حق أخيه . يُضاف إلى ذلك أن استعداد يعقوب السريع لتقبل الخدعة التي دبّرتها أمه ، يبرهن على أن ما كان يعوقه في خداعه لأبيه ليس هو الشعور بالود والإحترام ، وإنما هو الإفتقار إلى الحيلة السريعة الناجحة .

وهكذا يتضح أن بيت إسحاق قائم كل ما فيه على النفاق والخداع والغدر : ولد تحبه أمه ، وقريب إلى قلبها . وآخر يحبه أبوه ، وأثير لديه . فتعمل الأم بكيد النساء ومكرهن لصالح ابنها القريب إلى قلبها . وتنتصر في سباق أخلاقي تحركه الأنانية النسائية ، وتحدو به الخديعة والسلوك المنحرف .

وربما قصد محرّر السفر من تصوير يعقوب بهذه الطبائع اللاأخلاقية ، ترسيخها في الكيان النفسي والإجتماعي لليهود ، بوصفها العناصر التي لا يتحقق النجاح إلاّ باتقانها وتطبيقها في التعامل مع الآخرين .

وقد يثير هذا التصرّف ، في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي ، بعض الإستهجان . وقد لا يثير هذا الإحساس . فقد يميل بعض الناس إلى الثناء على هذا التصرّف الذي يدل على المهارة والذكاء اللذين مكّنا صاحبهما من الانتصار على شخصية لا تتسم بغير الصدق والغباء .

ولكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، أصبح الرأي العام السائد يقف في صف الصادق الغبي ، ويولي ظهره لمثل هذا الإنسان الماهر الحذق . ذلك أن التجربة أثبتت أن أي تصرّف من هذا النوع ، مهما تكن درجة ذكاء صاحبه ، وبعد نظره ، لا يسيء إلى الأفراد فحسب ، وإنما يسيء إلى المجتمع ، لأنه يخلخل رباط الثقة المتبادلة بين الناس . تلك الثقة التي تربط وحدها بين جماعة الناس في وحدة واحدة .

ومثل هذا العمل البغيض لا يصيب الشخص البريء بضربة في ظهره فحسب ، وإنما يسيء إلى المجتمع كذلك ويهبط بمستواه الأخلاقي ، حيث انه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعثر عليها[١٢٦] .

ولم يكتفِ محررو السفر بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادوا وأكدوا له هذه الصفات في تعامله مع خاله لابان . فقد كان من الطبيعي أن تؤدي خديعة يعقوب لأخيه عيسو ، إلى حدوث جفوة بين الأخوين . فقد تألم الأخ الأكبر نتيجة إحساسه بالخدعة التي وقع في حبائلها . وربما دفعته طبيعته العاطفية إلى التفكير بالإنتقام من أخيه الأصغر ، الذي تمكن بحذقه وحيلته من سلبه حقه في الإرث . أما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه المخدوع . وشاركته في هذه المخاوف أمه التي دبّرت له الخدعة ونفّذتها . ولذلك استقر رأيها على إبعاد يعقوب من وجه عيسو ريثما يهدأ غضب الأخير وتسكن نفسه المتوترة .

يقـول محرر السفـر : ولما «حقـد عيسو على يعقـوب . تكوين ٢٧ : ٤١» «دعـا إسحـاق يعقوب وباركـه وأوصاه قـائلاً : لا تـأخذ زوجـة من بنات كنعـان . قم اذهب إلى فدان ارام (في الشمال السوري) وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخي أمك . تكوين ٢٨ : ١» . فـذهب يعقوب إلى بيت خـاله ، ورعى غنم خـاله ، وتـزوج من راحيـل وليّئـة ابنتي خـالـه ومن جاريتيهما بلهة وزلفة ، فولدن له إثني عشر ابناً ، شكلوا في ما بعد ما يُعرف بأسباط إسرائيل .

وبعد إنقضاء ما يقرب من عشرين عاماً قال يعقوب لخاله لابان : «أعـطني نسائي وأولادي الذين خدمتـك بهم ، فأذهب . . فقـال له لابـان : عيّن لي أجرتـك فأعـطيك . . فقـال يعقوب (بمكر ودهاء) لا تعطني شيئاً . إن صنعت لي هذا الأمر أعود أرعى غنمك واحفظها : أجتـاز بين غنمك كلها اليـوم ، وأعزل منهـا كل شـاة رقطاء وبلقـاء وكل شـاة سوداء بين الخـرفان ، وبلقـاء ورقطاء بين المعزى ، فيكون مثل ذلك أجرتي . . كل ما ليس أرقط أو أبلق بين المعزى ، وأسود بين الخرفان ، فهو مسروق عندي . فقال لابان (بطيبة قلب ونقاء نفس) ليكن بحسب كـلامك . فعزل في ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء . كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ، ودفعها إلى أيدي بنيه . وجعـل مسيرة ثـلاثة أيـام بينه وبين يعقـوب . وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية .

فـأخذ يعقـوب قضبانـاً خضراً من لبنى ولـوز ودلب ، وقشر فيهـا خـطوطـاً بيضـاً ، وأوقف القضبان التي قشرها في الأجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب . . فتـوحّمت الغنم عند القضبان وولدت مخططات ورقطاً وبلقاً . . فـاتسع الـرجل كثيـراً جدا . وكـان له غنم كثير وجمال وحمير . تكوين ٣٠ : ٢٨ ـ ٤٣» .

كـان يعقوب سعيـداً جداً ، فقـد استطاع بفضـل اجتهاده ومكـره معـاً ، في غضـون هـذه السنوات ، أن يحتفظ بوفرة كبيرة من قطعان المـاشية في حـظيرتـه ، بدلاً من أن يحتفظ بهـا في حظيرة خاله . وكان يرى أنه ما زال قـادراً على أن يغنم أكثر من ذلـك . ولكنه شعـر بأنـه اعتصر الرجل الكهل بما فيه الكفاية . وأن الوقت قد حان ليعود بهذه الثروة إلى أبيه المتغـرّب في أرض كنعان . وربما شعر بالملل ينتابه من هذه الخدمـة الطويلة في بيت خـاله . وكـان قد تنـاهى إلى سمعـه «كلام بني لابـان قائلين : أخـذ يعقوب كـل ما كـان لأبينا . وممـا لأبينـا صنـع كـل هـذا المجد . تكوين ٣١ : ١» .

عـزم يعقوب على الـرحيل ولكنـه خاف من اعتـراض خالـه على رحيله بالقسم الأكبـر من قطعان المـاشية . فقـرر في شيء من التريّث ، وفي محـاولة لتجنّب المشـاحنات العـائلية ، أن يهرب في أثناء الليل . ولكي يقوم يعقوب بتنفيذ هذه الخطة ، كان يتحتّم عليه أن يـطلع زوجاتـه على هذا السر . ويبدو أنه فكّر طويلاً في مسألة استقبالهن لهذا النبأ . وربما اعترتـه حيرة من ردة الفعـل في وقعه عليهن ، وأثـره في نفوسهن . ولهـذا فقد فـاتحهن بهذا المـوضوع في شيء من

الرفق واللين والممالأة . فبدأ حديثه معهن بنغمة متملّقة ، واصفاً شعوره بالخوف من تغيّر سلوك أبيهن معه . «فدعا راحيل وليئة إلى الحقل وقال لهما : أرى وجه أبيكما ليس نحوي كأمس وأول من أمس . وأنا لست مذنباً معه . فإن قال الرقط تكون أُجرتك ولدت كل الغنم رقطاً . وإن قال المخططة تكون أُجرتك ولدت كل الغنم مخططة . فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني . . وقال لي ملاك الرب في الحلم : يا يعقوب . . قم اخرج من هذه الأرض . . وارجع إلى أرض ميلادك . تكوين ٣١ : ٤ ـ ١٣» .

يعقوب قنّع وجهه ببراءة مصطنعة ، وضمّخ كلامه بورع زائف ، حين قصّ على زوجاته خبر مناصرة الرب له . وكيف حوّل إليه قطيع أبيهن . ولكي يخلع على المؤامرة مزيداً من الحبكة ، أخبرهن ، والوميض يشع من عينيه ، بأن ملاك الرب ظهر له في الحلم ، وأمره بالرحيل إلى أرض ميلاده .

وهنا لم يجد يعقوب من ضرورة لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدين الإستعداد للموافقة على خطته . وأعلنّ في صراحة يمازجها الريب بأنهن يضعن أنفسهن في خدمته . بل انهن رفعن أصواتهن بالشكوى إليه من أن أباهن المبذّر قد ضيع الثروة التي كان قد قبضها ثمناً لزواجهن . ولم يبق لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن . ولذلك فقد أبدين الإستعداد للتنكّر لأبيهن ، ومرافقة زوجهن في الطريق التي اختار ، وإلى الأرض التي يريد . «قالت راحيل وليئة : ألنا أيضاً نصيب وميراث في بيت أبينا ؟ . ألم نحسب منه أجنبيّتين لأنه باعنا وقد أكل أيضاً ثمننا ؟ . إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا. تكوين ٣١: ١٤» .

«فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال ، وساق كل مواشيه . . ليجيء إلى إسحاق أبيه إلى أرض كنعان . . وخدع يعقوب قلب لابان الأرامي ، إذ لم يخبره بأنه هارب . . فسعى لابان وراءه مسيرة سبعة أيام . . وعندما أدركه . . قال له : ماذا فعلت وقد خدعت قلبي وسقت بناتي كسبايا السيف ؟ . لماذا هربت خفية، وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيّعك بالفرح والأغاني ، بالدف والعود ، ولم تدعني أقبّل بنيَّ وبناتي . تكوين ٣١ : ١٧ ـ ٢٨» .

إن العبرة المستمدة من هذه القصص هي تشجيع الإنتهازية حتى بين أقرب الأقربين . واستغلال طيبة الناس وصفائهم للإيقاع بهم في حبائل من المكر والخداع . فعندما أطلع يعقوب خاله على نيته بالعودة إلى أبيه ، كان يضمر نيّة أخرى هي نهب جميع مواشي هذا الخال . ولكن خاله الطيب القلب النقي السريرة ، خلع طيبته ونقاءه على ابن أخته ، ونظر إليه بمرآة نفسه قائلاً : عيّن لي أُجرتك فأعطيك . ولكن هل يرضى يعقوب بالأجرة ؟! . لا ، لأنه ينوي الإستيلاء على مواشي خاله كلها . فانتهز في خاله روحه السموح ونفسه النقية الصافية ، وتقنّع بالمكر والدهاء ، عارضاً على خاله فكرة البقاء راعياً لاغنامه بشرط أن يعطيه خاله في المستقبل كل المرقط والأسود من الغنم والماعز . وقبل لابان الأرامي بطيبة قلبه وصفاء نفسه بهذا

الشرط ، قائلاً لهذا الماكر الخدّاع : ليكن بحسب كلامك .

وأخيراً ، وبعد أن تمّ له نهب قطعان خاله ، ساق مواشيه وحمل نساءه وأولاده ، ملتحفاً جنح الليل ، بينما كان خاله بعيداً في الحقول .

ورغم تصرفات يعقوب الشائنة وسلوكه الماكر المنحرف ، ونيّته التي لا تبيّت غير الكيد والغدر ، لحق به خاله مسيرة سبعة أيام ، وقال معاتباً إياه بنبرة تشعر وكأن صاحبها مطعون الكرامة بإيمانه بالقيم الفاضلة ، من المحبة إلى الاخلاص فإلى الصفاء النفسي والنقاء الروحي . قال «لماذا هربت خفية ، وخدعتني ، ولم تخبرني حتى أشيّعك بالفرح والأغاني ، بالدف والعود . ولم تدعني أقبّل بنيّ وبناتي ؟» .

لكن هذا الكلام النبيل الطافح من صدر مجروح الإيمان بالعلاقات الإنسانية النبيلة ، لم تستقبله أذن يعقوب ، لأنه كان مشغول الفكر بالقطعان التي نقلها ، بالمكر والإحتيال ، من حظيرة خاله إلى حظيرته . ومغتبط الجوانح بهذه الثروة ـ السرقة التي سيكون لأخيه عيسو نصيب منها مقابل صفحه عنه وتناسيه لأعمال الغدر والمكر التي أوقعها به يعقوب .

يعقوب انتهز كل الفرص ، وسلك مختلف السبل ليسطو على حقوق أخيه وعلى ثروة خاله . وكان مستعداً أن يستعمل جميع أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه . فهو ، كما يبدو بأقلام بعض الدارسين ، رجل مادي ، ذكي ، لبق . وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفي ما به من نوازع وصفات لا أخلاقية ، مثل الخداع والغش والمكر والكذب والخيانة والتآمر واستباحة الحقوق . . الطباع التي ورثها أبناؤه من بعده . وكأن يعقوب أراد أن يترك للأجيال القادمة من قومه دروساً في استغلال الظروف لتحقيق مأرب ذاتي ، ولو كان بالاحتيال على الأب والأخ والخال . وبذلك كان أول من وضع قواعد الفلسفة المكيافيلّية التي تبرّر كل وسيلة لتحقيق الهدف ، دون اعتداد بالقيم الخلقية أو بالفضائل الإنسانية ، وذلك قبل أن ينادي نقولا مكيافيلّي بهذه الفلسفة النكراء بعشرات القرون .

في تعليقه على هذا الفصل من سيرة يعقوب ، يقول المؤرخ ج . سميث «الواقع أن هذه الحوادث في حياة يعقوب ، التي تعبّر عن طواياه السيئة ونواياه الخداعة وجشعه المطلق ، وتسلّحه بالمكر والتلوّن ، هي نماذج مما تحفل به حياته التي استوت على الغدر وازدهرت بفضله . وهو بدوره يعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق أتباعه . وعلى هذا تعتبر تسميتهم باسمه ميراثاً دقيقاً»(١٢٧) .

وبعد ، أعتقد أن سيرة يعقوب (إسرائيل) تشكل فصلاً من فصول «تاريخهم الفريد» كما ينعته ناحوم غولدمان . وهذا «التاريخ الفريد» هو «القاسم المشترك لجميع اليهود . . ولذلك فنحن لا نتنكّر لتراث الآباء والأجداد»(١٢٨) كما يقول ميخائيل سيلزار . أو لـ «هذا التراث

التاريخي العظيم»[١٢٩] كما ينعته بن غوريون . «ولا يمكن تصوّر دولة يهودية دون أن تجسّد هذه الدولة أنماطاً تاريخية عريقة في القدم . وهي الأنماط التي حافظت على هوية الشعب اليهودي ، وتألفت منها شخصيته التاريخية الفريدة»[١٣٠] كما يعبّر سيلزار .

والحقيقة أن يعقوب (إسرائيل) هو النمط الفذ الذي حافظ على هوية الشعب اليهودي . وأن دولة إسرائيل الحالية تجسّد سيرة يعقوب (إسرائيل) وأخلاقه . هذا النمط التاريخي العريق في القدم . والعريق في المكر والدهاء وسعة الحيلة والتلوّن والنفاق والإنتهازية . . وإلى آخر الصفات القبائح التي تشعّ من تصرفاته وسلوكه كما رأيت .

والمؤسف إلى حد الإختناق أن مثل هذه الأنماط التي كان ينبغي لها الإدانة والاستنكار ، قد استحق من محرري التوراة ، ومن الذين كُتبت لهم التوراة ، الفخر بها والتمجيد لها .

ويبقى السؤال : كيف يفخر بنو إسرائيل بالإنتماء إلى صاحب هذه السيرة ، والتخلّق بأخلاقه ؟ . وكيف يقبلون أن تكون طباع جدهم في المكر والخديعة وسعة الحيلة ، هي بعض عناصر الطبع الإسرائيلي ؟ .

والسؤال الأهم : كيف تمجّد أو تقدس الشعوب المسيحية هذا التاريخ المشحون بأبشع ما يسيء إلى المثل والقيم والأخلاق ؟ .

مجزرة الغدر

ويبدو أن طباع النفاق والغدر والطوية السيئة المشحونة بالخديعة والمكر التي تخلّق بها يعقوب (إسرائيل) وبها تسلّح ، أورثها لأولاده أيضاً طباعاً وسلاحاً . من ذلك مثلاً أن يعقوب بعد هربه من وجه خاله في فدان ارام ، وصل إلى «مدينة شكيم التي في أرض كنعان . . فنزل أمام المدينة ، وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته . تكوين ٣٣ : ١٨» . وفي أحد الأيام ، يقول محرّر السفر ، «خرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض . فرآها شكيم بن حمور الحوّي ، رئيس الأرض . فأخذها واضطجع معها . وتعلّقت نفسه بدينه . وأحب الفتاة ولاطفها ، فكلم شكيم حمور أباه قائلاً : خذ لي هذه الصبية زوجة . . فخرج حمور أبو شكيم إلى يعقوب ليتكلم معه . . قائلاً : شكيم ابني تعلّقت نفسه بابنتكم . اعطوه إياها زوجة وصاهرونا . تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم . اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها . ثم قال شكيم لأبيها ولأخوتها : دعوني أجد نعمة في أعينكم . فالذي تقولون لي أعطي . كثّروا عليّ جداً مهراً وعطية ، فأعطي كما تقولون لي ، واعطوني الفتاة زوجة . فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر . . قالوا لهما : لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل أغلف . . إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر ، نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ، ونسكن معكم . . فحسن كلامهم في عيني حمور وفي عيني شكيم . ولم يتأخر الغلام أن يفعل

الأمر (الإختتان) لأنه كان مسروراً بابنـة يعقوب . . فـأتى حمور وشكيم ابنـه إلى باب مـدينتهما وكلما أهل مدينتهما قـائلين : هؤلاء القوم مسـالمون لنـا ، فليسكنوا في الأرض ويتجـروا فيها ، وهوذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم . نأخذ لنا بناتهم زوجـات ، ونعطيهم بنـاتنا . . بختننـا كل ذكر كما هم مختونون» .

ويضيف محرر السفر «فاختتن كل ذكر . . وحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متـوجعين ، أن ابني يعقوب شمعون ولاوي ، أخوي دينة ، أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن . وقتلا كل ذكر . وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف ، وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا . ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة : غنمهم وبقرهم وحميرهم ، وكـل ما في المـدينة ومـا في الحقل أخذوه . وسلبـوا ونهبوا كـل ثروتهم وكـل أطفالهم ونسـاءهم وكل مـا في البيوت . فقـال يعقوب لشمعون ولاوي : كدّرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض الكنعانيين والفـرزيين ، وأنا نفر قليل ، فيجتمعون عليّ ويضربونني ، فأبيد أنا وبيتي . تكوين ٣٤» .

فمذ وصل يعقوب (إسرائيـل) إلى أرض كنعان قـادماً من فـدان ارام ، ونصب خيمته أمـام مدينة شكيم ، راح يعمل على تنفيذ الخطة التي انتهجها بنو إسرائيل من بعده في استيلائهم على الأرض : المجازر الوحشية وحروب الإبادة . فقد شردت ابنة يعقوب (دينة) وارتمت في أحضان شاب نابلسي ، فاتخذ بنو إسرائيل من ذلك ذريعـة للفتك والإبـادة . وحين فارت في صـدورهم مـراجل الحقـد والإنتقام ، واستبـدت بهم رغبة ضـارية بـالقتـل والإبـادة ، راحـوا يحيكـون في طواياهم السيئـة خطة الإفنـاء . فاستغلوا طيبـة الحويين الكنعـانيين وصفاء نفـوسهم ، «وتكلموا بمكر» . رسموا الخطة وقاموا بالتنفيذ : «قالـوا لا نعطي أختنـا لرجـل أغلف . . فحسـن كلامهم في عيني حمور . . ولم يتأخـر الغلام أن يفعـل الأمر ، لأنـه كان مسـروراً بابنـة يعقوب» وهكـذا اختتن كل ذكر في المدينة نزولاً عند رغبة شكيم .

وبينما كان أهل «شكيم» يئنون وجعـاً ، وقد أنهكتهم جـروح الإختتان ، انقض عليهم بنـو إسرائيل يعملون السيف في رقابهم ، ويمسحون بيوتهم نهباً وإحراقاً . غدروا بهم بسبب عاطفـة غرامية ، نبيلة وإنسانية وصافية . وصفاؤها كـان في حضور حمـور وابنه شكيم فـوراً إلى يعقوب مظهرين كل حسن نية وموافقين على كل شرط .

وهجومهم في الليل هو تجديف على الأمانة والمحبة . وكفر بكل القيم الإنسانيـة النبيلة . أمـا غضب يعقوب فلم يكن للعـرض (المثلوم) ، ولا لغدر أولاده بـأهـل «شكيم» . وإنمـا كـان لشعوره بأنه نفر قليل . وخشي من إجتماع الكنعانيين عليه وضربه .

والسؤال : ما هذه الغيرة التي اشتعلت بها نفوس بني إسرائيـل ؟ . وأين كانت هـذه الغيرة في قصة سارة مع فرعون ، ثم مع أبي مالك . وقصة رفقة مع أبي مالك أيضاً ؟ .

مع إبراهيم وإسحاق طمس ثقيل على الشعور بالمهانة ، ومع بني يعقوب تحفّز غريب انتصاراً للشرف . وكأن الأخت مع إبراهيم وإسحاق لا يثير إذلالها الغيرة . أما مع بني يعقوب فإن الوضع قد اختلف . وما اختلف إلاّ لاختلاف الظروف . فهناك كانت المنفعة منوطة بكبت عوامل المروءة والغيرة . أما هنا فإن المنفعة منوطة بتحريك هذه العوامل ، والتذرّع بها .

ثم ان ما حصل بين أمير شكيم وبين دينة ليس بالأمر الغريب ولا هو بالعار . فقد كانت العادة المتبعة في ذلك العصر تقول : إذا عاشر رجل فتاة غير متزوجة ، وجب عليه التزوج منها . وهذا ما أكدته شريعة التوراة ذاتها . تقول «إذا وجد رجل فتاة عذراء ، غير مخطوبة . فأمسكها واضطجع معها ، فوجدا ، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة ، وتكون هي زوجة له . سفر التثنية ٢٢ : ٢٨» .

وشكيم كان على استعداد للقيام بأحكام هذا القانون أو الشريعة . والأكثر من ذلك أنه لم ينتظر مجيء أب الفتاة إليه طالباً تنفيذ أحكام هذه الشريعة ، وذلك بإعطائه خمسين من الفضة ، والزواج من الفتاة . وإنما بادر فوراً إلى أبيه راجياً أن «يأخذ له هذه الصبية» لأنه «أحبها وتعلقت نفسه بها» . ثم أن دينة كانت راضية بفعلتها ، بدليل عدم رجوعها إلى بيت أبيها . وبالفعل فقد «خرج حمور أبو شكيم إلى يعقوب ليتكلم معه» فقال «صاهرونا . . تسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم . اسكنوا وتملكوا» . وانبرى شكيم قائلاً بصفاء قلب ورغبة في التقرب منهم «دعوني أجد نعمة في أعينكم ، وأنا مستعد أن أعطي ما تطلبون . كثّروا عليّ مهراً وعطية» .

في هذا الكلام فيض غامر من الشعور الكنعاني بأن الإنسان أخو الإنسان حيثما كان وأياً كان جنسه ولونه ومعتقداته . شعور كنعاني بأن المحبة أسمى رابط بين الإنسان والإنسان . وكأن هذا الشعور أيقظ في نفس الكنعاني طاقات إنسانية خيّرة ذوات فعالية كبرى في المجتمع والحياة . هي مشاعر المحبة والبذل ومساعدة الآخرين . وفي أحيان كثيرة عواطف التضحية من أجلهم . وغرس في صدره وعياً راسخاً بنفسه وبمجتمعه . وأرسى في ضميره مفهوم سلوك أخلاقي فتح أمامه أبواباً جديدة أطل منها على الحياة والعالم . وبذلك تكشّفت نوازعه عن أعراف خلقية سامية ، فكان تعاونه مع الآخرين قائماً على الصدق والمحبة . وكان تعبيره عن مشاعره وعواطفه نحو الآخرين بعلاقات ود هي في رأس كل تقدم حضاري .

وإذا كان من الثابت أن الإنسان يستقي جل واجباته الأخلاقية من الوسط الاجتماعي الذي يحيا فيه . وأن أحكامه الأخلاقية العفوية تعكس في بادىء الأمر تعاليم البيئة الإجتماعية على نحو دقيق وأمين . فمن الثابت أيضاً أن الإنسان في هذه الأرض توصّل في وقت مبكر من مراحل وعيه إلى مفاهيم أخلاقية سامية في مدلولاتها ، مستوحاة من ملاحظاته وعمق وعيه وتجاربه المتوارثة والمكتسبة . فكان رائداً في الإيمان بالقيم والمفاهيم والمعطيات الإنسانية الفاضلة . يضع بسلوكه الأخلاقي مبادىء حضارية سامية تبني إنساناً جديداً مطهراً من أرجاس الفردية

والأنانية ومن جميع الآفات الاجتماعية . ويؤدي دوره التوجيهي والتعليمي العظيم في المجتمعات الإنسانية بصدق ومحبة وعزيمة ، وكأن في صدره نزوعاً طامحاً أبداً للوصول إلى قواعد ومنطلقات إجتماعية إنسانية تحول الصراع الإجتماعي المستمر بأشكال وأساليب مختلفة ، إلى مجهود إيجابي ، يتعاون فيه أبناء هذه المجتمعات بدوافع أخلاقية طبعية يسودها التعاطف فيجعلها أقوى من جميع القوانين التشريعية التي تضعها الأنظمة في الحضارات الحديثة .

ومن الطبيعي أن التعاون الأخلاقي الطبعي هو أهم نشاط إنساني داخل المجتمع . وهو الأساس الذي تقوم عليه المدنية . أو قل يستحيل قيام المدنية بغير التعاون الأخلاقي الطبعي . وإذا ما تحقق هذا التعاون بين أفراد بيئة معينة أو في ما بين الشعوب ، فإنه يسخر إمكانات إنسانية هائلة لبناء مجتمع أفضل . ومن المستحيل أيضاً بناء المجتمع الفاضل ما لم تنصهر قلوب وعقول أبنائه في بوتقة التعاون الطافح بالمحبة القائم على الصدق والإخلاص . فتقوى على البغض والحقد وتتسامى على الرذيلة والشر .

وشعور الحويين الكنعانيين بالإخاء الإنساني ، مفهوم أخلاقي راق . يعبّر عن طبيعة نظرتهم النزّاعة إلى الإرتقاء والتسامي . وقد دفع بهم إلى طلب الكمال الإجتماعي بالمساواة «تعطوننا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، لنصير شعباً واحداً» .

وهذا الشعور حضارة كاملة . حضارة قاعدتها المجتمع ، وأسسها القيم الإجتماعية والأخلاق الفاضلة . وغايتها تحقيق القيم الإنسانية . حضارة لحمتها المحبة وسداها التعاون الشامل لتحسين ظروف الحياة أو لتحقيق القيم الفاضلة في الحياة .

والطريف أن مفهوم الحق الطبيعي القائم على المساواة بين مختلف الشعوب وشتى الأجناس ، نبت وأينع وأثمر في هذه الأرض . فقد كان الإنسان في المجتمعات السورية القديمة يتميز باعتباره الكبير لحقوق الإنسان الطبيعية . ويرى أن الروابط التي تجمع بين إنسان وآخر هي روابط إجتماعية ـ إنسانية ، وليست روابط دينية طائفية أو عرقية جنسية . وأن الإختلاف الحضاري أو الجنسي لا يقلل من قيمة الإنسان كإنسان . وان الإنسان في مفهومهم أخو الإنسان حيثما كان وأياً كان لونه وجنسه ومعتقداته . وبذلك أخذوا بمبدأ الأخوة الإنسانية ، فقالوا بأن الإنسان خلق على صورة الإله . وعليه فلا فرق بعرفهم بين إنسان وآخر ما دام الجميع متساوين ببنوتهم للإله ، أو بأبوة الإله لهم .

وهكذا رفعوا العلاقات البشرية فوق روابط العرق والدين ، وفوق الحواجز الكثيفة من العادات والتقاليد أو من الطقوس والأسرار الغيبية . محققين في عقيدتهم جوهر العقائد العالمية .

ومن الطبيعي أن الاخاء في البيئة الواحدة كالإخاء بين الشعوب ليس مفهوماً أخلاقياً راقياً

وحسب ، وإنما هو حضـارة كاملة ، ونـظرة طبيعية لـلإرتقاء والتفـوق . فالاخـاء يدفـع للتسامي وينشر التعاطف في الوجود الإجتمـاعي . وفي الاخاء تتـدفق ينابيـع الرحمـة . والرحمـة أسمى درجـات المحبة . فعندما تـرحم أخاك الضعيف مثـلاً ، فتنقذه من عـوز وتكسو عـريه الجسـدي بالارجوان ، وعريه الروحي بالمعرفة ، تكون محبتك أقوى من الموت الذي يمسي نتيجة حتمية لنواميس الطبيعة ، وليس نتيجة مفتعلة لقوى بشرية يحميها ظلم المجتمع أو بداوة الحقد .

وشعور الإنسان بالاخاء يـدفعه إلى طلب الكمـال الإجتماعي بـالمساواة . والمسـاواة بين مختلف الأفراد في البيئة الواحدة أو بين شتى الشعوب المتجاورة أو التي تفصـل بينها المسـافات والأبعاد ، هي أسمى ما يصبو إليه المفهوم الأخلاقي ، وأرقى ما تصل إليه الحضارة الإنسانية .

المساواة في العدالة ، والعدالـة هي المحبة المـطلقة . وحمـور حين يقول لبني إسـرائيل «الأرض قدامكم . اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها» . لا يمنّ عليهم بـالمساواة ، وكـأنه يشعـر بأن المساواة ليست هبة ، وإنما هي فرص متكافئة للكد والعمل ، فالنجاح والتفوّق . ولا يتفضل عليهم بالمحبة والاخاء ، لأن الشعور الكنعاني بأن الإنسان أخو الإنسان وبأن المحبة أسمى رابط بين الإنسان والإنسان ، كان ينبض في صدره . والمحبة سمة الإنسـان المتفوق . والاخـاء صفة الإنسان الكبير النفس . والمحبة والاخاء حرّرا الإنسان الكنعـاني في الأرض السوريـة من الفزع ومن الاستعداد للحرب .

أما بنو إسرائيل ، فلعنصريتهم الحاقـدة ولشعورهم بـالضعف والعجز وضـآلة الشـأن ، لم يخالط مشاعرهم اخاء أو محبة ، ولم يعرفوا الرحمة . وإنما تفجّرت في صدورهم براكين الحقد والبغض . فاستغلوا صفاء الفـطرة وبراءة النفـوس عند أهـل شكيم ، «وتكلموا بمكـر» . طالبين أكثر ممـا يـطلبه القـانون ، ورغم هـذا فقد سرّ أهل «شكيم» بـالموافقـة ، وهان الـطلب الصعب لديهم ، أملاً بـأن تمحى الفوارق بين المـواطنين وبين المهاجـرين ، مؤكدين استعـدادهم لتقبّل هؤلاء المهاجرين (بني إسرائيل) أخوة لهم في وطنهم .

كان حمور بتصرفه أمام بني إسرائيل، يبدو وكأنه رجل أخلاق ، يضع بسلوكه في المجتمع تشريعاً إنسـانياً فـاضلاً . لأنـه بهذا التصـرّف كان يصـدر عن أخلاقيـة طبعية يسـودها التعـاطف فيجعلها أقوى من جميع القوانين التشريعية الوضعية . أخلاقية طبعيـة تسهر على التعـاون وتدفـع للاسهام في البناء الإجتماعي . وكأنه كان يعي بأن الأخـلاق ليست تعاليم تبشيـرية ، أو فـرائض يجب إتباعها ، وإنما هي الملازم العفوي لكل مجتمع .

وقد حاول حمـور ، بمعطيـاته ومفـاهيمه وأهـدافه الإنسـانية النبيلة ، حـاول أن يخلق من الإسـرائيلي إنسانـاً جديـداً في معطيـاته ومفـاهيمه . ولـذلك أنت تحس في قـوله لبني إسـرائيل «الأرض واسعة الطرفين . اسكنوا وتملكوا لنصير شعباً واحـداً» صورة عن النفس الكنعـانية التي حاولت أن تحتضن بني إسرائيل وتصير معهم «شعباً واحداً» . وتشعر أن كلامه يعكس جانباً مهماً

من جـوانب نفسية الكنعـانيين الذين قـرنوا محبتهم بـالرحمـة والأخاء . وهـذا الشعور بـالاخـاء الإنساني الحقيقي فجّر في صدورهم ينابيع الرحمة .

ولقد عزم الكنعانيون الذين كانت أبوابهم مشرعة لجميع الأفكار والأديان والتشريعات التي تعنى بشؤون الإنسـان ، عزمـوا بتسـامحهم وانفتـاحهم على إفسـاح المجـال في أراضيهم لهـذه القبيلة المنغلقة على نفسها في قوقعة التعصب المتحجرة والعنصرية الحاقدة . وحاولوا كما يبـدو منْ سلوك وتصرّف أهل «شكيم» ، أن يقبلوا هذا الجسم الإسرائيلي الغريب، وأن يطوّروه وينمّوه ويؤنسنوه . ولكن بني إسرائيل كما بـدا من خلال إقـامتهم في أرض كنعان ، رفضـوا كل تفـاعل وتآخ وانصهار وانسجام ، ورفضوا مرافقة الشعوب في مراحـل تطورهـا ، وتحررهـا من بدائيـاتها وخرافاتها . وفي تفجيرها كنوز إنسانية الإنسان الكامنـة في أعماق نفسـه ، والنازعـة إلى التآخي والمحبة والمساواة .

وخلاصة القول إذا كانت يوميات الفرد الإسرائيلي ووقائع وجوده تعبّر عن تجاوبه مع نزواته وميـوله الخـاصّة . فـإن يوميـات الفرد من شعـوب الأرض كانت تتحـول إلى قيم ودوافـع سلوك تتوارثها الأجيال مع ما تتوارث من صفات أخلاقية حيوية .

باب الأخلاقيات في تاريخ الأمة المتفوقة

قال يهوه (الرب) مخاطباً بني إسرائيل ـ شعبه المختار «هوذا قد جعلتك شارعاً للشعـوب ، رئيسـاً ، اشعيا ٥٥ : ٤» . «أسكب روحي على نسلك ، وبـركتي على ذريتـك . اشعيـا ٤٤ : ٣» . «وجعلتـك نوراً لـلأمم . اشعيا ٤٩ : ٦» . «عليـك يشرق الـرب ، ومجده عليـك يرى . فتسير الأمم في نورك ، والملوك في ضياء إشراقك . اشعيا ٦٠: ٣» .

وقد أكّد يهوه (الرب) أو الحبر الذي حـرّر شريعـة يهوه ، كعـادته في التـأكيد ، على هـذه الأمجاد التي خصّ بها مختـاريه ، حتى استقـر في الوجـدان اليهودي إيمـان عميق بتفوق اليهـود على غيرهم من الأمم والشعوب . وبعظمة الرسالة التي كُلّفوا بحملها إلى العالم . ولـذلك فـلا غـرابة أن يـزعم الصهاينـة أن لهم رسـالة عـالمية . وأن يعتقـدوا بأن مفهـوم ‹الشعب اليهـودي› يتضمن الاصطفاء لتأدية هذه الرسالة . ومن هـذا المنطلق جـاءت استراتيجيـة العمل الصهيـوني تستهدف ، أول ما تستهدف ، تثقيف يهود العـالم وإعدادهم نفسيـاً للهجرة إلى فلسـطين تحقيقاً للنبوءات التوراتية التي ألحّ عليها وكررها الكتاب المقدس . و «تجسيداً لرسالة اليهود السرمديـة التي تتخطّى حدود التطورات التاريخية وتعلو عليها»[١٣١] ، كما يقول المؤرّخ الصهيوني شمعون دوبنوف .

وقد استطاعت الحركة الصهيونية ، عبر مداخل إعلامية متنوعـة ، وفي عمل دؤوب خـلال عشرات السنين ، أن تخلق رأياً عاماً مندفعاً وراء الأهداف الصهيونيـة المتمثّلة في (عودة) اليهـود

إلى (أرض أسلافهم) ، لحمل مشعل (الرسالة الأخلاقية) الذي رفعوه للأمم يوم كان لهم (مملكة وأمجاد) في هذه الأرض .

ويأتي من يبوّق في أذنيك بمختلف وسائل النشر وعبر جميع أجهزة الاعلام ، بأن الشريعة اليهودية «وصايا أخلاقية عظيمة»[١٣٢] . و «نظام أخلاقي»[١٣٣] . و «تعاليم إنسانية»[١٣٤] . و «قوانين تسيّر مختلف جوانب الحياة»[١٣٥] . و «مثل عليا خلقية»[١٣٦] . و «قيم أخلاقية عظيمة»[١٣٧] . وأن «اختيار بني إسرائيل كان لحمل أسمى فكرة لدى الإنسانية»[١٣٨] . و «تزويد البشرية بكل ما تعرفه من قيم ومبادىء وفضائل»[١٣٩] . و «تطهير العالم من النجاسة والظلام»[١٤٠] . ولرفع مشعل «المثل العبرية العليا ، ورسالة إسرائيل التي تحمل معها خلاص العالم»[١٤١] .

والواقع أن ما يشيعه الصهيونيون عن «السمو الخلقي للشعب اليهودي»[١٤٢] . وعن «المبادىء القويمة التي نادى بها الأنبياء والحكماء في العهد القديم»[١٤٣] . وعن «فضل اليهودية في إرساء قواعد الضمير والخلق في حضارة الإنسان»[١٤٤] ، يملأ المجلدات .

بديهي أن الشرائع تستقي أحكامها عادة من أخلاق الناس . ومن أنماط حياتهم وتقاليدهم وأعرافهم . ومن ظروف المجتمع السياسية والإجتماعية . ونادراً ما تكون الشرائع والقوانين إبتداعاً جديداً كاملاً . وإنما هي ترتكز دائماً على أساس عادات قائمة . وعلى آراء وتقاليد وأعراف شعبية ، تتلاءم قليلاً أو كثيراً مع القانون أو الشريعة ، بحيث تكون العقول مهيأة لتقبلها .

والشرائع الدينية هي التعبير عن التعبير عن جوهر الشعوب . تعبير عكسه في التاريخ المقدس ، الآباء ـ الأنبياء ـ الملوك ، في شكل تنفيذ مثالي لجوهرهم . ففي شريعة أي شعب ، وفي تاريخه المقدس ، يكشف هذا الشعب عن طبيعته الداخلية ، عن جوهره . واعتقد أن شريعة موسى تكشف عن طبيعة الشعب اليهودي بوضوح . وتعبّر عن جوهره خير تعبير . فما هي الخطوط العامة في هذه الشريعة ؟ . وكيف تعبّر عن جوهر الشعب اليهودي ؟ .

لا يهمنا التعليق على الجو السحري الذي هيأه موسى لفرض وصاياه (الغموض مثلاً) . وعلى إمعانه في استغلال ظواهر الطبيعة الصاخبة في سيناء (هزيم الرعود ، وميض البروق ، وسريان الضباب الدخاني بين شعاب الجبال) . وعلى بعض أعمال الشعوذة التي انتهجها (وضع البرقع على وجهه) . وعلى التعابير المختلفة التي صيغت بها هذه الوصايا في سفري الخروج (٢٠) وتثنية الاشتراع (٥) .

وإنما يهمنا التوقف ، بشيء من التروّي والتقويم ، عند هذه الشريعة التي تتردّد على كل لسان وفي كل شفة في سائر المجتمعات التي تدين بالمسيحية . وأود التوقف بشكل خاص عند الوصايا الثلاث «لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن» ، التي يتشرّبها كل طفل مسيحي في الشرق

والغرب مع نشأته في أحضان البيت أو على مقاعد الدراسة .

فموسى ، أو يهوه الموسوي ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، لم يكن يقصد بقوله «لا تقتل» النهي عن إرتكاب جريمة القتل بحق الناس . وإنما يهدف إلى نهي اليهودي عن قتل اليهودي فقط . أما أفراد بقية الشعوب فهو يأمر بقتلهم وذبحهم ، واستعباد من تبقّوا منهم أحياء إلى نهاية الدهر . فمذ كان بنو إسرائيل في صحراء سيناء كان قوادهم يشحنونهم بفروض (إلٰهية) تأمرهم بإبادة شعوب الأرض أو طردها ، لأن «الذين تستبقون منهم يكونون أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم . سفر العدد ٣٣ : ٥٥» ، كما قال لهم ربهم يهوه . وكثيراً ما كان يهوه يعدهم بأن يطرد هو نفسه الشعوب من أمام وجههم ، ويبيدها . يقول «وأنا أرسل أمامك ملاكاً وأطرد الكنعانيين والاموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والحويين . سفر الخروج ٣٣ : ٢» . ويقول «الرب يطرد من أمامك شعوباً أكبر وأعظم منك . ويأتي بك ويعطيك أرضهم . سفر التثنية ٤ : ٣٨» . ويقول «متى أتى بك يهوه إلٰهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك : الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . سبع شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم يهوه إلٰهك أمامك ، وضربتهم ، فإنك تحرّمهم . لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم . تثنية ٧ : ١» . ويقول «يهوه إلٰهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك . ويدفع ملوكهم إلى يدك ، فتمحو اسمهم من تحت السماء . تثنية ٧ : ٢٢» .

والسؤال : متى كانت هذه الشعوب أعداء لموسى ، أو لبني إسرائيل ؟ . فليس هناك ما يشير إلى أي موقف عدائي بين جماعة بني إسرائيل وبين شعوب أرض كنعان . ألا يعني هذا أن بني إسرائيل كانوا ينوون الإستيلاء على أرض كنعان فجعلوا من شعوبها أعداء لهم . ونسبوا إلى ربهم يهوه فرضه عليهم طريقة التعامل معها : لا عهد ، لا تعامل ، لا تعايش . بل استئصال أرومتهم واستملاك أراضيهم . وقد ظل يهوه أبداً ودائماً يعد أتباعه باستعباد الشعوب ، وكأنه تعبير عن ردة فعل معاكسة لشعورهم بالإضطهاد والتنكيل الذي عانوه ، والعبودية التي ذاقوا مرارتها في مصر .

ففي مديان كان لهم أول مجزرة رهيبة . طبيعي بأمر ربهم يهوه . يقول محرر السفر «وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة من المديانيين . سفر العدد ٣١ : ١» . والسبب كما يقول محرر السفر أن «رجلاً من بني إسرائيل جاء وقدّم إلى اخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل . . لدى باب خيمة الإجتماع . . فلما رأى ذلك فينحاس بن ايليعازر بن هارون الكاهن أخذ رمحاً ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما الرجل والمرأة . سفر العدد ٢٥ : ٦ ـ ٨» .

فالحادثة كما ترى بسيطة : تعلّق إسرائيلي ببغي من مديان استطاعت أن تغويه مع بعض

الشبـان الإسرائيليين حتى جعلتهم يسجـدون لبعلها ، ويضـاجعونهـا في خيمة الإجتمـاع ـ بيت ربهم يهـوه . ومع أن الكـاهن وثب على الشـاب والبغي وقتلهمـا ، فـإن قتلهمـا لم يشف غليـل يهـوه ، الرب الغيـور الذي «ردّ سخـطه عن بني إسرائيـل . سفر العـدد ٢٥ : ١١» . ولكنه بقي يضمر حقداً على المديانيين وأمر موسى بـالإنتقام قـائلاً «انتقم نقمـة من المديـانيين . . فتجندوا على مـديان كمـا أمر الـرب وقتلوا كـل ذكـر ، وملوك مـديـان قتلوهم . . وبلعـام بن بعـور قتلوه بالسيف . وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار . سفر العدد ٣١ : ١ ـ ١٠» .

وأقفل جيش موسى راجعاً يدق طبول النصر ، معتـزاً بما جلب من السبـايا ، ومـا غنم من الماشية ، وما نهب من المتاع . وعلّل قواده أنفسهم بما سيلقاهم به موسى من الحفاوة والبشر . فإذا بكليم (الله) قد تمعّر وجهه وصب جام غضبه على القوّاد «وسخط على وكلاء الجيش . عدد ٣١ : ١٤» لأنهم استحيوا النساء والأطفـال . وكأن كـل هذا القتـل والتحريم والسبي والنهب لم يـطفىء لهيب الحقد في صـدر موسى . أو لم يشبـع قرمـه إلى الضحايـا ، ولم يروِ تعـطّشه إلى الدماء . فأمرهم أن يستأصلوا شأفـة الأسرى جميعـاً ، وأن لا يستبقوا منهم غيـر العذارى . قـال «والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعـة ذكر اقتلوهـا . سفر العـدد ٣١ : ١٧» .

وهكـذا استحيـا مـوسى العـذارى ليحتضنّ قتلة آبـائهن وأخـوتهن . «وكـان النهب فضلة الغنيمة التي اغتنمها رجال الجند ، من الغنم ست مـائة وخمسـة وسبعين ألفاً . ومن البقـر إثنين وسبعين ألفاً . ومن الحمير واحداً وستين ألفاً . ومن النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكـر إثنين وثلاثين ألفاً . سفر العدد ٣١ : ٣٢ ـ ٣٥» . حظي الكهنة بإثنتين وثلاثين من أجمـل العذارى ، توزعوهن في مابينهم كما توزعوا البقر ونحوه من غنائم الغزو .

ويبقى السؤال : ما ذنب المديـانيين إذا كان الإسـرائيلي قد تعلّق ببغي من أهـل مديـان ، وضاجعها بنو إسرائيل أمام عيني موسى ، وفي خيمة الإجتمـاع ـ بيت يهوه الـرب ؟ . وهل تعلّق الإسرائيلي ببغي من مديان يبرّر جـرّ كل هـذه الويـلات على المديـانيين : قتل الأطفـال والنساء وإحراق البيوت ونهب المدن ؟ .

والملاحظ أن هذه الحـادثة : تعلّق إسـرائيلي بمديـانية ، جـرّت الإبــادة والتـدميـر علـى مديان كلها . أما بغي أريحا فقد أمر يهوه (الرب) بإبقائها حية ، وإفناء جميع أهل أريحا . وليس في أسفار التوراة ما يشير إلى أي موقف عدائي بين موسى وبين أهل مـديان . فهـل كانت المـرأة المديانية هي السبب في الغزو والفتك والسلب والسبي والتدمير بقسوة وحشية وعنف بربـري ؟ . أم هي ضـراوة الحقـد والإنتقـام في صـدر مـوسى ، تمثّلت في هجمـات وحشيـة على شعـوب كنعان ؟ .

وجـدير بـالذكـر أن موسى كـان قد لجـأ إلى مديـان حين هـرب من مصـر بعـد قتله أحـد المصريين . فاحتضنه رعوئيل كاهنها وراعيها ، وزوجه من ابنته ، وعـاش موسى في بيت حميـه إلى حين عودته إلى مصر . وكانت مديان مدرسة فكرية لموسى . وربما أخـذ منها فكـرة الإيمان بإله واحد . فقد كان المديانيون ، كسائر مجتمعات سوريـا الطبيعيـة ، يتعبّدون في محـراب إله واحد «ايل ـ الله» . واسم رعوئيل (يرعى الله) حمي موسى يشير إلى صفته الرعوية .

أمـا بلعام بن بعـور الذي قتلوه في جملة من قتلوا ، فقـد كان نبي المؤابيين ، على روايـة التوراة . وقد أبى هذا النبي الكنعاني النبيل أن يرضخ لأوامر ملكه . وبارك بني إسرائيل بدلاً من أن يلعنهم ، كما طلب إليه الملك . يقول محرر السفر «وارتحل بنو إسرائيـل ونزلـوا في عربـات ، ؤاب . . وكان بالاق بن صفور ملكاً لمؤاب في ذلك الزمان . فأرسل إلى بلعام . . قائلاً : تعال والعن لي هذا الشعب . . لعله يمكننا أن نكسره، فأطرده من الأرض . سفر العدد٢٢» .

ولكن بلعام لم يلعنهم ، وإنما باركهم . «فاشتعل غضب بالاق . . وقال لبلعام : دعـوتك لتشتم أعدائي ، وهوذا أنت قد باركتهم . عدد ٢٤ : ١٠» .

وعندما هجم بنو إسرائيل على مديـان قتلوه . وكأن قتله كـان جزاء مبـاركته لهم . أو كـان دليلاً على تأصّل روح الجحود والغدر في نفوس بني إسرائيل . وتـأصّل روح المحبـة والتضحية والتسامح والإنفتاح في نفسية الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية .

وعندما قاد موسى جماعة بني إسـرائيل في عمليـة «الخروج» المشهـورة من مصر ، لاقـاه حموه رعوئيل ورحّب به وببني إسرائيل ، مظهراً استعداده لخدمتهم . وقد أسدى نصائحه الثمينة لموسى . وألقى عليه درساً في أصول القضاء ، شهد مـوسى نفسه بعـظمة هـذا الدرس ، ونبـل حميه الذي ألقاه . يقول محرّر السفر «وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضي للشعب . فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء . فلمـا رأى حمو مـوسى» ذلك قـال له «أنت تكـل ، والشعب الذي معك أيضاً» . وأشار عليه أن ينتخب من «الشعب ذوي قدرة ، خـائفين الله وأمناء مبغضين للرشوة . . فيقضون للشعب في كل حين . ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئـون بها إليك . . فسمع موسى لصوت حميـه ، وفعل كـل ما قـال . خروج ١٨ : ١٣ ـ٢٤» . ومـع هذا قتلوا هـذا الملك مع ملوك مـديان ، لأن شـريعتهم تقضي بجحود المعـروف ونكران الجميـل ، ومقابلة الإحسان بالإساءة . وتحرّم عليهم التعايش مع الشعوب ، والتسامح مـع الأمم . ولذلـك كانوا أثناء غزوهم أرض كنعان ، يتربّصون الدوائر بالشعوب ويتحيّنون الفرص للإنقضاض عليهم والغدر بهم .

وعندما ابتدأوا بالإغارة على تخوم كنعـان كانت أوامر ربهم ، أو القائـد الناطق بـاسم هذا الـرب ، تقضي كلها بـالتذبيـح والتقتيل والتحـريم . يقول مـوسى «قال الـرب لي : انظر ، قـد ابتدأت أدفع أمامك سيحون وأرضه . ابتـدىء تملك . تثنية ٢ : ٣١» . ويضيف مـوسى «دفعه

يهوه ربنا أمامنا ، فضربناه وبنيه وجميع قومه . . وحرّمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . لم نبق شارداً . تثنة ٢ : ٣٣» . ثم «دفع يهوه ربنا إلى أيدينا عوج ملك باشان وجميع قومه ، فضربناه حتى لم يبق له شارد . وأخذنا كل مدنه . . فحرّمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون ، محرّمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . تثنية ٣ : ٣ ـ ٦» .

وعلى أبواب الأرض بدأ الإسرائيليون ينفّذون في هجماتهم البربرية حروب التحريم والإبادة والإفناء . وكأنهم كانوا يعبّرون بالقسوة والشراسة عن ضراوة الحقد الذي يغتلي في صدورهم على الشعوب الكنعانية التي قطعت شوطاً بعيداً في العمران والحضارة الإنسانية . بينما عانوا من التسخير في مصر أربعمائة سنة . وعاشوا جيلاً يتبدّون في صحراء سيناء ، سلاحهم الحقد والإنتقام . وهمهم تدمير حضارة الأمم . لأن الشعور بالضعف ومعاناة العبودية والتخلّف ، ترك في نفوسهم عقدة لا يحلّها غير التذبيح والتحريم وشرب دماء الأمم .

فعندما وصلوا إلى تخوم أريحا «أرسل يشوع رجلين جاسوسين . . إلى أريحا . فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب . واضطجعا هناك . فقيل لملك أريحا : هوذا قد دخل إلى هنا الليلة رجلان من بني إسرائيل ، لكي يتجسّسا الأرض . فأرسل ملك أريحا إلى راحاب يقول : أخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك . .

فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما وقالت : نعم جاء إليّ الرجلان ثم خرجا في الظلام . وأما هي فأطلعتهما على السطح ووارتهما بين عيدان كتان . سفر يشوع ٢ : ١ ـ ٦» .

وهكذا عرف الجاسوسان من راحاب الزانية منافذ المدينة ومداخلها السرية ونقاط الضعف فيها . فهجموا في هدأة الليل مباغتة وغدراً ، «وحرّموا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف. وأحرقوا المدينة بالنار. يشوع ٦».

وكان يهوه قد قرّر حرب الإبادة منذ ما أعطى أرض كنعان لمختاريه . وكلّفهم تنفيذ قراره . فكان دخولهم أرض فلسطين ، واستيلاؤهم على أجزاء صغيرة منها ، مصحوباً بمجازر وحشية وأعمال إرهابية . خذ مثلاً ما جاء في فصل واحد من سفر يشوع ، من وصف لهجماتهم البربرية على سكان الأرض الآمنين . يقول محرر السفر «وأخذ يشوع مقيدة . . وحرّم ملكها وكل نفس بها . لم يبق شارداً» . «ثم اجتاز يشوع إلى لبنة . . فضربها بحد السيف وكل نفس بها . لم يبق شارداً» . «ثم اجتاز يشوع من لبنة إلى لخيش . . وضربها بحد السيف وكل نفس بها» . «ثم اجتاز يشوع من لخيش إلى عجلون . . وضربوها بحد السيف وحرّم كل نفس بها» . «ثم صعد يشوع من عجلون إلى حبرون . . وضربوها بحد السيف وكل نفس بها . لم يبقِ شارداً» . «ثم رجع يشوع إلى دبير . . وضربوها بحد السيف ، وحرّموا كل نفس بها . لم يبق شارداً» . (يشوع ١٠ : ٢٨ ـ ٣٨) .

وفي الفصل التالي يقول محرر السفر إن الرب دفع ملك حاصور وملك مادون وملك

شمرون وملك اكشاف ، بيد إسرائيل ، «فضربوهم حتى لم يبق لهم شارد . . وحرّموهم ، ولم تبق نسمة . . لأنه كان من قبل الرب أن يشدّد قلوبهم حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة ، فيحرّموا ، فلا تكون عليهم رأفة ، بل يبادوا كما أمر الرب موسى . يشوع ١١ : ١ ـ ٢٠» .

وهكذا كانت عبارات من مثل «حرّم كل نفس» و «لم يبق شارداً» ، بمثابة القرار أو اللازمة في كل نشيد يمجّد عملية فتك وإبادة . وكانوا في غزوهم لبعض مرتفعات فلسطين يرتكبون من الفظائع والأعمال الوحشية مامن شأنه أن يشيع الهلع والذعر في قلوب السكان . وقد جعلوا من الإرهاب قواعد للغزو والإستيلاء وقوانين للسطو والسيطرة . وقد عبّرت راحاب عن القوانين التي وضعوها لغزو الأرض ، بقولها «إن رعبكم قد وقع علينا . وجميع سكان الأرض قد ذابوا من أجلكم . لأننا قد سمعنا بما عملتموه بملكي الأموريين اللذين في عبر الأردن . سمعنا فذابت قلوبنا ، ولم تبق روح في إنسان بسببكم . يشوع ٢٤ : ٩ ـ ١١» .

وقد نقل الجاسوسان إلى يشوع صيغة تعبير راحاب عن القوانين التي سرت بين سكان الأرض ، وتركت في نفوسهم أعمق الفعل وأبلغ الأثر . قالا «قد ذاب كل سكان الأرض بسببنا . يشوع ٢ : ٢٤» .

والحقيقة أن أول من قرّر قانون إشاعة الهلع والذعر في نفوس سكان الأرض ، هو ربهم (يهوه) ، أو القائد الناطق باسم هذا الرب . فمذ كانوا على أبواب الأرض صاغ يهوه لموسى هذا القرار ، بقوله «في هذا اليوم ابتدىء أجعل خشيتك وخوفك أمام وجوه الشعب تحت كل السماء . الذن يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك . تثنية ٢ : ٢٥» .

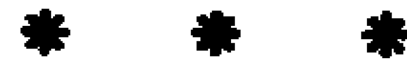
وطالما كان يهوه أو موسى الناطق بلسان يهوه ، يردّد على أسماعهم هذا القانون ، ليعمّق جذوره في صدورهم ، وكي يعملوا على تطبيقه أنّى ذهبوا وكيفما اتجهوا . يقول «يهوه إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم . تثنية ١١ : ٢٥» .

وقد تمثّلت مظاهر التطبيق في تذبيح وتحريم جميع من يظفرون بهم من أطفال وشيوخ ونساء . وفي تقتيل البقر والغنم والحمير بحد السيف . وفي تقطيع الأشجار وردم الآبار . ففي مدينة عاي ، يقول محرر السفر «ضربوها بحد السيف . . وحرّموا جميع سكانها . يشوع ٨ : ٢٤ ـ ٢٦» . وفي حاصور «ضربوا كل نفس فيها بحد السيف . حرّموهم ، ولم تبق نسمة . وأحرقوا حاصور بالنار . يشوع ١١ : ١١» . وقد رأينا ما فعلوه بأريحا ومقيدة ولبنة ولخيش وعجلون وحبرون ودبير وسواها . أما في مؤاب فقد «هدموا المدن ، وكان كل إسرائيلي يلقي حجرة في كل حقلة جيدة ، حتى ملأوها ، وطمّوا جميع عيون الماء ، وقطعوا كل شجرة طيبة . سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٥» .

وبعد ، إن تفصيل عمليات الفتك والإبادة بالناس وبالحيوانات التي نفذها أتباع موسى في أرض فلسطين ، استجابة لفروض يهوه (الرب) أو وصاياه ، يحتاج إلى مجلد كامل . المهم أن

شريعة بني إسرائيل حرّمت عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً . على حين أباحت لهم ذبح الشعوب وافناءها . والحقيقة أنها أمرتهم بذلك ، وأوجبت عليهم بعد انتصارهم على بلد ما ، أن يعملوا على تحريم الشيوخ والنساء والأطفال والرضعان . وقتل البقر والغنم والحمير ، وقطع الأشجار ، وردم الآبار .

وليس من غاية لهذه الشريعة غير تنظيم جماعة بني إسرائيل تنظيماً قتالياً ، يجعلهم أهلاً للسيطرة على شعوب الأرض ، وقد فرض الكهان والأحبار في السبي البابلي هذه الشريعة على قومهم . وتوّجوها بتعليمات رهيبة . رأى واضعوها أن على اليهود إتباعها وتنفيذها لكي يستحقوا الوعد . وكأن وضع شريعة دموية كهذه كان تعويضاً عن الشعور بالمهانة ، والرغبة في الإنتقام الهمجي الرهيب .



ويقترن أو يلحق بوصية النهي عن القتل ، وصية النهي عن الغدر ، التي جاءت أشد وضوحاً وأكثر تحديداً . قال المشرع (موسى) : «لا تغدروا أحدكم بصاحبه . سفر لاويين ١٩ : ١١» . أما الغدر بغير اليهود فليس مباحاً لهم فحسب ، وإنما تقضي شريعتهم بوجوب الغدر بهم جميعاً ، أفراداً وشعوباً . لأن الغدر كان وسيلة فعالة للإستيلاء على الأرض . أو قل إن الفترة القصيرة التي قضوها في جنوب سوريا ، قامت على أساس الغدر بالشعوب الكنعانية ، وذبح النساء والأطفال والشيوخ ، وإشاعة الهلع وبث الذعر في نفس من تبقّى حياً ، فيركن للهرب والفرار . وتخلو الأرض للغادر الغازي .

أشرنا في ما تقدم إلى نموذجين من فنون الغدر والمباغتة التي يحفل بتفصيلها تاريخ حروب بني إسرائيل المقدس : الغدر بشكيم وبأريحا . نموذج آخر خطّط له ونفّذه سبط الدانيين . يقول محرر سفر القضاة : «أرسل بنو دان خمسة رجال . . لتجسّس الأرض . . فجاؤا إلى لايش ورأوا الشعب الذين فيها ساكنين بطمأنينة كعادة الصيدونيين . مستريحين مطمئنين . وليس في الأرض مؤذ . وهم بعيدون عن الصيدونيين . وليس لهم أمر مع إنسان» .

ثم رجع الرجال الخمسة إلى قبيلتهم وقالوا «لا تتكاسلوا عن الذهاب ، لتدخلوا وتملكوا الأرض . عند مجيئكم تأتون إلى شعب مطمئن» .

ويقول المحرر إنهم «جاؤا إلى لايش ، إلى شعب مستريح مطمئن . وضربوهم بحد السيف . وأحرقوا المدينة بالنار . ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون . ولم يكن لهم أمر مع إنسان . سفر القضاة ١٨ : ٢ ـ ٢٧» .

لقد أعطى محرر التوراة بهذه الكلمات القليلة صورة عن حياة الشعوب الكنعانية في جنوبي سوريا : العيش بطمأنينة ، لأنه «ليس في الأرض مؤذ . ولم يكن لهم أمر (عداوة) مع إنسان» .

سقطت لايش «لأنها بعيدة عن صيدون . ولم يكن من ينقذ» .

لمـــاذا ؟ .

لأن سـوريا الغـربية والجنـوبية خضعت في تـاريخها القـديم لمـظاهـر بيئتهـا وخصـائص مـوقعها . شـأنها شـأن غيرهـا من مواطن الحضـارات القديمـة . وكـان أوضـح هـذه المـظاهـر والخصائص تأثيراً فيها هو كثرة التنوع في تضاريسها ، وقيام الفواصل الجبلية والحواجز الطبيعيـة فيها . فترتب نتيجة ذلك صعوبة إتحاد أهلها في وحدة قومية صريحـة ، خلال الغـالبية العـظمى من تاريخهم القديم . وتوزعت الوحدات السياسة والإقتصادية على هيئة دويلات صغيرة في مدن مستقلة ، ذات حكومة وسيادة . تمتد من أوغـاريت وارواد شمالاً ، على طـول الشاطىء ، عبـر جب إيل وصيدون وصـور ، إلى اشقلون وغزة في الجنـوب . وكان من مـدنهم الداخليـة مدينـة أريحا وجازر وأورشليم وشكيم وغيرها .

وعلى الرغم من المنجزات الحضارية العظيمة التي حقّقها الكنعانيون في الجزء الجنـوبي من سوريا (فلسطين) ، وعلى امتداد الساحل السوري ، من صور جنـوباً إلى أوغـاريت شمالاً ، فـإن طبيعة التكـوين الجغرافي لـلأرض حرمتهم من تـأسيس دولة متحـدة قويـة ، كتلك الـدول العظمى التي قامت في أحواض الأنهار الكبرى كالنيل والفرات . ورضي الكنعـانيون بقـدرهم . فأسسوا الممالك في مدنهم . ولم يطلبوا يوماً شيئاً غير العيش بسلام في بلادهم .

وهذه الممالك الصغيرة المتفرقة في فلسطين لم تتحد لمقاومة الغزو الإسرائيلي . كمـا لم تتحد لمقاومة غيره من الغزاة ، ربما لأنهـا كانت قـائمة على أسـاس نظام دولـة المدينـة . فقرى ومدن كنعان الجنوبية لم تأتها أي نجدة من صور وصيـدون ، أو من مدن الـداخل . وهـذا البعد والتفـرّق هو الـذي جعل بعض مـرتفعات فلسـطين ، مثل لايش ، تسقط بـالغـزو الإسـرائيلي . بالإضافة إلى عامل الغدر الذي كان وسيلة فعالة للإستيلاء على بعض المرتفعات .

والواقع أنهم اتخـذوا من التجسّس والغدر سـلاحاً مـذ فكروا بغـزو أرض كنعان . فكـانوا يرسلون الجواسيس : «انظروا إلى الأرض والشعب الساكن فيها . أقوي هو أم ضعيف ؟ . قليل أم كثير ؟ . وما هي المدن التي هو سـاكن فيها ؟ . أمخيمـات أم حصون ؟ . سفـر العدد ١٣ : ١٧» . وكانوا يغيـرون على «شعب مطمئن» أو منـاطق معزولـة ، «ولم يكن من ينقذ» كمـا تقول الكتاب المقدس .

وفي هـذا الكتاب فصـول من الغدر طـويلة ، أتقن إخـراجهـا وتمثيلهـا بنـو إسـرائيـل في «حروبهم المقدسة» مع أصحاب الأرض . من هذه الفصول مثلاً ما رواه محرر سفـر الملوك عن آخاب ملك إسرائيل الذي أعجب بكرم نابوت اليزرعيلي جـاره ، فحاول شـراءه . ولكن نابـوت رفض بيع الكرم الذي ورثه عن أبيه . قال «حاشا لي أنا أعطيك ميراث آبائي . فدخل آخاب بيته مكتئباً مغموماً» . هنا أسرعت زوجه المـاكر إيـزابل إلى نجـدته . رسمت لـه خطة القضـاء على

نابوت بمكر وغدر فريدين ليخلو له الجو فيستملك الكرم . «كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بخاتمه ، وأرسلت الرسائل إلى الشيوخ والأشراف الساكنين في مدينة نابوت ، تقول : نادوا بصوم ، وأجلسوا نابوت على رأس الشعب ، وأجلسوا رجلين من بني بليعال تجاهه ، ليشهدا قائلين : قد جدّفت على الله وعلى الملك . ثم أخرجوه وارجموه ، فيموت» .

نفّذت الخطة . . «ولما سمعت إيزابل أن نابوت قد رجم ومات ، قالت لآخاب : قُم رث كرم نابوت . ولما سمع آخاب أن نابوت قد مات ، قام لينزل إلى كرم نابوت ليرثه . سفر الملوك الأول ٢١ : ٣ ـ ١٦» .

ولعل أشهر فصول الغدر ما كان أبطالها قضاة بني إسرائيل . يقول محرر سفر القضاة «عبد بنو إسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة . قضاة ٣ : ١٤» . أي استعبدهم . «فصرخ بنو إسرائيل إلى يهوه (الرب) . فأقام لهم الرب مخلّصاً ـ أهود بن جيرا البنياميني رجلاً أعسر . فأرسل بنو إسرائيل بيده هدية لعجلون ملك مؤاب . فعمل أهود سيفاً وتقلّده تحت ثيابه . . وقدّم الهدية لعجلون . . ثم قال : لي كلام سرّ إليك أيها الملك . . وحين خرج من عنده جميع الواقفين لديه . . مدّ أهود يده اليسرى وأخذ السيف وضربه في بطنه . قضاة ٣ : ١٤ ـ ٢١» .

وهكذا استطاع أهود الذي «أقامه الرب مخلّصاً» أن يسلّ سيف الغدر و (الخلاص) ، ويخلّص بني إسرائيل من نير العبودية الذي أذلهم به عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة .

قاضٍ آخر خلّص بني إسرائيل ، على رواية التوراة ، من نير العبودية الذي شدّه الكنعانيون على رقابهم آماداً طويلة . «فبعد موت أهود باعهم يهوه (الرب) بيد يابين ملك كنعان ، الذي ملك في حاصور» . أي استعبدهم يابين . كما أن «رئيس جيشه سيسرا . . ضايق بني إسرائيل بشدة عشرين سنة» .

يقول محرر السفر «وفي ذلك الوقت كانت دبورا ، وهي امرأة نبية ، قاضية إسرائيل . . فأرسلت ودعت باراق بن أبينوعم (زعيم مرتزقة) وقالت له . . اذهب وازحف إلى جبل تابور ، وخذ معك عشرة آلاف رجل . . فأجذب إليك سيسرا» .

وتمت خطة النبية دبورا (وهي على كل حال غير واضحة ، وبالتالي غير مفهومة) . «فدعا سيسرا جميع مركباته ، تسع مائة مركبة من حديد . وجميع الشعب الذي معه . . فأزعج يهوه (الرب) سيسرا وكل المركبات وكل الجيش . . وسقط كل جيش سيسرا بحد السيف . لم يبق ولا واحد . وأما سيسرا فهرب على رجليه إلى خيمة ياثيل امرأة حابر القيني ، لأنه كان صلح بين يابين ملك حاصور وبين بيت حابر القيني . فخرجت ياثيل لاستقبال سيسرا وقالت له : مل يا سيدي ، مل إليّ ولا تخف . فمال إليها إلى الخيمة . وغطته باللحاف . . فأخذت ياثيل وتد الخيمة وضربت الوتد في رأسه . . فنفذ إلى الأرض ، وهو مثقل في النوم ومتعب ، فمات . قضاة ٤ : ٢ ـ ٢١» . «فترنّمت دبورة» بنشيد تمجّد فيه الغدر . قالت «أنا أنا ليهوه (الرب)

أترّنم . أزمر ليهوه إله إسرائيل . . تبارك على النساء ياثيل . . على النساء تبارك . . مدت يدها إلى الوتد . . وضربت سيسرا ، وسحقت رأسه . شدخت وخرقت صدغه . بين رجليها انطرح . سقط . اضطجع . بين رجليها انطرح . سقط حيث انطرح . سقط مقتولاً . قضاة ٥ : ١ ـ ٢٧» .

أرأيت إلى دقة التعبير عن التشفيّ الحقود يتلظّى أواراً في صدر ياثيل ؟ ! . صحيح أنها قتلته . ولكن الفرق كبير بين عملية القتل كفعل ، وبين سرد مراحل تنفيذ العملية بتشفّ سادي وحقد معتّق ، تساقطت معه الألفاظ تساقط الحمم من فم كالاتّون : ضربت . سحقت . شدخت . طرقت صدغه . بين رجليها انطرح . سقط . اضطجع . بين رجليها انطرح . سقط حيث انطرح . سقط مقتولاً .

هذه ترانيم دبورة النبية ترفعها إلى يهوه ، تتفجّر كالبركان من صدر محموم بالحقد ، ونفس مهووسة بالغدر والإنتقام .

سيسرا «هرب على رجليه إلى خيمة ياثيل امرأة حابر القيني ، لأنه كان صلح بين يابين ملك حاصور وبين بيت حابر القيني» . لكن ياثيل ، هل ترعى عهداً أو تقيم شأناً لعهد أو ميثاق ؟ .

وعلى كل حال ، هي ليست ملومة ، لأنها تحفظ شريعة موسى ، وترعى أمر تطبيقها على الأرض . الشريعة التي أوصتهم بعدم قطع العهود مع شعوب الأرض . وكرّرت الوصية مرّات لتكون جذورها أرسخ في صدورهم ، ودعوتها أبلغ في نفوسهم . خذ مثلاً قول يهوه (الرب) : «إني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض ، فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم عهداً . سفر الخروج ٢٣ : ٣١» . وقوله «ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض . خروج ٣٤ : ١٢» . وفي الفصل ذاته وفي الفقرة التالية مباشرة ، كرر الوصية بقوله «احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض . خروج ٣٤ : ١٥» . ويقول «متى أتى بك يهوه إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها . وطرد شعوباً كثيرة من أمامك . . فإنك تحرّمهم . لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم . تثنية ٧ : ١» .

وصيغ أُخرى كثيرة تحرّم عليهم قطع العهود مع سكان الأرض ،وإذا اضطروا لعقد ميثاق أو قطع عهد ، فهو يأمرهم أو يطلب إليهم ألاّ يقيموا وزناً لهذه العهود والمواثيق التي يعقدونها مع سكان الأرض . وألاّ يكترثوا بما تعارف عليه الناس من علاقات صافية وصلات إنسانية وأعراف شريفة ، إلاّ بمقدار ما يتفق مع مصلحتهم . فإن تسنح فرصة مؤاتية ، فمن واجبهم أن ينقضوا العهد ، ويغدروا بمن عقد معهم العهد . وهل أقرب إلى سلاح الغدر من نقض العهود ؟ . وقد رأينا ما فعله موسى بأهل مديان الذين لجأ إليهم بعد هربه من مصر . ويكفي أن أذكّرك ، أخي

القاريء ، بما بلغه موسى من إكرام وتقدير ومحبة وإحترام ورفعة شأن ، في مديان ، أن رعوئيل كاهنها وراعيها ، زوّجه من ابنته ، وحماه ورعاه في بيته . وكانت مديان أكبر مدرسة فكرية لموسى ، أثّرت في حياته كلها .

ولكن أخلاق ـ شريعة بني إسرائيل تقضي بجحود المعروف ونكران الجميل ، ومقابلة الإحسان بالإساءة . وتحرّم عليهم التعايش مع الشعوب ، والتسامح مع الأمم .

ولعل أقذر فصول الغدر التي مثّلها آباء ، أنبياء ، حكماء ، وقضاة بني إسرائيل ، بين دفتي هذا الكتاب المقدس ، هو الفصل الذي قام داود الملك (النبي) بدور البطولة فيه . ففي إحدى الأمسيات صعد داود إلى سطح داره وجعل يسرّح بصره في بيوت جيرانه . فآنس عن كثب منه امرأة تستحم في دارها ، فأحدّ النظر إليها ، فإذا هي شابة ممشوقة ، أسرى منظرها الدم ساخناً في شرايينه . فأرسل يستقدم بعض خبرائه سائلاً عنها وعن أخبارها . والقصة ، كما لخّصها محرر التوراة «كان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك . فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جداً . فأرسل داود وسأل عن المرأة . فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت ايل عم ، امرأة أوريا الحثّي . فأرسل داود رسلاً وأخذها . فدخلت إليه ، فاضطجع معها ، وهي مطهّرة من طمثها . ثم رجعت إلى بيتها . سفر سموئيل الثاني ١١ : ٢ ـ ٤» .

فداود النبي لم يضيّع لحظة من وقته الثمين في التودّد إلى المرأة التي شهقت إليها نفسه . ولم يرَ أن يجلس إليها ساعة في ضوء القمر يبثّها لواعج حبه وهيامه . بل بادر بإرسال زبانيته يجلبونها إليه كأنما هي بغي محترفة . وما لبث أن مال بها إلى مخدعه ليطفىء فيها لظى شبقه . فلما قضى منها وطراً أعادها إلى بيتها .

«رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة . فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى . سفر سموئيل الثاني ١١ : ٥» .

الفصل قصير ولكن المشهد مثير . أرأيت إلى الألفاظ كيف تؤدي دورها بدقة في التعبير عن المشاهد المتتابعة في ترابط محكم ترابط السبب بالنتيجة : رأى المرأة تستحم . كانت جميلة جداً . أرسل في طلبها . دخلت إليه ، فاضطجع معها ، وهي مطهّرة من طمثها ، فحبلت .

لم يدر بخلد داود أن يصطنع وسيلة تعصمها من الحبل ، مثلما فعل أونان بن يهوذا بن يعقوب («فحين مات عير بكر يهوذا ، قال يهوذا لأخيه أونان : ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك . فعلم أونان أن النسل لا يكون له . فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكي لا يعطي نسلاً لأخيه . تكوين ٣٨ : ٨») .

وليت داود فعل كما فعل أونان . فبعدما أطفأ في المرأة «الجميلة جداً» لظى شبقه ، أرسل

في طلب الزوج المثلوم العرض من ساحة المعركة ، على اعتبار أن يبيت في بيته ويضطجع مع امرأته ، فينسب الطفل له وليس لداود .

لكن أوريا لم يبت في بيته . وبالتالي لم يعاشر زوجته . لقد عزّ عليه أن ينعم بالعطلة الممنوحة له ، وأن يستمتع بمعاشرة زوجته الفاتنة ، بينما يعاشر اخوانه الموت في ساحة المعركة . «فنام على باب بيت الملك . سفر سموئيل الثاني ١١ : ٩» . وفي الصباح سأله داود : «لماذا لم تنزل إلى بيتك ؟» . فأجاب أوريا بشهامة وإباء ومروءة قلّ أن تجد نظيراً لها ، «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام . . وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي . وحياتك لا أفعل هذا الأمر . سفر سموئيل الثاني ١١ : ١١» .

أما داود فلم ينبض في صدره عرق بمثل ما خالج أوريا من أحاسيس إنسانية ومشاعر نبيلة . وبالعكس ، كانت (شهامة) هذا المسيح الذي «انتخبه الرب لنفسه حسب قلبه . سفر سموئيل الأول ١٣ : ١٤» . أنه «كتب في الصباح إلى يوآب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت . وأرسل المكتوب بيد أوريا . سموئيل الثاني ١١ : ١٤» .

وهكذا «مات أوريا الحثّي» . «فأرسل داود إلى امرأة أوريا ، وضمّها إلى بيته ، فصارت» واحدة من محظياته . سموئيل الثاني ١١ : ٢٦» .

أعتقد أن التاريخ لم يسجل قصة حبكت أحداثها أحط أنواع المخادعة الغادرة وأبشع ألوان القسوة البالغة ، كقصة «ملك الملوك» داود «النبي» . وليس من قصة كان بطلها الشخصية النموذج في ممارسة الشهوة البهيمية ، وفي العري النفسي الرهيب من أية مشاعر إنسانية ، كهذه القصة . فداود يسطو على زوجة أحد جنوده أثناء غيابه في جبهة الحرب ، يحامي عن داود ومملكة داود . ثم يتآمر هذا الملك «النبي» على حياة الجندي ليخلو له الجو ، فيتزوج المرأة الجميلة التي زنى بها .

ولعل حبكة المؤامرة من أشرس وأقذر الوسائل التي عرفها التاريخ في الوصول إلى الغاية . فداود ـ النموذج الفريد في الغدر والعدوان والقسوة والخداع ، حمّل أوريا الحثي ـ النموذج الكنعاني في الشهامة والترفع والإخلاص والإحساس بالواجب والشعور بمشاركة الآخرين ، حمّله كتاب موته . رفض أوريا أن يعاشر زوجته ، وعاد إلى الجبهة ليعاشر الموت دفاعاً عن داود . ولم يكن يدري أنه يحمل بيده كتاب موته في أقذر عملية غدر وخداع حفظها بين دفّتيه كتاب مقدس أو غير مقدس .

أتّون الحقد وسيف الانتقام

ويقترن أو يلحق بوصيتي النهي عن القتل والنهي عن الغدر ، وصية النهي عن الإنتقام

التي جاءت نموذجاً للقبح الأخلاقي وفقدان القيم الإنسانية ، وتجسيداً حيّاً لطبيعة بني إسرائيل الداخلية التي تمور فيها مراجل من الحقد والغدر . «لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك . لاويين ١٩ : ١٨» ، يقول رب بني إسرائيل ، أو موسى الناطق باسم هذا الرب . أما بقية الشعوب ، فالرب أو شريعة الرب تفرض عليك أن تصليها من الحقد والإنتقام ناراً حامية لا تبقي ولا تذر .

ويبدو أن المشرّع الذي أعطى هذه الوصيّة بصيغة عطف ، كان يدرك العلاقة الوثيقة بين الحقد وبين الإنتقام . ويعي أن العلاقة الطردية التي تربطهما تؤدي إلى تقابل نسبي بينهما . فبقدر ما يكون الحقد ضارياً ، بقدر ما يأتي الإنتقام شرساً ووحشياً . والعكس بالعكس .

فخلال إقامتهم في مصر اجتاحهم قلق غامر ، وغلبهم الشعور بالإضطهاد . فدفعهم ذلك إلى نوع من الشذوذ الإجتماعي ، هو شذوذ الإستكانة والعزلة . انعكس على طباعهم فأنجب القسوة التي طبعت سلوكهم ، والحقد الذي مهر قلوبهم ، حيال غيرهم من الأمم والشعوب .

وحين ارتد موسى عن أرض فلسطين خائباً ، تائهاً ، حاقداً ، راح يغذّي في أتباعه عقيدة التفوق كردّ فعل على شعورهم بالعبودية والإضطهاد ، ويزرع في صدورهم الرغبة الشديدة بالتميّز . فانغلقوا على أنفسهم ، وانعزلوا عن العالم المحيط بهم . فتولد فيهم شعور بالحقد على الشعوب التي تنعم بالأمن والرفاه . وتعطّش شديد لتدمير حضارتها وعمرانها . وجبل أخلاقهم الحقد والعدوان ، والشراهة لامتلاك الأرض . ومن هنا جاءت شريعة موسى تنهي اليهودي عن قتل اليهودي ، والغدر به ، والإنتقام منه ، والحقد عليه . أما بقية الشعوب فهي تأمر بقتلها والغدر بها والإنتقام منها والحقد عليها . «وكلم الرب موسى قائلاً : كلّم كل جماعة بني إسرائيل وقل لهم : لا تسرقوا ، ولا تكذبوا ، ولا تغدروا ، أحدكم بصاحبه . . لا تغصب قريبك . . بالعدل تحكم لقريبك . لا تسع في الوشاية بين شعبك . لا تقف على دم قريبك . لا تبغض أخاك في قلبك . . لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك . لاويين ١٩ : ١ ـ ١٨» .

ولعل أهم ما تؤكد عليه شريعة موسى هو الحقد الأبدي الذي يجب على اليهود تنميته في صدورهم لقهر شعوب الأرض بالقتل أو بالطرد ، ومن ثم احتلال الأرض . فعندما كان بنو إسرائيل على تخوم الأرض كانت شريعة ـ فروض يهوه ، أو القائد الناطق باسم يهوه ، تبثّ في صدورهم روح العداء والحقد على الشعوب التي كانوا ينوون غزوها والإستيلاء على أراضيها . وبقدر ما كانت الشريعة تؤكد على التقتيل والتذبيح والتحريم والإبادة والطرد بقدر ما كان الحقد ينمو في صدورهم . وتعرّش في نفوسهم طحالب البغض والكراهية . قال يهوه لموسى «أرسل هيبتي أمامك . وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي إليهم . وأعطيك جميع أعدائك مدبرين . وأرسل أمامك الزنابير . . وأدفع إلى أيديكم سكان الأرض ، فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . سفر الخروج ٢٣ : ٢٧ ـ ٣١» .

«واعلم أن يهوه إلٰهك هو العابر أمامك ناراً آكلة . هو يبيدهم ويـذلّهم أمامـك ، فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب . تثنية ٩ : ٣» . وأن «يهوه إلٰهك هو عابـر قدامـك . هو يبيـد هؤلاء الأمم من قـدامك ، فتـرثهم . تثنيـة ٣١ : ٣» . «ومتى دفعهم يهـوه أمـامكم تفعلون بهم حسب كل الوصايا التي أوصيتكم بها . تثنية ٣١ : ٥» . وهل أوصى رب بني إسرائيل بغير قتـل الشعوب ، والغدر بها ، والإنتقام منها ، والحقد عليها ؟ .

فهـذه النصـوص المقتبسـة من شـريعـة ـ أوامـر مـوسى ، كـانت لإضـرام نـار الحقـد في صدورهم . وتأجيج لهيب الإنتقام والشراسة في نفوسهم .

وعندما بـدأوا يغيرون على تخـوم الأرض ، صاروا يعبـرون بالمـذابح الـوحشية وحـروب الإبادة عن ضراوة الحقد الذي أرث نيرانه في صدورهم موسى ، أو يهـوه الموسـوي ، لا فرق . وراحوا يجسّدون هـذه الروح الحـاقدة بتحـريم الأطفال والنسـاء والشيوخ ، وتقتيـل الغنم والبقر والحمير ، وتقطيع الأشجار . وقد أشرنا في ما تقـدم إلى بعض مجازر الغـدر (شكيم وأريحا) . ولعل المجزرة التي تمثّل فيها حقـدهم الضاري بـالإنتقام ، كـانت حين حاربهم الكنعـاني ملك عراد . «فنذر إسـرائيل نـذراً للرب وقال : إن دفعت هؤلاء القـوم إلى يدي أحـرّم مدنهم . عـدد ٢١ : ٢» . وكان من الطبيعي أن يستجيب يهوه لهذا النذر الدمـوي . «فسمع لقـول إسرائيـل ، ودفع الكنعانيين ، فحرّموهم ومدنهم . عدد ٢١ : ٣» .

أما عملية تقتيل الأسرى بالنوارج والمناشير فكانت لترويض شراسة الحقـد المستشري في صـدورهم . وعمليـة وضـع أرجلهم على أعنـاق الملوك المـأسـورين ، ثم تقـطيـع أجسـادهم بالسكاكين ، كانت لبعث النشوة بالتشفيّ في نفوسهم . يقول المحرر «ضرب شاول عمـاليق . . وحرّم جميع الشعب بحد السيف . لكنه عفـا عن أجاج (الملك) وعن خيـار الغنم والبقر» . أمـا يهـوه (إلٰه المحبـة والرأفـة والشفقة والحنـان) فقد تملّكـه الغضب ، ومـلأ قلبـه السخط ، وكلم سموئيل النبي قائلاً : «ندمت على أني جعلت شاول ملكاً لأنه لم يُقم كلامي» . وكلام يهوه كان «اضرب عماليق وحرموا كل ماله . ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقراً وغنماً ، جملاً وحماراً» .

وحين خالف شاول أوامـر ـ شريعـة رب الجنود ، «قـال سموئيـل : قدمـوا لي أجاج ملك عماليق . فذهب إليه أجاج فرحاً ، وقال في نفسه : حقاً زالت مرارة الموت» . أما سموئيل (نبي المحبة والرأفة والشفقة والحنان) فقد قطّع أجاج أمام الرب. سفر سموئيل الأول ١٥» .

وحين حارب داود ربّة بني عمون (عمان الحالية عاصمة الأردن) «أخرج الشعب الذين بهـا ونشرهم بمناشير ونوارج حديد وفؤوس . سفر الأخبار الأول ٢٠ : ٣» .

وحين انتصر يشوع على خمسة ملوك (على رواية التوراة) «هرب أُولئك الملوك الخمسة ، واختبأوا في مغارة (على ذمة المحرر) . فدعا يشوع كل رجـال إسرائيـل وقال : تقـدموا وضعـوا

أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك . . ثم قتلهم وعلّقهم على الخشب . يشوع ١٠ : ١٦» .

وعندما لم يستطع إيليشع النبي أن يروي غلة حقده بتقطيع أجساد الملوك المأسورين كما فعل صموئيل النبي . أو بتقتيل الشعب البريء بالنوارج والمناشير كما فعل ملك الملوك داود النبي . «قال لملك إسرائيل . . تقطعون كل شجرة طيبة . وتطمّون جميع عيون الماء . وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة» . وقد لبّى ملك إسرائيل الطلب لأن في تنفيذه ما يغمر قلب ايليشع النبي بالسرور . وما يطفىء في صدره لهيب الحقد . «فهدموا المدن . وكان كل إسرائيلي يلقي حجرة في كل حقلة جيدة ، حتى ملأوها . وطمّوا جميع عيون الماء . وقطعوا كل شجرة طيبة . سفر الملوك الثاني ٣ : ١٩» .

وباختصار ، إن مرجل الحقد الذي كان يمور في صدورهم على الشعوب الكنعانية ، صاحبة الأرض التي فكّر قوادهم بغزوها واحتلالها ثم استملاكها ، جعلهم يكفرون بالقيم الإنسانية والفضائل الخلقية . ويغيرون في هجمات بربرية ، يخرسون بالإنتقام الوحشي ضراوة الحقد النابح في صدورهم على شعوب كنعان .

والواقع أن المرء يصعق بسبب ضخامة الحقد والكراهية في كتاب «العهد القديم» ، التي تفيض كالنهر الذي لا تستوعبه ضفتاه ، كما يقول الكاتب اليهودي وليم زوكرمان(١٤٦) . أما المحبة والرحمة ، جوهر المعتقدات الكنعانية ، فنكرتان لدى محرّري كتاب «العهد القديم» . وليس ذلك بغريب لأن بني إسرائيل قبيلة ضعيفة ومستضعفة في الشعوب . والضعيف عاجز عن المحبة لأن سلاحه الحقد . ولا يصنع رحمة لأن الرحمة لا تكون إلّا بنت المحبة .

القيـــم الخلقيــة

في الوصيّة الأولى «لا تقتل» رأينا أن موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، قد حرّم على اليهودي قتل اليهودي . وفي المقابل فرض عليه إبادة شعوب الأرض واستعباد من تبقوا منهم أحياء .

أما الوصية الثانية «لا تسرق» ، فإن موسى أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، لم يكن يقصد بقوله «لا تسرق» النهي عن ارتكاب هذه الجريرة المستقبحة في حياة الشعوب . وإنما يهدف إلى نهي اليهودي عن سرقة أخيه اليهودي . أما بقية الشعوب فهو يأمره بسرقة أموالها ومواشيها وأراضيها . ويزيّن له السرقة وكأنها قيمة إنسانية فاضلة يتباهى بها بين الشعوب .

رأينا أعمال الحيل والخداع التي مارسهايعقوب بحق خاله لابان الأرامي ، حتى استطاع بفضل مكره وسعة حيلته أن ينقل المواشي بلباقة ماهر من حظيرة خاله إلى حظيرته . وعندما قرّر العودة إلى أبيه في أرض كنعان ، قصّ على زوجاته ، بوجه مقنّع وكلام مضمّخ بورع زائف ، خبر مناصرة الرب له ، وكيف حوّل إليه قطيع أبيهن . ولم يتحرّج من أن ينسب سرقة المواشي إلى

الله . قال «فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني . تكوين ٣١ : ٩» . أما زوجاته فقد أبدين الإستعداد للموافقة على خطته ، وأعلنّ في صراحة «أن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا . تكوين ٣١ : ١٦» .

ولعل شريعة السرقة أكثر وضوحاً وأشد وقعاً في سفر الخروج الذي يقص سيرة خروجهم من مصر . فقد وردت بصيغة الأمر كشريعة القتل . وصيغة الأمر صيغة تعليمية تصدر عن سيد وتتوجه إلى مسود . فهي لا تقبل في الأمر رداً ولا إعتراضاً . ففي مصر «قال الرب لموسى . . تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبتها ، أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب . سفر الخروج ١١ : ٢» . «وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين . فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين . خروج ٣ : ٢١ و ٢٢» .

وفي أرض كنعان رأينا أن حياة بني إسرائيل قامت على سرقة حياة شعوب الأرض . طبيعي بالوصية الأولى (القتل) . ومن ثم سرقة المصدر الذي تستمد منه الشعوب حياتها (الأرض) .

وفي الوصية الثالثة «لا تزن» يظهر أن موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، لم يكن يقصد تحريم زنى اليهودي باليهودية ، ولا يرمي إلى تحريم الزنى أو إباحته ، لا فرق ، بالمرأة «الأممية» . لأن الذين وضعوا هذه الشرائع نراهم في كثير من المواقف يحمدون الزنى ، أو قل إنهم يتغاضون عنه ، حتى ليعتقد المطلع أنه كان لواضعي هذه الشرائع إزدواج في الموقف . فبينما تحرّم الشريعة الزنى وتنكر السلوك الجنسي غير المشروع ، نرى أن هذا التحريم والإنكار يخرجان في موقف آخر بقالب من الرضى أو الاعتذار .

قال المشرّع (موسى) في سفر الخروج (٢٠ : ١٥) «لا تزن» . وكرّر الوصيّة ذاتها في سفر التثنية(٥ : ١٨) . ومال إلى التخصيص في سفر لاويين (١٩ : ٢٩) بقوله «لا تدنّس ابنتك بتعريضها للزنى» . وكان أكثر وضوحاً وأشد تخصيصاً في أسفار أُخرى ، فقال مثلاً في سفر لاويين (١٨ : ٦ ـ ١٨) «لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة . عورة أبيك وعورة أُمك لا تكشف . عورة امرأة أبيك لا تكشف . عورة أُختك بنت أبيك أو بنت أُمك لا تكشف . . عورة أُخت أبيك لا تكشف . . عورة كنتك لا تكشف . عورة امرأة أخيك لا تكشف . . لا تأخذ امرأة على أُختها» .

ثم كرر هذه الوصايا مع الأحكام الواجب تنفيذها بحق من يمارس محرماتها ، فقال «إذا زنى رجل مع امرأة قريبه ، فإنه يقتل الزاني والزانية . وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه ، فإنهما يقتلان . وإذا اضطجع رجل مع كنّته فانهما يقتلان . قد فعلا فاحشة . . وإذا أخذ رجل أُخته بنت أبيه أو بنت أُمه ، ورأى عورتها ، ورأت هي عورته ، فإنهما يقطعان أمام أعين بني شعبهما . سفر لاويين ٢٠ : ١٠» . «وإذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل ، يقتل

الإثنان ، تثنية ٢٢ : ٢٢» .

ويقرن هذه الوصايا أحياناً باللعنة الربانية التي تحيق بمن يمارس محرماتها ، فيقول مثلاً «ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه . . ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه . تثنية ٢٧» .

ترى ، أليس تكرار النهي عن هذه المحرمات ، دليلاً على أنها كانت مستشرية في التجمع الإسرائيلي ؟ . أعتقد ذلك . ففي السفر الأول من أسفار التوراة يطلع علينا محرر السفر بخبر مفاده أن الرب قرّر أن يهلك أهل سدوم وعمورة لأن «خطيّتهم قد عظمت جداً . تكوين ١٨» .

«جاء الملاكان إلى سدوم . . وأخرجامنها لوط وامرأته وابنتيه . . وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى مدينة صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . . وصعد لوط من صوغر ، وسكن في الجبل وابنتاه معه . لأنه خاف أن يسكن في صوغر . فسكن في المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا . هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً . فسقتاأباهما خمراً في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها» . وفي الليلة التالية «سقتا أباهما خمراً . . وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما . تكوين ١٩» .

رب سائل : لماذا صارت امرأة لوط عمود ملح ؟ . تقول لأنها نظرت من وراء زوجها . فيتجدّد السؤال : ولماذا التفتت من ورائه ؟ . ولماذا لم يلتفت لوط وابنتاه أيضاً ؟ . ولماذا كان النظر إلى الوراء مقصوراً عليها ؟ . ثم لماذا «صعد لوط من مدينة صوغر وسكن في الجبل ، وابنتاه معه» ؟ . تقول «لأنه خاف أن يسكن في صوغر» . فيتجدّد السؤال : ولماذا خاف أن يسكن في صوغر ، ما دام الرب قد حكم على سدوم وعمورة فقط بالهلاك . ونفذ حكمه ؟ . يُضاف إلى ذلك أن الرجلين «الملاكين» حين قالا للوط «اهرب إلى الجبل لئلا تهلك . قال لهما لوط . . لا أقدر أن أهرب إلى الجبل ، لعل الشرّ يدركني فأموت . هوذا المدينة هذه (صوغر) قريبة للهرب إليها . . فقال له الملاك إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . تكوين ١٩ : ١٧ ـ ٢١» . فلماذا هرب إلى الجبل ؟ . أو قل كيف استطاع الهروب إلى الجبل ،وكان قد قال إلى الملاك «أنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل» . ولماذا ترك صوغر التي وعده الملاك بأن لا يقلبها من أجل خاطره ؟ . ولماذا «سكن في المغارة هو وابنتاه ؟» . ألم يكن قادراً على السكنى في أي مدينة أخرى من مدن الدائرة ؟ . وهل تظن أنه «ليس في الأرض رجل يدخل علينا» ، كما قالت ابنتا لوط ؟ . وأين رجال مدينة صوغر التي سكنّ فيها قبل أن يصطحبهما لوط إلى الجبل ، فالمغارة ؟ . وهل قلّ الرجال في مدن الدائرة ؟ .

لا ريب أنه كان على مقربة منهم بلاد مأهولة . ولكن الفتاتين آثرتا القعود عن المسير إليها شقة لا تزيد على بضعة أميال . وأبتا أن تتريثا في مضاجعة أبيهما حتى تهدأ الطبيعة الغضبى . ووجدتا في الوحدة العارضة وخلو الجبل من الرجال وفي دعوى الاذعان لسنة الله ، والحفاظ على تقاليدأهل الأرض في حفظ النوع ، تعلّة كافية للإقدام على ما بيّتتا النية عليه . وما أسهل العثور على التعلاّت لمن يعتزم إرتكاب الإثم .

ألا تعتقد أن فكرة حرق سدوم وعمورة من قبل الرب ، كانت لتبرير عملية الزنى التي اقترفها النبي لوط ، أو ابنتاه ؟ . وأن بني إسرائيل ، عندما بدأوا بكتابة التوراة في السبي البابلي ، قد ابتدعوا فكرة حرق سدوم وعمورة لتكون تبريراً لجريرة زنى لوط بابنتيه . أو لما يمكن أن يقترفه من مثل هذه الموبقات أي نبي جليل كلوط في الأزمان القادمة ؟ .

ثم ، ألا ترى أن منطق محرر أو محرري التوراة ، ليس المنطق المباشر الذي ينزع من الأسباب إلى النتيجة ؟ . فلا يبدو هناك أي داع يدفع امرأة لوط إلى النظر من ورائه . ولا سبب يبرّر صعود لوط مع ابنتيه من مدينة صوغر إلى الجبل ، فالمغارة . وإنما هو المنطق التبريري الذي يؤمن بالنتيجة ، ثم يرتد مفتشاً عن الأسباب والأعذار التي تؤدي إلى هذه النتيجة ، ليبرّر إيمانه بها .

وهذا المنطق التبريري وسيلة يعتمدها أصحاب النوايا السيئة ليرفعوا مسؤولية تحقيق نواياهم السيئة عن عاتقهم ، وينيطوها بسبب من أسباب القدر .

فأحبار التوراة أرادوا أن يبرّروا جريرة زنى النبي لوط بابنتيه . فجعلوا أهل سدوم وعمورة يخطئون . وجعلوا الرب يسخط عليهم ، ويقرر إهلاكهم . ثم ساقوا لوط وامرأته وابنتيه إلى خارج سدوم . وأرادوا لامرأته أن تنظر من ورائه ، فتصير إلى عمود ملح . وتكون الحادثة تبريراً لاختفائها من وجه لوط . لتتمّ عملية زناه بابنتيه . ثم أرادوا للوط أن يخاف السكن في صوغر ، ليصعد إلى الجبل ، ومنه إلى المغارة .

وهذا المنطق التبريري اعتمده الحبر أو محرّر التوراة في حادثة ابرام وزوجته سارة مع فرعون . فالحبر المحرر أراد أن يبرّر متاجرة هذا النبي الجليل - ابرام بعرضه ، ليكسب المواشي والأموال . فحكم بالجوع على أرض كنعان ليكون مبرّراً لتغرّب ابرام في مصر . وجعل من ساراي - زوجة ابرام قطعة ساحرة من الجمال والفتون ، رغم أنها جاوزت الخامسة والستين من عمرها ، لكي يبرّر خوف ابرام من أن يقتله المصريون ، وينالوها . وخوفه كان مقدمة للطلب إلى زوجته أن تدّعي بأنها أخته . هنا فقدالكاتب المبررات ، فجعل ابرام يكشف عن نواياه ، بقوله إلى زوجته «قولي انك أختي ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي . تكوين ١٢ : ١٣» . إذاً لم يكن ابرام خائفاً من قتله ، واستبقاء زوجته ، بقدر ما كان راغباً في الخير الذي سيكون له بسببها . وتوقّع الخير دليل على الرغبة فيه قبل حدوثه . وبالفعل ، فقد تم لابرام ما نواه وما

توقعه ، إذ رأى المرأة «رؤساء فرعون ، ومدحوها لديه . فأُخذت إلى بيت فرعون . فصنع إلى ابرام خيراً بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال . تكوين ١٢ : ١٥» .

وبمثل هذا المنطق ساق ابرام زوجته سارة إلى أبي مالك ، ملك جرار الفلسطيني . وكذلك فعل ابنه إسحاق من بعده .

وكأن الحبر المحرّر ما اتبع أُسلوب المنطق التبريري إلّا ليرفع مسؤولية مثل هذه الأعمال الشائنة عن كاهل آباء اليهود الأولين ، وأنبيائهم الكبار - إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وينيطها بسبب من الأسباب الخارجة على طوعهم وإرادتهم .

وأكثر ما تبقى من حوادث الزنى التي يحفل بها كتاب التوراة (العهد القديم) المقدس ، يرويها المحرر ببساطة متناهية ، وكأنها من الأحداث العادية المألوفة في حياة بني إسرائيل . مما يجعلك تشعر بأن أخلاقهم كانت تبيح هذه المنكرات . ولا ترى في اقترافها ، في وضح النهار ، وأمام عيون الناس ، أي إثم أو عار .

يقول المحرر ، بصراحة متناهية ، ودون أي حرج أو شعور بالخجل ، «وذهب رأوبين واضطجع مع بلهة زوجة أبيه . وسمع إسرائيل . تكوين ٣٥ : ٢٢» . فلم يغضب إسرائيل ولا يهوه رب إسرائيل . وكأن المحرر ، أو مرتكب الإثم ، لم يسمع أي منهما بوصية موسى المدونة بأكثر من صيغة . والمكررة في أكثر من فصل . أو كأن المحرر الذي يروي حادثة زنى رأوبين بزوجة أبيه ، هو غير المحرر الذي قال في أحد الأسفار المقدسة «لا تزن . خروج ٢٠ : ١٤» . وفي سفر آخر قال بصيغة نهي جازم «عورة امرأة أبيك لا تكشف . لاويين ١٨ : ٨» . وقال في سفر ثالث ، قارناً الإثم بالحكم المتوجب على مرتكبه «إذا زنى رجل مع امرأة قريبه ، فإنه يقتل الزاني والزانية . لاويين ٢٠ : ١١» . وقال بصيغة تراوح بين التعميم والتخصيص «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل ، يقتل الإثنان ، تثنية ٢٢ : ٢٢» . ثم صاغ هذه الشريعة بصيغة محبّبة لدى أحبار «العهد القديم» . أعني بها صيغة اللعن . فقال «ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه . تثنية ٢٧ : ٢٠» .

وكأن جميع هذه الصيغ المتنوعة من وصية موسى ، وهي كثيرة في كتاب «العهد القديم» ، لم يسمع بها المحرر الذي روى سيرة ابشالوم ابن النبي داود الذي «نصبوا له الخيمة على السطح ، ودخل إلى زوجات أبيه أمام جميع إسرائيل . سموئيل الثاني ١٦ : ٢٢» . وسيرة «ملك الملوك» داود «النبي» الذي «كان في وقت المساء . . يتمشّى على سطح بيت الملك ، فرأى امرأة تستحم . . فأرسل رسلاً وأخذها فدخلت إليه ، فاضطجع معها ، وهي مطهرة من طمثها . ثم رجعت إلى بيتها . سموئيل الثاني ١١» .

وربما كان اعتقادهم بأن يهوه (الرب) يحوّل طرفه عما يقترفونه من آثام . ويتغاضى عما يرتكبونه من موبقات ، هو الذي جعل حياتهم العشائرية المضطربة تعجّ بصور الإنحرافات

الخلقية . وتزخر بما كانت تزخر به نفوسهم من دنس وفجور . فلم يجد محررو الكتاب المقدس من غضاضة في سرد وتفصيل هذه الكبائر والمنكرات .

يقول المحرر «إنه كان لابشالوم بن داود أخت جميلة ، اسمها ثامار . فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته ، لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً . وكان لامنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعي أخي داود. وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً . فقال له : لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف . . فقال له أمنون : إني أحب ثامار أخت ابشالوم أخي . فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك ، فقل له : دع ثامار أختي ، فتأتي وتطعمني خبزاً وتعمل أمامي الطعام ، فآكل من يدها . فاضطجع أمنون وتمارض ، فجاء الملك ليراه . فقال أمنون للملك : دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها . فأرسل داود إلى ثامار قائلاً : اذهبي إلى بيت أمنون أخيك واعملي له طعاماً . فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها ، وهو مضطجع . وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكاً ، وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة . . وقال أمنون : اخرجوا كل إنسان عني . . ثم قال أمنون لثامار : تعالي اضطجعي معي يا أختي . . واضطجع معها . سفر سموئيل الثاني ١٣ : ٢ ـ ١٤» .

فكأن «ملك الملوك» داود «النبي» وابنيه ابشالوم وأمنون لم يكونوا على علم بوصية موسى التي دوّنها المحرر بأكثر من صيغة وفي أكثر من فصل . فاضطجع داود مع بتشبع ، امرأة أوريا الحثي ، في ما كان أوريا في الجبهة يدافع عن مملكة داود . واضطجع أمنون مع اختار ثامار . واضطجع ابشالوم مع زوجات أبيه داود .

وبعد ، فليس المهم أن تكون هذه الشخصيات في التاريخ اليهودي ، التي استعرضنا مقاطع من سيرها ، واقعية ، أو شبه أسطورية . ولكن المهم أنهم أضفوا عليها صفات البطولة ، ثم تركوها تتمرغ في حمأة من السلوك الوحشي، في القتل وسفك الدماء . واللاأخلاقي في إتيان المعاصي واجتراح الآثام . وكأن محرّري التوراة (العهد القديم) لم يكونوا يتوقعون لكتابهم الذي تنطوي دفتاه على مثل هذه المباذل ، أن يصبح «أساس الشريعة ونبع الخلق في حضارة الإنسان»(١٤٧) . فحشروا فيه أسس الرذيلة والإنحلال الخلقي ، وصوروا فيه ، بصدق وصراحة ، طبائع قومهم السيئة وأخلاقهم الذميمة ، بأساليب من الدعارة والفسق العلني والخلق المنحرف والشهوة البهيمية . ولعل هذا الصدق في تصوير الأخلاق ، والصراحة في سرد المنكرات ، والتعبير عن أحط المفاهيم الأخلاقية ، هو أجلّ ما قدمه أولئك الكتّاب عن بني قومهم ، الذين لم يكن فيهم من يتأبّى على الخطيئة أو يترفع عن إتيان الفاحشة . أو قل إن إرتكاب مثل هذه الفواحش كان عندهم من الأمور المألوفة أو المستحبة .

يخبرنا كتاب «العهد القديم» بأن سموئيل النبي «كان يخدم الرب أمام عالي الكاهن .

وكان بنو عالي بني بلّيعال(*) . . وكانوايضاجعون النسـاء المجتمعات في بـاب خيمة الإجتمـاع .
سفر سموئيل الأول ٢ : ١١ - ٢٢» .

فبنـو عالي الكـاهن يضاجعـون النساء المجتمعـات في باب خيمـة الإجتمـاع - بيت يهـوه (الرب) . ولم يردعهم أبوهم . وكان بنو إسرائيل مولعين بمضاجعة النساء في خيمة الإجتمـاع . وقد ذكرنا في ما تقدم خبرالإسرائيلي الذي «قدّم إلى إخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كـل جماعة بني إسرائيل لدى باب خيمة الإجتماع . سفر العدد ٢٥ : ٦» . ولوط زنى بابنتيه ، ومات مرضياً عنه . ورأوبين «اضطجع مع زوجة أبيه ، وسمع إسرائيـل» . فلم يغضب إسرائيـل ولا يهوه رب إسرائيل . وداود اضـطجع مـع بتشبع ، امـرأة أوريا الحثّي ، في مـا كان أوريـا في الجبهة يحارب دفاعـاً عن داود . وابنه أمنـون زنى بأخته ثامـار . ولم يوجّـه إليه أبـوه داود أي تعنيف أو لـوم . وابنه الآخـر ابشالـوم «نصب الخيمة على السطح ودخـل إلى زوجـات أبيـه أمـام جميـع إسرائيل» برأي اخيتوفل - مشير داود الذي «قال لابشالوم : ادخـل إلى زوجات أبيـك» . «وكانت مشـورة اخيتـوفـل التي كـان يشيـر بهـا في تلك الأيـام كمن يسـأل بكـلام الله . سفـر سمـوئيـل الثاني ١٦ : ٢٣» . ويهودا بن إسرائيل زنى بكنته ، وحبلت منه . وحـوادث زنى كثيرة حفـل بها الكتاب المقدس ، الذي يجعل من المنكرات فضائل ، ويصيّر المحرمات حسنات . مما ينهض دليلاً على أن إرتكاب مثل هذه الفواحش كان عندهم من الأمور المـألوفـة أو المستحبة . فلم يـرَ الكاتب من ضرورة إلى إخراجها بقالب من التبرير أو الإعتذار . بله الإدانة والإستنكار . فيقـول مثلاً «وكان يفتاح الجلعادي جبار بأس . وهو ابن امرأة زانية . سفر القضـاة ١١ : ١» . فلا لـوم عليه ولا تثريب في أن يكون ثمرة هذه الإنحرافات الأخلاقية والإجتماعيـة . وربما مـارسها كمـا فعل غيره من أحباب الرب وأنبيائه وأبناء أنبيائه . وليس في شيء من الغرابة أن «كان روح الـرب على يفتاح . قضاة ١١ : ٢٩» وأن «يفتاح قضى لإسرائيل ست سنين . قضاة ١٢ :٧» .

يُضاف إلى ذلك أن السيـاق الذي وردت فيـه الأمثلة المتعددة لـلإنحلال الجنسي ، يشيـر إلى أن رب بني إسرائيل كثيراً ما كان يقف من ذلك الإنحلال موقفاً «مزدوجاً» . أي موقف يجمع بين إتجاهين متعارضين في الوقت نفسه : الإبـاحة والتحـريم . الإدانة والإعتـذار . فبينما كـان يعلن إنكـار السلوك الجنسي المبتذل ، إذا بهـذا الإنكار يصـاغ في ما يشبـه الإعتـذار لصـاحبـه والتمجيد لشخصه .

* * *

أمـا وصية «لا تشتـه امرأة قـريبك ولا أمتـه . خروج ٢٠ : ١٧» فهي أقـرب ما تكـون إلى

(*) بلّيعال : سُبّة بشعة ومطعن خلقي معيب . فسّرها محرّر التوراة في هامش الفصل الثاني من سفر سموئيل الأول بمعنى : لؤماء .

الوصية السالفة «لا تزن» . لأن زناهم كان أكثر ما كان بنساء أقربائهم ، وبالتحديد بناتهم وإخواتهم وزوجات آبائهم . فلوط زنى بابنتيه ، وإن كان المحرر قد أخرج هذه الفاحشة بأسلوب المنطق التبريري الذي يرفع مسؤولية ارتكاب الفاحشة عن عاتق لوط ، وينيطها بأسباب خارجة عن إرادته ـ «السكر» . أو بسبب من أسباب القدر ـ «حرق سدوم وعمورة» .

وعندما زنى يهوذا بكنته ثامار فصّل المحرر ثوباً يكسو به عري هذه الفاحشة ، بقالب المنطق التبريري ذاته . فجعل «عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب . فأماته الرب» . وأراد لاو:ان أخيه أن يرفض الزواج من ثامار لأنه «علم أن النسل لا يكون له» . وعندما كبر ابن يهوذا الثالث «شيلة» ، «لم تعطَ له ثامار زوجة» . ثم ساق المحرر يهوذا «إلى جزّار غنمه ، إلى تمنة» . وكانت ثامار قد «خلعت ثياب ترمّلها وتغطت ببرقع» . «وجلست على طريق تمنة» لكي يراها حموها يهوذا ويزني بها ، فتكون الفاحشة مبرّرة لأن يهوذا «لم يعرف أنها كنته» (تكوين ٣٨) .

ورأوبين «ذهب واضطجع مع بلهة زوجة إسرائيل ـ أبيه» . وكذلك فعل ابشالوم الذي «نصب الخيمة على السطح ودخل إلى زوجات داود أبيه أمام جميع إسرائيل» . أما أخوه أمنون فقد «أحب أخته»يعني اشتهاها . وكانت الشهوة تتأكل في عروقه لدرجة سببت له «السقم» ، خاصّة وأن «أخته ثامار كانت عذراء ، وعسر في عينيه» أن يفض بكارتها . حتى أرسل له (الله) صاحبه يوناداب «الحكيم جداً» . وحكمة هذا الصاحب اهتدت إلى حيلة التمارض .

وما فعله «يوناداب الحكيم جداً» مع أمنون ، فعله اخيتوفل عندما أشار على ابشالوم بالإضطجاع مع زوجات أبيه . «وكانت مشورة أخيتوفل كمن يسأل بكلام الله» .

وخلاصة القول أكرر القول إن الشرائع تستقي أحكامها عادة من أخلاق الناس ، ومن أنماط حياتهم وتقاليدهم وأعرافهم . ومن ظروف المجتمع السياسية والإجتماعية . ونادراً ما تكون الشرائع والقوانين ابتداعاً جديداً كاملاً ، وإنما هي ترتكز دائماً على أساس عادات قائمة وعلى آراء وتقاليد وأعراف شعبية ، تتلاءم قليلاً أو كثيراً مع القانون أو الشريعة ، بحيث تكون العقول مهيّأة لتقبّلها . فلا يمكن لأكثر الحكام الديكتاتوريين استبداداً أن يفرضوا على الشعب قانوناً جديداً مطلقاً ، مخالفاً بوجه عام لميولهم ومزاجهم وأخلاقهم . أو مناقضاً لآرائهم وعاداتهم الموروثة ، ومستهزئاً بأكثر ما نشأوا عليه من تقاليد ، وما يتعلّقون به من ضروب الممارسات والأفعال . ورغم أن موسى كان من أكثر الحكام الديكتاتوريين إستبداداً ، بدليل أنه فرض قوانينه وآراءه على أتباعه بالقهر والقوّة ، لم يستطع أن يضمن تقبّل أتباعه لهذه القوانين والشرائع المخالفة لميولهم ومزاجهم وأخلاقهم . والمناقضة لعاداتهم الموروثة وتقاليدهم المتجذّرة في ذواتهم . ولذلك ظلوا يمارسون المحرمات التي نهى عنها في وصاياه ، أمام عينيه . وقد ذكرنا في ما تقدم خبر الإسرائيلي الذي «قدّم لاخوته المديانية أمام عيني موسى ،

وأعين كـل جماعـة بني إسرائيـل . عدد ٢٥ : ٦» . وضـاجعها في خيمـة الإجتماع ـ بيت ربهم يهـوه . وظلوا يمارسـون الموبقـات والمنكـرات من شتى أنـواع الـزنى ومختلف ضـروب العهـر والشبق الجنسي المهووس .

وهذه الشريعة التي حاول الأحبار أن يؤكدوها في نفوس أتباعهم بشتى الوسـائل . وتكـرار صياغتها بمختلف الأساليب : من نهي ، إلى أمر ، إلى تقرير مقرون باللعن ، إلى . . تدل على أن هذه الموبقات والمنكرات وأنواع الشذوذ الجنسي ، كالسفاح واللواط والإغتصـاب ، وغيرهـا من الرذائل التي تنهي الشريعة الموسوية عن اقترافها ، كانت متفشية فيهم كثيراً . وأن ممـارستها كانت شيئاً عادياً ومألوفاً في حياتهم . أو قـل إن أخلاقيـات التجمّع الإسـرائيلي كانت تبيـح هذه الكبائر دون أي غضاضة .

والواقع أن التوراة تنطوي على تفصيلات مدهشة لما قارف الآباء ، الأنبياء ، الملوك ، من منكرات ومباذل ، وما اجترحوا من موبقات ورذائل . وما تردّى فيـه بنو إسـرائيل بعـامة من مخـاز وفجور . فلا تؤثم مجترحيها وإنما تغضي عنها إغضاء مقصوداً يوحي بإقرارها .

وثَمّ من المثالب والنقائص التي يلصقها محرّرو التوراة بهؤلاء الآباء ، الأنبيـاء ، الملوك ، ما يضفي عليهم سابغات من سوء الخلال ، كالختل والخداع والغدر والكذب . بـل ومن صنوف الدنس ، ما يندى له وجه الفضيلة . وما لو أسند بعضه إلى السوقة وجهلة العوام ، لحقت عليهم اللعنات ولباؤا بالخزي والعار .

والـطريف أن هؤلاء الآباء ، الأنبيـاء ، الملوك هم الأسوة المثلى للقيم اليهـودية والسلوك اليهودي في أقوالهم وفي أفعالهم . وأن هذه «التعاليم» التي بلغت في العنف والقسوة والـوحشية حداً لا شبيه له حتى في أعرق الشعـوب بداوة ، والتي تنـزع بمن كتبت لهم ، وبالمؤمنين بهـا ، كل منزع في الإحن والكيـد والملاحـاة ، تكاد لا تتخيّلهـا فطرة سليمـة حقيقة واقعـة ما لم تـرهـا مدونة في كتاب «العهد القديم» المقدس بتفصيـل وتأكيـد وإصرار ، مـع التهديـد والوعيـد بسوء المصير إن هم أخلوا تطبيقها .

والأطراف أن هذه «القيم المأثورة» التي تنبهم في قتامها كـل معالم الأخـلاق ، ما بـرحت ماثلة في أخلاد اليهود ، وفي أخلاد الشعوب المسيحية ، الذين يطالعون النصوص التي تضمنتها في عباداتهم بكرة وعشيّا ، ويردّدونها في صلواتهم ركّعاً وجثيّاً .

الشريعــة الخاصّــة

كان موسى قد جمع أتبـاعه في وحـدة سياسيـة ـ دينية . أي وحـدة سياسيـة يجمع شملهـا الدين . ووحدة دينية ، هدفها تحقيق الأغراض السياسية . ونـظر إلى الدين على أنـه آلة ، قـوة قاهرة ، تخضع السواد الأعظم من العامة لمشيئته ، فيكون قادراً على تسخيـرهم واستخدامهم .

فكان من الطبيعي أن تنطلق تشريعات موسى من مفهوم القبيلة . وتنحصر في تنظيم أتباعه في وحدة قتالية قادرة على تحقيق أطماعه في السطو والسيطرة . وتجسيد آماله في الوصول إلى المجد والسلطان . والإنطلاق لقهر الشعوب واحتلال أراضيها . وتؤكد على ربط اليهود بعضهم ببعض في فئة عنصرية غير قابلة للإندماج مع الآخرين .

وفي السبي البابلي شعر الأحبار والكهنة بأن عليهم أن يهيّئوا المسبيين نفسياً للرحيل عن بابل ، والعودة إلى أرض فلسطين ، لإنشاء دولة قوية ينطلقون منها للسيطرة على العالم . فخطّطوا بدقة كي يُبقوا اليهود كتلة قومية واحدة متماسكة . ووضعوا من جديد هذه الشريعة التي ترمي إلى محاربة إندماج اليهود بغيرهم من الأمم والشعوب . وتنظم علاقات الأفراد اليهود بعضهم مع بعض . ولا تكترث بعلاقاتهم مع غيرهم من أفراد الشعوب . وتهدف إلى تنمية الإعتقاد في نفوسهم بالتفوق والإمتياز والإختيار . وتعزيز الشعور بالعرق الخاص والعنصر المتميّز . فكانت هذه التشريعات العنصرية المنغلقة التي تدور في دائرة القبيلة الإسرائيلية ، لا تتعداها إلى غيرها من الشعوب . وإذا صدف وتعدتها ، فلتبيان الوسائل في امتصاص دم الشعوب ، أو إستعبادها بأي شكل من أشكال الرق . خذ مثلاً من هذه التشريعات العنصرية الخاصّة بجماعة بني إسرائيل ، قول يهوه الموسوي «لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك . خروج ٢٠ : ١٦ و١٧» . وقوله «لا تقرض أخاك بربا . . للأجنبي تقرض بربا . ولكن لأخيك لا تقرض بربا . تثنة ٢٣ : ١٩» . «إن أقرضت فضة لشعبي فلا تكن له كالمرابي . لا تضعوا عليه ربا . خروج ٢٢ : ٢٥» . «وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك ،فلا تستعبده استعباد عبد . . ولا تتسلّط عليه بعنف . . وإلى آبائه يرجع . . وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك ، فمن الشعوب الذين حولكم . منهم تقتنون عبيداً وإماء . وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم . منهم تقتنون ، ومن عشائرهم الذين عندكم ، الذين يلدونهم ، فيكونون ملكاً لكم . وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى الدهر . وأما اخوتكم بنو إسرائيل ، فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف . لاويين ٢٥ : ٣٩ ـ ٤٦» .

فهذه الشرائع أو الفرائض أو الوصايا تقرّر أن نظرتهم إلى غير اليهودي هي نظرة شاذة . فلا يجوز مثلاً للإسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلي . بينما يُباح له أن يمتص غيره من الأمم والشعوب ، ويتعامل معه بأبشع أنواع الربا الفاحش . ولا يجوز لليهودي أن يسرق أخاه اليهودي ، ولا أن يشهد عليه بالزور ، ولا أن يقتل يهودياً ، أو يكذب عليه ، أو يغدر به ، أو يغصبه ، أو ينتقم منه ، أو يحقد عليه ، أو يشتهي امرأة قريبه ، أو بيته ، ولا أن يسبب لليهودي أذى بواحدة من هذه النقائص الإجتماعية التي يعدّدها المحرر .

ولكن الشريعة الموسوية تبيح لليهودي ، بل تأمره بمعاملة غير اليهودي بجميع هذه

النقائص الإجتماعية ، المحرّمة في معاملة اليهودي لليهودي . ولا غرو ، فكتابهم المقدس أكد لهم بأنهم جماعة فوق مستوى البشر . لا تربطهم بالناس رابطة ، ولا تشدهم إليهم آصرة . فليس لغريب عليهم حق ، وليس عليهم لغريب واجب . وقد أشعرتهم شريعتهم بأنهم درة يتيمة بين الشعوب . فلا تسمح لهم بأن (ينحطوا) إلى مستوى سائر الأمم ويذوبوا فيها . ولا تبيح لهم أن (يرفعوا) تلك الأمم إلى مستواهم ويعيشوا معها .

حضارة رعاة

كان الموسويون الخارجون من مصر «قطيعاً همجياً هارباً من أرض العبودية»(١٤٨) . وبعد أربعين سنة من التبدّي في صحراء سيناء ، بدأوا يطرقون أبواب أرض فلسطين . وإذا كان بعض ممالك فلسطين كادوم وعراد وسيحون وباشان قد صدّ بني إسرائيل الغزاة عن تخومه ، لأنه شعر بهم «شعباً لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى . سفر العدد ٢٣ : ٢٤» . و«جمهوراً يلحس كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل . عدد ٢٢ : ٤» . ولم يسمح لهم بالإقتراب من تخومه ، أو بالمرور في أراضيه . فإن ممالك أخرى في فلسطين سمحت لهم بالمرور في أراضيها ، وتسريح مواشيهم في مراعيها . وفي كتاب التوراة (العهد القديم) شواهد عديدة على دخول بني إسرائيل الأرض على شعوبها ، متغربين ، مسالمين . والعيش بين أصحاب الأرض الذين أفسحوا لهم مجالاً للرعي في مروجهم ونصب خيامهم في أراضيهم . فحين «انفرد حابر القيني من قاين ، خيّم حتى إلى بلوطة في صعنايم التي عند قادش . قضاة ٤ : ١١» . وحين «ملك زمري على إسرائيل سبعة أيام في ترصة ، كان الشعب نازلاً على جبثون التي للفلسطينيين . سفر الملوك الأول ١٦ : ١٥» .

فهم رعاة ظلوا فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين ، يمارسون حياة الرعي . ويخضعون لنظام رعائي . والنصوص أو الإشارات المعبّرة عن حياة الرعي وأدواته كثيرة . خذ مثلاً قول المحرر في سفر القضاة (٣ : ٣١) إن شمجر بن عناة ، أحد قضاة إسرائيل ، «ضرب من الفلسطينيين ست مائة رجل بمنساس البقر» . وقوله إن «يائيل امرأة حابر القيني . . ضربت وتد الخيمة في صدغ سيسرا ، رئيس جيش ملك كنعان ، وهو متثقل في النوم في خيمتها ومتعب ، فمات . قضاة ٤ : ٢ و١٧ و٢١» .

لا يعنينا التعليق على هذا الكلام أو البحث في صحته . وإنما يهمنا الإشارة إلى المنساس ـ أداة الراعي الذي كان أحد قضاة بني إسرائيل يستخدمه في الصراع مع أصحاب الأرض . والإشارة إلى وتد الخيمة والخيمة اللذين ظلّا يرفقانهم مذ تسلّلوا إلى أرض فلسطين حوالي القرن العاشر ق . م . إلى أن سُبوا منها إلى بلاد ما بين النهرين (٧٢١ق . م .) .

فحين فرغ يشوع من إلقاء التعليمات على جماعته «قال لهم : انصرفوا الآن إلى خيامكم . يشوع ٢٢ : ٤» .

وحين انتقى جدعون ، أحد قضاة بني إسرائيل ، مقاتليه «أرسل سائر رجال إسرائيل ، كل واحد إلى خيمته . قضاة ٧ : ٨» .

وحين «اختار شاول لنفسه ثلاثة آلاف من إسرائيل . . أرسل بقية الشعب ، كل واحد إلى خيمته . سموئيل الأول ١٣ : ٢» .

وحين «هرب الملك داود من الأرض لأجل ابشالوم (ابنه) . . هرب بنو إسرائيل ، كل واحد إلى خيمته . سموئيل الثاني ١٩ : ٨» .

وحين أمر الملك داود بمسح ابنه سليمان ملكاً على إسرائيل ، «نزل صادوق الكاهن وناثان النبي . . واركبوا سليمان على بغلة الملك داود ، وذهبوا إلى جيحون . فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان . سفر الملوك الأول ١ : ٣٨» .

وحين أصبح سليمان ملكاً على إسرائيل «بارك بنو إسرائيل الملك ، وذهبوا إلى خيمهم . ملوك أول ٨ : ٦٦» .

وحين «انهزم يهوذا أمام إسرائيل ، هربوا كل واحد إلى خيمته . سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٢» .

وحين «خرج بنو إسرائيل من تحت يد الأراميين ، أقام بنو إسرائيل في خيامهم كأمس وما قبله . سفر الملوك الثاني ١٣ : ٥» .

وحين «حارب الفلسطينيون انكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته . سموئيل الأول ٤ : ١٠» .

ومن أدوات الراعي التي ظلت ترافقهم أيضاً ، المقلاع ؛ والمقلاع سلاح الرعاة الرئيسي . فحين احتدم الصراع بين بني إسرائيل وبين بني بنيامين (أحد الأسباط) كان من بين مقاتلي بني بنيامين «سبع مائة رجل منتخبون عسر . كل هؤلاء يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة ولا يخطئون . قضاة ٢٠ : ١٦» . ولذلك كان حجر الصوان الذي يؤخذ من السيل ، أمضى من الرمح في يد هؤلاء الرعاة . فبالمقلاع تمكن داود من قتل الجبارالفلسطيني جليات . يقول المحرر «حين تقدم داود نحو الفلسطيني جليات أخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادي وجعلها في كِنْف الرعاة الذي له أي في الجراب ، ومقلاعه بيده . . وكان لما قام الفلسطيني وتقدم ، أن داود مدّ يده إلى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع في جبهته ، فسقط على وجهه إلى الأرض . سفر سموئيل الأول ١٧ : ٤٠ و ٤٨ و ٤٩» .

وقد ظل بنو إسرائيل قوماً من الرعاة ، فانحصر عملهم في تربية المواشي . وما كان عمل النافذين فيهم قبل أن يتولوا زمام قيادتهم ، غير جرّ المحراث وجزّ الشياه . فحين «كان جدعون يخبط حنطة في المعصرة لكي يهرّبها من المديانيين ، ظهر له ملاك الرب وقال له . . إذهب

بقوتك وخلّص إسرائيل من كفّ مديان . قضاة ٦ : ١١ و١٤» .

وحين كان شاول يبحث عن أتن أبيه الضالة «التقى به سموئيل الكاهن ومسحه ملكاً على إسرائيل . (سموئيل الأول ٩) . وفي اليوم التالي ، وبعد مسحه ملكاً ، كان شاول ، كما يقول المحرر ، «آتياً وراء البقر من الحقل . سفر سموئيل الأول ١١ : ٥» .

وحين ذهب سموئيل ليمسح داود ملكاً على إسرائيل ، كان هذا الأخير يرعى الغنم . (سموئيل الأول ١٦ : ١١) .

وظل زعماؤهم يقيمون في الخيم حتى أيام شاول . «فدبورة نبية وقاضية إسرائيل . . كان بنو إسرائيل يصعدون إليها للقضاء . . وهي جالسة تحت نخلة بين الرامة وبين بيت ايل . قضاة ٤ : ٤ و٥» .

«وكان شاول (الملك) مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة التي في مغرون ، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل . سموئيل الأول ١٤ : ٢» .

وكذلك ظل إلٰههم يهوه يقيم في خيمة حتى أيام سليمان . ففي سيناء «كلم يهوه موسى قائلاً : تقيم مسكن خيمة الإجتماع . وتضع فيه تابوت الشهادة» . وحين «أقام موسى المسكن . . وبسط الخيمة فوق المسكن . . غطت السحابة خيمة الإجتماع وملأ بهاء الرب المسكن . سفر الخروج ٤٠ : ٢ و١٨ و٣٤» .

وظل يهوه مع خيمته يرافقهم في حلّهم وترحالهم في صحراء سيناء . وبتعبير المحرّر «كان بنو إسرائيل يرتحلون عند ارتفاع السحابة عن المسكن . وإن لم ترتفع السحابة لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها ، لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهاراً . وكانت فيه نار ليلاً . خروج ٤٠» .

ودام ذلك أكثر من مائتي سنة . ويهوه راض عن خيمته وعن شعبه . إلى أن سيطر داود على جماعة بني إسرائيل وأصبح ملكاً . «فجمع داود جميع المنتخبين في إسرائيل . . فأركبوا تابوت الله على عجلة وحملوه من بيت أبيناداب . . إلى الخيمة التي نصبها له داود . سموئيل الثاني ٦ : ١ و٣ و١٧» .

وحين «سكن داود في بيت من أرز . سموئيل الثاني ٧ : ٢» كلم يهوه ناثان النبي قائلاً «إني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم . بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن . سموئيل الثاني ٧ : ٦» .

فيهوه لم يكن له بيت لأن أتباعه لم يكن لهم أرض يقيمون عليها بيتاً له أو لهم . والبيت الذي «شرع سليمان في بنائه للرب في أورشليم في جبل المريّا . سفر أخبار الأيام الثاني ٣ : ١» . كان أبوه داود قد «هيّأ مكاناً له في بيدر أرنان اليبوسي . الذي وهبه اياه أرنان . فحين تقدم داود من

أرونـة قائـلاً : جئت «لأشتري منـك البيدر لكي أبني مـذبحاً ليهوه (الرب) . . قـال لـه أرونـة : فليـأخذه الملك ويصعـد ما يحسن في عينيـه . انظر البقـر للمحـرقـة ، والنـوارج وأدوات البقـر حطباً . الكل دفعه أرونة المالك إلى الملك . سموئيل الثاني ٢٤ : ٢١ ـ ٢٣» .

* * *

ظل بنو إسرائيل فترة استيطانهم القصيـرة في أرض فلسطين قبـائل رحّـلاً ، لم تستطع في يـوم من الأيام أن تكـوّن لها كيـاناً مـوحّداً ممـا ينطبق عليـه معنى الأمة بـالمفهوم الإجتمـاعي . وتقصيـرهم في وعي الفكرة السيـاسية في الحكم أدّى بهم إلى حيـاة فـوضـويـة وفتن في مـا بين بعضهم البعض . وقد حالت حياتهم القبلية دون الوحدة ودون الخضوع لزعامة بعينهـا . ولذلـك لم يُوجِدوا أي نظام سياسي خاص . وكل الذي عرفوه هو النظام القبلي أي حكم الأسرة أو شيـخ القبيلة . ومن هنا عجزوا عن المساهمة في أي شيء في مضمـار الحضارة . ولـم يجـاوزوا أطوار الحضارة الدنيا ، لأن التأثير في المحيط الحيوي ، تبديلاً أو إبـداعاً ، والسيـطرة على أي مجال حيوي ، هو إنجاز إجتماعي أكثر منه إنجازاً تكنولوجياً . والواقع أن كل الإنجازات التكنـولوجيـة التي تمت على يد البشرية كانت إنجازات إجتماعية . فالإنسـان كائن إجتمـاعي . والإجتماعيـة هي الشـرط اللازم لصنـع أي شيء حتى أبسط الأدوات . ثم إن المجتمع لا يقـوم بغيـر نـظام . والنـظام لا يكون من دون قـانون أو تقـاليد أخـلاقية ، تقـرّر النظام وتـرعاه . ولا يمكن للفـرد أو التجمع البشري أن يعرف العمران حين يكون جهده ضائعاً في الفوضى والفتن ، أو منصرفـاً إلى تـأمين الحاجـات المعاشيـة . وليس في الإمكان الـوصول إلى أي مستـوى حضاري دون تـنـظيم سياسي ودون قيام حكومات تكفل الأمن للفرد والجماعة ، وتـرعى العلوم والفنون وسـائر مـظاهر الحياة الإجتماعية .

عاش بنو إسرائيل في ظروف فُقد في ظلّها الأمن والإستقرار ـ العاملان اللذان يعتبـران من أهم عوامل الأخذ بأسباب الحضارة والتـطور . ومن الصعب القول إنهم عـاشوا أي فتـرة ، مهما تكن قصيرة ، في ظروف تخدم تنمية الإحساس بالإستقرار والطمأنينة والإنتماء القومي . ولـذلك ظلوا على هامش الحضارة ، ولم يجاوزوا طبائع الرعاة . ولم يدخلوا دائرة التطور الإجتمـاعي . ولم يملكوا أياً من المقومات الأساسية لكيان حضاري مستقل . ولم يمارسـوا حكماً زمنيـاً قائمـاً على أسس قومية . ولم يألفوا غير السلطة الدينية . فكانوا منذ عهد موسىٰ يمثّلون جماعة رعاة ، يرتكز كيانها الرعوي على الدين . وكان حكامهم في أغلب الحالات كهنة . والكيان الذي أقاموه لفترة وجيزة لا تتجاوز القرن ، لم يقم على أساس قومي راسخ ، أصيل بثقافته ولغتـه وتقاليـده ، لأنهم لم يملكوا أي تراث خاص بهم ، ومعظم ما مارسـوه من لغة وثقـافة مقتبس من الكنعـانيين سكان فلسطين الأصليين(١٤٩) .

وهذه الجماعات البدوية التي لعب الترحـال دوراً هامـاً في حياتهـا ، لم تترك أي بصمـة

حضارية أو عمرانية عندما حطت الرحال في أرض فلسطين . فلم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ، ولا أي شيء تقوم به حضارة . ولم يأتوا أبداً بأي مساهمة ، مهما صغرت أو قلت ، في حقل المعارف الإنسانية وفي تقدم الحضارة . ولم يجاوزوا قط مرحلة الجماعات شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ(١٥٠) .

وعندما لم يتوفر لهم الإستقرار لم يعرفوا أبسط مظاهر العمران ، كالزراعة والصناعة . أو قل لم يحاولوا أن يمارسوا أي صناعة حتى صناعة السيف الذي كان في تلك العصور يعتبر العامل الرئيسي في أيدي الغزاة كبني إسرائيل . يقول محرر التوراة «وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول . سموئيل الأول ١٣ : ٢٢» . وبلسان قاضية إسرائيل دبورة النبية «هل كان يُرى مجن أو رمح في أربعين ألفاً من إسرائيل؟ . قضاة ٥ : ٨» . وبما أنه «لم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل ، فقد كان ينزل كل إسرائيل إلى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله . سموئيل الأول ١٣ : ١٩ و ٢٠» . واضطر يشوع أن يصنع سكاكين من صوّان ليختن بني إسرائيل . (يشوع ٥ : ٣) .

يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون «كان بنو إسرائيل عاطلين من أي فن ومن أي علم ومن أي صناعة» ، حتى من العمال المهرة . يقول الملك سليمان «ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين . ملوك أول ٥ : ٦» . ولم يميلوا إلى الأخذ بطرف من ثقافة . «ولا نجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود»(١٥١) . ولذلك لم ينشئوا شيئاً من القُرى أو المدن فترة إستيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين . ولم يكن لهم أي مظهر من مظاهر العمران . وعندما تمّ إجلاؤهم لم يخلّفوا أي أثر عمراني أو سياسي أو إجتماعي .

والهيكل الذي بناه سليمان في أورشليم ، وظل اليهود يعدونه من مفاخر تراثهم ، ليس من الوجهة المعمارية إلّا بناء ضئيلاً بالقياس إلى المعابد في بابل وفي مصر . يقول المؤرخ هـ . جـ . ويلز «لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي»(١٥٢) . وبمقاييس محرر التوراة فإن «البيت الذي بناه الملك سليمان ليهوه (الرب) طوله ستون ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً ، وسمكه ثلاثون ذراعاً . ملوك أول ٦ : ٢» . يُضاف إلى ذلك أن البناة كنعانيون ، بنوه على طراز كنعاني ، وعلى رأسهم المهندس «أحيرام من صور ، وهو ابن امرأة أرملة . وأبوه رجل صوري نحاس . كان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة لعمل كل عمل في النحاس . فأتى إلى الملك سليمان وعمل كل عمله . ملوك أول ٧ : ١٣ و ١٤» .

وباختصار ، لم يكوّن بنو إسرائيل يوماً متحداً مكتمل النمو والتنظيم . ولم يكن لهذه الجماعة روح جامعة ، وبالتالي لم يكن لهم روح حضارية ولا وجود شخصي . ورغم التسامح الذي أبدته الشعوب الكنعانية تجاه اليهود ، فقد ظلوا يصرّون على عزل أنفسهم عن جميع

المجتمعات . وظلوا متجمّدين في تقاليد أفقدتهم المقدرة على مسايرة مقتضيات التطور ، وحبست عليهم النزوع إلى الإبداع الحضاري .

وظل الفكر اليهودي مكدوداً ، مضطرباً ، مشوشاً ، قلقاً ، مشدوداً بالأحداث الطارئة ، مشغولاً بالإهتمامات السطحية التافهة . محصوراً في إطار فكرة معينة ـ الأرض ، لأن بني إسرائيل لم يلتصقوا بأرض فيفجروا فيها ينابيع العطاء ، ولم يُدلُوا بدلو في ينابيع المعرفة الإنسانية المتفجرة من حولهم .

في وقت كان الإنسان القديم في الشرق المتوسطي (سوريا الطبيعية ومن ضمنها فلسطين) قد وصل إلى بصيرة إجتماعية عالية . وبلغ في النمو الخلقي والإجتماعي ، وما يتضمّنه من مثل إجتماعية تستند إلى مفاهيم خلقية رفيعة ، مرحلة النضج والإستقرار . قبل أن يكون لجماعة بني إسرائيل وجود بعدة آلاف من السنين . ففي الجزء الجنوبي الغربي من سوريا الطبيعية (فلسطين) بدأت الحضارة النطوفية (نسبة إلى وادي النطوف في شمال غربي القدس) مع بداية العصر الحجري الوسيط (١٢٠٠٠ ق . م) . وقد دلت الآثار المكتشفة كالسكاكين والمناجل المصنوعة من الصوان البركاني وغيرها على اشتغالهم بالزراعة في وقت مبكر يسبق الألف الثامنة ق . م . وربما كانوا مع معاصريهم في الشمال السوري أول من مارس الزراعة في العالم. وليس لدينا أي دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر المبكر ، كما يقول المؤرخون وعلماء الآثار[١٥٣] .

ويرجح علماء الآثار أن النطوفيين كانوا أول من استعمل أداة الحصاد المعقدة ـ المنجل . وقد انبعثت منهم معرفة زراعة الحنطة والشعير ، ومعرفة أداة الحصاد ـ المنجل على شكل دوائر ظلت تتسع شيئاً فشيئاً حتى وصلت مصر وبلاد النهرين ، وبلغت شواطىء البلطيق والبحر الشمالي حوالي ٢٥٠٠ ق . م .

والملاحظ أن زراعة العنب والتين والزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة كانت كثيرة ومتقدمة في بلاد كنعان . ومنذ الألف الثالثة ق . م . كانت معاصر الزيتون والعنب في فلسطين مصنوعة بمنتهى الدقة والإتقان .

وخصب فلسطين في القرون الخالية كان مشهوراً . فقد بهرت بني إسرائيل عندما وصلوا إلى تخومها بعد تبدّيهم في سيناء قرابة نصف قرن . وكان جواسيسهم يأتونهم بما يثير الحماسة من وصف لتلك البقعة التي تجري فيها جداول من لبن وعسل . ويرونهم نماذج من أثمارها اللذيذة وقطوف عنبها العظيمة التي لا يستطيع الرجل الواحد أن يحمل واحداً منها . فالجواسيس الذين «أرسلهم موسى ليتجسّسوا أرض كنعان . . قطفوا من الأرض التي تجسّسوها زرجونة بعنقود واحد من العنب، وحملوه بالدقرانة بين إثنين ، مع شيء من الرمان والتين . . ثم رجعوا وقالوا لموسى : حقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً ، وهذا ثمرها . سفر العدد ١٣ : ١٧ و ٢٣ و ٢٧» .

وفي حقل العمران ، كـان الكنعانيـون ماهـرين في قطع الحجـارة الضخمة . وفي تشييـد القصور والمعابد والحصون . وقد توصل الإنسان القديم في الجنوب السوري إلى بناء المساكن بالحجر منذ الالف الثامنة ق . م . ومن أكمل وأجمـل ما تـركه لنـا الإنسان المتفـوق في سوريـا الجنوبية ، مدينة أريحا بطابعهـا العمراني المتقـدم . فلقد أثبتت الحفـريات الآثـارية أن أريحـا كانت منذ الألف السابعة ق . م . مدينة جيدة البناء ومحاطة بأسوار حجرية(١٥٤) . بالإضافة إلى خندق يحفظ المياه حول السور . والإنجـازان يشهدان على مـا وصل إليـه الكنعانيـون من تنظيم إجتماعي وإداري . وأظهرت الحفريات أيضاً آثار برج ضخم مستدير يصعد من جـوفه درج متقن الصنعة يدل على رقي واسع في الفن المعماري .

والـواقع أن مـدن الكنعانيين كـانت بشكل عـام حصينة ومحـاطـة بـالأسـوار . فقـد شيّـد اليبوسيون مثـلاً حصناً عـظيماً حـول أورشليم . وفي مدينـة جازر عشـر المنقبون على بقـايا سـور قطعت حجارته بأدوات حادة وهذبت قليلاً . وكان للسور أبراج يبلغ ارتفاع الواحد منها إثني عشر قدماً .

وأنشأ الكنعانيون القلاع وما يرافقها من تحصينات دفاعية ومشاريع هندسية لدرء الخطر في وقت الحصار . ومن بقايا تلك المشاريـع التي تزال آثـارها مـاثلة للعيان ، النفق الـطويل (٢١٩ قدماً) في بلدة جازر للوصول إلى نبع ماء على عمق حوالي مائة قدم ، يهبط إليه الإنسان بواسطة مدرج مكوّن من ٨٠ درجة . وأنشأ الكنعانيون مشروعاً آخر من هذا القبيل في أورشليم .

المهم أن دوافع الإنسان القديم في سوريا الطبيعية لتكوين الحضارة ، تتجذّر وتتشعّب في سـائر حقـول النشاط الإنسـاني . وقد بلغت مـا بلغته من التـطور في نواحي الحيـاة جميعها وفي مجـالاتها كـافة . فقبـل التاريـخ المدون كـان للسوري القـديم خطوات فعّـالة في صنـع حياتـه المستقـرة . وحين تحرّر عقله من الإهتمـامات المعـاشية بـدأ يستجيب لمحرضـات الـطبيعـة ، مستخدماً كل ما تقدمه له من إمكانات لتحسين وجوده . فعرف منذ الألف السـابعة ق . م . مثـلاً أن يبني المنازل بالحجر ويكسو الجدران بالـطين . ويصنع الأدوات المختلفـة من الفخار ، ممـا وفّر له المجال لتنمية الشؤون الرفيعة في سائر مجالات الحياة الإقتصادية والإجتماعية والعمـرانية والسياسية . وفي أدوار لاحقـة ، وقبل التـاريخ المـدون أيضاً ، ألّف الحكـومات المـدنية ذوات الدوائر المنظمة . وأنشـأ المؤسسات الإجتمـاعية والإقتصـادية . وبـدأ بتكوين أو وضـع الأسس لحياته السيـاسية والإجتمـاعية . وبـالتالي تكـوين معالم حضـارة بلغت شأواً عـالياً من النضـوج والتفوق قبل بداية العصر التاريخي . وشكلت الأصول الأولى للحضارة الإنسانية .

وهكذا تطوّر على يدي الإنسـان القديم في سوريا الطبيعيـة إقتصاد زراعي اتصف بـالثراء والإستقرار . وفي أرض سوريا نمت بذور التشكيل السياسي والتكوين الحضاري ، كـانت بالغـة الأهمية والأثر في تاريخ الحضارة الإنسانية . وعلى هذه الأرض قامت أولى الحضارات العمرانية

بما اشتملت عليه من تنويع وتعقيد وثراء في الحياة وتخصّص صناعي وإزدهار تجاري . وعليها ترسّخت أُسس حضارية عريقة أعطت العالم القديم منذ خمسة آلاف سنة إلى اليوم ، كل ما يؤمن به في الروح وما يعرف في الفكر . أعطت الدنيا معرفة زراعة الأرض ، وخطوط الهندسة ، والصناعة ، والحرف . كما أعطته أعلى درجات السمو يوم علمته الإيمان بالإله الواحد . وعليها أُقيمت المعابد ورفعت الزقورات الشاهقة التي تشيع في القلب الرهبة والمهابة . ومنها انتشرت ثقافة السوريين القدماء ومفاهيمهم الحضارية شرقاً وغرباً ، فتركوا بصماتهم على جميع الثقافات القديمة . ومن الطبيعي أن العنصر الثقافي هو الجوهري في أي حضارة[١٥٥] .

وفي منائر سوريا الطبيعية (أوغاريت مثلاً) تمّ تطوير الحروف المسمارية إلى أبجدية أحدثت ثورة في الاتصالات قريبة الشبه بالثورة التي أحدثتها الإختراعات الإلكترونية في الربع الأخير من القرن العشرين .

وباختصار ، درجت على هذه الأرض لأول مرّة في التاريخ . مظاهر الحضارة ، من معتقدات ميثولوجية إلى إزدهار اقتصادي وإنجازات إنشائية فأنظمة تشريعية وتضامن إجتماعي . فكان لسوريا دور الرائد في تكوين وإنشاء معالم الحضارة الإنسانية . وبالتالي بلوغ مرحلة النضوج والتفوق . ومن أرضها شعت أنوار الحضارة على العالم القديم ، فنعم بها دهراً ، ولا يزال ينعم بثمارها إلى اليوم .

وهنا أود أن أنقل إليكم ما عبّر به المؤرخ وليم ديورانت عن المقاييس الحضارية ، أعني وجوه السبق والتفوق والإبداع ، في هذه الحضارة . قال «لقد انقضى منذ بداية التاريخ المدون حتى اليوم ما لا يقل عن ستة آلاف سنة ، كان الشرق المتوسطي (سوريا الطبيعية) في ما يزيد على النصف من هذه المدة ، مركز الحضارة الإنسانية التي وصل إلينا إشعاعها . ففي هذه الأرض عرف الإنسان لأول مرة في التاريخ الزراعة والصناعة والتجارة . وفيها سكت النقود ، واستؤنست الخيول ، وصنعت لها المركبات . ووضعت الشرائع ، وانتظمت الشعوب في حكومات وقوانين . ونشأت الحرف والصناعات . وعرفت العلوم على اختلافها : الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والهندسة . ووضعت التقاويم . وصنعت الساعات . وصورت دائرة البروج . وعرفت الحروف الهجائية والكتابة . واخترع الورق والحبر . وألفت الكتب وشيّدت المكتبات وأنشئت المدارس . وفي هذه الأرض نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات . وأول نظام للري ، وأول العقود التجارية . وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم البضائع . وأول كتب القوانين . وأول قصص الخلق والطوفان . وأول أشكال الأدب والشعر والنحت والنقش . وأول الهياكل والقصور» .

ويضيف ديورانت «إن اليونانيين ، والأوربيين بشكل عام ، لم يشيدوا صرح الحضارة . وإنما اقتبسوا مظاهرها عن بابل ومصر . وما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلّل

المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف سنة ، جاءت إلى مدنهم مع مراكب التجارة أو بغيرها من وسائل الإتصال بين الشعوب . فإذا ما درسنا الشرق المتوسطي وعظّمنا من شأنه فإننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن وضعوا الأسس في صرح الحضارة الأوروبية . وهو دين كان من الواجب أن يؤدّى منذ زمن بعيد»[١٥٦] .

والواقع أن فضل الكنعانيين الأكبر على شعوب حوض المتوسط القديمة هو في فتحهم أبواب هذا البحر على المحيط الأطلنطيكي . وقد كان اكتشاف الكنعانيين للأطلنطيكي ودخولهم «بحر الظلمات» لأول مرة في التاريخ ، بمثابة توسيع وتمديد لمساحة العالم توسيعاً وتمديداً ظهرت نتائجهما بعد قرون وقرون عديدة في إكتشاف كولومبس لاميركا[١٥٧] .

والجدير بالذكر أن التجارة الكنعانية ظلت إلى وقت متأخر (القرن السادس ق . م .) في ازدهار عارم وعلى نشاط جم ، استأثر بإعجاب أنبياء بني إسرائيل ، فراحوا يصفون تلك التجارة وصفاً مسهباً رائعاً بالرغم من كل ما كانوا يكنّونه من حقد دفين وكراهية عمياء لكل ما هو كنعاني . فأشعيا مثلاً يشير إلى صور «التي منذ الأيام القديمة قدمها . صور المتوّجة ، التي تجارها رؤساء ومتكسّبوها كرام الأرض ٢٣ : ٧» . ويتحدث حزق ايل عن «صور الساكنة عند مداخل البحر . تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة . . تخومك في قلب البحور . بناؤوك تمّموا جمالك . عملوا كل ألواحك من سرو سنّير . أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري . صنعوا من بلّوط باشان مجاذيفك . صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم في البقس من جزائر كتّيم . كتان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية . الاسمانجوني والأرجوان من جزائر اليشة كانا غطاءك . أهل صيدون وارواد كانوا ملاّحيك . حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك . شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلاّفوك . جميع سفن البحر وملاّحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك . فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك . علّقوا فيك ترساً وخوذة . هم صيّروا بهاءك . بنو ارواد مع جيشك على الأسوار من حولك ، والأبطال كانوا في بروجك . علّقوا أتراسهم على أسوارك من حولك . هم تمّموا جمالك . ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك . ياوان وتوبال وماشك هم تجارك . . بنو ددان تجارك . جزائر كثيرة تجار يدك . أدّوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس . آرام تاجرتك بكثرة صنائعك . تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرّز والبوص والمرجان والياقوت . . دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك ! ودان وياوان قدّموا غزلاً في أسواقك . . ددان تاجرتك بطنافس للركوب . العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك . . تجار شبا ورعمة هم تجارك بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك . حران وكنّة وعدن تجار شبا وأشور وكِلْمَد تجارك . . سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلأتِ وتمجدّت جداً في قلب البحار . .

عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين . بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت

ملوك الأرض ٢٧» .

وبعد ، أعتقد أن الذي يُشبع الشعوب ويُغني الملوك هو صاحب رسالة إنسانية ، أخلاقية ، وحضارية . للعطاء مفهوم أخلاقي من حيث هو فعل محبة . ومفهوم إنساني من حيث هو تعاون . ومفهوم حضاري من حيث هو تفوق . المتفوّق وحده يعطي ويعرف أنه يُعطي . وقد كان عطاء الكنعانيين كبيراً وشاملاً .

ولقد حاول الكنعانيون الذين كانت أبوابهم مشرعة لجميع الأفكار والمعتقدات والتشريعات التي تعنى بشؤون الإنسان . حاولوا ، بتسامحهم وإنفتاحهم ، أن يحتضنوا جماعة بني إسرائيل . ويصيروا معهم «شعباً واحداً» كما قال حمور أمير شكيم لبني إسرائيل ، ولكن الجماعة أبوا الإندماج . وظلوا يصرّون على عزل أنفسهم عن جميع المجتمعات . وكانت العنصرية هي السبب في عدم انصهار بني إسرائيل في شعوب كنعان . ونزوحهم عنها إلى مصر . فكانوا كلما حاولوا الإستقرار في مكان ما ، جابهوا أمر الإندماج مع مضيفيهم . وكانوا كلما نفروا من الإندماج ، كلما كان مضيفوهم ينفرون منهم ، ومن ثم يحملونهم على الرحيل . وأعتقد أن أيام المجاعة التي تتحدث عنها التوراة كسابقة لرحلة بني إسرائيل إلى مصر ، هي تعبير عن رغبتهم في عدم الإستقرار في أي مكان . (راجع قصة أمير شكيم مع بني إسرائيل . وقصة أبي مالك ، الملك الفلسطيني ، مع كل من إبراهيم وإسحاق . وقصة داود مع الفلسطينيين) .

وهل العنصرية غير عدم قابلية الإندماج . العنصرية تتنكّر لأي اتفاق لا يكون فيه الأمر أمر سائد ومسود . قاهر ومقهور . إنها دائبة الإلحاح على فكرة «أنا أفضل منك لأني أنا» .

وهذه القبائل لم تندمج في المحيط المصري رغم تكريم المصريين لها . فقد فضلت أن تنفرد بنفسها ، وتتميز عن مضيفيها المصريين ، إلى أن جلب ذلك عليها الإضطهاد والطرد .

وهكذا عاشوا على أطراف الممالك الكبيرة ، وعلى فتات موائد الأمم الحضارية . فنما في نفوسهم داء الحقد الوبيل على حضارة الأمم ، والحسد البغيض على عظمتها . فراحوا يعملون بمساعدة إلههم يهوه على تحطيم الحضارات وإبادة الأمم ، ليقيموا ملكاً لهم ويرفعوا عرشاً ليهوه في أراضي الآخرين .

ظلوا منغلقين على أنفسهم في قوقعة التعصّب المتحجّرة . لم يمتزجوا أو يتحدوا بالشعوب . ولم يطابقوا في هوية واحدة ، مصيرهم مع مصيرها . فقد كان عليهم أن ينتظروا مستقبلاً خاصّاً ، خُصّوا به وحدهم . يؤمن لهم السيطرة على العالم . فهم شعب مصاب بعقدة الشعور بالعظمة ، والإعتقاد بأنهم شعب الله المختار ، الذي اصطفاه الله من بين سائر الشعوب .

وظلوا متجمّدين في مفاهيمهم البالية ، وتقاليدهم وأعرافهم البدائية . فلم يتأثروا بأشكال

الحضارة . ولم ينفذوا إلى جوهرها . ولم يحاولوا إقتباس إيمان الكنعاني المناقبي المطلق الذي اتخذ من الإنسان غاية ، والذي ظل يمارس القيم والفضائل والمفاهيم الإنسانية . ولذلك لم يخلّفوا أية آثار حضارية ، ولم يضيفوا إلى تاريخ الإنسانية أي جديد مثمر .

وليس في كتابهم (التوراة ـ العهد القديم) المقدس أي إهتمام بالخلود والحياة الأبدية . أو السمو بالإنسان إلى مجال روحي رحب . وكل ما فيه أخبار قبيلة أضناها التشرّد وأنهكها التبدّي والترحال ، حتى صار إستيطانها في أرض أملاً ضارياً يلهب كيانها بسوط مسعور . من هنا كان ابتداعها وعداً إلهياً تبرّر به إستيلاءها على أراضي الآخرين .

وعي العالي (ايل ـ اللّه)
في الذهن القديم في الشرق المتوسطي

إن تفسيـر مفهوم إجتمـاعي معيّن (العـالي ـ ايـل ـ الله) معنـاه البحث في أسبـاب نشـأتـه وتطوره ، وبيان سعة إنتشاره بين الشعوب ، ومدى انغراسه في الأذهان . ولا سبيل إلى ذلـك إلاّ بالإنتقال إلى البرهات الأولى ، حين وجدت الأسباب الداعية إلى ظـور المفهوم ، والـدافعة إلى الإعتقاد به أو إلى إنغراسه في الأذهان . ولكننا لا نستطيع كشف النقاب عن مفهوم العالي (ايل ـ الله) في الأزمنـة الغـابـرة ، لأن أصحـابـه لم يتـركـوا لنـا آثـاراً نستـدل بهـا على عـلاقـاتهم بالعالي ، المـطلق . ويعسر على البـاحث تقصّي البدايـات أو الأطـوار الأولى التي مرّ بهـا هـذا المفهوم ، لأنها تسبق المرحلة التاريخية الأولى التي حدّدها المؤرخون بـالألف الرابعـة ق . م . وعندما يصبح التعرّف على المعتقدات في الشرق المتوسطي ممكناً في أواخر الألف الرابعة ق . م . فـإنها تـظهر تـامة التكـوين واضحة المعـالم . أو قل إن التـاريخ يفتـح عينيه على الشعـوب القديمة في الشرق المتوسطي وقد بلغت مراحل متقدمة في النضج والتطور . ومنذ بداية التاريـخ المدوّن (٣٥٠٠ ق . م .) نقف على مفهوم اعتقادي ناضج ومعقّد . والملاحظ أن معتقداتهم التي بلغت طـور النضج في الألف الـرابعـة ق . م . ظلت من حيث أسسهـا وأصـولهـا طـوال العصـور التاريخية حتى فجر الإسلام : الأسماء ذاتها ، والمضامين عينها ، والطقوس والشعائر والتـراتيل المرافقة لها .

ظل الإنسان في أثناء المراحل الحجرية الأولى أسير المحيط المادي الذي عجز عن فهمه أو تفسيره . فعاش ظواهره الطبيعية منفعلاً بها لا فاعلاً فيها . ووقف أمام القوى الطبيعية مشدوهاً وخائفاً ، يعاني وبأشكـال متباينـة من الشعور بـالقلق أو فقدان الشعـور بالأمـان . ولكن الطبيعـة الإنسانية تحمل في طياتها بذور الوعي التي تتفتح بنسب متفاوتة وفي حدود معيّنة بحسب الـزمان والبيئة . ومحاولات التفسير والتعليل قـديمة قـدم الإنسان . ومن الممكن القـول إن بدايـة وعي الإنسان مرتبطة باحساسه بالسؤال : لماذا ، وكيف ؟ .

ويبدو أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي (البيئة) بدأ في وقت مبكر جداً (الزمان) ، بالقياس إلى غيره في المجتمعات الأخرى ، يتأمل (تفتح بذور الوعي) في الكون المحيط به ، وفي الظواهر الطبيعية الفاعلة في بيئته ومحيطه . ولعل الشعور الأول الذي خالجه في مراحل وعيه الأولى هو شعوره بأنه متصل بالوجود وقائم فيه . وأن هذا الوجود لغة ولكنها لغة غامضة ومعقدة ، يصعب فهمها أو استبصار معمّاتها . فالإنطلاق الأزرق الرحب الذي يلف الكون بسعته وعلوه ، يشرق من أفقه اللامتناهي كوكب الشمس حيناً ، وآناً يبزغ القمر بوجهه النوراني ، وتسرح النجوم الملأئلة ، ألقى في نفسه الرعب والرهبة بقوته وجلاله . أما العوارض الجوية التي يضطرب بها النظام العادي كالبروق والرعود والعواصف والصواعق ، والحوادث الأرضية المفاجئة كالطوفان والزلازل وغيرها ، فكان تأثيرها في مشاعره كتأثير قرع الجرس في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان . وهكذا شدهته القوى الطبيعية بظواهرها الخارقة بالنسبة إليه في مراحل وعيه المبكرة ، وبدورها المهم في حياته . فاندمج في هذا الميدان المفتوح أمام الشعور بالإعجاب والخوف ، متأملاً بحسه الطبيعي وإنفعاله الحي . يثير التأمل في نفسه اسئلة بسيطة في وضعها ، واضحة في ظهورها ، ولكنها عميقة في مراميها وأبعادها . اسئلة من مثل : من خلق الوجود ؟ . ومن نظمه ؟ . من يحرك قوى الطبيعة ؟ . وهل في الطبيعة قوى تسيّرها ، أم أن القوى خارجة عنها ؟ . وأين تكمن هذه القوى ؟ .

ويبدو أن محاولاته الدائبة لتفسير مبادىء الطبيعة وتصنيفها ، وإيجاد رابطة ما بين البواعث وبين الظاهرات الطبيعية المتمثلة في حركات العالم الخارج ، ظلت تشغل ذهنه منذ استيقظ فكره وبدأ يرقى في مدارج الوعي(١٥٨) ، آملاً الوقوف على مخطط سيرها ، مما يتيح له التحكم ، بإمكاناته المحدودة ، بالطبيعة أو بظواهرها . أو توجيه قدرها تجنّباً لخطرها . أو على الأقل الوصول إلى نوع من الشعور بالإطمئنان تجاه بواعث حركات الطبيعة . وظلت رغبته العارمة تحدوه للتعرّف على نظم الكون ورصد حركات الطبيعة وتنظيم نوازع الوجود الغامضة وتعليل الظواهر المختلفة أو ردّها إلى أسباب معقولة وعلل مقنعة .

ويوم كان النشاط العقلي محدوداً ، وكان مجاله قصيراً ، وكانت معطياته ساذجة بسيطة . وبالتالي كان الإنسان يعاني من الشعور بالضعف والعجز في وعيه للمبادىء غير المحسوسة ، أو وعيه للأسباب والعلل . وقبل أن تنمو لديه رقابة العقل ودلائل المنطق ، كان الحس الإنساني يقفز إلى المطلق ، وينسب كل شيء عجز عن تفسيره إلى القدر الغامض أو إلى عالم الغيب .

ويوم لم تكن له الإمكانات الذهنية القادرة على فهم العلل والأسباب ، رغم إدراكه بالغريزة استحالة حدوث شيء من لا شيء . ولم يكن له في مراحل وعيه الأولى المعارف الضرورية والخبرات العقلية التي تؤهله لفهم قوانين الطبيعة . ولم تكن القدرة على التأمل الذهني أو التفكير العلمي قد استيقظت في نفسه . ولم يكن تفكيره في تحولات الطبيعة أو تعليل

ظواهر الكون قد وصل به إلى شعور مقنع مطمئن . ولم يكن وعيه للسببيات قد نضج في ذهنه ، وبالتالي لم ير سبباً ظاهراً للحوادث التي تشدهه وتؤثر في حياته . فلذلك وغيره نسبها إلى أسباب خفية ذوي قوات هائلة . ومن الطبيعي أن عجزه عن تعليل الحوادث الطبيعية، وعدم قدرته على إدراك الأسباب أو الوقوف على المسببات ، ساقه إلى إفتراض وجود قوى غيبية تقف وراء الحوادث الطبيعية التي عجز عن تفسيرها أو إدراك عللها ، تسيطر عليها وتتحكم بها . معتقداً أن تقلّب أو تشكّل المظاهر الطبيعية المختلفة إنما يعزى إلى تلك القوى . أو مفترضاً أن في الظاهرة الطبيعية وفي العنصر الطبيعي قوة عليا مدركة واعية تؤثر وتفعل . وهكذا راح يضع في مبدأ كل فعل فاعلاً ، معتقداً أن لا شيء يقع في الكون من دقيق الحوادث أو جليلها إلاّ وللقوة العالية المطلقة فيه قضاء وتدبير .

والطريف أنه أدرك في وقت مبكر من تاريخ الحضارة أن القوى الكامنة في ما وراء الطبيعة ليست من جنس الطبيعة المادية المنفعلة . وإنما هي قوى فعّالة ومؤثرة ، لها أسلوبها في تصرفاتها مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة في ما حولها . فالمواد في الطبيعة يصدر أثرها عنها دون شعور منها ، ولا اختيار لها في صدوره . أما القوى الكامنة في ما وراء الطبيعة فهي قوى عاقلة تقصد ما تفعل وتتصرف بمحض إرادتها واختيارها .

ويوم وصل به التأمل في ظواهر الطبيعة إلى درجة الإحساس أو الإعتقاد بأن في تلك الظواهر وجوداً حيوياً أو فعلاً حياً . أو أن وراءها قوى حيوية هي سبب كل ما يحدث أو ما تحدثه الظواهر في الطبيعة : رعد ، برق ، هبوب الرياح ، هطول الأمطار ، فيضان الأنهار . . وأن هذه القوى أبعد وأعظم مما تستطيع مداركه أن تحيط به ، بدأ يتجه إلى تعريف وتصنيف العناصر الطبيعية الظاهرة الأثر في الوجود ، وبالتالي ينتقل تأثير فعلها إلى الإنسان الذي يعيش تحت رحمة هذه الظواهر . أو الفاعلة مباشرة في مسيرة يوميات الإنسان . فخلع عليها الألقاب بحسب مفهومه لها ، أو أطلق عليها صفات تعيّن سماتها وأفعالها وعلاقته بها . أو نسب لها الصفات التي يتخيّلها ويشعر بعجزه عن التمتع بها . وغالباً ما كان يلجأ إلى تشخيص الظواهر الطبيعية وإلى تحديد معالم فعل حي لكل منها ، بإطلاق صفة عليها .

فحين بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة . ونشأ لأول مرة المجتمع الزراعي المستقر المعتمد على ضمان توفير مياه الري ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج الزراعي . وشعر الإنسان من خلال تجاربه بضرورة ضمان ذلك الإستمرار الذي ينضح في صدره الطمأنينة على حياته في غده ومستقبله . وعى حقيقة إرتباط الحياة ودوام الحياة بالظواهر الطبيعية المحيطة به والمسيطرة على بيئته ووجوده . فأدرك مثلاً العلاقة السببية بين الشمس وبين الأحياء نشاطاً وذبولاً . ورأى أن الشمس هي علة الخيرات التي تدرها الأرض . وهي التي تحدّد بسيرها فصول البذار والزراعة والحصاد ، فاعتبرها كائناً «عالياً» ، «سماوياً» ، مضيفاً في كتابته

للإسم إشارة النجمة كرمز لقوة مستترة خلف المظهر المادي ، لها فعل وتأثير غيـر محدودين . أو باعتباره لا شبيه لهما في عالمه المادي المحدود . فهي ، بالإضافة إلى كونها وجوداً مادياً ، قـوة «عـالية» . ولكن لا فـرق في مفهومـه بين الشمس كمادة ضـوئية وبين الشمس كقـوة «عـاليـة» أو «سماوية» . وأدرك أيضاً العلاقة السببية بين العـواصف الرعـدية وبين السحـاب الماطـر السخي الذي يرسل المطر فيخصب الأرض ويشكّل الينابيع والأنهار . وقـد يكون غـزيراً فيغـرق الحقول ويجرف المحاصيل ، ويتشكّل منه طوفان يقتلع السدود ويمحو معالم العمران .

هذه القوة التي تهدّ في السماء هـداً أطلق عليها صفـة «هدد» . فـ «هـدد» باعتبـار شعوب الشرق المتوسـطي القديمـة ، قوة سخيـة حيناً بـالمطر الـذي يحمل الخصب ويبعث الحيـاة في المخلوقات جميعاً . وحيناً آخر قوة مخربة مدمرة . وقد عبّر أمورابي عن قوة «هدد» بمظهريها في معـرض دعوتـه على من ينتهك حـرمة قـوانينه بقـوله «ليحـرمـه رب الفيض ، سـاقي السمـاوات والأرض ، هدد ، من أمطار السماء وجريان الينابيـع . وليهلك أرضه بـالفقر والجـوع . وليرعـد بعنف فوق مدينته، ويجعل الطوفان أرضه خراباً».

وأدرك أيضاً العلاقـة السببية بيْن الشمس والـرعد (هـدد) والمطر والينـابيع ، وبين خصب الأرض وإخضـرار المراعي وازدهـار الزروع والمـواسم . وبالمقـابل أدرك العـلاقـة بين الشمس والجفاف واليباس وبين الفناء (موت) .

يُضاف إلى ذلك أنه عكس أفعال الطبيعة على حياته مذ وعى الكون حوله . فأفعال الطبيعة المـلائمة لـه ولحياتـه : بذور وزروع وطقس معتـدل فمواسم خيـرة ، رأى فيها الخيـر . وأفعال الطبيعة المؤذية له : طوفان ، زلازل . أو جفاف ويباس (مـوت) رأى فيها الشـر . والطريف أنـه اسكن قوى الخير في «العالي» ـ السماء . بينما اسكن قوى الشر في العالم السفلي ـ الجحيم .

والقوى الخفية التي أحس بوجودها في ظواهر الطبيعـة المختلفة ، آمن بقـدرتها وفـاعليتها في مقومات الطبيعة . فهي باعتباره تسيّر الطبيعة وتوجّه قدرهـا وتتحكّم بصيرورة العـالم الأرضي وتجعله تابعاً لها ينفذ الإرادات الصادرة عنها ، ويسير بموجب الأحكام التي تقررها . ونسب إلى كل منها جانباً ولحداً أو أكثر من الجوانب المؤثرة في حيـاته . وأضفى عليهـا صفاتـه وأخلاقـه . ولكنه ميّزهـا عن البشر بـالخلود . واعتقد أن هـذه القوى تستقـر في السماء . فجسّـدها بهيئـات بشرية ذكرية أو أنثوية . أو بهيئات حيوانيـة ، أو بهيئات مـركبة من صفـات بشريـة وحيوانيـة . أو اتخذ لها رموزاً معينة ، وضعها في المعابد . واعتبر هذه المعابد بيوتـاً مقدسـة تستقر فيهـا القوى في أثناء وجودها الرمزي على الأرض .

ومن الطبيعي أن تكون السماء كـ «قوة» على رأس القوى الكامنة خلف الظواهر الطبيعية . وأن تكون بالتالي أكبرها شأناً وأشدها نفوذاً وأبعدها تأثيراً وفعلاً .

ولكن ، «ما هي السماء؟» .

قبـل أن ينداح في خـاطره هـذا السؤال كان يعـلّـل حيـاتـه بهـذه القـوّة أو تلك من العلل الكونية . وحين بدأ يعلّل ظواهر الطبيعة افترض وجوداً غامضاً كامناً خلف الوجود الواقعي ، راح ذهنـه يلجأ إليـه لتفسير كـل ظاهـرة لا يجد تفسيـراً لها في التجـربة الحسيـة . وبقـدر مـا كـانت المفاهيم العلمية لظواهر الطبيعة وحوادثها الطارئة ، ضئيلة وغامضة ، بقـدر ما كـانت سلطة هذا الوجود الغيبي تكبر وتتسع ، حتى غدت العلاقـة بين الإنسان القـديم وبين الوجـود الغيبي يوميـة وحميمة . وهي في الواقع لم تكن غير علاقة الأشياء والأحداث بمبادىء الطبيعة وأسبابهـا . وإذا كان الفصل بين الأشياء وحركـاتها وبين المبـادىء والأسباب غيـر ممكن . كذلـك لم يكن ممكناً الفصـل بين ذهن الإنسان القـديم وبين مشاعـره العلوية الغيبيـة ، في وقت كان مفهـومه للوجـود الغيبي المطلق مرجعاً يفسّر المبادىء والأسباب جميعها(١٥٩) .

أمـا الآن ، وبعد أن إنـداح في خاطـره السؤال ، فقد راح ينـدمـج في عـالم الغيب بحس عفوي طبيعي . يشدّه إليـه ميول غـامضة لاستشـراف العلاء . ونـوازع مبهمة إلى استكشـاف سرّ السماء ، والوقوف على حقيقة هذا الكون العـظيم . وعندمـا اندمـج الإنسان القـديم في الشرق المتوسطي بالغيب ، وتفاعل مع الطبيعة في شبه تواجد حميم ، تجلت له عظمة الطبيعة في نظام عجيب خـارق خاضـع لقوى منـظمة بـواسطة تـوازن ظاهـراتهـا (حـركـات الكـواكب ومـدارات الفصول) . تلك الظاهرات التي تمتاز بفاعليتها المعطاء (اخصاب اللقاح الأنثوي ، والحيـاة في نـور الشمس) . وتجلّت له أيضـاً في هذا العلو الـرهيب العميق الذي كـان في كثير من الأحيـان يفعل في نفسه ويستثير خوفه ، فيغمره الإحساس بالجـلال والعظمـة ، ويحيا حـالة ذهنيـة فائقـة الحساسية ، فتتكشّف له السماء بعلوها الهائل وامتداداتها اللانهائية وسـرها العميق ، في تجـربة نفسية فريدة تكاد تكون رهيبة . تجربة المهـابة والجـلال ، والقوة المستقـرة الهادئـة الكامنـة في المهابة والجلال ، والتي تظهر له كنظام ، ومن ثم كأساس الحياة البيولوجية .

وإلى جانب ما أوحت بـه السماء إليـه من إحساس بـالرهبـة والعظمـة والجلال ، وجـد أن للسماء في هذه البقعة من الأرض سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها . وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبارة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والـطبيعية بـالعلو والسماء . وظلت مشـاعره مشـدودة أبداً نحـو الجلال والسلطة المـطلقة اللذين تـوحي بهما السمـاء . وهنا اتسعت الدنيا بنظره ، وراح ينغمر في استقراء الأحداث الكونية بنظرة شمولية وتسلسل منـطقي ، مستخرجاً القوانين الشاملة بالمقارنة حيناً وبملاحظة تكرار الحوادث أحياناً .

وفي هذه المرحلة من وعيه أدرك ذاته ككائن زمني وتاريخي . وترافق وعيه لـذاته مـع وعيه للكون والقوى الجبـارة الفاعلة فيـه . ومع اتسـاع المدى الذهني بتجارب الـذات ، ونمو الـوعي ونضوج الفكر مع تنوع التجارب واتساع الخبرة في تصنيف الأشياء ، ووصوله إلى درجة من وعي الأسباب والعلل ، ووعي المبادىء غير المحسوسة ، ارتفع بنـظرته إلى الأعـالي متأمـلاً بالفـارق

العظيم الذي يفصل الأرض عن السماء . والتأمل طريقة حدسية من طرق الإدراك ، تكاد تكون أقرب إلى الرؤيا . وحين اقترب الإنسان في الشرق المتوسطي في تأمله من حافة الرؤيا استوعب الكون بنظرة شاملة ، وراح يلتمس له سبباً واحداً لـ «الحصول» كما حصل . فخالجه شعور بأن مركز الوجود ومغزاه بعيدان عن الإنسان ومنجزاته . ويقين بأن في السماء قوة عالية مستقلة عن إرادة البشر ، صنعت الكون ونظّمته وخلقت الإنسان . يخضع الجميع لتأثيرها ، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها . افترض فيها القوة المطلقة ، قوّة الخلق وقوة الإفناء . وافترض أنها ترعى شؤونه . وفي محاولة التقرّب إلى هذه القوّة الكامنة وراء تنظيم الكون قفز من المحسوس إلى ما وراء الطبيعة ، فالتقى مباشرة بالمطلق الذي تمثّل له في أسمى صورة من الجلال والرهبة والعظمة والقدرة .

ومن الواضح أن إندماج فكرة هذه القوّة بالعلو والسماء في الذهن القديم في الشرق المتوسطي ، ذو دلالة عميقة على العلاقة المرهفة التي تربط الإنسان بالوجود الكوني البعيد . هذه العلاقة التي تعبر عن ذاتها بالمشاعر العلوية السامية المشدودة أبداً نحو المطلق الكوني . وهذا ما نراه عند سائر البشر ، فإن مسكن «الآلهة» بمفهومهم هو السماء ، أي العلاء . والسماء مأخوذة من «سما» أي علا وارتفع . واسم السماء مرادف لاسم الإله في لغات العالم بغالبيتها . وإذا ما أراد الناس ، بسطاء كانوا أم علماء ، الإشارة إلى اسم الإله رفعوا أيديهم إلى السماء . ثم إن الصلوات الشعبية في العالم بمجملها موجهة إلى «أبينا الذي في السماء» . والطريف أن صلوات الإنسان المبكرة كانت توجّه إلى الأب السماوي ذاته . تقول صلاة افريقية قديمة «حيث تكون السماء يكون الإله أيضاً»(٦٠) . ومن هنا كان ولم يزل إرتباط مفهوم الألوهة بالعلو والسماء .

هذه القوّة وهذه السلطة المطلقة اللتان توحي بهما السماء ، أطلق عليهما السومريون في حوض النهرين الأدنى صفة «ان» ـ (السيد ـ السماء) . وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية ، وهم في حالتهم الفطرية قبل الأزمنة التاريخية ، صفة العلو «علْ» ـ (العالي) . وأطلق عليهما البابليون صفة «ماردوك» ـ (السيد العظيم) . والأشوريون صفة «اشور» ـ (السيد) .

والجدير بالذكر أن السومريين اعتبروا السماء في البداية كياناً قائماً بذاته ، وقوة أيضاً . فكان اللفظ «ان» يعني «السيد» ويعني «السماء» في الوقت ذاته . وبمرور الزمن انفصلت «السماء» ككيان عن «السماء» كقوة ، وأصبحت «السماء» موطن القوّة «ان» . أما الأكاديون فقد رأوا منذ البداية أن «السماء» كيان قائم بذاته ، وهي موطن «عل» ـ (العالي) . ولعل الدور الذي تمثله السماء في تركيب الكون المرئي ، والمحل العالي الذي تتبوأه بكونها فوق كل شيء ، يفسّر اعتبار السومريين «ان» ـ (السيد ـ السماء) أهم قوة في الكون . واعتبار الأكاديين السماءموطن «عل» ـ (العالي) .

وبعد اختلاط الأكاديين بالسومريين ، ووصول المجموعتين البشريتين إلى درجة الإنصهار ، أخذ الأكاديون عن السومريين الكثير من طرائق التفكير والتعبير . وفي اتخاذهم الخط السومري وسيلة للتعبير عن لسانهم فقدت الأكادية كثيراً من الأصوات الحلقية التي لا وجود لها في نطق السومريين . فحين لم يتمكنوا من تدوين حرف العين مثلاً راحوا يكتبون هذا الحرف همزة من باب الضرورة . والكتابة تؤثر في النطق . يُضاف إلى ذلك أن السومريين الذي نزل فيهم الأكاديون ، ساعدوا بنطقهم بالإضافة إلى حروفهم ، على تشويه الأكادية ، ذلك أنهم كانوا عاجزين عن نطق بعض الحروف ومنها العين . فكانوا يلفظون بالهمزة ما كان يعرض لهم من حروف حلقية ترد في الألفاظ . ولعلّهم هم الذين ساعدوا على خلق نزعة إبدال العين بالهمزة في الألفاظ الأكادية .

وسقوط الحلقيات في الأكادية لا يخلو من التأثير في الحركات الخاصّة بها ، والتي تجاورها . فعندما تقوم الهمزة مثلاً مقام الحاء أو العين أو الغين ، فإن حركتها تتحوّل إلى إمالة بعد أن كانت فتحة . من أمثلة ذلك Edês u (حدث) عوضاً عن Adas u' الآتي من Ḥadas u وهكذا يمكن اعتبار أصل كل همزة محرّكة بالإمالة أو الكسرة احدى الحلقيات في الغالب . وعليه يمكن القول إن العين سقطت من اللفظ الأكادي «عَلْ» في البيئة السومرية ، وقامت مقامها الهمزة ، فأصبح «AL'» . واقتضى ذلك تحويل حركة الهمزة من الفتحة إلى الإمالة«É» فصار «EL» .

وباختصار ، إن القدماء أطلقوا على القوّة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء صفة «السيد» أو صفة مرادفة لها . والصيغ المعبّرة عن هذه الصفة جاءت متنوعة تبعاً لتنوع البيئات والألسنة . فهي بلغة السومريين «ان» . وعلى لسان الكنعانيين في سوريا الغربية «أون» . وهي بلسان الأشوريين «شار» . وبلسان الأموريين «مار» . وبلسان الأراميين «رب» . وبلسان شعب ـ مملكة أوغاريت «بعل» . وبلسان شعب ـ مملكة جبيل «أدون» . ومن الصفات المرادفة لصفة «السيد» نذكر مثلاً «ملك» و «يشع» ـ (المخلص) بلسان شعوب سوريا الجنوبية . و «ملقارت» ـ(ملك القرية) بلسان شعب ـ مملكة صور في الساحل السوري . و «شيع القوم» ـ (مخلّص القوم) و «عطرسم» ـ (مجد السماء) بلسان شعوب سوريا الجنوبية الشرقية . و «عل» ـ (العالي) بلسان الأكاديين في سوريا الشمالية الشرقية ، التي تطورت صيغتها إلى «ايل ـ ايلاه ـ اللّه» وأصبحت في الألف الأولى ق . م . اسماً للقوة العالية .

المهم أن «ان» ليس اسماً للقوّة العالية كم يزعم المؤرخون والباحثون جميعهم في الغرب الأوروبي والأميركي . وإنما هو صفة تعني «السيد» . وكذلك فإن «عل» ـ (العالي) ـ (ايل ـ اللّه) ليس اسماً ، وإنما هو صفة . ثم ان أشور وماردوك وبعل وأدون ورب وملكوم وملقارت ويثع وشيع القوم وعطرسم ، ليست أسماء آلهة كما يزعم أولئك المؤرخون . وإنما هي صفات

تعني «السيد» أو بمعناها . وأعتقد ، أخي القارىء ، أنك تشاطرني رأياً مفاده أن السومريين في حوض النهرين الأدنى ، والأكاديين في البادية السورية ، وباقي شعوب سوريا الطبيعية ، كانوا منذ نيّف وخمسة آلاف سنة أكثر تيقّظاً وأشد وعياً منا اليوم ـ نحن أجيال الثقافة العلمية والفكرية في العقد الأخير من القرن العشرين بعد المسيح . على الأقل في طرحهم هذا المفهوم أو أخذهم به . فهم لم يطلقوا على القوّة العالية اسماً كما نحن اليوم . وإنما أضفوا عليها صفة . ومن الطبيعي أن الصفة تسبق الاسم ، لأن الإحساس بالمعاني يسبق اختراع الأسماء والكلمات .

والواقع أن في التعبير عن الإله بالصفات . والإكتفاء في تمثيله بالصفات التي تدل عليه أيضاً ، تنزيه للإله عن المادة ، وتجريد ، له أهميته البالغة في تاريخ الفكر الديني .

وأنت ، أخي القارىء ، سواء أكنت من عامة الناس أم كنت من خاصتهم ، هل طُرح عليك أو خالج ذهنك يوماً ، سؤال : من أطلق على القوّة العالية اسم «اللّه» ؟ . وهل للقوّة العالية اسم كأشياء الطبيعة ؟ .

ايـل ـ اللّـه

المعروف أن شعوب الإمارات والممالك الأرامية في سوريا الوسطى والجنوبية ، والتجمعات الأرامية ـ العربية التي أنشأت الممالك وأرست الحضارات في الجنوب الشرقي من سوريا ، دوّنت حفراً الكثير من النقوش على صخور مبعثرة في العراء ، يندر أن يخلو نقش منها من اسم أو أكثر يدخل «ايل» في تركيبه[١٦١] .

والملاحظ أن هذه النقوش تتضمّن إشارات واضحة إلى التطور الذي لحق بالصفة «ايل» في الألف الأولى ق . م . من حيث البنية والمدلول . فمن حيث البنية تتردّد في النقوش صيغ متعددة للصفة «ايل» ، من مثل : (ا ل ه) و (ا ل هـ ا) و (ا ل هـ ه) و (ا ل هـ م) و (ا ل هـ ي ا) . ومن حيث المدلول نقف في النقوش على عبارات غير قليلة من مثل «شيع القوم إلٰهي الطيب» . «ذو الشرى إلٰه بصرى» . «بعل شمين إلٰه متنو» . «للعزّى إلٰهة بُصرى» . «أقام بنو قصي هذا المعبد لإلههم بعل شمين» . مما يعني أن الصفة «ايل» تحولت إلى اسم (إلٰه) ، أضفته تلك الشعوب على القوى العالية التي تقربت من الإنسان ، أو قل إن الإنسان شعر بقربها منه : شيع القوم ، ذو الشرى ، بعل شمين ، شمش ، رضى ، العزّى ، وغيرها من الصفات .

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال : في مفهوم ، وعلى لسان أي شعب من شعوب هذه الأرض ، تمّ هذا التطور ؟ .

قد تكون الإجابة صعبة أو غير دقيقة ، لأن هذا الصيغ والعبارات تتردّد في نقوش الأراميين في سوريا الوسطى والجنوبية . وفي نقوش الأنباط والصفويين والثموديين في الجنوب الشرقي

من سوريا . وفي النقوش المكتشفة في العربية الشمالية أيضاً . ففي النقوش المكتشفة في سوريا الوسطى نقف على صيغ من مثل (ا ل هـ ي ا) وعبارات من مثل «إلى شمش الإله الطيب» . ونقف في النقوش المكتشفة في سوريا الجنوبية على أسماء مركبة من مثل (ح ر م ل ه) ـ حرم الله و (هـ ن ا ل ه) ـ هنا الله . وعلى عبارات دعائية من مثل «هـ ا ل ه ر م» ـ يا الله اجعلني عالياً ، رفيع المقام . ونقف في النصوص الأرامية المكتشفة في مصر على صيغ من مثل (ا ل هـ ي ا) و (ا ل هـ ه)(١٦٢) .

وهذه الصيغ والعبارات تتردّد كثيراً في نقوش الصفويين والثموديين والأنباط في الجنوب الشرقي من سوريا . فمن أمثلة الأسماء المركبة (ت م ل ه) ـ تيم الله . (س ع د ل ه) ـ سعد الله . (أ س ل ه) ـ أوس الله . (ش ي ع ل هـ ي) ـ شيع الله . (و هـ ب ل ه) ـ وهب الله . ومن أمثلة الصيغ (هـ ل ه) ـ يا إلـه أو الله . (ل ا ل ه) ـ لله . ومن أمثلة العبارات الدعائية «ل ش ي ع ـ ا ل ق و م ا ل هـ ا ط ب ا) ـ لشيع القوم إلهي الطيب .

ونقف في النقوش المكتشفة في حوض الأردن على أسماء مركبة كثيرة من مثل (م ع ن ل ه) ـ معن الله . (ع ب د ل ه) ـ عبد الله . (و هـ ب ل ه) ـ وهب الله . (ت ي م ل ه) ـ تيم الله . ومن أمثلة الأسماء المركبة في النقوش المكتشفة في سوريا الجنوبية الشرقية : (ج ر م ل ه) ـ جرم الله . (ح ي ل ه) ـ حي الله . (ش ي ع ل ه) ـ شيع الله . ونقف في النقوش المكتشفة في العربية الشمالية على أسماء مركبة كثيرة من مثل : زيد الله . مار الله . أوس الله . تيم الله . سعد الله(١٦٣) .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن في اللسانين الأرامي والعربي ميلاً إلى مدّ الصوت . فالفرد الأرامي يميل في حديثه إلى اطلاق الأصوات الممدودة . ولا تزال هذه الخاصّة على ألسنة المجموعات ذوات الأصول الأرامية أو التي تعيش في قُرى أرامية الأصل في سوريا الطبيعية . فأنت إذا أصغيت بانتباه إلى متحدثيهم تأخذك الدهشة من كثرة الكلمات الممدودة الأحرف الصوتية تتردد على ألسنتهم ، خاصة في مواقف الخطاب أو النداء من مثل : خيّاه (يا أخي) بيّاه (يا أبي) أماه (يا أمي) . وفي مواقف التحسّر والإستغاثة والندبة : يا سعداه ويا حظاه (يا سعدي ويا حظي) . وفي خطاب سعده ووطفة وليلى ونعيمة مثلاً تسمعهم يقولون : سعداه ووطفاه وليلاه ونعيماه . .

وفي العربية نلمس خاصة مد الصوت وتراخيه في مواقف النداء (البعيد) والخطاب (القريب) والندبة والإستغاثة . وقد كتب اللغويون العرب (ابن جني مثلاً) في أصوات الحروف : مخارجها ، صفاتها : المهموس والمجهور ، الشديد والرخو . وكتبوا في الحركات وعلاقتها بحروف المد . ورأى أولئك اللغويون أن الإستغاثة نداء لطلب العون والمساعدة ، أي نداء موجه إلى من يخلّص من شدة واقعة بالفعل ، أو يعين على دفعها قبل وقوعها . وأن من

خصائص المنادى المستغاث أن يختم بألف زائدة لتوكيد الإستغاثة :

يـا يـزيـدا لآمـلٍ نيـلَ عـزّ وغـنـى بـعـد فـاقـة وهـوان

وأن يختم المنادى المندوب بالألف الزائدة لتأكيد التفجّع أو التوجّع (واكبدا) . وقد تلحقها هاء السكت (واسيداه) .

كيف تطورت صيغة «ايل» إلى «الله» ؟ .

١ ـ ذكرنا أن في اللسانين الأرامي والعربي ميلاً إلى مدّ الصوت . وحروف المد واللين هي الألف والياء والواو . ولكن الألف أمدهن صوتاً وأنداهن وأشدهن إبعاداً (أنآهن) ، كما يقول ابن جني في الخصائص .

٢ ـ ومن الطبيعي أن تكون الألف إشباعاً للفتحة التي قبلها إذا مـدّ الصوت بها (يا ايـلا) . وهذه الألف تسمى ألف الإطلاق لأنها تُطلق الحرف من عقال التقييد وهو السكون إلى حال الحركة .

٣ ـ ثم إن الهاء حرف مهموس ضعيف ، مخرجه أقصى الحلق . والألف قريبة من الهاء في المخرج ، وإن كانت برأي سيبويه أقرب إلى الهمزة منها إلى الهاء .

٤ ـ والهاء التي تلحق لبيان الحركات تسمى هاء الوقف أو السكت (ياإيلاه) .

٥ ـ ثم حذفوا الياء الساكنة استثقالاً لها بين متحركين مكسور ومفتوح (يا إلاه) .

٦ ـ ويبدو أنهم لم يستسيغوا المد المفتوح بعد همزة مكسورة . فلما تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها إلى لام مفتوحة . وعندما التقى لامان متحركان أدغموا الأُولى في الثانية ، فقالوا ألـلاه (الله) .

واللغوي العربي الوحيد الذي أشار إلى تطور «الله» من إلاه هو ابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) قال «وروى المنذري عن أبي الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالىٰ في اللغة . فقال : كان حقه إلاه . أدخلت الألف واللام تعريفاً فقيل ألإلاه . ثم حذفت العرب الهمزة استثقالاً لها . فلما تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها في اللام التي هيٍ لام التعريف . وذهبت الهمزة أصلاً . فقالوا ألـلاه . فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلاّ ساكنة ، ثم التقى لامان متحركان فأدغموا الأُولى في الثانية ، فقالوا «الله» .

ويتابع ابن منظور «قال أبو الهيثم ؛ فالله أصله إلاه»(١٦٤) .

الملاحظ أن ابن منظور لم يشر ، أو بالأحرى لم يهتدِ ، إلى أصل «إلاه» ، أو المصدر الذي اشتق منه «إلاه» . ثم إنه يخلط في تخريجه بين «الإله» وبين «الله» . فأل التعريف دخلت على «إله» عندما تحولت صيغة الصفة «ايل» إلى اسم . قالوا ونقول «الإلـه» . أما أل في «الله»

فليست أل التعريف كما يزعم ابن منظور ، وإنما هي اللام المحوّلة عن الهمزة المكسورة أدغمت في اللام الأصلية كما ذكرنا . ولذلك جاز نداء «الله» . نقول : يا الله .

واعتقاد اللغويين بجواز نداء «الله» على اعتبار أن أل هي أداة تعريف هو من باب الغلط ، لسنا في وارد الرد عليه الآن .

الديانة التاريخية

من الواضح أن معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي هي معتقدات طبيعية ، أي فعل عقلي ، فعل تأمّل في الحياة وفي ما وراء الطبيعة . فحين بدأ الإنسان القديم في الشرق المتوسطي يتأمل في الكون والحياة ، تكشّف له الكائن المطلق من خلال الظاهرات الكونية . وظهر له مفهوم «ان» - (السيد) أو «العالي» - (ايل - الله) في شبه تواجد حميم مع الطبيعة .

والملاحظ أن ذلك الإنسان ظل مشدوداً ومروّعاً بذلك الفارق العظيم بينه وبين الكائن «العالي» - المطلق . ولذلك لم يحاول حصر «السيد» ، «العالي» في مفهومهم . و «المطلق» - (الله) في مفهومنا ، بصياغة ما تدل عليه ، تلمّح إليه . ولم يعطِ له أي ملمح ، ولم يلبسه أي قناع ، ولم يجعله موضوعياً بأي صنم . وإنما حافظ على الشعور بأن «السيد» ، «العالي» - (المطلق - الله) ليس موضوعاً يستطيع مراقبته أو إلتقاطه . وإنما هو حقيقة مطلقة بعيدة المنال ، سرّ لا يسبر . وهو مرعب بقوته وأليف بقربه في آن معاً ، وذلك ما عُبّر عنه بالإجلال والحب .

وعندما نقول إن معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي هي معتقدات طبيعية ، يعني أن لا أسس تاريخية لها . والوثائق المكتشفة في المنطقة لا تشير إلى مفهوم ما ، اصطلح الدارسون على تسميته «ديانة» . وما يشتمل عليه مفهوم الديانة من مبادىء وقواعد واقيسة ومصطلحات ، طقوس وشعائر ، تنظيمات وعمليات تبشير . وما يرافقها من نصوص تعليمية تساعد على توضيح المفهوم - جوهر الدعوة الدينية . ولا تشير الوثائق أيضاً إلى تسجيل لتلك الشعوب معتقداتها في ما صار يسمى في المفهوم المعاصر «كتاباً مقدساً» .

أما الأديان التاريخية (أي التي لها أسس تاريخية) أو الوضعية (أي التي وضعها فرد) فهي فعل إيمان . والإيمان يعني التصديق ، ولا يعني العلم . فصاحب الدعوة الدينية يقص على الجماعة أو القوم الذين توجّه الدعوة إليهم ما يعتقد أنه الحقيقة . وهم يصدقون بما قصّ عليهم ويعتبرونه كحقائق ثابتة لأنهم اتجهوا نحو الدعوة بقلوبهم ، وتفانوا فيها بوجداناتهم . ومن

الطبيعي أن التصديق ، خاصة في بدء ظهور الدعوة ، يكون فعلاً وجدانياً وقائماً على الإقناع بالمعجزات .

من المعروف أن الأديان التاريخية أو الوضعية تبدأ بالموسوية التي وضعها موسى ، ووضع للقوة العالية اسماً (يهوه) . وقبل محاولة التعريف بيهوه (الرب) لا بد من محاولة الإجابة على سؤال : من هو موسى ؟ . لأن يهوه ارتبط بموسى وجوداً وخُلُقاً وسلوكاً ، إلى درجة أطلق عليه الدارسون اسم يهوه الموسوي .

لا يهمنا في مجال هذا البحث موسى النبي ، ولا موسى الذي ما برح اسمه وأصله يثيران الجدل الشديد بين الباحثين وعلماء التاريخ(*) . وإنما يهمّنا موسى المشرّع ، وموسى القائد الفذ ، الصلب الإرادة ، الفولاذي العزيمة ، الذي كان واسع الطموح السياسي لبناء دولة ، مملكة ، أمة . فاختار لتحقيق طموحه بعض الإسرائيليين المستعبدين في مصر (على رواية التوراة) ، الذين كانوا ينتظرون الإشارة من أي قائد ينقذهم مما هم فيه من هوان واستعباد ، أو قل من الشعور بالهوان والإستعباد .

كان موسى نموذجاً للرجل العظيم . ولو أننا جرّدنا سيرته من الملامح المعجزة التي تتجمع عادة حول ذكرى الأبطال الشعبيين،فإننا نجد أن ما روي عنه في التاريخ العبري المبكر ، صحيح في ما يبدو . وربما كان موسى واعياً لإمكانياته الكبيرة ، فقد كان عظيم الطموح ، قوي التصميم ، بعيد الهمة .

لعل أول سطر في سيرة موسى هو صفة التعصّب والعنصرية ، التي خلعها على أتباعه

(*) الواقع أننا لا نملك أية معلومات عن موسى غير ما يقدمه لنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) ، بالرغم من أننا لا نستطيع أن نقطع بيقين بصدد هذه المعلومات . فالتوراة دُونت ، كما هو معروف ، في بابل في القرن السادس ق. م. أي بعد موسى بثمانية قرون . وهذا على افتراض أن موسى شخصية تاريخية وأنه عاش في القرن الرابع عشر ق. م.

يرى المؤرخ اليهودي فلا فيوس يوسفوس (٣٧ - ٩٣ م) أن موسى كان مصرياً . وكان قائداً في الحملة المصرية على بلاد الحبشة . وفي الحملة تزوج من أميرة حبشية . ويرى الفيلسوف اليهودي الإسكندري فيلون (٣٠ ق . م - ٤٠ م) أن موسى كان مصرياً . ويؤيد بعض البحاثة المحدثين هذا الرأي . فديورانت مثلاً ينقل في «قصة الحضارة» أدلة تثبت أن موسى كان مصرياً ، وقد أنجبته عام ١٥٣٧ ق . م الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت في ما بعد ١٥٠١ - ١٤٧٩ ق . م) . وسيغموند فرويد أيضاً يرى في كتابه «موسى والتوحيد» أن موسى كان مصرياً .

وهناك تعليقات كثيرة لباحثين محدثين عن موسى الشخصية الأسطورية التي تكمن وراءها شخصية قوية برزت كمنقذ بين الإسرائيليين المستعبدين في مصر . انظر مثلاً :

- Adolphe Lods, Israel, London 1932.

وجعلها فريضة دينية ، لا تقوم دنياهم ولا تستقيم حياتهم من دون إتباعها وتنفيذها . يخبرنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) أن موسى ، حين كان في مصر ، «رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً . فالتفت إلى هنا وهناك ، ورأى أن ليس أحد ، فقتل المصري وطمره في الرمل . ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب : لماذا تضرب صاحبك ؟ . سفر الخروج ٢ : ١١ ـ ١٣» .

فموسى العنصري حين رأى العبرانيين يتخاصمان ، سأل المذنب عن سبب ضربه صاحبه . ولكنه عندما رأى المصري والعبراني يتخاصمان ، سرعان ما دفعه تعصبه الأعمى وعنصريته الحاقدة إلى قتل المصري ، قبل أن يوجّه سؤالاً ، أو يعرف السبب الذي دفع الواحد إلى ضرب الآخر .

وعندما «سمع فرعون هذا الأمر طلب أن يقتل موسى . فهرب موسى من وجه فرعون إلى أرض مديان . خروج ٢ : ١٥» (في الجنوب الشرقي من سوريا) . وهناك آواه رعوئيل كاهن مديان وراعيها ، بمروءة كنعانية ، سورية ، عربية ، صافية . احتضنه وأزال عنه مشاعر الخوف ، وأسكنه في بيته برحابة صدر وسعة . وزوجه من ابنته (خروج ٢ : ٢١) . وعاش موسى في بيته إلى حين عودته إلى مصر .

ذكرنا أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي آمن بقيمة مطلقة ، قدرة روحية ، تعلو على الإنسان . أعطاها صفة وليس اسماً . وأن الصفة «العالي» التي أطلقها الأكاديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء ، تطورت صيغتها على ألسنة شعوب الشرق المتوسطي إلى ايل ـ إله ـ الله . وتحولت في الألف الأولى ق . م . في مفهوم شعوب سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية ، إلى اسم .

ويبدو أن موسى وعى هذا المفهوم ـ الصفة ـ الاسم (إله) في أرض مديان . وتوضّع في ذهنه مفهوم أن لكل جماعة من البشر (في عصره) إلهاً . وأن هذا الإله يسير على رأس الجماعة ، يرعاها ويحميها وينصرها ، ويملّكها الأرض أيضاً .

عاد موسى إلى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني إسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة) ، دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون . مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين ، وأن هذا الإله سوف يخلّص بني إسرائيل من حياة الذل والعبودية «ويصعدهم من أرض مصر إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً . إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . سفر الخروج ٣ : ٨» .

وكأن موسى كان يعي أن سلطان الدين سبيل إلى تحقيق سلطان الدنيا . وأن التأثير على الناس في ذلك العصرلم يكن ممكناًبغير هذه الطريقة . فأمر أتباعه أن يعتنقوا دينه ، وفرضه

عليهم فرضاً . وحين صار لكلامه فعل السحر في نفوسهم قادهم تحت جنح الظلام هرباً من مصر. وراح يضرب في التيه حيث حياة الحرية، يدرّب رجاله على القتال ويربّي فيهم جيلاً شاباً وقوياً يستطيع أن يغزو أرض كنعان ويحتلها أو يحتل قسماً منها . وبذلك صنع منهم مجموعة قومية ، أمة . وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة . إذ نادراً ما تحدث الحركات الوطنية الدينية الكبيرة إلاّ بدافع قوة عظماء الرجال . أو أنها قد لا تحدث على الإطلاق إلاّ بتأثيرهم . فالجماعة الشعبية تحتاج إلى قائد . ومن دون القائد تنزع الجماعة إلى التخريب . في الوقت الذي لا تملك سوى مقدرة ضئيلة على البناء . وقد لا تملكها على الإطلاق . ومن دون أفكار الرجال العظام أو أفعالهم وتأثيرهم في من حولهم ، ما كان لأمة عظيمة أن تبنى .

ويبدو أن موسى كان يدرك قيمة هذا الشرطي (الدين) ، إنطلاقاً من سطوة الدين على الإنسان ، في ضبط العامة أو الأتباع ، وفرض نظام معيّن عليهم . ويدرك ، ببعد نظره وثاقب بصره ، أن النظام لا يقوم بغير دين . ولاتقوم للدولة قائمة بلا دين . وأن الدين يلعب في حياة المجموعة البشرية دور الإسمنت الإجتماعي .

ففي واد من أودية سيناء المرتفعة ، الغنية بمختلف أماكن العبادة ، أوهم موسى أتباعه بأن رسالة جديدة جاءته من إلٰهه . وأن هذه الرسالة تنطوي على عقد حلف أو عهد معه . وكانت المادة الأولى في هذا العهد هي وعدهم بأرض كنعان ميراثاً أبدياً . يقول محرر التوراة «قال الرب لموسى : إذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم : الرب إلٰه آبائكم ، إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلاً : إني قد أفتقدتكم وما صنع بكم في مصر . فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً . خروج ٣ : ١٦ و١٧» .

ويضيف محرر التوراة «فقال موسى للرب : ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم : إلٰه آبائكم أرسلني إليكم . فإذا قالوا لي ما اسمه ؟ . فماذا أقول لهم ؟ . فقال الرب لموسى : أهيه الذي أهيه . وقال : هكذا تقول لبني إسرائيل: أهيه أرسلني إليكم . وقال الرب أيضاً لموسى : هكذا تقول لبني إسرائيل : يهوه إلٰه آبائكم ، إلٰه إبراهيم وإلٰه إسحاق وإلٰه يعقوب أرسلني إليكم . هذا اسمي إلى الأبد . خروج ٣ : ١٣ ـ ١٥» .

لا يعنينا في مجال موضوعنا البحث في مدلول الصيغة التي وضعها موسى اسم علم لله ، لأن موسى قصد من تركيب هذه الأحرف (أهيه . يهوه) أن يبقى مدلولها سراً مبهماً ، لغزاً غامضاً ، تحار فيه وتختلج له أفئدة أولئك البسطاء الذين ساقهم من مصر ليعمل منهم مجموعة قومية ، يحقق بها طموحه وأهدافه . ولكن الملاحظ أن هذه الصيغة شغلت العلماء والمتعالمين على مدى ألفي سنة ، بحثاً عن مدلولها ، أو عن الجذر الذي اشتقت منه ، أو الأصل الذي

تعود إليه . وقد اختلفوا في تفسيرها اختلافاً واسع المدى . فرأى بعضهم أن هذه الصيغة تعني «سأكون الذي سأكون» ، أو «أكون الذي أكون» أو «سأكون الذي وعدت أن أكونه» .

ورأى آخرون أن الله ينسب إلى نفسه صفة البقاء على ما هو عليه في أفكاره وقراراته ووعوده .

ورأى فريق ثالث أن «يهوه» صيغة مضارع الغائب من الفعل «هوى» - (كان) . فيكون معنى يهوه «يكون» . كما أن معنى أهيه «أكون» . ويكون يهوه اسم الله حين يتحدث عنه غيره . كما أن أهيه اسم علم لله حين يتحدث هو عن نفسه .

ورأى فريق رابع أن الجذر الذي اشتق منه الإسم يهوه ، يبدو أنه «هوى» بمعنى سقط . فيكون معنى يهوه «المسقط» أي الذي يُسقط ببروقه ورعوده الأعداء الآثمين(١٦٥) .

ورأى فلهاوزن أن «يهوه» من «هوى» العربية ، التي منها الهواء . ومعناه «يسري في الأهوية ، يهب» . أي انه إله العاصفة(١٦٦) .

ورأى روبرت جريفز أن هذا الاسم مبارك ، «من المحرم الإفصاح عنه كتابة . ومكنون ، لا يُنطق به إلّا مرة واحدة في السنة ، همساً ، وعلى لسان الكاهن الأعلى لدى دخوله قدس الأقداس»(١٦٧) .

وأما محرر التوراة فقد فسّر «أهيه الذي أهيه» في هامش الفصل الثالث من سفر الخروج بـ «أكون الذي أكون» . وفسّر يهوه بقوله : «هو في العبرانية اسم علم للإله الحقيقي ، معناه يكون . وقد ترجم بلفظة رب» .

المهم أن هذه التفسيرات ، ومثلها كثير ، وضعت في إطار التخريج والتأويل . وبقيت في حدود هذا الإطار . ثم زادها التلفيق جهالة وغموضاً .

قلت لا يعنينا في مجال موضوعنا البحث في مدلول الصيغة (يهوه) التي وضعها موسى اسم علم الله . ولن نبحث هنا في اسم يهوه ومعناه أو في اشتقاق صيغة الإسم . لأن ما يهمنا من يهوه ليس الإسم في معناه أو مبناه . وإنما يهمنا أن نتعرّف على مفهوم الإله الذي تبنّاه اليهود القدماء . وأن نتبيّن الصفات التي نسبها بنو إسرائيل لإلههم ، والشخصية التي تكونت له من خلال هذه الصفات .

وبما أن الإنسان يعرف في توجهه إلى إلهه ، في صلواته وابتهالاته . وفي ما صبت إليه نفسه من رغبات ، وتاق إلى تحقيقه من أمنيات ، فإن غايتنا التعرّف على ما تاق إليه المتوجّه لإله التوراة (يهوه) ، والتعرّف في الوقت ذاته على معنى الإله في نفسه .

يهوه والأرض

عاش الإنسان القديم في الشرق المتوسطي على أرضه منذ أقدم العصور . وعرف «زمن البدء» ، وفسّر الكون . واتصل حاضره منذ الألف الرابعة ق . م . بماضيه الميثولوجي . وكانت النظرة الأولى التي ألقاها على كونه وعالمه ، والقصص التي فسّر بها الكون وأصل الوجود ، والحوادث البدئية التي رافقت مرحلة التكوين ، قد شكّلت الأصول الأولى في فكره الميثولوجي .

والنصوص الميثولوجية التي وصلتنا من مختلف مجتمعاته ، تبدأ عادة بسرد قصة التكوين . أو التكوين والخليقة ، التي عبّرت ، بصورة عامة وبخطوطها العريضة ، عما أحاط به من عظمة الكون وضخامته .

ويبدو أن الإنسان القديم توصل في محاولاته التفسيرية إلى اعتقاد راسخ ، مفاده أن الكون والخليقة التي فيه ، من صنع قوة أو قوى فوق طبيعية ، تجلّت بأقوى مظاهرها في زمن البدء ، فأخرجت الكون من العماء ، ومن ثم أوجدت الإنسان وساعدته من بعد على تفسير الكثير من أصول الموجودات . وقدعرفت تلك القوى الخلاقة لدى مختلف المجتمعات القديمة بأسماء متعددة ، أدّى بعضها معنى الخالق ، وصانع الكون ، أومعنى «السيد» و«العالي» أو «السيد العالي» .

كان لهذا التاريخ الميثولوجي ما يزيد على سبعة آلاف سنة ، منذ بدأ الإنسان في الشرق المتوسطي يلتصق بالأرض في حضارة زراعية ـ عمرانية، تجسّدت أولاً في حضارات ممالك المدن ، حين ظهر في عصر الحديد الأول (حوالي ١٢٠٠ ق . م .) جماعة بني إسرائيل .

فالجماعة ظهروا متأخرين على مسرح التاريخ . وحين بدأوا بوضع سفر تكوينهم في السبي البابلي (٦٠٠ ق . م .) ، كان العالم قد صنع منذ زمن طويل . وكانت معتقدات الآخرين قد

صنعته . فلم يكن لليهود تراث أجداد عاشوا في أزمنة البدء ، ووضعوا في تفسيرهم للكون وأصل الوجود ، قصة التكوين والخليقة ، كما كانت الحال لدى شعوب المنطقة . ولذلك جاءت قصة التكوين التوراتية موجزة وملفقة ، لا أثر فيها لصدق وعفوية النظرة الأولى التي ألقاها الإنسان القديم على كونه وعالمه . ولا إشارة فيها إلى محاولات ذلك الإنسان تفسير الكون المحيط به . والتعبير عما أحاط به من عظمة الكون وضخامته . ومن ثم اندفاعه بشكل عفوي وطبعي إلى تفسير أصول كل شيء شغله في عالمه . ولم يكن لدى واضعي سفر التكوين التوراتي أي اهتمام بمسائل فهم الكون وتفسير الخليقة . وإنما حصروا همهم في الحديث عن الأصول القبلية التي اعتبروا أنفسهم متحدّرين منها (تكوين ١٠) ، في محاولة لإثبات وجودهم في عالم ليس لهم . ولغرس جذورهم ومعتقداتهم الميثولوجية في أرض لم ينشأوا فيها ، ولم يتكوّن إنسانهم معها . فسردوا ما توهموه قصة تكوين بشكل مقتضب ، وسلسلوا من اعتبروهم آباء للبشر ، بإيجاز مبتسر ، الغاية منه ربط نسبهم بأنبل وأكرم شخصية عرفتها تلك الأزمان ، أو عرفوها هم ، على ما يظهر ، أعني بها ابرام (أبو العلى) .

وبما ان فكرهم الميثولوجي ارتبط بحوادث تاريخية . وكان اهتمامهم محصوراً بسرد قصة القبيلة قبل الإهتمام بتفسير الكون . وبما أن قصة التكوين التوراتية وضعت وسجّلت في مراحل سياسية وإجتماعية متأخرة ، وبالاعتماد على قصص تكوين معروفة (سومرية وبابلية) ، فإن سرد قصة الأصول القبلية اليهودية لم يخلُ من اتجاهات عنصرية عدائية ، تمثّل سياسة القبيلة اليهودية وموقفها من الأقوام أو الشعوب التي عرفتها أو احتكت بها . ولهذا السبب نلاحظ في سفر التكوين التوراتي محاولة اقصاء أشخاص وقبائل وشعوب عن بركة الإله ، واعتبارهم أعداء تقليديين للقبيلة اليهودية . يتضح ذلك من لعن البعض ، وحجب البركة عن البعض الآخر ، وذلك كمقدمة لإرساء قواعد العداء بين بني إسرائيل وبين شعوب الأرض .

والملاحظ أن معتقدات اليهود الميثولوجية وقصص أصولهم لم تشر إلى إرتباطهم بأرض معينة نشأوا فيها وتكوّن إنسانهم معها ، فأضحت تشكل عالمهم بالمفهوم الميثولوجي لدى الشعوب والأقوام سائرها . ولذلك ضمّنوا سفر تكوينهم وعداً إلهياً بأرض لم تكن القبيلة اليهودية تعرفها من قبل . بل كانت أراضي شعوب أخرى ، مأهولة بأصحابها الأصليين ، ومعمورة بأمجادهم وحضاراتهم .

وهذا الوعد لم يكن بأرض «بلا خطيئة» حيث «لا أمراض ولا أوجاع ولا شيخوخة»[١٦٨] ، كما كان اعتقاد المجتمعات القديمة في الشرق المتوسطي . بل كان وعداً بتمكينهم من الإستيلاء ، بالمذابح البشرية وحروب الإبادة ، على جنة أرضية مادية بحتة ، سواء أكانت هذه الجنة هي أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً ، أم كانت جنة عدن بأنهارها الأربعة : دجلة والفرات والنيل والنهر الهندي المقدس .

ولم يكن همهم التفتيش عن جنة أرضية بمفهوم أخلاقي نقي وصاف ، «حيث لا ينعق الغراب ولا الأسد يفترس» كما تحدثت النصوص السومرية . ولم يرتبط تفتيشهم بكمال البدء ، وبامكانية استرجاع جنة مفقودة عرفتها الإنسانية في زمن «لم يكن حية ولا عقرب ، ولا ضبع ولا أسد ، ولم يكن كلب متوحش ولا ذئب»(١٦٩) . عاشوا على أمل العودة إليها كما فعل البابليون والكنعانيون ، وعبّروا عنها بـ «الحياة الأبدية» . فأوتنابشتيم ، بطل الطوفان البابلي ، فتّش عنها . وجلجامش ملك أوروك وخدين المجد والعظمة وبطل الإنتصارات . الأقوى بين الرجال والأمجد بين الأبطال ، ترك مجده وثار على مظاهر الصولة والسلطان ، وآثر البحث عن حياة أبدية ، وفي صدره إيمان عميق راسخ رسوخ الجبال بأن سعيه الروحي وهجوده العميق لا بد يقودانه إلى حياة أبدية هي وراء هذا العالم المادي الشرير . وقدعرف بنتيجة تطوافه أن الحياة الأبدية التي ينشدها ليست من هذا العالم . بينما كانت «الجنة المفقودة» في مفهوم بني إسرائيل ، جنة أرضية ، أرادوا إغتصابها من أصحابها وإنشاء مملكة أرضية لهم فيها .

يبدو أن محرّري التوراة اليهودية في السبي البابلي ، أرادوا أن يسوّغوا اعتداء بني إسرائيل على البلاد التي غزوها في الماضي أو التي يغزونها في مستقبل الأيام . فادّعوا أن الأب الذي تتحدّر منه ، باعتبارهم طبعاً ، شعوب البلاد المترامية بين الفرات شمالاً ومصر جنوباً ، قد مني بلعنة أب البشرية وبطل الطوفان التوراتي ـ نوح . وأن هذه اللعنة أبدية تلحق بذريته إلى آخر الدهر . فأقاموا في سفر تكوينهم سلسلة من المصافي تحجّر كل مصفاة منها شعباً من شعوب الأرض ، بعد أن يحمّله الأحبار المؤلفون من ضخام الأوزار ما يجعل عبوره عبر ثقوب المصفاة مستحيلاً .

يطلع علينا محرر التوراة (العهد القديم) في السفر الأول من الكتاب ، بخبر مفاده «أن أبناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . ودخل بنو الله على بنات الناس ، فولدن لهم أولاداً . . ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض . . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . . لأني حزنت أني عملتهم . . أما نوح فوجد نعمة في عيني الرب . سفر التكوين ٦ : ٢ ـ ٨» .

ولم يسكن غضب الرب حتى أغرق الأرض وأخمد فيها أنفاس الحياة . «فظهرت رؤوس الجبال . . واستقر فلك نوح على جبال أراراط . . وخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه . تكوين ٨ : ٤ و ٥ و ١٨» .

وهكذا كانت المصفاة الأولى التي سدّت الطريق في وجوه بني آدم ، ليقتصر المرور على بني نوح ، وهم طلائع بني إسرائيل .

«وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، فغرس كرماً ، وشرب من الخمر ، فسكر وتعرّى داخل خبائه .

فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخـويه خـارجاً . فـأخذ سـام ويافث الـرداء ووضعاه على أكتـافهما ومشيـا إلى الوراء ، وستـرا عورة أبيهمـا ، ووجهاهمـا إلى الـوراء ، فلم يبصـرا عـورة أبيهما . فلما استيقظ نـوح من خمره علم مـا فعل بـه ابنه الصغيـر فقال : ملعـون كنعان . عبـد العبيد يكون لاخوته . وقـال مبارك الـرب إله سـام . وليكن كنعان عبـداً لهم . تكوين ٩ : ٢٠ ـ ٢٦» .

كنا نظن أن الطوفان التوراتي كان لمحـو العالم الغـارق في الخطيئـة . وإعادة خلق عـالم جديد صاف ونقي ، يتعاون بالتسامـح والإخاء ، ويعمّـر الأرض بالمحبـة ، قبل أن ينتاب روحه الشر أو تفسده الخطيئة . ولكننا نفاجأ بالأب الأول (نـوح) ، الناطق بـاسم يهوه (الـرب) ، يوزع البـركات واللعنـات بين أبنائـه ، بعـد ليلة سكـر وتعـرّ . يجلّل واحـداً بـالسيـادة ، ويصم آخـر بالعبودية . وكأن الإحساس الإنساني نضب في صدر الإنسان الأول بعد الطوفان . فكانت اللعنة الأولى باعثاً للعداء والحقد العنصري . وكانت وصمة عنصرية يلصقها اليهود ، بأمر يهوه طبعاً ، في وجه كل من يريدون اقصاءه من الأشخاص والقبائل والشعـوب . ففي العائلة البشـرية الأولى بعد الطوفان يبدأ نوح ، كما أراد له محرر التوراة ، بلعن أحد أبنائه ، وبمبـاركة آخـر . ويصنّف أبنـاءه بين ملعون يبقى عبـداً لأخيه ، وبين مبـارك يظل سيـداً لأخيه . فكـان من الطبيعي ، وهم يسلسلون نسبهم ، أن يعيدوا أصولهم إلى الابن المبارك ، ويجعلوا أصحاب الأرض أبنـاء الابن الملعون : (المصفاة الثانية) .

والسؤال : لماذا صبّ نوح اللعنة على كنعان . ونـوح هو الـذي سكر وتعـرّى . وحام هـو الـذي أبصر عـورة أبيه ؟ . والجـواب : لأن الكنعانيين كـانوا أصحـاب الأرض التي فكّـر نبيّهم وقائدهم موسى بغزوها بعد أن أنهكه وجماعته التبدّي في الفيافي والقفار .

ثم يسـرد محرر التـوراة (العهد القـديم) أنساب بني نـوح . وما أن ينتهي الفصـل الحادي عشـر من سفر التكـوين بذكـر ابرام ـ الحفيـد التاسـع في سلسلة أبناء سـام ، حتى يـطلع علينـا المحرر في الفصل الثاني عشر بقوله «وقـال الرب لابـرام : اذهب من أرضك ومن عشيـرتك إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة . . فذهب ابرام كما قال له الـرب . . فأتـوا إلى أرض كنعان . . وكان الكنعـانيون حينئـذٍ في الأرض . وظهر الـرب لابرام وقـال : لنسلك أعطي هـذه الأرض» .

وفي الفصل السـابع عشر من سفـر التكوين «قـال الرب لابـرام : أقيم عهدي بيني وبينـك وبين نسلك من بعدك ، في أجيالهم عهداً أبديـاً ، لأكون إلهـاً لك ولنسلك من بعـدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ، ملكاً أبدياً ، وأكون إلههم» .

والسؤال : لماذا أراد الرب أن يقتلع ابرام من أرضه ويخلعه من عشيرتـه ؟ . ولماذا وعـده بأن يزرعه ونسله في أرض أخرى . أرض معمورة بأصحابها ، عامرة بأمجادهم وحضاراتهم ؟ .

لماذا اختار الله (على اعتبار أن يهوه هو الله) ابرام ونسله من بعده ؟ . ولماذا لم يختر هذا أو ذاك ؟ . وهل تميّز إرادة الله بين هذا وذاك ؟ . أمن العدل أن يختار الله واحداً من البشر ويصطفي سلالته شعباً مختاراً ؟ . ولماذا اختار الله بني إسرائيل ، واصطفاهم من دون سائر خلقه . وانحاز إليهم في مواجهة خليقته كلها ؟ . أليست بقية الشعوب من خلق الله ؟ . ولماذا ارتضى أن يكون إلٰهاً خاصاً بقبيلة معينة ؟ . أليس هو إلٰهاً للجميع وأباً للكل ؟ .

ويتساءل المرء بدهشة بالغة : من الذي اختار الآخر ؟ . أهو الإلٰه الذي اختار شعبه ؟ . أم هو الشعب الذي اختار إلٰهه ؟ .

وإنه لمما يبعث على الدهشة أن نرى هذا الإلٰه يختار لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليجعل منه شعبه المختار ويعلن أنه إلٰهه . فمن المعروف في تاريخ الأديان أن يختار شعب من الشعوب إلٰهاً له . ولكن لم يحدث قط ، إلاّ مع بني إسرائيل ، أن اختار إلٰه من الآلهة شعباً خاصاً به .

لماذا خصّ الرب ابرام بوعده ؟ . أهذا وعد إلٰه محبة وشمول إنساني ؟ . أم هو وعد إلٰه قومي ، عنصري ؟ .

هل كان ابرام نبياً ؟ . أم أنه «وجد نعمة في عيني الرب» ، كما وجدها نوح ؟ . ولماذا وجد هذه النعمة من دون سائر البشر ؟ .

يقول محرّرو التوراة (العهد القديم) إن إبراهيم خرج على تقاليد قومه . ونسأل محرّري هذا «العهد» وجميع المؤمنين به : هل الخروج على التقاليد يحتّم الخروج من الأرض ؟ . وإذا كان إبراهيم قد عرف إلٰهه في أرض الكلدانيين ، فلماذا لم يُقم شعائر العبادة حيث تكشّف له إلٰهه ؟ . ولماذا أراد أن يرفع هذه الشعائر في أرض كنعان ؟ . وهل تكون عبادة الله أو الإتصال به محصورة في أرض خاصة ، أوفي بقعة معينة ؟ .

والتوراة لا تذكر سبباً لاختيار إبراهيم ، أو لقطع العهد معه . قلّب التوراة من أولها إلى آخرها فلن تجد فيها تعليلاً لهذا الإختيار . فهو ليس بمعلول ، بل علّة كل معلول . هو العلة الأولى التي لا تفسير لها ولا داعي ، ولا سبب لها . وهذا هو التفضيل الذي يمكن أن يتخذ أساساً للعنصرية ، والانعزالية عن سائر البشر .

وفعلاً كان ، فقد بنى عليه اليهود نظريتهم العنصرية التي تعني تفوقهم على البشر ، وانفراديتهم عن الناس ، وأفضليتهم على جميع المخلوقات . وعليه وقفوا تكوينهم العنصري : أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذي يتمتع بحقوق ليست لغيره . هم يفتخرون ويفاخرون بأنهم أبناء إبراهيم الذي اختير وفضّل على العالمين . والاختيار في نظرهم ليس للرجل فحسب ، بل لأبنائه وسلالته أيضاً .

وهم يعترفون بأن هذا الاختيار لم يكن أخلاقياً ، وليس له علّة . والتوراة تؤكد في أكثر من مكان أن اختيار الإلٰه لبني إسرائيل ليس بسبب أخلاقيتهم : «ليس لأجل برّك يعطيك الرب هذه الأرض الجيدة لتمتلكها ، لأنك شعب صلب الرقبة . تكوين ٩ : ١ ـ ٦» .

ويعترفون أيضاً بأن هذا التفضيل عقد دخل فيه الإلٰه ، فهو ملزم إلى الأبد . وأفضلية اليهود أزلية . فهم شعب الميثاق ، إشارة إلى هذا العقد أو العهد الإلٰهي المقطوع إلى إبراهيم وذريته .

ويبقى السؤال : لماذا هذا العطاء السخي ؟ . وما هي مبرّراته ؟ . وكيف يقبل المسيحي أن يكون إلٰهه رب جنود يأمر بالتقتيل والتذبيح والتحريم . وبتقطيع الأشجار وردم الآبار . . ويضع الخطط الحربية للغزو والإستيلاء . ويسرّ بذبح النساء والأطفال والحيوانات ؟ .

ولماذا حشر الله في أعمال من هذا النوع ؟ . وما هو «القصد الإلٰهي» من وراء ذلك ؟ .

يعتقد المؤمنون بالوعد أن الله اختار بني إسرائيل لكي يكشف للبشرية مخطط الخلاص بالمسيح . وأن تاريخهم هو تاريخ الإنسانية جمعاء في ما يتعلّق بالخلاص .

والواقع أن في تاريخ كل شعب إلٰهاً تكشّف لهذا الشعب . وحاول إنقاذ البشر . أو عمل على خلاصهم . فقد تعرّفنا على أكثر من صورة للمسيح في ما سبق اليهود . وكان هذا المسيح يعمل على تعليم الناس أسرار الحياة ، وأسرار الموت وما بعد الموت[١٧٠] .

ثم إن التاريخ المقدس هو تاريخ إيمان الإنسان بالإلٰه أينما كان هذا الإنسان . ولا حاجة لحصر تاريخ الإنسانية ، وتاريخ الإيمان بالإلٰه ، بتاريخ جماعة معينة (بني إسرائيل) .

وينبري المؤمنون بالوعد قائلين : إن الله أعطاه فعلاً لجماعة معينة (بني إسرائيل) على اعتبار أنهم مثال للإنسانية . وهم المقدمة في قصة «خلاص» البشرية . ولكن تنفيذ الوعد مقرون بشروط ، أهمها اتباع بني إسرائيل لتعاليمه . وقد تحقق الوعد فعلاً . لكن اليهود فقدوا الأرض التي أعطيت لهم لأنهم خالفوا تعاليم الله ، فعُوقبوا وشُتتوا .

والسؤال المطروح بوجه هؤلاء المؤمنين (وهم يجاوزون نصف البشرية) : لماذا اعتُبر تاريخ بني إسرائيل مثالاً ونموذجاً لسائر البشر ، في مجال التعرّف على المراحل التي تكشّف الله بواسطتها للبشر من أجل خلاصهم ؟ . وهل يهوه هو الله ؟ . وعلى اعتبار أن يهوه هو الله ، لماذا أراد أن يبيد ويفني ويشرّد شعوب وجدت منذما قبل التاريخ المدون ملتصقة بأرضها . ويعطي أراضيها لجماعة بني إسرائيل ؟ .

والطريف أن المحلّل الإجتماعي اليهودي ول هربرج يرى صعوبة الأخذ بمفهوم الإختيار في الوقت الحاضر ، لسببين :

١ ـ من الطبيعي أن الإلٰه الذي يوصف بأنه إلٰه البشرية ، لا يمكن أن يفضل جماعة من

خلقه على بقية الجماعات البشرية . فالله إله الجميع ، ولا يميز بين شعب وآخر . كما أن المنطق لا يجيزمثل هذا الإختيار .

٢ ـ إن مفهوم الإختيار يؤدي إلى الشعور العنصري لدى الجماعة المختارة . وهذا المفهوم بدائي لا يصح أن يكون في دين ناضج . ثم إنه يؤدّي إلى تعصب شديد[١٧١] .

ويحاول المسيحيون تبرير اختيار بني إسرائيل الذي لا علة له بقولهم إن الله أراد اختيار هذه السلالة لأن المسيح ، مخلّص البشر ، سينحدر منها في المستقبل .

والسؤال : ما هي علاقة الإنحدار السلالي بعملية التخليص ؟ أكان على المسيح أن ينحدر من سلالة معينة لكي يقوم بأعباء التخليص ؟ وهل يجب على الإله أن يضع رسالته في سلالة معينة ؟ . وهل تعيين سلالة ما لتخريج المخلّص بيولوجياً ، يعني بالضرورة أفضلية هذه السلالة على سائر البشر ؟ . ولماذا كان تفضيل هذه السلالة على سائر البشر . وما معنى «تخليص» لا يقوم الإنسان فيه بدوره واعياً ، عاقلاً ، مخيّراً ، مدفوعاً بضميره وحده ؟ .

فالإختيار الإبراهيمي لا مبرّر له ، ولا علة . وكونه من دون سبب يجعل منه أساساً صالحاً لبناء العنصرية . فالعنصرية تقول «أنا أفضل منك لأني أنا» . ولو جاءت بأي سبب معقول أو غير معقول ، حقيقي أو كاذب ، لفسدت العنصرية وأصبحت لا عنصرية . فلا عجب أن اتخذت اليهودية اصطفاء إبراهيم ركناً أساسياً لها . ولا عجب أن شيّدت تفكيرها العنصري على أساس ميثاق إبراهيم ذي الإتجاه الواحد .

والسؤال : لماذا ارتبط ميثاق يهوه (الرب) مع إبراهيم بإعطائه أراضي شعوب أُخرى ؟ . في وقت نجد أن جميع المواثيق التي أقامها إله مع جماعة ما من البشر ، أو مع البشرية جمعاء ، لم تتضمّن وعد إله بإعطاء جماعة ما أراضي شعوب أُخرى . فقد عرفنا أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي فسّر الكون والوجود على أساس تدخّل القوى العالية الخلاقة في أزمنة البدء . وقد اعتبر الإنسان هذا التدخل بمثابة ميثاق بين القوة العالية (الإله) وبين البشر . فحين عمل الإنسان في الأرض وعرف الزراعة ، اعتقد أن الإله هو الذي كشف له عن سرّ الإنبات وعلمه الزراعة . وإشراك الإنسان في سرّ الإنبات هو بمثابة ميثاق بين الإله وبين البشر . وبموجب هذا الميثاق اعتقد البشر بأنهم يستطيعون إعادة قوة الإنبات إلى الأرض إذا ما أُعيد العمل الخلاق الذي علّمه الإله للبشر .

وحين كان ملك قديم شأن أمورابي يتلقى أمراً إلهياً بإقامة العدل ، أو بتعميم تشريع معين ، أو باستلام هذا التشريع من يد الإله ، كان هذا العمل يتضمن فكرة ميثاق بين الإله وبين البشر عن طريق المشرع .

فكل تدخل إلهي هو ميثاق بين الإله وبين البشر . وكل تفهّم أو تفسير يتبنّاه البشر ، له قدسية كشف الإله لأسرار الكون . وهو في الوقت ذاته ميثاق بين الإله وبين البشر .

والملاحظ أن الميثاق بين الإله وبين البشر غلبت عليه فكرة المحبة الإلهية . وعزم الإله على إنقاذ البشر من مصير معين . وحده ميثاق يهوه (الرب) مع إبراهيم تضمن الوعد بإعطائه ونسله من بعده أراضي شاسعة تمتد من نهر الفرات إلى نهر مصر . «في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات . تكوين ١٥ : ١٨» . ثم يعدّد يهوه شعوب هذه الأراضي (القينيين والقنزّيين والحثيين والقدمونيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين . تكوين ١٥ : ١٩» .

وبعد ، ليتك تجيبني على سؤال : هل الدين يحدد الأرض ، أم القومية ؟ . وهل تعتقد أن العدالة الإلهية تقتلع جذور شعب من أرضه ، بالفتك والإبادة ، لتهب الأرض إلى شعب آخر ؟ . وهل تسميها عدالة ، أم ظلماً . ومن أبشع ضروب الظلم في تاريخ البشرية ؟ .

أو لا تعتقد أن الوعود التي نسبوها إلى إلههم «يهوه» كانت لتبرير عملية الإستيلاء على الأرض ، والإحتفاظ بها ، لأنها ميراث وعد مقدس . وللإبقاء على نزعة الحنين ضارية في صدورهم للعودة إليها ، اذا ما اقتلع أصحاب الأرض أقدامهم منها ؟ .

ثم ألا ترى أن منطق مدوّن أو مدوني التوراة (العهد القديم) ليس المنطق المباشر الذي ينزع من الأسباب إلى النتيجة . فلا يبدو هناك أي داع يدفع الرب إلى اختيار ابرام . ولا سبب يبرّر قطع العهد معه . وإنما هو المنطق التبريري الذي يؤمن بالنتيجة ثم يرتد مفتشاً عن الأسباب والأعذار التي تؤدي إلى هذه النتيجة ليبرر إيمانه بها .

وهذا المنطق التبريري وسيلة يعتمدها أصحاب النوايا السيئة ليرفعوا مسؤولية تحقيق نواياهم السيئة عن عاتقهم ، وينيطوها بسبب من أسباب القدر . فكاتب التوراة أراد أن يبرّر غزو القبائل الإسرائيلية أرض كنعان ، فجعل نوحاً يسكر ويتعرّى في خبائه . ثم ساق حام إلى الخيمة ليبصر عورة أبيه ، فتكون الحادثة تبريراً للعنة . وأراد لنوح أن يقذف اللعنة بوجه كنعان بن حام (لأن الوعد سيعطى لإبراهيم بأرض كنعان) ، لا بوجه حام الذي ارتكب الذنب . وقصد أن تكون اللعنة عنصرية ، أبدية ، الغاية منها الحاق العبودية بكنعان وبنسله مدى الحياة «فيكون عبداً لأخوته إلى الأبد» .

وكاتب التوراة هو الذي جعل إبراهيم ابناً لسام ، وأراد له الإنتقال من «أور» الكلدانيين إلى أرض كنعان ، فيكون انتصار بني إسرائيل واستيلاؤهم على أرض كنعان نتيجة حتمية لدعاء نوح بأن يكون كنعان عبداً لاخوته .

. ويظهر أن مدوّني التوراة (العهد القديم) شعروا بأن أوامر يهوه بإبادة الكنعانيين من غير ذنب اقترفوه ، أمر لا يقبله عقل ولا يقره منطق . فلجأوا إلى حيلة يبرّرون بها جرائم بني إسرائيل ؛ جعلوا لعنة نوح تشمل نسل كنعان كله . ولعنته تعني الحرمان من حق الحياة . ولذلك تبقى كل جرائيم الحقد العنصري ترتع في هذا الدعاء الرباني الخصب على مدى السنين

وإلى نهاية الدهور .

والواقع أن تدوين سفر التكوين ، أو قل التوراة برمتها ، خضع لمجموعة عوامل سياسية وإجتماعية عنصرية ، ظهرت آثارها في اعتبار شعوب المنطقة المحدودة بالفرات شمالاً والبحر غرباً والنيل جنوباً والبادية شرقاً ، أعداء لبني إسرائيل . ومن هنا نرى إله بني إسرائيل يحجب بركته عن شعوب هذه المنطقة ، ويلعنها . ويعد جماعة بني إسرائيل بتمليكهم أراضي هذه الشعوب . محاولاً بذلك إخماد شعورهم بالذل والإنتباذ ، لعدم قدرتهم على الإرتباط بأرض معينة ، ولعدم وجود صلة لهم بأرض نشأوا فيها وتكوّن إنسانهم معها .

* * *

خلا الجو لابرام بعد المصفاة الثانية ، وبعد العهد الذي قطعه الرب معه . ولكنه رزق بولدين ، فبدت الحاجة إلى مصفاة ثالثة يعبرها واحد وتحول دون مرور الآخر . وقد فصّلت التوراة القصة فذكرت أن ساراي امرأة ابرام كانت عجوزاً عاقراً . فأشفقت على زوجها أن يموت غير معقب . فاقترحت عليه أن يدخل على جاريتها المصرية هاجر فيكون له منها ولد . وهكذا بنى ابرام بهاجر ، فولدت له إسماعيل . ثم وفد نفر من الملائكة على ابرام وأصابوا عنده من الطعام الذي جهزته امرأته ساراي ما طابت به نفوسهم ، فبشروها بأنها ستحمل وتلد . وتحققت البشرى ، فولدت إسحاق وهو عبري خالص غير مهجّن . وبذلك لم يبق من حاجة إلى الامة وابن الامة . فطردت سارة جاريتها هاجر وابنها إسماعيل . وبذلك أبعد إسماعيل . واستأثر إسحاق بالعهد .

وفي مستهل الفصل السادس والعشرين من سفر التكوين يقول المحرّر إن «إسحاق ذهب إلى أبي مالك ، ملك الفلسطينيين ، إلى جرار ، فظهر له الرب وقال . . تغرّب في هذه الأرض . . لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد ، وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك» .

وإسحاق أيضاً رزق بولدين توأمين : عيسو (البكر) ويعقوب . فبدت الحاجة إلى مصفاة رابعة يعبرها واحد وتحول دون مرور الآخر . وقد كان من الطبيعي أن يمر يعقوب (إسرائيل) من المصفاة، ويقصى عيسو بفضل مكيدة حاكتها الأم التي كانت تحب يعقوب (تكوين ٢٥) .

وحين كان يعقوب في طريقه إلى فدان ارام (في الشمال السوري) «رأى حلماً وإذا سلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس المساء . وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهوذا الرب واقف عليها ، فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . تكوين ٢٨ : ١٢ و١٣» .

«وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدان ارام . . وقال له : لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك إسرائيل . . والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق لك أعطيها

ولنسلك من بعدك . تكوين ٣٥ : ٩ ـ ١٢» .

«وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعـان . تكوين ٣٧ : ١» . ثم ارتحـل إلى مصر «جميع نفـوس بيت يعقوب وعـددهم سبعون . تكـوين ٤٦ : ٢٧» . وبوصـولهم إلى مصر «قالوا لفرعون جئنا لنتغرّب في الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى ، لأن الجوع شديـدة في أرض كنعان . تكوين ٤٧ : ٤» .

وبعد ٤٣٠سنة من تغرّبهم في أرض مصر «تذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب . خروج ٢ : ٢٤» . فنادى «موسى الذي كان يرعى غنم يثرون حميه ، كـاهن مديـان . . وقال لـه إني قـد رأيت مذلـة شعبي الذي في مصـر . . فنزلت لأنقـذهم وأصعـدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، إلى مكـان الكنعانيين والحثيين والأمـوريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . . فالآن هلم فـأرسلك إلى فرعـون وتخرج شعبي بني إسـرائيل من مصر . خروج ٣ : ١ ـ ١٠» .

وفي مصر «كلّم الله موسى وقال له أنا يهوه ، وأنا ظهرت لإبـراهيم وإسحاق ويعقـوب بأني ايل شداي . وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم . وأيضاً أقمت معهم عهـدي أن أعطيهم أرض كنعان ، أرض غربتهم التي تغربوا فيها . . لذلـك قل لبني إسـرائيل : أنـا يهوه . . اتخـذكم لي شعباً وأكون لكم إلٰهـاً . . وادخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعـطيكم إياهـا ميراثـاً . أنا يهوه . خروج ٦ : ٢ ـ ٨» .

وبعد خروجهم من مصر تسنّم يهوه مـركز القيـادة . وفي قيادتـه لبني إسرائيـل راح يمنّيهم بالمعجزات يصنعها أمامهم . ويدفق في صدورهم الوعود بـأن يطرد الشعـوب من أمام وجههم . قال لموسى «ها أنا مـرسل مـلاكاً أمـام وجهك ليحفـظك في الطريق ، وليجيء بـك إلى المكان الذي أعددته . خروج ٢٣ : ٢٠» . والمكان الذي أعدّه يهوه (الـرب) لصفيه مـوسى وللجماعـة التي ساقها من مصر ، هو أرض كنعان ، وطن ستة شعـوب . يقول لـه «إن ملاكي يسيـر أمامـك ويجيء بـك إلى الأموريين والحثيين والفـرزيين والكنعانيين والحـويين واليبوسيين ، فـأبيدهم . خروج ٢٣ : ٢٣» .

وفي الآية التالية وعد يهـوه (الرب) مـوسى بأن يـزعج الشعـوب الذين يـأتي إليهم . يقول «أرسـل هيبتي أمامـك ، وأزعج جميـع الشعوب الـذين تأتي إليهم . وأعـطيك جميـع أعدائـك مدبرين . وأرسـل أمامـك الزنـابير ، فتـطرد الحويين والكنعـانيين والحثيين من أمامـك . خروج ٢٣ : ٢٧ و ٢٨» .

«ثم قال الرب لموسى : ها أنا قاطع عهداً ، قـدام جميع شعبـك أفعل عجـائب لم تخلق في كـل الأرض وفي جميع الأمم ، فيـرى جميع الشعب الـذي أنت في وسطه فعـل الرب . إن الذي أنا فاعله معك رهيب . . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعـانيين والحثيين والفرزيين

والحويين واليبوسيين . خروج ٣٤ : ١٠ و ١١» .

وفي صحراء سيناء «كلم الرب موسى قائلاً ، أرسل رجالاً ليتجسّسوا أرض كنعان التي أنـا معطيها لبني إسرائيل . عدد ١٣ : ١» .

رب سـائل : لِمَ التجسّس مـا دام يهوه (الـرب) قد وعـدهـم وقـطع معهم عهـداً بتمليكهم الأرض ؟ . أليس هو الإله القادر على كل شيء ؟ . ألا يستطيع إبادة الشعوب ـ أصحاب الأرض بلمحة بصر ؟ . ويعطي الأرض إلى شعبه المختار .

انصـاع موسى لـرغبة (الـرب) «وأرسل جمـاعة ليتجسّسـوا أرض كنعـان . . قـال لهم . . انظروا الأرض والشعب الساكن فيها ، أقوي هو أم ضعيف . قليل أم كثيـر ؟ . . وما هي المـدن التي هو ساكن فيها ؟ أمخيمات أم حصون ؟ عدد ١٣ : ١٧ ـ ١٩» .

«فصعد الرجال وتجسّسوا الأرض . . ثم رجعوا بعد أربعين يوماً . . وقالوا لمـوسى : حقاً إنهـا تفيض لبناً وعسـلاً . . غير أن الشعب السـاكن في الأرض معتز ، والمـدن حصينة عـظيمـة جداً . . العمالقة ساكنـون في أرض الجنوب . والحثيـون واليبوسيـون والأموريـون ساكنـون في الجبل . والكنعانيون ساكنـون عند البحـر وعلى جانب الأردن . . وقـالوا لا نقـدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منـا . .وجميع الشعب الـذي رأينا فيهـا اناس طـوال القامـة . وقد رأينـا هناك الجبابرة . . فكنا في أعيننا كالجراد ، وهكذا كنا في أعينهم . عدد ١٣ : ٢١ ـ ٣٣» .

وهكذا «أشاعوا مذمّة في الأرض التي تجسّسوها ، في بني إسرائيـل قائلين : الأرض التي مررنا فيها لنتجسّسها هي أرض تأكل سكانها . عدد ١٣ : ٣٢» .

لقـد وجدوا الأرض آهلة بسكـانها الـذين أسسوا مـدنهـا وقـراهـا ، وشـادوا فيهـا القـلاع والحصون ، وأحيوا الأرض بالأغراس . فركب الخوف قلوب بني إسرائيل ، واعتراهم الوجـل . وتذكروا ما قاسوه من العذاب والجوع في صحراء سيناء . فكفروا بامنيات يهوه المعسولة ووعوده البراقة ، وراحوا يتغنون بتمنيات العودة إلى مصـر ، «ورفعت كل الجمـاعة صـوتها وصـرخت . وبكى الشعب تلك الليلة . وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل . وقال لهمـا كل الجماعة : ليتنا متنا في أرض مصـر . ولماذا أتى بنـا الرب إلى هـذه الأرض لنسقط بالسيف . . أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر ؟ عدد ١٤» .

وعنـدما استبـد بهم الطوى ، وانهكتهم سيـاط الحـرمـان ، فكـروا بخلع نيـر مـوسى عن رقابهم . فائتمروا «وقال بعضهم لبعض : نقيم رئيساً ، ونرجع إلى مصر . سفر العدد ١٤» .

وأمام هذه التحـديات لمـوسى ، ورب موسى ، غضب يهـوه الموسـوي ، واغتاظ من بني إسرائيل المتمردين على موسى . وسخط عليهم لندمهم على الخروج من مصر . واعتراه غضب شديد، لعدم تصديقهم الآيات والمعجزات التي صنعها أمامهم . وكاد أن يفتـك بهم ، كما يبـدو

في قوله لموسى «حتى متى يهينني هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم . سفر العدد ١٤» . لولا أن تدخل موسى ، محاولاً تهدئة نار الغيظ التي اشتعلت في صدر يهوه ، وتسكين أوار الغضب المتقد في نفسه . مذكراً الرب بأنه «طويل الروح ، كثير الإحسان» . معاتباً إياه في شيء من اللوم الذاتي من التأنيب . كما يبدو في قوله له «فإن قتلت هذا الشعب ، يتحدث الشعوب الذين سمعوا بخبرك ، قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم ، قتلهم في القفر . . فالآن اصفح عن ذنب هذا الشعب . سفر العدد ١٤» .

وكأن يهوه قد شعر بخطأه ، وندم على ما بدر منه ، من سخط وغضب . فقال لموسى «قد صفحت حسب قولك . ولكن جميع الرجال الذي رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر ، وفي البرية . وجربوني الآن عشرات المرات ، ولم يسمعوا لقولي ، لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم . وجميع الذين أهانوني ، لا يرونها . سفر العدد ١٤» .

«وكلم الرب موسى وهارون قائلاً : حتى متى اغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي . . ؟ قل لهم . . في هذا القفر تسقط جثثكم . . وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة . . أما الرجال الذين أرسلهم موسى ليتجسّسوا الأرض ، وأشاعوا المذمة الرديئة على الأرض . . فماتوا بالوباء أمام الرب . سفر العدد ١٤» .

ترى ، لماذا غضب يهوه على مختاريه . وحكم عليهم بالتيهان في صحراء سيناء ، أربعين عاماً ؟ .

- ألأن الجماعة الذين أرسلهم موسى لتجسّس الأرض . أشاعوا مذمّة الأرض ، بقولهم : هي أرض تأكل سكانها . فثبطوا من عزيمة موسى وعزيمة أتباعه ؟ أم لأنهم تذمروا على يهوه - موسى ، وهانت ثقتهم به ؟ .

ولماذا تذمروا وتمردوا على موسى ، وإله موسى ؟ الأنهما لم يأتيا بهم إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ؟ أم لأن الجواسيس روعوا اتباع موسى بوصفهم الأرض ، وما فيها من مدن وحصون ، وما يقوم عليها من شعب معتز ، جبار ؟ .

ولماذا لم يصدقوا الآيات التي عملها يهوه في وسطهم ، كما قال عن نفسه ؟ وضاق ذرعاً بهم ، وباهانتهم له . فقرّر أن يفنيهم في لحظة .

ولماذا لم يستطع قائدهم إدخالهم أرض الميعاد ؟ ألأنهم عاشوا ألواناً من العذاب والذل في مصر ، فهانت نفوسهم وخارت قواهم ، وألفوا المذلة والاستعباد. فقضى موسى عليهم ، بالتبدي في صحراء سيناء ، أربعين عاماً ، لانتظار جيل فتي يقوى على القتال ويصبر على الحرب ؟ .

أم . .

أعتقد أن موسى كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع تحقيق الجزء الثاني من مهمته ، والذي ينطوي على قتال كثير ، إلاّ إذا مات المتبرّمون من قومه . وظهر مكانهم جيل جديد مطعم بروح القتال ومدرب على الحرب . وأدرك أنه ليس في الإمكان تحويل اناس مستعبدين إلى شعب مقاتلٍ في أسابيع قليلة أو في أشهر . وأنه لا بد من روح جديدة تبعث فيهم . وهو أمر يتطلب وقتاً طويلاً .

وكان من العبث الإقدام على غزو كنعان من غير خطة سليمة . خطة يمكن تنفيذها بسرعة . والوصول إلى الهدف المنشود من دون انتكاسات . فقد كان اجتناب الإنتكاسات أمراً مهماً . إذ أن الإنكسار في المعركة ، كان يؤدي ، في الغالب ، إلى فقدان الثقة بقيادة القائد . لذلك عزم موسى على الترحل باتباعه ، في الصحراء ، مدة من الزمن (٤٠ عاماً) تكفي لتحويلهم إلى جماعة مدربة على القتال ، قادرة على الحرب .

وقد حاولوا ، أثناء تبديهم في صحراء سيناء ، غزو كنعان من تخومها الجنوبية . إلاَّ أن المحاولة باءت بالفشل ، لأن الكنعانيين أرهبوهم بما في نفوسهم من اعتزاز ، وما في قاماتهم من طول وقوة . وروعوهم بما في حصونهم من منعة ، وما في أرضهم من ثروة ، وبما حققوه في حياتهم من حضارة .

إن وصف الجواسيس للأرض وسكانها : «شعب معتز . والمدن حصينة ، عظيمة جداً . هناك العمالقة والجبابرة . أرض تأكل سكانها» ينم عن شعور بني إسرائيل بالخوف والضعف «كنا في أعيننا كالجراد» عن مقارعة هؤلاء الجبابرة الذين «كنا في أعينهم كالجراد» أيضاً .

يُضاف إلى ذلك أن اقليم كنعان الجنوبي ، كان محصناً ، ومنظماً تنظيماً قتالياً ، وسياسياً جيداً . فعندما «بكروا صباحاً ، وصعدوا إلى رأس الجبل نزل العمالقة والكنعانيون ، فضربوهم وكسروهم . سفر العدد ١٤» . فاضطروا إلى التقهقر ، والالتفاف إلى شرقي الأردن . ومن قادش «أرسل موسى رسلاً إلى ملك أدوم ، قائلاً : نحن في قادش . مدينة في طرف تخومك . دعنا نمر في أرضك . لا نمر في حقل ولا في كرم . ولا نشرب ماء بئر . لا نميل يميناً ولا يساراً . حتى نتجاوز تخومك .

فقال له ادوم : لا تمر بي ، لئلا أخرج للقائك بالسيف . . وأبى ادوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه . فتحول إسرائل عنه . سفر العدد ٢٠» .

«ولما سمع الكنعاني ملك عراد ، الساكن في الجنوب ، أن إسرائيل جاء في طريق اتاريم ، حارب إسرائيل ، وسبى منهم سبياً . سفر العدد ٢١» .

ثم «أرسل إسرائيل رسلاً إلى سيحون ، ملك الأموريين ، قائلاً دعني أمر في أرضك . لا

نميل إلى حقل ولا إلى كرم ، ولا نشرب مـاء بئر . . فلم يسمـح سيحون لإسـرائيل بـالمرور في تخومه . . بل حارب إسرائيل . سفر العدد ٢١» .

«ثم تحـولوا وصعـدوا في طريق بـاشـان . . فخـرج عـوج ملك بـاشـان للقـائهم . سفـر العدد ٢١» .

قد تسأل : لماذا لم يسمح لهم هؤلاء الملوك بالمرور في أراضيهم ؟ ألأنهم «شعب لا ينام حتى يأكل فـريسة ، ويشـرب دم قتلى . سفر العـدد ٢٣» ؟ أم لأنهم ، بتعبير بـالاق بن صفور ، ملك مؤاب ، شعب «يلحس كـل ما حـولنـا ، كمـا يلحس الثـور خضـرة الحقـل . سفـر العـدد ٢٢» ؟ .

أم لأن ملوك كنعان شعروا بالحقد يغتلي في نفوس بني إسرائيل ، وبشهوة الإنتقام تضطرم في صدورهم ؟ وأدركوا أن هذه القبيلة الهمجية(١٧٢) مقبلة على حرب تحريم وإبادة ؟ .

«وفي عربات مؤاب على أردن أريحا كلم الرب موسى قائلاً : كلّم بني إسرائيـل وقل لهم إنكم عـابرون الأردن إلى أرض كنعـان ، فتـطردون كـل سكـان الأرض من أمـامكم ، لأني قـد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها . وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائـركم . . وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم . عدد ٣٣ : ٥٠ ـ ٥٥» .

هنا تنشأ عند بني إسرائيل فكرة «الوطن» . فـ «الوطن» هنا بلاد لم ينشأ فيها بنو إسرائيـل ، ولم يتوارثوها أبناء وأحفاداً كسائر الشعوب في أوطانها . وإنمـا «الوطن» عنـدهم عبارة عن فكـرة الإستيـطان . إن «الـوطن» هنـا نشـأ عن فكـرة مؤداهـا أن إلٰههم وعـدهم بـأرض كنعـان وطنـاً لهم . وهذه حالة فريدة في التاريخ أو قل هي شـاذة ، لأن من المتعارف عليـه في قامـوس الحياة الإجتماعية أن ينشأ مجموعة من الناس في أرض ، فينمـون ويتزايـدون ويتطورون مـع الأرض ، حتى تنشأ في نفوسهم فكرة الوطن . أما بنو إسرائيل فقد ظهروا إلى الوجود أولاً ، ثم اتجهوا إلى إقليم بعينه كوطن لهم ثانياً . فعندهم أن فكرة الوطن تأتي أولاً . ثم يأتي الوطن ثـانياً ، بخـلاف نظرية التطور الإجتماعي في حياة الشعوب جميعها .

وفي سفـر التثنية يلخّص محـرر التوراة أحـداث سيرة بني إسـرائيل التي فصّلهـا في السفر السابق (العدد) . وكأنه يهدف ، من خلال عرض بعض الجوانب من سيـرة حياتهم في سينـاء ، إلى لـوم بني إسرائيـل وتأنيبهم لتخـاذلهم وتقاعسهم عن تنفيـذ ما أمـر به يهـوه ـ غـزو الأرض . محاولاً أن يبث في صدورهم شيئاً من أنفاس العزيمة والجرأة . وأن يرسّخ في مشاعـرهم الرغبـة في اقتحام أرض كنعان . يقـول المحرر «في السنـة الأربعين» . لخروج بني إسـرائيل من مصـر «ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلاً : يهوه إلٰهنا كلّمنا في حوريب قائلاً : كفاكم قعود في هذا الجبـل ، تحولـوا وارتحـلوا وادخلوا جبل الأمـوريين وكل مـا يليه من العـربة والجبـل والسهـل

والجنوب وساحل البحر ، أرض الكنعاني ولبنان ، إلى النهر الكبير ، نهر الفرات . انظر قد جعلت الأرض أمامكم . ادخلوا وتملّكوا الأرض التي أقسم يهوه لأبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . تثنية ١ : ٥ ـ ٨» .

ويتابع موسى شارحاً شريعة يهوه القاضية بتمليك اتباعه بني إسرائيل أرض الكنعاني ولبنان ، فيقول «ثم ارتحلنا من حوريب وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف الذي رأيتم في طريق جبل الأموريين ، كما أمرنا يهوه إلٰهنا ، وجئنا إلى قادش برنيع . فقلت لكم قد جئتم إلى جبل الأموريين الذي اعطانا يهوه إلٰهنا . انظر قد جعل يهوه إلٰهك الأرض أمامك ، إصعد تملّك كما كلّمك يهوه إله آبائك . لا تخف ولا ترتعب . .

لكنكم لم تشاؤا أن تصعدوا ، وعصيتم قول يهوه إلٰهكم . وتمرمرتم في خيامكم . وقلتم : يهوه بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا . إلى أين نحن صاعدون ؟ . قد أذاب اخوتنا (الجواسيس) قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا . مدن عظيمة محصنة إلى السماء . وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك . فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا منهم . يهوه إلٰهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم . تثنية ١ : ١٩ ـ ٣٠» .

وفي الفصل الثاني يتابع موسى حديثه مذكراً أتباعه بما فعله يهوه لأجلهم ، يقول «ثم تحوّلنا وارتحلنا إلى البرية على طريق بحر سوف كلما كلمني يهوه ، ودرنا بجبل سعير أياماً كثيرة . ثم كلّمني يهوه قائلاً : كفاكم دوران بهذا الجبل . تحوّلوا نحو الشمال . . فتحوّلنا ومررنا في طريق برية مؤاب . . ثم قال لي الرب . . الآن قوموا واعبروا وادي زارد . . والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زارد كانت ثماني وثلاثين سنة ، حتى فني كل الجيل . . كما أقسم يهوه لهم . . ثم كلمني يهوه قائلاً . . قوموا ارتحلوا واعبروا وادي أرنون . قد دفعت إلى يدك سيحون ملك حشبون الأموري وأرضه . ابتدىء تملّك ، وأثر عليه حرباً . في هذا اليوم ابتدىء أجعل خشيتك وخوفك أمام وجوه الشعب تحت كل السماء . الذين يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك . تثنية ٢ : ١ ـ ٢٥» .

ويضيف موسى «إن يهوه إلٰهنا دفع أمامنا ملك حشبون . . فضربناه وبنيه وجميع قومه . وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت . وحرّمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . لم نبق شادراً . تثنية ٢ : ٣٣» .

وفي الفصل الثالث يتابع موسى سرد بعض الفصول من قصة حروبهم وأيامهم على أبواب الأرض . يقول «ثم تحولنا وصعدنا في طريق باشان . . فدفع يهوه إلٰهنا إلى أيدينا عوج ملك باشان وجميع قومه ، فضربناه حتى لم يبق له شارد . وأخذنا كل مدنه . . وحرّمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . تثنية ٣ : ١ ـ ٦» .

وعندما شعر موسى بدنو أجله راح يبث في نفوس أتباعه الشعور بالشجاعة ، والصبر ،

واحتمال المكاره . ويطلب إليهم العمل بالفرائض والأحكام التي لا توحي بغير الدخول إلى الأرض وإبادة سكانها ، ومن ثم احتلالها . فمحرّر التوراة يستهل الفصل الرابع من سفر التثنية بقوله «فالآن اسمع يا إسرائيل الفرائض والأحكام التي أعلمكم لتعملوها لكي تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي يعطيكم يهوه إله آبائكم» .

وفي الفصل ذاته يقول «احفظ فرائضه ووصاياه . . لكي تطيل أيامك على الأرض التي يعطيك يهوه إلٰهك إلى الأبد . تثنية ٤ : ٤٠» .

وفي الفصل الخامس يخاطب يهوه (الرب) صفيه موسى قائلاً «قف هنا معي فأكلمك بجميع الوصايا والفرائض والأحكام التي تعلمهم ، فيعملونها في الأرض التي أنا أعطيكم ليمتلكوها . تثنية ٥ : ٣١» .

وفي مستهل الفصل السادس يقول موسى «وهذه هي الوصايا والفرائض والأحكام التي أمر يهوه إلٰهكم أن أعلمكم لتعملوها في الأرض التي أنتم عابرون إليها لتمتلكوها» . وفي الفصل ذاته يقول «احفظوا وصايا يهوه إلٰهكم وفرائضه التي أوصاكم بها . . لكي تدخل وتمتلك الأرض الجيدة التي حلف يهوه لآبائك أن ينفي جميع أعدائك من أمامك . تثنية ٦ : ١٧ ـ ١٩» .

وفي الفصل السابع يؤكد يهوه شريعته القاضية بإبادة شعوب الأرض التي يظفرون بها ، وإفناء الأقوام التي ينالونها . ويفرض عليهم ألاّ يعاهدوا أحداً . أما وصاياه وأحكامه فكانت بلسان موسى في قوله «متى أتى بك يهوه إلٰهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك : الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . سبع شعوب أكثر وأعظم منك . . ودفعهم يهوه إلٰهك أمامك وضربتهم ، فإنك تحرّمهم . لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم . تثنية ٧ : ١» .

ويتابع موسى مخاطباً جماعته في محاولة لتبديد المخاوف من نفوسهم . يذكرهم بما فعله يهوه من أعاجيب ومعجزات لأجلهم ، وبما سيفعله حين يدخلون الأرض . عاقداً في صدورهم الإيمان بأن يهوه أبداً معهم ، يرافقهم في حلّهم وترحالهم . يحارب عنهم ويطرد الشعوب من أمام وجههم . قال موسى «تأكل كل الشعوب الذين يدفع إليك يهوه إلٰهك . لا تشفق عيناك عليهم . . وإن قلت في قلبك هؤلاء الشعوب أكثر مني ، كيف أقدر أن أطردهم ؟ . فلا تخف منهم . اذكر ما فعله يهوه إلٰهك بفرعون وبجميع المصريين . هكذا يفعل يهوه إلٰهك بجميع الشعوب التي أنت خائف من وجهها . يرسل يهوه إلٰهك الزنابير عليهم حتى يفنى الباقون . . لا ترهب وجوههم لأن يهوه إلٰهك في وسطك ، إله عظيم ومخوف . ولكن يهوه إلٰهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً . . ويدفعهم يهوه إلٰهك أمامك ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا . ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء . لا يقف إنسان في وجهك حتى تفنيهم . تثنية ٧ : ١٦ ـ٢٤» .

ثم يرغّبهم موسى بالأرض وخيراتها ، ويجني تعب الآخرين «ومتى أتى بك يهوه إلٰهك إلى الأرض التي حلف لآبائك أن يعطيك . إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها . وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها . وآبار محفورة لم تحفرها . وكروم وزيتون لم تغرسها . تثنية ٦ : ١٠» . ويذكرهم بأكل الخبز بالذل والمسكنة ، متخذاً من هذا التذكير بماضيهم القاتم ، باعثاً يشحن صدورهم برغبات ضارية للإستيلاء على أرض العسل واللبن . فيقول «احفظ وصايا يهوه إلٰهك . . لأنه آت بك إلى أرض جيدة . أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال . أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان . أرض زيتون وعسل . أرض ليس بالمسكنة تأكل فيها خبزاً ، ولا يعوزك فيها شيء . تثنية ٨ : ٦ ـ ٩» .

ثم يعود موسى إلى النغمة ذاتها . مؤكداً لهم بأن يهوه (الرب) يسير أمامهم ، يحارب عنهم ويطرد الشعوب من أمام وجههم . محاولاً بهذا التأكيد أن يشد من أزرهم ويقوّي من عزائمهم . يقول «أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك . ومدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء . . فاعلم اليوم أن يهوه إلٰهك هو العابر أمامك ناراً آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك ، فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك يهوه . تثنية ٩ : ١ ـ ٣» .

وبعد ، إن وصايا يهوه وأحكامه تنحصر في إبادة شعوب الأرض وتدمير مظاهر حضارتهم . وتتمثّل رغبته في تجمّع أتباعه وزحفهم على إحدى المدن لتخريبها وإبسال كل نسمة حية فيها . هي رغبة الزعيم أو القائد ، لكن المحرر يجعلها رغبة يهوه . فالرغبات البدائية التي كانت تغتلي في صدورهم حوّلوها إلى نبوءات ، ادعوا بها معرفة الغيب ومشاركة الخالق في سبر أغوار الوجود . وسخروا الخالق الذي جعلوه طوع إرادتهم ورهن إشارتهم إلى تحقيق هذه الرغبات .

فرغبتهم في قهر الأُمم القوية ، وهم الضعفاء المستضعفون . والتغلّب على الأُمم الحضارية ، وهم البدائيون المتخلّفون . واستملاك أرض ، وهم البداة المستعبدون في مصر . المشردون في صحراء سيناء ، جعلتهم يسخرون إلٰههم يهوه لنصرتهم وشد أزرهم في الحروب ، وجعلتهم ينسبون إلى إلٰههم يهوه وعده المشهور بتمليكهم أرض كنعان . هذا الوعد الذي يتكرر بصور مختلفة ، وعلى أفواه أنبياء عديدين ، لتأكيده وحفره في صدورهم ، لا يزول ما دامت في صدورهم أنفاس حياة .

وفي الفصل الحادي عشر من سفر التثنية يشدّد موسى على الوصايا والفرائض والأحكام التي لا تعني شيئاً غير التشجيع والحث على دخول الأرض وإبادة سكانها ومن ثم استملاكها . يقول «احفظوا كل الوصايا التي أوصيتكم بها اليوم لكي تتشددوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي أنتم عابرون إليها لتمتلكوها . ولكي تطيلوا الأيام على الأرض التي أقسم يهوه لآبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم . أرض تفيض لبناً وعسلاً . تثنية ١١ : ٨ ـ ١٠» .

ثم يردف أمره بشرط مقرون بالترغيب «إذا حفظتم جميع هذه الوصايا . . يطرد يهوه جميع

هؤلاء الشعوب من أمامكم . فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم . . لا يقف إنسان في وجهكم . يهوه إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها . تثنية ١١ : ٢٢ ـ ٢٥» .

وينهي المحرر سفر التثنية بقوله «فذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع إسرائيل ، وقال لهم : أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة . . ويهوه قال لي لا تعبر هذا الأردن . يهوه إلٰهك هو عابر قدامك . هو يبيد هؤلاء الأمم من قدامك فترثهم . . فمتى دفعهم يهوه أمامك تفعلون بهم حسب كل الوصايا التي أوصيتكم بها . تشدّدوا وتشجعوا . لا تخافوا ولا ترهبوا وجوههم ، لأن يهوه إلٰهك سائر معك ، لا يهملك ولا يتركك . فدعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل : تشدّد وتشجع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم يهوه لآبائهم أن يعطيهم إياها ، وأنت تقسمها لهم . ويهوه سائر أمامك وهو يكون معك لا يهملك ولا يتركك . لا تخف ولا ترتعب . تثنية ٣١ : ١ ـ ٨» .

أيضاً وأيضاً في سفر يشوع : الأرض ، الأرض ، الأرض ، هي الشغل الشاغل ليهوه ، وهي مدار تفكيره ومحط اهتمامه ، مع فارق بسيط في أسلوب المخاطبة . ففي سفر التكوين كان يمنح الأرض بصيغة الوعد ، يقول مثلاً : «لنسلك أعطي هذه الأرض» . وفي سفر الخروج صار الوعد مقروناً بشرط ماض «متى أدخلك يهوه أرض الكنعانيين» أنك تفعل كذا . . أو حاضر «حين تدخلون الأرض التي يعطيكم يهوه» أنكم تفعلون كذا . . وفي سفر اللاويين بقي الوعد مقروناً بشرط أيضاً «متى جئتم إلى أرض كنعان التي أعطيكم ملكاً» تفعلوا كذا . . وفي سفر العدد راح يهوه أو المحرر الذي دون شريعة يهوه يخاطبهم بصيغة اسم الفاعل ، مؤكداً لهم إدخالهم إلى الأرض ، يقول «إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان . .» . «انكم داخلون إلى أرض كنعان . .» . وفي سفر التثنية الأسلوب ذاته «الأرض التي أنتم عابرون إليها لتمتلكوها . .» . أما في سفر يشوع فقد أضحى الخطاب في صيغة أمر : قُم اعبر .

يبدأ المحرر السفر بقوله «وكان بعد موت موسى أن يهوه كلّم يشوع بن نون ، خادم موسى ، قائلاً : قُم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل .كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته . من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. يشوع ١ :١».

وكما كان موسى باسم يهوه يشجّعهم ويشدّ من أزرهم ، ويعدهم بأن يسير يهوه أمامهم ، يحارب عنهم ويطرد الجيوش من قدامهم ، فإن يهوه في سفر يشوع راح يقوم بمهمة موسى ، فيخاطبهم مباشرة ، قال ليشوع «لا أهملك ولا أتركك . تشدّد وتشجّع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم . إنما كن متشدداً وتشجع جداً . . تشدّد وتشجّع ، لا ترهب ولا ترتعب ، لأن يهوه إلٰهك معك حيثما تذهب . يشوع ١ : ٥ ـ ٩» .

وبعد عبورهم الأردن عمل بعض ممالك فلسطين كادوم ، وعراد ، وسيحون ، وباشان ،

على صدّهم عن تخومه لأنه شعر بهم «شعباً لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى . سفر العدد ٢٣ : ٢٤» . «ويلحس الأرض كما يلحس الثور خضرة الحقل . عدد ٢٢ : ٤» . ولكن ممالك أخرى سمحت لهم بالمرور في أراضيها ، وتسريح مواشيهم في مراعيها . أو أنهم تسلّلوا في غفلة عنها ، أو أنها لم تأبه لتسلّلهم البطيء خلال مائتي سنة .

المهم أنهم تسلّلوا إلى مراعي الأرض ببطء وحذر شديدين . وكانوا إذا ما رأوا بعض سكان الأرض «ساكنين بطمأنينة» (لايش مثلاً) انقضوا عليهم إنقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين . ودامت معارك الغزو وعمليات التسلل زهاء مائتي سنة ، حددها المؤرخون في الفترة الواقعة بين ١٢٠٠ و ١٠٤٥ ق . م . تقريباً . انتهت باستيطانهم بعض مرتفعات فلسطين . وفي عام ١٠٣٠ ق . م . اتحدت اسباطهم في عهد شاول وأقاموا نوعاً من الكيان المزعزع القلق المفكك المتنازع ، ظل محصوراً في بعض المرتفعات ، وفي رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة . ولم يعمّر أكثر من ٧٨ عاماً ، وهي المدة التي حكم فيها داود وسليمان . وإذا ما كان في فلسطين يومذاك نحو من خمسين ملكاً ، فليس بغريب أن يطلقوا على قائد شرذمة (مرتزقة) كداود وسليمان اسم ملك .

وبعد موت سليمان انقسموا على أنفسهم : إسرائيل في الشمال ، ويهوذا في الجنوب . وظلوا يتصارعون في ما بين بعضهم البعض إلى أن سباهم الأشوريون والبابليون إلى بلاد ما بين النهرين .

لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم في المرتفعات التي ضربوا فيها أطناب خيامهم بعض الوقت . ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الطمأنينة والاستقرار . وظلوا فترة استيطانهم معرضين لخطر الطرد والتهجير . وكانت سيرة حياتهم القصيرة سيرة ملوك برابرة يحكمون شعباً من البرابرة(١٧٣) . كانت أشبه بحياة رجل أصرّ على الوقوف في وسط ميدان صاخب ، فكان مصيره أن دهمته السيارات(١٧٤) .

وهكذا سقطت المملكة ـ الدويلة التي أقاموها في بعض مرتفعات فلسطين . وبادت واندثرت لأنها كانت نتيجة استيلاء عابر ، طارىء . وقامت على أسس طغيانية ، استعمارية ، مجردة من أي جوهر إنساني ، مناقبي ، ينطلق من إنسانية الإنسان .

رؤيـا الخـلاص

وبعـد السبي ، والشعور بـالخوف والعجـز ، وعـدم الإستقـرار ، لم يبق لهم مـا يبثّ في نفوسهم الهدوء ، ويـدب في روعهم الإطمئنان ، غيـر الآمال يـزرعها أنبيـاؤهم في صدورهم . وينشرون حبال الأحلام في وجوههم المتعبة . وكان محرّرو التوراة (العهد القديم) من البراعة أن جعلوا من هذه الأماني والأحلام نبوءات تدفق في نفوسهم الرجاء بأن يهوه سيفتقدهم ، وينقذهم منْ عـذاب الأسر وذل السبي ، ويعيـدهم إلى «أرض الميعاد» . فكـان الـوعـد بيـوم الـرجـاء ، بـالخلاص الآتي . ورسخت في أذهـانهم فكرة المسيـح(*) المخلّص ، الـذي يـأتي في سـطوة زمنية ، ينقذهم مما صاروا إليه من ذل وهوان ، ويعيد لهم مجد داود وسليمان . وكانت رؤيـاهم عن المسيح المنتظر ملكاً من نسل داود ، مملكته في الدنيـا ، يخلّص أوزاع اليهود المشتتين في أقـطار الأرض ، ويعيدهم إلى أرض فلسـطين . يخضع الشعـوب لسيطرتهم ، ويضـع أقـدامهم فوق رقاب الأمم . قـال أشعيا النبي (١١ : ١١ ـ ١٤) «ويكـون في ذلك اليـوم أن السيد (يهـوه) يعيـد يـده ثـانية ليقتني بقيـة شعبه التي بقيت من أشـور ومن مصر ومن فتـروس ومن كـوش ومن عيـلام ومن شنعار ومن حمـاة ومن جزائـر الأمم . ويرفـع راية لـلأمم ، ويجمع منفيي إسـرائيـل ويضم مشتتي يهـوذا من أربعة أطـراف الأرض . . وينقضـان على أكتـاف الفلسـطينيين غـربـاً ، وينهبون بني المشرق معاً ، يكون على ادوم ومؤاب امتداد يدهما . وبنو عمون في طاعتهما» .

وقـال يهوه (الـرب) بلسـان زكـريـا النبي (١٠ : ٨ و ١٠) «أصفـر لهم وأجمعهم لأني قـد فديتهم . . وأرجعهم من أرض مصر وأجمعهم من أشور ، وآتي بهم إلى أرض جلعاد ولبنان» .

فحيـاة السبي التي عانـوها عمّقت في نفـوسهم عقد الحقـد والكـراهيـة للشعـوب ، كـل

(*) المسيح كل رجل تمّ مسحه بالزيت أو بـالدهن . وقـد أوصت الشريعـة الموسـوية بمسـح الأشخاص والأمـاكن والآنية تعبيراً عن التكريس لخدمة يهوه (الرب) . فعن مسح الكهنة قال يهوه مخاطباً صفيّه موسى «تصنع أقمصـة لبني هارون ، وتصنع لهم مناطق ، وتصنع لهم قلانس للمجد والبهاء . وتلبس هارون أخاك إياهـا وبنيه معـه ، وتمسحهم وتمـلأ أياديهم وتقـدسهم ليكهنوا لي . خـروج ٢٨ : ٤٠» . وعن مسح الأنبيـاء والملوك قـال يهـوه مخاطباً ايليا (النبي) «اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق وادخل وامسح حـزائيل ملكـاً على ارام ، وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على إسرائيـل ، وامسح ايليشـع بن شفط نبياً عـوضاً عنـك . ملوك أول ١٩ : ١٥» . وعن مسـح الملوك يقول محـرر سفر سمـوئيل الأول (١٦ : ١٣) «فـأخذ سمـوئيل قـرن الدهن ومسـح داود في وسط اخوته . وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً» . ويقـول «جاء جميـع شيوخ إسـرائيل إلى داود إلى حبرون . . ومسحوا داود ملكـاً على إسرائيـل . سموئيـل الثاني ٥ : ٣» . وعن مسـح الآنية والأمـاكن والأشياء يقول يهوه «وتمسح المذبح لتقديسه . خروج ٢٩ : ٣٦» . «وتمسح خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة ، والمائدة وكـل آنيتها ، والمنـارة وآنيتها ، ومـذبح البخـور ، ومذبـح المحرقـة وكـل آنيتـه ، والمـرحضـة وقـاعـدتهـا . خروج ٣٠ : ٢٦» .

الشعوب . ولم يبق لهم ما يروون به غلة الحقد والإنتقام ، غير الحلم ـ النبوءة . فكان اعتقادهم بمجيء المسيح ـ الملك لينتقم لهم من أمم الأرض . وكان الحلم ـ الرؤيا أن «أصل يسّى (والد داود) القائم راية للشعوب . اشعيا ١١ : ١٠» يقوم على رأس أتباعه ، فينقضّون على أكتاف الفلسطينيين ، وينهبون بني المشرق ، ويخضعون ادوم ومؤاب وبني عمون ـ الشعوب التي قهرتهم وأذلتهم ، ثم قذفتهم خارج تخومها ، عندما رأتهم ينغلقون على نفسهم في قوقعة التعصّب المتحجرة والعنصرية الشوهاء . ويصلون الشعوب ، كل الشعوب ، بنار الحقد والكراهية .

وكانوا ، كلما نأى بهم التشتت عن أرض فلسطين ، كلما اشتعلوا حنيناً إليها . وكلما ازدادوا تشبّثاً بفكرة مجيء المخلّص الذي يجمع شمل التائهين المشرّدين ، ويعيدهم إلى فلسطين . «هكذا قال رب الجنود : هانذا أخلّص شعبي من أرض المشرق ، ومن أرض مغرب الشمس ، وآتي بهم فيسكنون في وسط أورشليم ، ويكونون لي شعباً ، وأنا أكون لهم إلهاً . زكريا ٨ : ٧» .

وكانوا ، كلما اشتد إضطهادهم ، أو كلما اشتدت معاناتهم من الشعور بالإضطهاد ، كلما ضري الأمل في صدورهم وقوي الرجاء في نفوسهم ، بأن إلههم يهوه سيفتقدهم ويجمعهم من الأراضي التي تشتتوا إليها ، ويأتي بهم إلى فلسطين . فحزق ايل النبي يعبّر عن رغبة يهوه بافتقادهم ، وعزمه وتصميمه على إعادتهم ، بصور من الحلم ـ النبوءة . يقول بلسان يهوه (الرب) «كما يفتقد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المشتتة ، هكذا أفتقد غنمي ، وأخلّصها من جميع الأماكن التي تشتتت إليها . . وأخرجها من الشعوب وأجمعها من الأراضي ، وآتي بها إلى أرضها . . وأرعاها على جبال إسرائيل . . وأقيم عليها راعياً واحداً . فيرعاها عبدي داود . هو يرعاها ، وهو يكون لها راعياً . وأنا يهوه أكون لهم إلهاً ، وعبدي داود رئيساً في وسطهم . حزق ايل ٣٤ : ١٢ و١٣ و٢٣» . ويقول «هانذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها ، واجمعهم من كل ناحية ، وآتي بهم إلى أرضهم . حزق ايل ٣٧ : ٢١» . ويقول بلسان يهوه أيضاً «آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي ، وآتي بكم إلى أرضكم . . وتسكنون الأرض التي أعطيت آباءكم إياها . وتكونون لي شعباً ، وأنا أكون لكم إلهاً . حزق ايل ٣٦ : ٢٤ و٢٨» . ويقول «أخرجكم من بين الشعوب وأجمعكم من الأراضي التي تفرقتم فيها ، وأتقدس فيكم أمام عيون الأمم ، فتعلمون أني أنا يهوه حين آتي بكم إلى أرض إسرائيل ، إلى الأرض التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها . حزق ايل ٢٠ : ٤١» .

وارميا النبي يصوغ رغبة يهوه وعزمه وتصميمه ، في قالب من الحلم ـ الرؤيا . يقول «ها أيام تأتي ، يقول الرب ، ولا يُقال بعد حيّ هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من مصر . بل حيّ هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردهم

إليها . فأرجعهم إلى أرضهم التي أعطيت آباءهم إيّاها . ارميا ١٦ : ١٤» . ويقول يهوه «وأنا اجمع بقية غنمي من جميع الأراضي التي طردتها إليها . وأردها إلى مرابضها ، فتثمر وتكثر . وأقيم لداود غصن برّ ، فيملك وينجح . في أيامه يخلص يهوذا ، ويسكن إسرائيل آمناً . . لذلك ها أيام تأتي ، يقول الرب ، ولا يقولون بعد : حيّ هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر . بل حيّ هو الرب الذي أصعد وأتى بنسل بني إسرائيل من أرض الشمال ، ومن جميع الأراضي التي طردتهم إليها ، فيسكنون في أرضهم . ارميا ٢٣ : ٣ ـ ٨» . ويقول «هانذا أجمعهم من كل الأراضي التي طردتهم إليها بغضبي وغيظي ، وأردهم إلى هذا الموضع وأسكنهم آمنين . ويكونون لي شعباً ، وأنا أكون لهم إلٰهاً . ارميا ٣٢ : ٣٧» .

ويقول أيضاً «ها أيام تأتي يقول يهوه ، وأرد سبي شعبي إسرائيل ويهوذا ، يقول يهوه ، وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيت آباءهم إياها، فيمتلكونها . أرميا ٣٠ : ٣» . ويقول أيضاً وأيضاً «هانذا آتي بهم من أرض الشمال ، وأجمعهم من أطراف الأرض . ارميا ٣١ : ٨» .

وهكذا أخذوا يتطلعون في السبي البابلي إلى مجيء بطل يحقق لهم أحلامهم (في العودة إلى أرض فلسطين ، وإعادة إنشاء مملكتهم الضائعة) ، لابعملهم وكدهم . بل بعمل خارج عنهم . ومن الطبيعي أن ينظر الإنسان إذا ما حل بما حوله الإنحلال والتدهور ، إلى عصر ماض يعكس عليه آماله وتطلعاته . وعندما جال اليهودي ، في السبي البابلي ، بنظره في العصور السالفة ، توقف عند عصر داود . وأخذ العقل اليهودي ينصبه في مخيّلته مثالاً لما يجب على التاريخ أن يكون . فالعصر الداودي بخيره المادي الكبير ، وبثرائه ورخائه . باستقراره السياسي ، ووحدته ، أصبح في نظر اليهودي عصراً ذهبياً . وربما احتل عصر داود هذه الصورة المثالية في الوجدان اليهودي ، لما أداه داود في حياته ، من اهتمام وتكريم نحو تابوت العهد والكهنة المشرفين عليه . فكان أول ما فعله إثر توليه عرش يهوذا وإسرائيل أن قام بنقل التابوت وسدنته ، إلى جوار قصره في جبل صهيون .

وعندما قوي نفوذ داود ، استعان به ملك صور لحماية قوافل الصوريين التجارية ، من الصعاليك وقطاع الطرق . ومقابل ذلك «أرسل حيرام ملك صور ، رسلاً إلى داود ، وخشب أرز ، وبنائين ونجارين ، ليبنوا له بيتاً . سفر الأخبار الأول ١٤» .

وهكذا «عمل داود لنفسه بيوتاً في مدينة داود (حصن صهيون) . وأعد مكاناً لتابوت يهوه . ونصب له خيمة . سفر الأخبار الأول ١٥» .

ورضي الكهنة عن هذا العمل كثيراً ، رغم أن داود نصب خيمة لتابوت ربه «يهوه» . بينما بنى لنفسه ، بمساعدة حيرام والبنائين الكنعانيين ، قصراً من خشب الأرز . لأن شاول كان قد نفاهم إلى قرية يعاريم ، لشكه في ولائهم له . ودعوة داود لهم بالعودة مع التابوت ، إلى مدينة داود ، والعيش فيها بالقرب من الملك والتابوت ، رفع كثيراً من شأنهم . ولذلك أصبحوا ، بين

عشية وضحاها ، أكبر معاضدين للملكية ، بعد أن كانوا أعداءها . وقام الكهنة بالدعوة إلى المملكة الداودية . وقالوا إنها الوريثة الشرعية الوحيدة لعهد يهوه ليعقوب «إسرائيل» .

وراح الكهنة يعملون على دعم دولة داود ، وتركيزها ، بمختلف الوسائل وشتى السبل :

١ ـ فجعلوا من داود مسيحاً . اختاره يهوه بنفسه . وعينه ملكاً على إسرائيل . «هكذا قال رب الجنود : أنا أخذتك من المربض ، من وراء الغنم ، لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل . سفر الأخبار الأول ١٧» . ويقول يهوه «حلفت لداود عبدي ، إلى الدهر أثبت نسلك . وابني إلى دور فدور كرسيك . مزمور ٨٩» . ويقول «واجعل إلى الأبد نسله وكرسيه ، مثل أيام السموات . مزمور ٨٩» . ويقول أيضاً «أنت ترعى شعبي إسرائيل . وأنت تكون رئيساً على إسرائيل . سفر سموئيل الثاني ٥» .

٢ ـ أرادوا لربهم أن يتخذ من داود ابناً له . ويثبت مملكته إلى الأبد . يقول الرب «أنا أكون له أباً . وهو يكون لي ابناً . . أثبت مملكته . . ويكون كرسيه ثابتاً إلى الأبد . سفر الأخبار الأول ١٧» . ويقول أيضاً «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون ـ جبل قدسي . اسألني فاعطيك الأمم ميراثاً لك ، واقاصي الأرض ملكاً لك . مزمور ٢» .

٣ ـ وأرادوا لربهم أن يختار بنفسه صهيون ، لتكون مسكناً له . فهي ليست عاصمة داود السياسية فحسب ، وإنما هي العاصمة الدينية التي لا يمكن للإله أن يستقر أو يسكن أو يعبد إلاّ فيها . «الرب اختار صهيون . اشتهاها مسكناً له . مزمور ١٣٢» .

وباختصار إن الكهنة عملوا على تأليه مملكة داود ، لدرجة أن قارىء المزامير ، أو المطلع على الأسفار الكثيرة والطويلة ، التي خصصت للحديث عن داود ، وأخبار مملكته وحروبه وقصره ونسائه ، يخرج بانطباع مؤداه أن تطلع اليهود إلى الدولة الداودية ، لم يكن مجرد أمل (Wishful Thinking) أي الأمل بحدوث شيء معين ، طيب . وإنما كان التطلع إليها تطلعاً إلى تحقيق مشيئة الرب . لأن الدولة هي مشيئة الرب في الأرض . والتطلع إلى تحقيق مشيئة الرب تعبد .

وما دام العقل اليهودي يتصور التدين والتعبد لله ، قائماً في الولاء للدولة الداودية . فمن الطبيعي أن يظل تدينه وتعبده ، يعني التطلع إلى هذه الدولة ، والأمل في إعادة تحقيقها . وما دام الرب هو الذي اختار ، وهو الذي انتصر ، وهو الذي اشتهى ، وهو الذي سكن ، في صهيون . فالتطلع إلى إعادة كل هذا ، واجب ديني ، تعبد .

والحقيقة ان اليهودي ، في قراءته لتاريخ هذه الدولة ، في مجموعة الأسفار المقدسة ، لا يشعر بأنه يقرأ أدباً أو تاريخاً . بل يتدين بقراءته . وبقراءته لهذه النصوص يحقق أعمق المشاعر الدينية .

وهكذا تكوّن الميثاق الداودي . وهو ميثاق بين الرب وبين داود ، وذريته . وحول صهيون وملك داود في صهيون ، انعقد إحساس اليهود الديني كله . وتبلور وعيهم بذاتهم وبرسالتهم .

وكانوا ، كلما ساءت ظروفهم ، وتدهورت أحوالهم ، كلما امعنوا في اضفاء الرونق والجلال على عصر داود . إلى أن جعلوا منه صخرة خلاص . عليها تتحطم جميع الأمم . ومنها يكون خلاص اليهود .

وتاريخ اليهود ، بعد موت سليمان ، كان تاريخ تدهور وانحلال . وفي السبي البابلي زاد من وطأة شعورهم بهذا التاريخ العاثر ، شعورهم بالإضطهاد . وكان للظواهر المقلقة في نفوسهم ، والأحوال الإجتماعية المضطربة في حياتهم ، انعكاس واضح الأثر في مشاعرهم النفسية الجياشة . فحفلت الآثار الأدبية التي وضعها هناك كهنتهم وشعراؤهم ، بالمرثيات الشعرية الضافية . تندب حظ اليهود العاثر . وتعبر عن آمالهم بالخلاص مما يعانون من ذل الأسر ، ومحنة السبي ، ورهق التشريد . والعودة إلى فلسطين . ونما في نفوسهم توق ونزوع إلى مخلص ينقذهم من عار الخيبات التي منوا ، ويمنون بها . ويخلصهم من الإضطهاد الذي يلحق بهم . أو من الشعور بالإضطهاد الذي يعانون منه .

واعتقد أن المسبيين أخذوا فكرة المخلّص عن البابليين ، أو الفرس ، فقد كان البابليون يعتقدون أنه كلما استشرى الفساد في الأرض ، واستغرقت البشر حمأة الشرور والآثام ، عاد إليهم ماردوك ، ليطهرهم ويشيع الخير فيهم .

وتبشر الديانة الزرادشتية ، التي وضع مبادئها زرادشت ٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق . م ، بظهور مخلّص من بيت زرادشت ، مرة كل ألف عام ، لكي يناصر هرمازدا إلـه الخير ، على أخيه الهرمان إله الشر ، كلما أمعن الفساد في الأرض واستفحلت الشرور .

فعجزهم في تشتتهم ، وقصورهم المادي ، كانا ينتهيان بآمالهم إلى مجرد الرجاء من إله داود ، أن يبعث إليهم من لدنه مخلّصاً ، ينقذهم من هوان الأسر ، ويعيدهم إلى فلسطين ، بمعجزات ربانية تعوض عنهم قصورهم وعجزهم . فكانت نبوءة التجمع ، وفكرة مجيء مخلّص ، دعوة سياسية . آمنوا بها كباعث على التحرر من وطأة السبي ، واستعباد الشعوب لهم . وكمنطلق ديني يجمع اليهود باسم الشريعة وطقوسها وذبائحها وأنظمتها ، ليعودوا إلى فلسطين ، ويعيدوا بناء مجد ، يظنون أنه كان لهم أيام داود . «هكذا قال السيد الرب : ها إني أرفع إلى الأمم يدي ، وإلى الشعوب أُقيم رايتي . فيأتون بأولادك في الأحضان . وبناتك على الأكتاف يحملن . يكون الملوك حاضنيك ، وسيداتهم مرضعاتك . بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبار رجليك . سفر أشعيا ٤٩» .

وقال السيد يهوه «في ذلك اليوم أُقيم مظلّة داود الساقطة . واحصّن شقوقها . وأُقيم روحها . وابنيها كأيام الدهر . لكي يرثوا بقية ادوم ، وجميع الأمم . . وأرد سبي شعبي . .

وأغرسهم في أرضهم . قال يهوه إلهك . سفر عاموس ٩» .

«وقال يهوه : إني أجمع جميعك يا يعقوب . أضم بقية إسرائيل . سفر ميخا ٢» . «واجعل عيني عليهم . وارجعهم إلى هذه الأرض . ابنيهم ولا أهدمهم . أغرسهم ولا أقلعهم . وأعطيهم قلباً ليعرفوني أني أنا الرب . فيكونوا لي شعباً . وأنا أكون لهم إلهاً . سفر أرميا ٢٤» .

وهكذا وضعوا خطة الرجوع إلى فلسطين . وبناء الهيكل في صهيون . ليكون عرشاً للمسيح المنتظر ، الذي يأتي في سطوة زمنية ، ينقذهم من حكم الدول التي استعبدتهم ، ويعيدهم إلى أرض الرب ومهد الأنبياء .

وبمقدار ما كان شعورهم بالضعف والمهانة يقوى ، بمقدار ما كان الأمل بالعودة يقوى . وراح أنبياؤهم يضخمون صورة الأمل ، والإطار الذي يحتضن هذه الصورة . فإذا صورة المملكة التي يحلمون بإنشائها ، صورة خيالية ، لا نظير لها في عالم الواقع ، لأنها بنت خيالهم . وكان إطار تلك الصورة أمبراطورية عالمية ، واسعة الأرجاء ، بعيدة الحدود . يكونون فيها سادة ، وجميع الشعوب عبيداً . وتكون صهيون عاصمة العالم . قال الرب مخاطباً ابنته السيدة المدللة ـ إسرائيل «بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك . ويلحسون غبار رجليك . سفر شعيا ٤٩» .

وقال مخاطباً صهيون التي اشتهاها مسكناً له «وبنو الغريب يبنون أسوارك . . وملوكهم يخدمونك . . تنفتح أبوابك دائماً ، ليؤتى إليك بغنى الأمم . وتقاد ملوكهم . سفر اشعيا ٦٠» . «إرفعي عينيك حواليك ، وانظري . قد اجتمعوا كلهم . جاؤا إليك . يأتي بنوك من بعيد . وتحمل بناتك على الأيدي . وتتحول إليك ثروة البحر . ويأتي إليك غنى الأمم . اشعيا ٦٠» .

وقال الرب مخاطباً شعبه المختار «تُرضعون . وعلى الأيدي تُحملون . وعلى الركبتين تدللون . «سفر اشعيا ٦٦» . «ويقف الأجانب ويرعون غنمكم . ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أما أنتم فتدعون كهنة الرب ، تأكلون ثروة الأمم . وعلى مجدهم تتأمرون اشعيا ٦١» .

بهذه الرؤى ، الأحلام ، التنبؤات ، وأمثالها ، ظل أمل العودة إلى فلسطين ، دائم الاتقاد في صدورهم ، كظاهرة ورع روحية مقدسة .

وليس من شك في أن الصهيونية تستوحي إيمانها بصهيون من هذه الرؤى ـ التنبؤات ، وأمثالها . أو قل إنها تحاول غرس هذا الإيمان ، عبر أبواقها الكثيرة والمتنوعة ، في صدور اتباعها . وهي تعتقد ، كما اعتقد اشعيا من قبل . أو قل إنها تحاول تأكيد هذا الإعتقاد في نفوس اتباعها ، بأن الرب هو الذي يعمل دائباً على عودة المسبيين اليهود ، انى كانوا ، محمولين على الأكتاف ، وفي الأحضان ، إلى صهيون .

وقد لبثوا دهراً يتخيلون المسيح الموعود ملكاً ، صاحب عرش وتاج ، يفتح فلسطين

بـالسيف ، ويعيد فيهـا بناء الـدولة الـدائلة ، لتقـاد إليهـا ملوك الأمم ، فيسجـدوا لإسـرائيـل ، ويلحسوا غبار رجليها .

وكانوا ، كلمـا طال زمن التشتيت ، وازداد الابتعـاد ، بالمفهـوم الميثولـوجي ، عن «زمن البدء» الذي هو المملكة الأولى أو مملكـة العصر الـذهبي ، باعتبـار بني إسرائيـل . وكلما كـان اليهـود يشعرون بقـوة ممالـك العالم ، كلمـاكانت آمـالهم تحمّل بشهـوات أكثر تنـوّعاً ، إلى أن أصبحت تحمل فكرة عهد عجائبي يرافق تحقيق هذه الآمال .

ولما كان مجيء المسيح اليهودي يعتبر ميثولوجياً تجديداً للعـالـم ، فلا بـد أن يسبق مجيئه عودة للفوضى ولعماء البدء . ومن هنا كانت الآلام والمصاعب التي يظن اليهود أنهم كابدوها عبر تاريخهم ، تفسّر على أنها الآلام التي تسبق مجيء «المنتظر» .

أما الحروب التي تسبق نهاية العالـم الإيسكاتولوجية المحضرة لمجيء المسيـح اليهودي ، فقد وصفت بأنها حروب جوج وما جوج ، أو جوج ملك ماجوج الذي يرمز في حزق ايل إلى غاز بربري سوف يحاسب مملكة إسرائيل في مستقبل بعيـد . ثم ينتصر عليـه يهوه «ويكـون في ذلك اليوم يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل ، يقول السيد يهوه ، أن غضبي يصعد في أنفي . وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت أنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل . فتـرعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض ، وكل الناس الـذين على وجه الأرض . وتنـدك الجبال وتسقط المعـاقل . وتسقط كـل الأسوار إلى الأرض . واستدعي السيف عليه في كل جبالي ، يقول السيد يهوه . فيكون سيف كـل واحد على أخيـه . وأعاقبه بالوباء ، وامطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مـطراً جارفـاً وحجارة بـرد عظيمـة ونـاراً وكبـريتـاً . فـأتعـظّم وأتقـدّس وأعـرف في عيـون أمم كثيـرة أني أنـا يهـوه . حزق ايل ٣٨ : ١٨ ـ ٢٣» .

وهكذا يتضح أن تجديد العالم ، في مفهوم اليهود ، يعني مجيء المسيح اليهودي الملك الذي يحارب أعداء اليهود ، ويبني لهم مملكة أرضية ، ويرفع لهم مجداً فوق العالم .

وقـد عبروا عن العـالم الجديـد المقبل بعـد انقضاء فتـرات الآلام والمصـاعب ، ومجيء المسيح اليهودي ، بالرموز الآتية :

١ ـ تُبنى أورشليم بـأحجار اليـاقوت . يقـول يهوه بلسـان اشعيا (٥٤ : ١١) «هـانذا أبني بـالاثمد حجـارتك . وبـاليـاقـوت الأزرق أؤسّسك . وأجعـل شرفـك يـاقـوتاً ، وأبـوابك حجـارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة كريمة» .

٢ ـ «يمسـح السيد يهـوه الدمـوع عن كل الـوجوه . وينـزع عار شعبـه عن كـل الأرض . اشعيا ٢٥ :٨» .

٣ ـ «ويرجع مفديو يهوه إلى صهيون بترنّم ، وفرح أبدي على رؤوسهم . . ويهرب الحزن والتنهّد . اشعيا ٣٥ : ١٠» .

وقد توقّدت هذه التنبؤات والآمال المسيحانية بعالم جديد ، في الفترة الرومانية التي أرّثت في صدور اليهود حقداً وكراهية لجميع الشعوب .

وحين طال انتظارهم ، في السبي البابلي ، للمسيح الملك ، تعلّقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب . ولم يكن هذا البطل مقصوراً ، عندهم ، على ذرية داود ، فقد رأوا في كورش الفارسي مسيحهم المنتظر . «هكذا يقول الرب لمسيحه كورش ، الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمماً . . لأجل عبدي يعقوب ، وإسرائيل ، مختاري ، دعوتك باسمك . لقبتك ، وأنت لست تعرفني . أنا الرب وليس آخر . سفر اشعيا ٤٥» .

وعن كورش يقول اشعيا ، في نبوءة أخرى «أنا الرب . . القائل عن كورش راعيّ . فكل مسرتي يتمم . ويقول عن أورشليم ستبنى . وللهيكل ستؤسس . سفر اشعيا ٤٤» .

وعن كورش يقول رب الجنود ، كما تنبأ اشعيا «هو يبني مدينتي . ويطلق سبيي . لا بثمن ولا بهدية . قال رب الجنود . سفر اشعيا ٤٥» .

طبيعي ، لا بثمن ولا بهدية ، كان قرار الإمبراطورالفارسي ، كورش ، بإطلاق سبي اليهود ، وبناء مدينة أورشليم . لأن أمه استير اليهودية أرضعته لبان محبة اسرائيل . ولأن كورش كان يصبو منذ احتلال جيوش الفرس لبابل ٥٣٨ ق . م ، إلى الاستيلاء على الطريق التجارية ، والعسكرية الهامة ـ فلسطين . وكان يخشى أن تفاجئه مصر بزحف من جهتها ، قبل أن يهضم ما كسبه من ممالك . وبماأن فلسطين في منتصف الطريق بينه وبين مصر . واعتقاداً منه أن اليهود لن يتعاونوا مع مصر ، رأى أن يرجع المسبيون منهم إلى أورشليم ، ويبنوا هناك حصوناً قوية . فسمح لليهود المسبيين في بابل ، بالعودة إلى فلسطين . وساعدهم أيضاً بل أمرهم بالعودة ، لأن «السواد الأعظم من اليهود المسبيين ، آثروا البقاء في بابل ، ولم يكونوا مستعدين لترك أملاكهم وثرواتهم ، والعودة إلى أورشليم»[١٧٥] . كما يقول الفيلسوف اليهودي يوسفوس (القرن الأول الميلادي) . وكان «من الصعب الإعتقاد بأن اليهود ، وقد أثروا هناك ، يتركون بابل الخصيبة المعطاء ، من أجل جبال يهوذا الجرداء»[١٧٦] . ولأنهم كانوا يرون أنه «في بابل يتفجر نبع الحكمة والنبوة . ومن هنا بالذات ، وليس من أورشليم ، يشع برج الفجر الوضاء ، على شعبنا بالنور»[١٧٧] .

وكان على اتصال بكورش ، يهودي ، ممن سبوا ونقلوا إلى تل أبيب (تل السنابل) ، اسمه اشعيا . وأكبر الظن أن اشعيا كان عميلاً وجاسوساً لكورش في بابل . وليس هذا بمستغرب ، طالما أن اليهود كانوا ينظرون إلى بابل أسوأ النظر ، ويضمرون لها أشد الحقد والعداء . فهي سابيتهم وسيدتهم . وهم عبيدها وأسراها . وما إن نجحت حملة كورش على

بابل ، حتى أصدر كورش أمره المشهور عام ٥٣٨ ق . م بالسماح للمسبيين اليهود ، بالعودة إلى فلسطين . يقول كاتب العهد القديم ، إن كورش «اطلق نداء في كل مملكته ، وكذا بالكتابة ، قائلاً : هكذا قال كورش ، ملك فارس : إن الرب ، إله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض . وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم . من منكم من جميع شعبه . الرب إلهه معه ، وليصعد . سفر الأخبار الثاني ٣٦» .

ولذلك كان اشعيا يرى في كورش مخلصاً ، اختاره الرب كي يخلص اليهود . واعتز به أعظم الإعتزاز . ورأى فيه المسيح المنتظر . ولا بد أن كورش ، ابن استيراليهودية ، قد لمح لاشعيا ، بطريقة ما ، أنه سيصبح يهودياً ، إذا ما كتب له النصر . وأنه يعمل على تحقيق كل ما كان يحلم به اشعيا . وذلك تطميناً وحثاً لاشعيا كي يعمل كل ما في طاقته وطاقة شعبه ، لطعن بابل في عقر دارها . والوقوف في فلسطين بوجه المصريين ، إذا ما حاولوا أو قرروا مهاجمة كورش في بابل أو في فارس .

وقد عمل اشعيا على اقناع المسبيين ، بخطة التعاون مع كورش . وخيانة بابل ، كخطوة أولى باتجاه العودة . وعزم على تحويل أمل العودة ، واسترجاع الملك إلى إرادة فعّالة مخططة ، وإلى عمل إيجابي .

وهكذا «ظلت أرض إسرائيل في كتاباتهم الدينية ، وفي فكرهم القومي ، قلب الأُمة اليهودية . وغدا إنبعاث شعب إسرائيل على أرضه عنصراً رئيسياً في الفكر اليهودي الديني والإجتماعي . وغدا وجود الفرد خارج البنى السياسية والدينية المرسومة للشعب ، أمرّ ألوان شقائه»(١٧٨) كما يقول الكاتب الإسرائيلي سموئيل اتينغر .

السمات العامة في الديانة الموسوية

كان موسى رجل دولة . وكان كاهناً متمرّساً بالتسلّط على الجماهير . وكان قومه الذين خرج بهم من مصر ، عبارة عن تجمّع بدائي العقلية ، مضطرب النفسية ، ضيّق النظرة ، محدود الأفق . والاتحاد الذي شكّلوه في سيناء هو شكل من أشكال الاتحادات التي تكون دائماً في أساس نشوء المجتمعات البدائية : إتحادعدة أُسر في عشيرة . وإتحاد عدة عشائر في قبيلة . وهذا النوع من الإتحادات يكون دائماً في الأطوار الأكثر بدائية من الحياة الإجتماعية .

والجماعة العضوية الأُولى التي شكلها موسى ظهرت ، أول ما ظهرت ، بصفة الجماعة الدينية . ومن أبرز السمات المميّزة للجماعة الدينية في مراحها العضوية الأُولى هو التضامن الذي يرتكز إلى الحرمة الدينية . ولذلك لا يعتبر الفرد موجوداً إلاّ إذا كان على الحرمة الدينية داخل الجماعة . وبلغة أخرى يعتبر الفرد خارج الجماعة إذا خرج على الحرمة الدينية . «فلما كان بنو إسرائيل في البرية(برية سيناء) وجدوا رجلاً يحتطب حطباً في يوم السبت . فقدّمه الذين وجدوه إلى موسى وهارون وكل الجماعة . . فقال الرب لموسى : قتلاً يقتل الرجل . يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة . فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات . سفر العدد ١٥ : ٣٢ ـ ٣٦» .

يبدو أن هذا الرجل البائس رأى أن يهيّء لأطفاله المقرورين جذوة يصطلون بها إحتماء من زمهرير الصحراء . وينضجون بها طعامهم . ولكن موسى لم يداخل قلبه الرحمة بذلك المسكين ، فقضى برجمه حتى الموت ، لأنه باعتباره خرج على تضامن الجماعة بخروجه على الحرمة الدينية(العمل يوم السبت) .

وبعد أن دمّر يشوع أريحا(على رواية التوراة) «وحرّموا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . يشوع ٦ : ٢١» . «أرسل يشوع رجالاً من أريحا إلى عاي . . قائلاً : اصعدوا تجسّسوا الأرض . فصعد الرجال وتجسّسوا

عاي . ثم رجعوا إلى يشوع وقالوا له : لا يصعد كل الشعب ، بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف ويضربوا عـاي . لا تكلّف كل الشعب لأنهم قليلون. فصعـد من الشعب نحو ثـلاثة آلاف رجل ، وهربوا أمام أهل عاي . فضرب منهم أهل عـاي نحو ستـة وثلاثين رجـلاً . . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . سفر يشوع ٧ : ٢ ـ ٥» .

فماذا فعل يشوع ؟ .

«مـزّق ثيابـه وسقط على وجهـه إلى الأرض أمـام تـابـوت الـرب إلى المسـاء هـو وشيـوخ إسرائيل ، ووضعوا تراباً على رؤوسهم . وقال يشوع : آه يا سيد يهوه لمـاذا عبّرت هـذا الشعب الأردن لكي تدفعنا إلى يد الأموريين ليبيدونا . ليتنـا ارتضينا وسكنّـا في عبر الأردن . أسـألك يـا سيد : ماذا أقول بعدما حوّل إسرائيل قفاه أمام أعدائه ؟ .

فقال الرب ليشوع : قُم . لماذا أنت ساقط على وجهك . قـد أخطأ إسـرائيل ، بـل تعدّوا عهـدي الذي أمـرتهم به ، بـل أخذوا من الحـرام ، بل سـرقوا ، بـل انكـروا ، بـل وضعـوا في أمتعتهم . . في وسطك حرام يا إسرائيل ، فلا تتمكن للثبوت أمام أعـدائك حتى تنـزعوا الحـرام من وسطكم . سفر يشوع ٧ : ٦ ـ ١١» .

وهكذا وجد يشوع ، أو الحبر الذي حرّر التوراة ، كعادته مبرّراً لهذه الهزيمـة . فادّعى أن أحد الرجال الغزاة «أخذ من الحرام» أي من الغنيمة المخصّصة لبيت يهـوه التي كانت محـرّمة ، أو تعتبـر «حرامـاً» بالنسبـة للجميـع . «فحمي غضب الـرب على إسـرائيـل . يشـوع ٧ : ١» . وهزمهم أمام أهل عاي . أو قل إن يشوع أعاد سبب هزيمته(على عين الجماعة) إلى غضب يهوه لأن المهاجمين «تعدّوا عهده ، وأخذوا من الحرام» . وهو يبغي من ذلـك تحقيق هدفين : الأول جمع الذهب والفضة والأواني التي سرقها رجاله . والثاني ربط الهـزيمة بغضب يهـوه لكي يثبت إيمانهم بإلههم ، وثقتهم به ، وإتكالهم عليه . وأنه ما دام معهم وراضياً عنهم فلن يُقهروا .

بدأ يشوع بإستنباط بني إسرائيل لمعرفة السارق . فتقدم الـرجل الـذي «تعدّى عهـد الرب وعمل قباحة في إسرائيل» وقال «حقاً إني قد أخطأت إلى يهوه إلـه إسرائيـل . . رأيت في الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومائتي شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شـاقلاً ، فـاشتهيتها وأخـذتها . وها هي مطمورة في الأرض في وسط خيمتي . يشوع ٧ : ٢٠ و ٢١» .

وهنا نفّذ يشوع حكم يهوه عليه . أخذه«وبنيه وبناته وحميره وغنمـه وخيمته وكـل مالـه . . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار . يشوع ٧ : ٢٣» .

وعندها «رجـع يهوه عن حمـو غضبه . . وقـال ليشوع : لا تخف ولا تـرتعب . خذ معـك جميـع رجال الحـرب واصعد إلى عـاي فقد دفعت بيـدك ملك عاي وشعبـه ومدينتـه وأرضه . . فانتخب يشوع ثلاثين ألف رجل جبابرة البأس وأرسلهم ليلاً قائلاً : أنتم تكمنون للمدينـة . . أما

أنا وجميع الشعب فنقترب إلى المدينة . ويكون حينما يخرجون للقائنا أننا نهرب قدامهم ، فيخرجون وراءنا حتى نجذبهم عن المدينة . . وأنتم تقومون من المكمن وتملكون المدينة . يشوع ٨ : ١ ـ ٧» .

وهكذا نجحت الخطة التي لقّنها يهوه ليشوع ، وسقطت عاي . فالحبر المحرّر لا يعيد سبب انهزامهم في الغزوة الأولى إلى قلة عددهم ، إذ هوّن الجاسوسان أمر اقتحام عاي بقولهما ليشوع «لا تكلف كل الشعب لأنهم قليلون ، بل يصعد نحو ألفي رجل» . وإنما يبرّر الإنهزام بغضب يهوه عليهم لأن أحدهم أخذ من الحرام أي حصة يهوه ـ الكهنة .

أما في الغزوة الثانية فقد غيّر يشوع الخطة ، إذ أخذ معه ثلاثين ألف رجل ، ونصب كميناً للمدينة . ونسب الخطة إلى يهوه ليزيد من ثقتهم به وإتكالهم عليه ، وليعمّق في نفوسهم الإيمان بأن نصرهم يعني رضى يهوه عنهم . وانهزامهم هو غضبه عليهم .

المهم أن يشوع ، كموسى حين قضى برجم المحتطب يوم السبت ، لم يداخل قلبه الرحمة بذلك البائس الذي رأى في الغنيمة رداء فاشتهاه ، فقضى بقتله رجماً رغم أن المسكين اعترف بخطأه (والاعتراف بالخطأ فضيلة) . ورغم أن العمل الذي أتاه لم يحدّد لمقترفه عقاب معلوم في شريعة موسى . وعلى العكس فإن يهوه أو المشرّع الناطق باسم يهوه قد وضع حلاً لمثل هذه «الخيانة» أو «الخطأ» ، وهو التعويض بذبيحة . قال «وكلم الرب موسى قائلاً ؛ إذا خان أحد خيانة وأخطأ سهواً في أقداس الرب ، يأتي إلى الرب بذبيحة لاثمه كبشاً صحيحاً من الغنم . . ويدفعه إلى الكاهن ، فيكفّر الكاهن عنه بكبش الأثم ، فيُصفح عنه. لاويين ٥» .

والأدهى من ذلك كله أن يهوه (الرب) لم يقضِ في الغزوة الأولى بأن تكون الغنائم محرّمة للرب ، على نحو ما قضى في غزوة أريحا حين قال ليشوع «تكون المدينة وكل ما فيها محرّماً للرب . . وكل الفضة والذهب وآنية النحاس تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب . يشوع ٦ : ١٧» . وإنما قضى ، ولكن في الغزوة الثانية أي بعد أن دفع المسكين بالرداء الشنعاري حياته رجماً ، ثمناً لإنهزام رجال يشوع الذي ردّ الهزيمة إلى الحرام في وسط الجماعة . قضى بأن تكون الغنائم من نصيب المهاجمين . قال «إن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم . يشوع ٨ : ٢» .

ومن السمات المميّزة للجماعة الدينية في مراحلها العضوية الأولى هو أن الأفعال التي تؤدّى بصورة مشتركة ، كممارسة الطقوس ، والمأكل على وجه الخصوص ، تقسّم بطابع حرمي وطقسي . والأمثلة كثيرة . ففي طقوس صنع دهن المسحة المقدسة ، والمسح به ، «كلم الرب موسى قائلاً : وأنت تأخذ لك أفخر الأطياب ، مرّاً قاطراً خمس مائة شاقل ، وقرفة عَطِرة نصف ذلك مائتين وخمسين ، وقصب الذريرة مائتين وخمسين . وسليخة خمس مائة شاقل القدس . ومن زيت الزيتون هيناً . وتصنعه دهناً مقدساً للمسحة . عطر عطارة صنعة العطار . دهناً مقدساً

للمسحة يكون . وتمسح به خيمة الإجتماع وتـابوت الشهـادة ، والمائـدة وكل آنيتهـا . والمنارة وآنيتها ، ومذبح البخور ، ومذبح المحرقة وكل آنيته ، والمرحضة وقـاعدتهـا . وتقدّسهـا فتكون قدس أقداس . كلِ ما مسّها يكون مقدساً . وتمسح هارون وبنيـه وتقدسهم ليكهنـوا لي . وتكلّم بني إسـرائيل قـائلاً : يكـون هذا لي دهنـاً مقدسـاً للمسحة في أجيـالكم . على جسد إنسـان لا يُسكب . وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله . مقدس هو ويكون مقـدساً عنـدكم . كل من ركّب مثله ومن جعل منه على أجنبي يُقطع من شعبه .

وقال الرب لموسى : خذ لك أعطاراً . ميعة وأظفاراً وقنّة عطرة ولبـاناً نقيـاً . تكون أجـزاء متساوية . فتصنعها بخوراً عطراً صنعة العطار مملّحاً نقياً مقدساً . وتسحق منه ناعماً وتجعـل منه قدام الشهادة في خيمة الإجتماع حيث أجتمع بك . قدس أقداس يكون عندكم . والبخور الذي تصنعه ، على مقاديـره ، لا تصنعوا لأنفسكم . يكـون عندك مقـدساً للرب . كـل من صنع مثله ليشمّه يقطع من شعبه . سفر الخروج ٣٠ : ٢٢ ـ ٣٨» .

وفي تقسيم فرائض المذبح ، وتقريبها بهدف التكفير ونيل رضى الرب «قال السيـد يهوه : هذه فرائض المذبح يوم صنعه لإصعاد المحرقة عليه ولرش الدم عليـه . فتعطي الكهنـة اللاويين الذين من نسل صـادوق المقتربين إليّ ليخـدموني ، يقـول السيد يهـوه ، ثوراً من البقـر لذبيحـة خطية . وتأخذ من دمـه وتضعه على قـرونه الأربعـة ، وعلى أربع زوايـا الخصم وعلى الحاشيـة حواليها ، فتطهّره وتكفّر عنه . وتأخذ ثور الخطيـة فيحرق في المـوضع المعيّن من البيت خـارج المقدس . وفي اليوم الثاني تقرّب تيساً من المعز صحيحاً ذبيحة خطية ، فيطهّرون المـذبح كمـا طهّـروه بالثـور . وإذا أكملت التطهيـر تقرّب ثـوراً من البقر صحيحـاً وكبشاً من الضـأن صحيحـاً وتقربهما قدام الرب ويلقي عليهما الكهنة ملحاً ويصعدونهما محرقة للرب . سبعة أيـام تعمل في كل يوم تيس الخطية ، ويعملون ثوراً من البقر وكبشاً من الضأن صحيحين . سبعـة أيام يكفّـرون عن المذبح ويطهرونه ويملأون يـده . فإذا تمت هـذه الأيام يكـون في اليوم الثـامن فصاعـداً أن الكهنة يعملون على المذبح محرقاتكم وذبائحكم السلامية ، فـأرضى عنكم يقول السيـد يهوه . حزق ايل ٤٣ : ١٨ ـ ٢٧» .

وفي نهي من به عيب منهم عن تقديم وقائد الـرب «كلّم الرب مـوسى قائـلاً : كلّم هارون قائلاً : إذا كـان رجل من نسلك في أجيـالهم فيه عيب ، فـلا يتقدم ليقـرّب خبز إلٰهـه . لأن كل رجل فيه عيب لا يتقـدم . لا رجل أعمى ولا أعـرج ولا أفطس ولا زوائـدي . ولا رجل فيـه كسر رجل أو كسر يد . ولا أحدب ولا أكشم ولا من في عينه بياض ولا أجرب ولا أكلف ولا مرضوض الخصى . كل رجل فيه عيب من نسل هارون لا يتقدم ليقـرّب وقائـد الرب . فيـه عيب لا يتقدم ليقرّب خبز إلٰهه . خبز إلٰهه من قدس الأقدس ، ومن القدس يأكل . لكن إلى الحجـاب لا يأتي وإلى المذبح لا يقترب لأن فيه عيباً لئلا يدنّس مقدسي . لأني أنا يهوه مقـدسهم . لاويين ٢١» .

وفي صنع وتناول فريضة الفصح «قال الرب لموسى وهارون : هذه فريضة الفصح . كل ابن غريب لا يأكل منه . ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه . النزيل والأجير لا يأكلان منه . في بيت واحد يؤكل . لا تخرج من اللحم من البيت إلى خارج . وعظماً لا تكسروا منه . كل جماعة إسرائيل يصنعونه . وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحاً للرب . فليُختن منه كل ذكر ، ثم يتقدم ليصنعه . وأما كل أغلف فلا يأكل منه . تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم . خروج ١٢ : ٤٣ - ٥٠» .

وخلاصة القول ، فالأمثلة كثيرة جداً ، إن هذا الطابع - تقسيم الأفعال التي تؤدّى بصورة مشتركة ، تقسيماً حرمياً وطقسياً ، هو الغالب على النصوص التوراتية ، خاصة في الأسفار الأولى : الخروج واللاويين والعدد .

وهذه التعليمات تحرّم على غير المنتمي إلى الجماعة أن يشارك في أي عمل من الأعمال الموقوفة على أعضاء الجماعة ، لأن الشيء الحرمي يتلوّث ويتدنّس إذا ما مسّه الغريب . ولذلك يقول يهوه (الرب) لهارون «تحفظون حراسة خيمة الإجتماع ، مع كل خدمة الخيمة . والأجنبي لا يقترب إليكم . عدد ١٨ : ٤» . وفي الآية التالية يحكم على الأجنبي المقترب بالموت ، بقوله إلى هارون «أنت وبنوك تحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح وما هو داخل الحجاب . . والأجنبي الذي يقترب يقتل . عدد ١٨ : ٧» . ويقول لموسى «واللاويون يحملون مسكن الشهادة وكل أمتعته ، وهم يخدمونه ، وحول المسكن ينزلون . فعند إرتحال المسكن ينزله اللاويون . وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون. والأجنبي الذي يقترب يقتل. عدد ١ : ٥٠»» .

والصفة العامة التي تطبع مثل هذه التجمعات أو الاتحادات التي تكون دائماً في أساس نشوء المجتمعات البدائية . هي صفة التحريم التي ترافق ممارسة طقوس العبادة . فتعليمات يهوه أو الحبر الذي دوّن شريعة يهوه ، تحرّم ممارسة طقوس العبادة إلاَّ بعد الذبح ورش الدم وحرق الشحم في أشكال وإتجاهات وعلى أقدار أكثر من أن تحصى . والأمثلة كثيرة نذكر منها مسألة تكريس هارون وبنيه . «وكلّم الرب موسى قائلاً : خذ هارون وبنيه معه والثياب ودهن المسحة وثور الخطية والكبشين وسل الفطير ، واجمع كل الجماعة إلى باب خيمة الإجتماع . ففعل موسى كما أمره الرب . فاجتمعت الجماعة إلى باب خيمة الإجتماع . ثم قال موسى للجماعة هذا ما أمر الرب أن يُفعل .

فقدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء . وجعل عليه القميص ونطّقه بالمنطقة وألبسه الجبة وجعل عليه الرداء ونطّقه بزنار الرداء وشدّه به . ووضع عليه الصدرة وجعل في الصدرة الأوريم والتميّم . ووضع العمامة على رأسه ووضع على العمامة إلى جهة وجهه صفيحة الذهب الاكليل المقدس كما أمر الرب موسى .

ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدّسه . ونضح منه على المذبح

سبع مرات . ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها . وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه . ثم قدّم موسى بني هارون وألبسهم أقمصة ونطّقهم بمناطق وشدّ لهم قلانس كما أمرالرب موسى .

ثم قدّم ثور الخطية ووضع هارون وبنوه أيديهم على رأس ثور الخطية . فذبحه وأخذ موسى الدم وجعله على قرون المذبح مستديراً بإصبعه ، وطهّر المذبح ، ثم صب الدم إلى أسفل المذبح وقدّسه تكفيراً عنه . وأخذ كل الشحم الذي على الأحشاء وزيادة الكبد والكليتين وشحمهما وأوقده موسى على المذبح . وأما الثور جلده ولحمه وفرثه فأحرقه بنار خارج المحلة كما أمر الرب موسى .

ثم قدّم كبش المحرقة فوضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش . فذبحه ورش موسى الدم على المذبح مستديراً ، وقطع الكبش إلى قطعه وأوقد موسى الرأس والقطع والشحم . وأما الأحشاء والأكارع فغسلها بماء وأوقد موسى كل الكبش على المذبح . إنه محرقة لرائحة سرور . وقود هو للرب كما أمر الرب موسىٰ .

ثم قدّم الكبش الثاني كبش الملء ، فوضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش . فذبحه وأخذ من دمه وجعل على شحمة أذن هارون اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى . ثم قدّم موسى بني هارون وجعل من الدم على شحم آذانهم اليمنى وعلى أباهم أيديهم اليمنى وعلى أباهم أرجلهم اليمنى . ثم رشّ موسى الدم على المذبح مستديراً . ثم أخذ الشحم الألية وكل الشحم الذي على الأحشاء وزيادة الكبد والكليتين وشحمهما والساق اليمنى . ومن سلّ الفطير الذي أمام الرب أخذ قرصاً واحداً فطيراً وقرصاً واحداً من الخبز بزيت ورقاقة واحدة ووضعها على الشحم وعلى الساق اليمنى . وجعل الجميع على كفّي هارون وكفوف بنيه وردّدها ترديداً أمام الرب . ثم أخذها موسى عن كفوفهم وأوقدها على المذبح فوق المحرقة . إنها قربان ملء لرائحة سرور . وقود هي للرب . ثم أخذ موسى الصدر وردّده ترديداً أمام الرب من كبش الملء لموسى كان نصيباً كما أمر الرب موسى .

ثم أخذ موسى من دهن المسحة ومن الدم الذي على المذبح ونضح على هارون وعلى ثيابه وعلى بنيه وعلى ثياب بنيه معه وقدّس هارون وثيابه وبنيه وثياب بنيه معه .

ثم قال موسى لهارون وبنيه : اطبخوا اللحم لدى باب خيمة الاجتماع وهناك تأكلونه والخبز الذي في سلّ قربان الملء كما أمرت قائلاً : هارون وبنوه يأكلونه . والباقي من اللحم والخبز تحرقونه بالنار . ومن لدن باب خيمة الإجتماع لا تخرجوا سبعة أيام إلى يوم كمال أيام ملئكم لأنه سبعة أيام يملأ أيديكم . كما فعل في هذا اليوم قد أمر الرب أن يُفعل للتكفير عنكم . ولدى باب خيمة الإجتماع تقيمون نهاراً وليلاً سبعة أيام وتحفظون شعائر الرب فلا تموتون لأني هكذا أُمرت . فعمل هارون وبنوه كل ما أمر به الرب على يد موسى . لاويين ٨» .

ولعـل أهم ما يميّـزالديـانة التـاريخيـة التي وضعهـا مـوسى هـو أنهـا في الصـورة أشكـال وطقوس ، وفي الإطار تنظيم طائفي يـربط جماعـة معينة (بني إسـرائيل) بمجمـوعة من الشعـائر والتعاليم الخاصة . بينما كانت المعتقدات في الشرق المتوسـطي القديم جـوهراً حيـاً ، لقاء في المفاهيم بين الأفراد والجماعات في البيئة الواحدة .

لعل الشكل الأول في الصورة هو التـابوت ، تـابوت الشهـادة أو تابـوت عهد الـرب . وقد نسبوا إلى إلههم يهوه تبيان أوصافه ، وتحديد مقاييسه ، وتعيين اسم النجار الـذي يعهد إليـه في صنعه ، ونوع الخشب الـذي يتخذ منـه ، وصور التمـاثيل التي يحلّى بهـا غطاؤه . يقـول محرّر التوراة «وكلّم الرب مـوسى قائـلاً : كلّم بني إسرائيـل أن يصنعوا لي تـابوتـاً من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشّيه بـذهب نقي من داخل ومن خـارج تغشّيه وتصنـع عليه إكليـلاً من ذهب حواليـه ، وتشبـك لـه أربـع حلقـات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على جانبه الـواحد حلقتـان وعلى جانبـه الثاني حلقتـان . وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشّيهما بذهب . وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان في حلقات التابوت . لا تنزعان منها . وتضع في التـابوت الشهادة التي أعطيك . وتصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعـرضه ذراع ونصف . وتصنع كروبين من ذهب . صنعة خراطة تصنعهما على طرفي الغطاء . فاصنع كروباً واحداً على الـطرف من هنا ، وكـروبـاً آخـر على الـطرف من هنـاك . من الغـطاء تصنعـون الكـروبين على طـرفيه . ويكـون الكروبـان باسـطين اجنحتهمـا إلى فـوق مـظلّلين بـاجنحتهمـا على الغـطاء ، ووجهـاهما كـل واحد إلى الآخـر . نحو الغـطاء يكون وجهـا الكـروبين . وتجعـل الغـطاء على التابوت من فوق . وفي التابوت تضع الشهادة التي أعطيك . وأنا أجتمع بك هنـاك وأتكلم معك من على الغـطاء من بين الكـروبين اللذين على تـابـوت الشهـادة بكـل مـا أوصيـك بـه إلى بني إسرائيل . خروج ٢٥ : ١٠ ـ ٢٢» .

«ثم كلّم الرب موسى قائلاً : انظر ، قد دعـوت بصلئيل بن أوري بن حـور من سبط يهوذا باسمه ، وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لاختراع مخترعات، ليعمل في الذهب والفضة والنحاس، ونقش حجارة للترصيع، ونجارة الخشب . ليعمل في كل صنعة . خروج ٣١ : ١ ـ ٥» .

وفي الصـورة أشكال أُخـرى عدّدهـا محرّر التـوراة في الفصل الـواحد والثـلاثين من سفر الخروج ، وهي «خيمة الإجتماع وكل آنيـة الخيمة ، والمـائدة وآنيتهـا ، والمنارة الـطاهرة وكـل آنيتها ، ومذبح البخور ومذبح المحرقة وكل آنيته ، والمرحضة وقـاعدتهـا ، والثياب المنسـوجة والثياب المقدسة لهارون الكاهن وثياب بنيه للكهانة . ودهن المسحة والبخور العطر للقدس» .

وقد أسهب محرّر التوراة في وصف هذه الأشكال غاية الإسهاب ، مخصّصـاً لها الفصـول

الطوال ، موزعة على أسفار التوراة خاصة سفر الخروج . خذ مثلاً ما يقوله يهوه (الرب) في وصف المائدة «وتصنع مائدة من خشب السنط طولها ذراعان وعرضها ذراع وارتفاعها ذراع ونصف . وتغشّيها بذهب نقي . وتصنع لها إكليلاً من ذهب حواليها . وتصنع لها حاجباً على شبر حواليها . وتصنع لحاجبها إكليلاً من ذهب حواليها . وتصنع لها أربع حلقات من ذهب ، وتجعل الحلقات على الزوايا الأربع التي لقوائمها الأربع . عند الحاجب تكون الحلقات بيوتاً لعصوين لحمل المائدة . وتصنع العصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب ، فتحمل بهما المائدة . وتصنع صحافها وصحونها وكاساتها وجاماتها التي يسكب بها من ذهب نقي تصنعها . وتجعل على المائدة خبز الوجوه أمامي دائماً . خروج ٢٥ : ٢٣ - ٣٠» .

وفي وصف الخيمة - المسكن يقول يهوه (الرب) «وأما المسكن فتصنعه من عشر شقق بوص مبروم واسمانجوني وأرجوان وقرمز ، بكروبيم صنعة حائك حاذق تصنعها . طول الشقة الواحدة ثمان وعشرون ذراعاً وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع . قياساً واحداً لجميع الشقق . تكون خمس من الشقق بعضها موصول ببعض ، وخمس شقق بعضها موصول ببعض . وتصنع عرى من اسمانجوني على حاشية الشقة الواحدة في الطرف من الموصّل الواحد .وكذلك تصنع في حاشية الشقة الطرفية من الموصّل الثاني . خمسين عروة تصنع في الشقة الواحدة وخمسين عروة تصنع في طرف الشقة الذي في الموصّل الثاني . تكون العرى بعضها مقابل لبعض . وتصنع خمسين شظاظاً من ذهب . وتصل الشقتين بعضهما ببعض بالأشظّة . فيصير المسكن واحداً .

وتصنع شققاً من شعر معزى خيمة على المسكن . إحدى عشرة شقة تصنعها . طول الشقة الواحدة ثلاثون ذراعاً وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع . قياساً واحداً للإحدى عشرة شقة . وتصل خمساً من الشقق وحدها وستاً من الشقق وحدها . وتثني الشقة السادسة في وجه الخيمة . وتصنع خمسين عروة على حاشية الشقة الواحدة الطرفية من الموصّل الواحد وخمسين عروة على حاشية الشقة من الموصّل الثاني . وتصنع خمسين شظاظاً من نحاس . وتدخل الأشظة في العرى وتصل الخيمة فتصير واحدة . وأما المدلّى الفاضل من شقق الخيمة ، نصف الشقة الموصلة الفاضل فيدلّى على مؤخر المسكن . والذراع من هنا والذراع من هناك من الفاضل في طول شقق الخيمة تكونان مدلاّتين على جانبي المسكن من هنا ومن هناك لتغطيته . وتصنع غطاء للخيمة من جلود كباش محمّرة . وغطاء من جلود تُخس من فوق .

وتصنع الألواح للمسكن من خشب السنط قائمة . طول اللوح عشر أذرع وعرض اللوح الواحد ذراع ونصف . وللوح الواحد رجلان مقرونة إحداهما بالأخرى . هكذا تصنع لجميع ألواح المسكن . وتصنع الألواح للمسكن عشرين لوحاً إلى جهة الجنوب نحو التيمن . وتصنع أربعين قاعدة من فضة تحت العشرين لوحاً . تحت اللوح الواحد قاعدتان لرجليه وتحت اللوح الواحد قاعدتان لرجليه . ولجانب المسكن الثاني إلى جهة الشمال عشرين لوحاً . وأربعين

قـاعدة لهـا من فضة . تحت اللوح الـواحد قـاعدتـان وتحت اللوح الواحـد قاعـدتان . ولمؤخـر المسكن نحو الغرب تصنع ستة ألواح . وتصنع لوحين لزاويتي المسكن في المؤخـر . ويكونـان مزدوجين من أسفل . وعلى سواء يكونان مزدوجين إلى رأسه إلى الحلقة الواحدة . هكـذا يكون لكليهما . يكونان للزاويتين . فتكون ثمانية ألواح وقواعدها من فضـة ست عشرة قـاعدة . تحت اللوح الواحد قاعدتان وتحت اللوح الواحد قاعدتان .

وتصنـع عـوارض من خشب السنط . خمسـاً لألـواح جـانب المسكن الـواحـد ، وخمس عوارض لألواح جانب المسكن الثاني . وخمس عوارض لألواح جانب المسكن في المؤخر نحـو الغـرب . والعارضـة الوسـطى في وسط الألواح تنفـذ من الطرف إلى الـطرف . وتغشّي الألـواح بذهب . وتصنع حلقاتها من ذهب بيوتاً للعـوارض . وتغشّي العوارض بـذهب . وتقيم المسكن كرسمه الذي أظهر لك في الجبل .

وتصنع حجاباً من اسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم . صنعة حائـك حاذق يصنعـه بكـروبيم . وتجعله على أربعة أعمـدة من سنط مغشّاة بـذهب . رززهـا من ذهب . على أربـع قواعد من فضـة . وتجعل الحجـاب تحت الأشظّة . وتُـدخل إلى هنـاك داخل الحجـاب تابـوت الشهادة . فيفصـل لكم الحجاب بين القـدس وقدس الأقـداس . وتجعل الغـطاء على تابـوت الشهادة في قدس الأقداس . وتضع المائدة خارج الحجاب . والمنارة مقـابل المـائدة على جـانب المسكن نحو التيمن . وتجعل المائدة على جانب الشمال .

وتصنع سجْفاً لمدخل الخيمة من اسمانجوني وارجوان وقرمز وبوص مبروم صنعة الطرّاز . وتصنع للسجف خمسة أعمدة من سنط وتغشّيها بـذهب . رززها من ذهب . وتسبـك لها خمس قواعد من نحاس . سفر الخروج ٢٦» .

وعن «مذبح المحرقة وآنيته» يقول يهوه (الرب) «وتصنع المذبح من خشب السنط . طولـه خمس أذرع وعرضه خمس أذرع . مربعاً يكـون المذبـح وارتفاعـه ثلاث أذرع . وتصنـع قرونـه على زواياه الأربع . منـه تكون قـرونه . وتغشّيـه بنحاس . وتصنـع قدوره لـرفع رمـاده ورفوشـه ومراكنه ومناشله ومجامره . جميع آنيته تصنعها من نحاس . وتصنع له شبّاكـة صنعة الشبكـة من نحاس . وتصنع على الشبكة أربع حلقات من نحاس على أربعة أطرافه . وتجعلها تحت حـاجب المذبح من أسفل . وتكون الشبكـة إلى نصف المذبـح . وتصنع عصـوين للمذبـح عصوين من خشب السنط وتغشّيهمـا بنحاس . وتدخل عصواه في الحلقات . فتكون العصوان على جـانبي المذبح حينما يحمل . مجـوّفاً تصنعـه من ألواح . كمـا أظهر لـك في الجبل هكـذا يصنعونـه . خروج ٢٧ : ١ ـ ٨» .

وعن الثياب المقدسة التي يصنعون لهارون وبنيه ليكهنوا ليهوه (الرب) ، تحدث يهـوه إلى موسى ، فقال «يصنعون الرداء من ذهب واسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم صنعة حائك

حاذق . يكون له كتفان موصولان في طرفيه ليتصل . وزنار شدّه الذي عليه يكون منه كصنعته من ذهب واسمانجوني وقرمز وبوص مبروم . وتأخذ حجري جزع وتنقش عليهما أسماء بني إسرائيل . ستة من أسمائهم على الحجر الواحد وأسماء الستة الباقين على الحجر الثاني حسب مواليدهم . صنعة نقّاش الحجارة نقش الخاتم تنقش الحجرين على حسب أسماء بني إسرائيل . محاطين بطوقين من ذهب تصنعهما . وتضع الحجرين على كتفي الرداء حجري تذكار لبني إسرائيل . فيحمل هارون أسماءهم أمام الرب على كتفيه للتذكار . وتصنع طوقين من ذهب . وسلسلتين من ذهب نقي مجدولتين تصنعهما صنعة الضفر . وتجعل سلسلتي الضفائر في الطوقين .

وتصنع صدرة قضاء . صنعة حائك حاذق كصنعة الرداء تصنعها . من ذهب واسمانجوني وارجوان وقرمز وبوص مبروم تصنعها . تكون مربعة مثنّية طولها شبر وعرضها شبر . وترصّع فيها ترصيع حجر أربعة صفوف حجارة . صف عقيق أحمر وياقوت أصفر وزمرّد . الصف الأول والصف الثاني بهرمان وياقوت أزرق وعقيق أبيض . والصف الثالث عين الهر ويشم وجمشت . والصف الرابع زبرجد وجذع ويشب . تكون مطوقة بذهب في ترصيعها . وتكون الحجارة على أسماء بني إسرائيل ، إثني عشر على أسمائهم . كنقش الخاتم كل واحد على اسمه تكون للإثني عشر سبطاً . وتصنع على الصدرة سلاسل مجدولة صنعة الضفر من ذهب نقي . وتصنع على الصدرة حلقتين من ذهب . وتجعل الحلقتين على طرفي الصدرة . وتجعل ضفيرتي الذهب في الحلقتين على طرفي الصدرة . وتجعل طرفي الضفيرتين الآخرين في الطوقين . وتجعلهما على كتفي الرداء إلى قدامه . وتصنع حلقتين من ذهب وتضعهما على طرفي الصدرة ، على حاشيتها التي إلى جهة الرداء من داخل . وتصنع حلقتين من ذهب وتجعلهما على كتفي الرداء من أسفل من قدّامه عند وصله من فوق زنار الرداء . ويربطون الصدرة بحلقتيها إلى حلقتي الرداء بخيط من اسمانجوني لتكون على زنار الرداء . ولا تنزع الصدرة عن الرداء . فيحمل هارون أسماء بني إسرائيل في صدرة القضاء على قلبه عند دخوله إلى القدس للتذكار أمام الرب دائماً . وتجعل في صدره القضاء الأوريم والتمّيم لتكون على قلب هارون عند دخوله أمام الرب . فيحمل هارون قضاء بني إسرائيل على قلبه أمام الرب دائماً .

وتصنع جبة الرداء كلها من اسمانجوني . وتكون فتحة رأسها في وسطها . ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك . كفتحة الدرع يكون لها . لا تُشَقّ . وتصنع على أذيالها رمّانات من اسمانجوني وارجوان وقرمز . على أذيالها حواليها . وجلاجل من ذهب بينها حواليها . جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليها . فتكون على هارون للخدمة ليُسْمَع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت .

وتصنع صفيحة من ذهب نقي وتنقش عليها نقش خاتم قدس للرب . وتضعها على خيط

اسمانجوني لتكون على العمامة . إلى قدام العمامة تكون. فتكون على جبهة هارون ، فيحمل هارون اثم الأقداس التي يقدسها بنو إسرائيل جميع عطايا أقداسهم . وتكون على جبهته دائماً للرضا عنهم أمام الرب . وتخرّم القميص من بوص . وتصنع العمامة من بوص . والمنطقة تصنعها صنعة الطرّاز .

ولبني هارون تصنع أقمصة ، وتصنع لهم مناطق وتصنع لهم قلانس للمجد والبهاء ، وتُلبس هارون أخاك إياها وبنيه معه وتمسحهم وتملأ أياديهم وتقدسهم ليكهنوا لي . وتصنع لهم سراويل من كتان لستر العورة . من الحقوين إلى الفخذين تكون . فتكون على هارون وبنيه عند دخولهم إلى خيمة الإجتماع أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة في القدس . لئلا يحملوا إثماً ويموتوا . فريضة أبدية له ولنسله من بعده . خروج ٢٨» .

ولأن الخيمة بيت الرب فلا يجوز للجماعة الدخول إليها . الكهنة وحدهم (خدّام الرب) يستطيعون الدخول عقب شعائر التطهير المختلفة والمعقدة ، للقيام بالخدمات الدينية : «وكلّم الرب موسى قائلاً : وهذا ما تصنعه لهم لتقديسهم ليكهنوا لي . خذ ثوراً واحداً ابن بقر وكبشين صحيحين ، وخبز فطير وأقراص فطير ملتوتة بزيت ورقاق فطير مدهونة بزيت . من دقيق حنطة تصنعها . وتجعلها في سلة واحدة ، وتقدمها في السلة مع الثور والكبشين . وتقدم هارون وبنيه إلى باب خيمة الإجتماع وتغسلهم بماء . وتأخذ الثياب وتُلبس هارون القميص وجبة الرداء والرداء والصدرة ، وتشدّه بزنار الرداء .وتضع العمامة على رأسه . وتجعل الإكليل المقدس على العمامة . وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه . وتقدّم بنيه وتلبسهم أقمصة . وتنطّقهم بمناطق هارون وبنيه . وتشدّ لهم قلانس . فيكون لهم كهنوت فريضة أبدية . وتملأ يد هارون وأيدي بنيه .

وتقدم الثور إلى قدام خيمة الإجتماع . فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الثور . فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الإجتماع . وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بإصبعك . وسائر الدم تصبّه إلى أسفل المذبح . وتأخذ كل الشحم الذي يغشّي الجوف وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذي عليهما . وتوقدها على المذبح . وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقهما بنار خارج المحلة . هو ذبيحة خطية .

وتأخذ الكبش الواحد فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش . فتذبح الكبش وتأخذ دمه وترشّه على المذبح من كل ناحية . وتقطع الكبش إلى قطعه ، وتغسل جوفه وأكارعه وتجعلها على قطعه وعلى رأسه ، وتوقد كل الكبش على المذبح .هو محرقة للرب . رائحة سرور ، وقود هو للرب .

وتأخذ الكبش الثاني ، فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش. فتذبح الكبش وتأخذ من دمه وتجعل على شحمة أذن هارون وعلى شحم آذان بنيه اليمنى وعلى أباهم أيديهم اليمنى

وعلى أباهم أرجلهم اليمنى . وترش الدم على المذبح من كل ناحية . وتأخذ من الدم الذي على المذبح ومن دهن المسحة . وتنضح على هارون وثيابه وعلى بنيه وثياب بنيه معه . فيتقدس هو وثيابه وبنوه وثياب بنيه معه . خروج ٢٩» .

وبعد، فهذه نماذج مما تحفل به الصورة من أشكال ، وما يرافق إقامتها أو تقديمها من طقوس . وقد أوجزت في عرضها خشية الإملال . والواقع أن حديث المحرر عن «الذبيحة ، والمحرقة اليومية» . وعن «مذبح البخور ، ومرحضة النحاس ، ودهن المسحة المقدسة ، والبخور العطر» . وعن «تسليم التقدمات للصناع ، وسخاء الشعب في التقديم» . وعن «شقق شعر المعزى ، والغطاء والألواح وقواعدها ، والعوارض والحجاب وسجف الباب» . وعن «الغطاء والكروبان ، والمنارة وسرجها وأدواتها» . وعن «ثياب الخدمة والثياب المقدسة : الرداء والصدرة وجبة الرداء ، والأقمصة والعمامة والمنطقة وصفيحة الإكليل المقدس» . وعن «القرابين والمحرقات من الغنم والبقر والطير» . وعن «ذبيحة السلامة وذبيحة الإثم ، وشريعة المحرقة وشريعة التقدمة وشريعة ذبيحة الخطية» . وعن «تكريس هارون وبنيه . وذبيحتهم للخطية ، وموضع تكريسهم ومدته» . وعن طقوس الذبح ورش الدم . والنجاسة والطهارة والتكفير . وعن «قرابين النذور والنوافل» . وعن وعن . . استغرق قسماً كبيراً من الأسفار الأولى في الكتاب المقدس . المهم أن ما أرساه موسى ، أو الذين قاموا على أمر المؤسسة الدينية التي أنشأها موسى ، من قواعد تحدد طريقة عبادة يهوه أو الإجتماع به ، وترسم خطوط وأبعاد الطقوس والشعائر التي تتم بها هذه الطريقة ، يشكل لبّ أو خلاصة الديانة التاريخية التي وضعها موسى .

والملاحظ أن التابوت (الشكل الرئيسي في الصورة) صنم أو طوطم أو تابو . والتابو لغة يعني التحذير من القيام بالأفعال المحرّم القيام بها . ولذلك فإن الشخص إذا خرج على قواعد التابو يلقى عقابه على هذا الخروج . وكثيراً ما يواجه ردّ فعل القوّة المزوّد بها التابو بشكل آلي أوتوماتيكي . وقد لا يكون الخروج على قواعد التابو قصداً أو عمداً ، وإنما يكون نتيجة إرتكاب خطأ سهواً أو عن جهل في التصرّف أو الممارسة . ومع هذا يؤدي الفعل إلى عواقب وخيمة كالموت مثلاً . فحين «ذهب داود وجميع الشعب الذي معه . . إلى بيت ابيناداب الذي في الأكمة . . ليصعدوا من هناك تابوت الله . . أركبوا التابوت على عجلة جديدة . . ولما انتهوا إلى بيدر ناخون ، مدّ عزّة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت . فحمي غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفله فمات هناك لدى تابوت الله . سموئيل الثاني ٦ : ١ - ٧» .

فعزة أراد بنية سليمة أن يمنع تابوت الله من السقوط ، ولكن «الرب اقتحم عزة اقتحاماً . . وضربه لأجل غفله فمات» . ومن هنا يتبيّن لنا أن رد فعل القوّة (يهوه - الرب) المزوّد بها التابو - التابوت ، كالكهرباء ، لا تفرق بين صاحب النية الحسنة وبين صاحب النية الخبيثة ، إذ يمس

سلكاً كهربائياً ، فتكون النتيجة أن يصعق بشكل آلي .

ومثلما هو محرّم لمس التابو (التابوت) ، كذلك فإن النظر إليه محرم أيضاً . ومن ينتهك هذا التحريم ـ التابو فجزاؤه الموت . يقول محرّرالتوراة إن يهوه (الرب) «ضرب أهل بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب . وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً . سفر سموئيل الأول ٦ : ١٩» .

وتعتبر فكرة التابو من أهم الأركان التي تقوم عليها الديانة الموسوية ، لأن هذه الديانة تتألف من مجموعة متماسكة من التشريعات والفرائض المتعلقة بالأشياء المحرمة . من هنا كان تقسيمها الأشياء والأفعال إلى فتتين متناقضتين : الحلال والحرام . من ذلك مثلاً ما فصّله المحرّر في «شريعة ذبيحة الخطية» من الأشياء والأفعال المحلّلة والأخرى المحرّمة . قال «وكلّم الرب موسى قائلاً : في المكان الذي تُذبح فيه المحرقة تُذبح ذبيحة الخطية أمام الرب . إنها قدس أقداس . الكاهن الذي يعملها للخطية يأكلها . في مكان مقدس تؤكل . في دار خيمة الإجتماع . كل من مسّ لحمها يتقدّس . وإذا انتشر من دمها على ثوب تغسل ما انتثر عليه في مكان مقدس . وإما إناء الخزف الذي تطبخ فيه فيُكسر وإن طبخت في إناء نحاس يجلى ويشطف بماء . كل ذكر من الكهنة يأكل منها . إنها قدس أقداس . وكل ذبيحة خطية يُدخل من دمها إلى خيمة الإجتماع للتكفير في القدس لا تؤكل. تحرق بنار. سفر لاويين ٦ : ٢٤» .

وما ذكره في شريعة التطهير، قال «من مسّ ميتاً ميتة إنسان ما يكون نجساً سبعة أيام . يتطهّر به في اليوم الثالث ، وفي اليوم السابع يكون طاهراً . وإن لم يتطهّر في اليوم الثالث ، ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً . كل من مسّ ميتاً ميتة إنسان قد مات ولم يتطهّر ينجّس مسكن الرب ، فتُقطع تلك النفس من إسرائيل ، لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة . نجاستها لم تزل فيها .

هذه هي الشريعة : إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام . وكل من مسّ على وجه الصحراء قتيلاً بالسيف أو ميتاً أو عظم إنسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيام . فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطية ويجعل عليه ماء حيّاً في إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفا يغمسها في الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك ، وعلى الذي مسّ العظم أو القتيل أو الميت أو القبر . ينضح الطاهر على النجس في اليوم الثالث واليوم السابع . ويطهّره في اليوم السابع . فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهراً في المساء . سفر العدد ١٩ : ١١ ـ ١٩» .

المهم أن التحريم الديني مؤسس على حالة القلق النفسي ، وليس على حالة قلق الضمير الأخلاقي . فالابتعاد عن المحرمات الدينية أساسه أن الدين يحرّمه ، وليس لأن فعله مناف للأخلاق والفضيلة .

وكان التابوت ـ الطوطم بمثابة رمز لجماعة بني إسرائيل ، وشعار يوحّد بين أفرادها . كما كانت تنظر إليه على اعتبار أنه الروح الحارسة لها . وأنه منبع قوتها ومصدر البركة الحالة فيها . وأن الإقامة في جواره من صالح الأعمال . وقد نسبوا إليه الفضل في تمكّنهم من عبور نهر الأردن . يقول المحرر «عند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن ، وإنغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه ، والاردن ممتلىء إلى جميع شطوطه . . وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندّاً واحداً . يشوع ٣ : ١٥» .

وكانوا يعتقدون أن التابوت يساعدهم في دحر الأعداء ويمكنهم من الإنتصار عليهم . وحين تلحق بهم الهزيمة يعلّلون ذلك بأن التابوت لم يكن في معيتهم . فحين «خرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين . واشتبكت الحرب ، انكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين . فقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين ؟ . لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلّصنا من يد أعدائنا . سموئيل الأول ٤ : ١ ـ ٣» .

أما الطقوس الموسوية فتدور في معظمها حول فكرة التميز . فاليهودي لا يعمل يوم السبت لكي يستريح ، بل ليتميّز عن الآخرين . ويمارس عادة الختان لا لأسباب صحية ، بل ليصبح مختلفاً عن الآخرين . ومن الضروري التقيّد بالطقوس تعبيراً عن الإنتماء إلى الجماعة . ففي الميثاق أو العهد بين يهوه وبين ابرام ، طلب يهوه من ابرام أن يختتن وكل الذكور في بيته ، إشارة لذلك العهد . ومن الواجب أن يتم ذلك في جميع أجياله من بعده . وهذا شرطه ليكون إلٰهاً لابرام ، وليعطي له ولنسله كل أرض كنعان ملكاً أبدياً . ثم إن دم الإختتان هو الذي يمهر الميثاق أو العهد بين يهوه وبين بني إسرائيل ، لأن قطع العهد في العصور القديمة كان يتطلب إسالة دم توثيقاً للعهد بين المتعاقدين . (تكوين ١٧ : ٩) .

ومن الواضح أن الطقوس والشعائر التي أملاها موسى على أتباعه ، معقدة وصعبة لأنها شعائر وطقوس سحرية . خذ مثلاً لذلك شريعة الأبرص : «وكلّم الرب موسى قائلاً : هذه تكون شريعة الأبرص . يوم طهره يؤتى به إلى الكاهن . ويخرج الكاهن إلى خارج المحلة ، فإن رأى الكاهن وإذا ضربة البرص قد برئت من الأبرص ، يأمر الكاهن أن يؤخذ للمتطهّر عصفوران حيان طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفا . ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء حي . أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي . وينضح على المتطهّر من البرص سبع مرّات ، فيطهّره . ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء . فيغسل المتطهّر ثيابه ويحلق كل شعره ويستحم بماء فيطهر . ثم يدخل المحلة لكن يقيم خارج خيمته سبعة أيام . وفي اليوم السابع يحلق كل شعره . رأسه ولحيته وحواجب عينيه وجميع شعره يحلق ، ويغسل ثيابه ويرحض جسده بماء فيطهر .

ثم في اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية صحيحة وثلاثة أعشار دقيق تقدمة ملتوتة بزيت ولجّ زيت . فيوقف الكاهن المطهِّر الإنسان المتطهّر وإياها أمام الرب لدى باب خيمة الإجتماع . ثم يأخذ الكاهن الخروف الواحد ويقرّبه ذبيحة إثم مع لج الزيت . يرددهما ترديداً أمام الرب . ويذبح الخروف في الموضع الذي يذبح فيه ذبيحة الخطية والمحرقة في المكان المقدس . لأن ذبيحة الإثم كذبيحة الخطية للكاهن . إنها قدس أقداس . ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم ويجعل الكاهن على شحمة إذن المتطهّر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى . ويأخذ الكاهن من لج الزيت ويصب في كف الكاهن اليسرى . ويغمس الكاهن إصبعه اليمنى في الزيت الذي في كفّه اليسرى وينضح من الزيت بإصبعه سبع مرّات أمام الرب . ومما فضل من الزيت الذي في كفه يجعل الكاهن على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى على دم ذبيحة الإثم . والفاضل من الزيت الذي في كف الكاهن يجعله على رأس المتطهّر ويكفّر عنه الكاهن أمام الرب . ثم يعمل الكاهن ذبيحة الخطية ويكفّر عن المتطهّر من نجاسته . ثم يذبح المحرقة ويصعد الكاهن المحرقة والتقدمة على المذبح ويكفر عنه الكاهن فيطهر .

لكن إن كان فقيراً ولا تنال يده يأخذ خروفاً واحداً ذبيحة إثم لترديد تكفيراً عنه وعشراً واحداً من دقيق ملتوت بزيت لتقدمة ولج زيت ويمامتين أو فرخي حمام كما تنال يده ، فيكون الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة . ويأتي بها في اليوم الثامن لطهره إلى الكاهن إلى باب خيمة الإجتماع أمام الرب . فيأخذ الكاهن كبش الإثم ولجّ الزيت ويردّدهما الكاهن ترديدا أمام الرب . ثم يذبح كبش الإثم ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم ويجعل على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى . ويصب الكاهن من الزيت في كف الكاهن اليسرى ، وينضح الكاهن بإصبعه اليمنى من الزيت الذي في كفّه اليسرى سبع مرّات أمام الرب . ويجعل الكاهن من الزيت الذي في كفه على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى على موضع دم ذبيحة الإثم . والفاضل من الزيت الذي في كف الكاهن يجعله على رأس المتطهّر تكفيراً عنه أمام الرب . ثم يعمل واحدة من اليمامتين أو من فرخي الحمام مما تنال يده ما تنال يده . الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة مع التقدمة ، ويكفّر الكاهن عن المتطهر أمام الرب . هذه شريعة الذي فيه ضربة برص الذي لا تنال يده في تطهيره . لاويين ١٤» .

وبممارسة الطقوس وتقديم الأضاحي يكون التكفير عن الخطيئة . «وكلّم الرب موسى قائلًا : كلم بني إسرائيل قائلًا : إذا أخطأت نفس سهواً في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها ، وعملت واحدة منها . إن كان الكاهن الممسوح يخطىء لإثم الشعب يقرّب عن خطيته التي أخطأ ثوراً ابن بقر صحيحاً للرب ذبيحة خطية . يقدم الثور إلى باب خيمة الإجتماع أمام الرب ويضع يده على رأس الثور ويذبح الثور أمام الرب . ويأخذ الكاهن الممسوح من دم

الثور ويدخل به إلى خيمة الاجتماع . ويغمس الكاهن إصبعه في الدم وينضح من الدم سبع مرّات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر الذي في خيمة الإجتماع أمام الرب . وسائر دم الثور يصبّه إلى أسفل مذبح المحرقة الذي لدى باب خيمة الاجتماع . وجميع شحم ثور الخطية ينزعه عنه . الشحم الذي يغشّي الأحشاء وسائر الشحم الذي على الاحشاء ، والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين وزيادة الكبد مع الكليتين ينزعهما ، كما تنزع من ثور ذبيحة السلامة ، ويوقدهن الكاهن على مذبح المحرقة . وأما جلد الثور وكل لحمه مع رأسه وأكارعه وأحشائه وفرثه فيخرج سائر الثور إلى خارج المحلة إلى مكان طاهر إلى مرمى الرماد ويحرقها على حطب بالنار . على مرمى الرماد تحرق .

وإن أخطأ أحد من عامة الأرض سهواً بعمله واحدة من مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وأثم . ثم أعلم بخطيته التي أخطأ بها ، يأتي بقربانه عنزاً من المعز أنثى صحيحة عن خطيته التي أخطأ . ويضع يده على رأس ذبيحة الخطية ويذبح ذبيحة الخطية في موضع المحرقة . ويأخذ الكاهن من دمها بإصبعه ويجعل على قرون مذبح المحرقة ، ويصب سائر دمها إلى أسفل المذبح . وجميع شحمها ينزعه كما نزع الشحم عن ذبيحة السلامة، ويوقد الكاهن على المذبح رائحة سرور للرب ويكفّر عنه الكاهن فيُصفح عنه . لاويين ٤» .

ويتابع محرّر السفر في تكرار غريب مذهل عارضاً طقوس التكفير عن خطيئة الجماعة وخطيئة الرئيس ، وجميعها تلخّص بكلمات : «إن أخطأ أحد ، يأتي بقربانه عنزاً أو تيساً أو ثوراً أو . . فيذبحه الكاهن ، ويمسح بدمه قرون المذبح ، ويحرق شحمه رائحة سرور للرب ، ويكفّر عنه الكاهن ، فيُصفح عنه»

وبممارسة الطقوس وتقديم الأضاحي يجتمع بهم الرب ويسكن في وسطهم . من ذلك مثلاً قول الحبر المحرر في سفر الخروج(٢٩ : ٣٨) : «وهذاما تقدمه على المذبح : خروفان حوليان كل يوم دائما . الخروف الواحد تقدمه صباحاً . والخروف الثاني تقدمه في العشية . وعشر من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرض وسكيب ربع الهين من الخمر للخروف الواحد . والخروف الثاني تقدمه في العشية مثل تقدمة الصباح ، وسكيبه تصنع له . رائحة سرور وقود للرب . محرقة دائمة في أجيالكم عند باب خيمة الإجتماع أمام الرب . حيث أجتمع بكم لأكلمك هناك . واجتمع هناك ببني إسرائيل ، فيقدس بمجدي . وأقدس خيمة الإجتماع والمذبح . وهارون وبنوه أقدسهم لكي يكهنوا لي . واسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلهاً» .

أما الدخول «إلى القدس داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت» فيكون «بثور ابن بقر لذبيحة خطية وكبش لمحرقة . يلبس هارون قميص كتان مقدساً ، وتكون سراويل كتان على جسده ، ويتنطّق بمنطقة كتان ، ويتعمّم بعمامة كتان . إنها ثياب مقدسة . فيرحض جسده بماء

ويلبسها . ومن جماعة بني إسرائيل يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية وكبشاً واحداً لمحرقة .

ويقرّب هارون ثور الخطية الذي له ويكفّر عن نفسه وعن بيته. ويأخذ التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى باب خيمة الإجتماع . ويلقي هارون على التيسين قرعتين : قرعة للرب وقرعة لعزازيل . ويقرّب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة ويعمله ذبيحة خطية . وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ليكفّر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية .

ويقدم هارون ثور الخطية الذي له ويكفر عن نفسه وعن بيته، ويذبح ثور الخطية الذي له ، ويأخذ ملء المجمرة جمر نار عن المذبح من أمام الرب ، وملء راحتيه بخوراًعطراً دقيقاً ويدخل بهما إلى داخل الحجاب . ويجعل البخور على النار أمام الرب ، فتغشي سحابة البخور الغطاء الذي على الشهادة ، فلا يموت . ثم يأخذ من دم الثور وينضح بإصبعه على وجه الغطاء إلى الشرق . وقدام الغطاء ينضح سبع مرّات من الدم بإصبعه .

ثم يذبح تيس الخطية الذي للشعب ، ويدخل بدمه إلى داخل الحجاب ، ويفعل بدمه كما فعل بدم الثور ، ينضحه على الغطاء وقدام الغطاء ، فيكفر عن القدس من نجاسات بني إسرائيل ومن سيئاتهم مع كل خطاياهم . وهكذا يفعل لخيمة الإجتماع القائمة بينهم في وسط نجاساتهم . ولا يكن إنسان في خيمة الإجتماع من دخوله للتكفير في القدس إلى خروجه . فيكفر عن نفسه وعن بيته وعن كل جماعة إسرائيل . ثم يخرج إلى المذبح الذي أمام الرب ويكفّر عنه . يأخذ من دم الثور ومن دم التيس ويجعل على قرون المذبح مستديراً . وينضح عليه من الدم بإصبعه سبع مرات ويطهره ويقدسه من نجاسات بني إسرائيل .

ومتى فرغ من التكفير عن القدس وعن خيمة الإجتماع وعن المذبح ، يقدم التيس الحي ويضع هارون يديه على رأس التيس الحي ويقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة ، فيطلق التيس في البرية .

ثم يدخل هارون إلى خيمة الإجتماع ويخلع ثياب الكتان التي لبسها عند دخوله إلى القدس ويضعها هناك . ويرحض جسده بماء في مكان مقدس ، ثم يلبس ثيابه ويخرج ويعمل محرقته ومحرقة الشعب ويكفر عن نفسه وعن الشعب . وشحم ذبيحة الخطية يوقده على المذبح . والذي أطلق التيس إلى عزازيل يغسل ثيابه ويرحض جسده بماء ، وبعد ذلك يدخل إلى المحلة . وثور الخطية وتيس الخطية اللذان أتي بدمهما للتكفير في القدس ، يخرجهما إلى خارج المحلة ويحرقون بالنار جلديهما ولحمهما وفرثهما . والذي يحرقهما يغسل ثيابه ويرحض جسده بماء وبعد ذلك يدخل إلى المحلة . لاويين ١٦» .

يبقى أن نشير إلى فقرة بسيطة من رؤيا حزق ايل «فرائض المذبح» ، التي ينالون في يومها

الثـامن رضى الرب عنهم . يقـول حزق ايـل (٤٣ : ١٨) : «هذه فـرائض المـذبـح يـوم صنعـه لاصعـاد المحرقـة عليه ، ولـرش الدم عليـه . فتعطي الكهنـة اللاويين الـذين من نسل صـادوق المقتربين إليّ ليخدموني ، يقول السيـد يهوه ، ثـوراً من البقر لـذبيحة خـطية . وتـأخذ من دمـه وتضعه على قرونـه الأربعة وعلى أربـع زوايا الخصم وعلى الحـاشية حـواليها ، فتـطهّره وتكفّـر عنـه . وتأخـذ ثور الخـطية فيحـرق في الموضـع المعين من البيت خارج المقـدس . وفي اليوم الثاني تقرب تيساً من المعز صحيحاً ذبيحة خطية ، فيـطهّرون المـذبح كمـا طهروه بـالثور . وإذا أكملت التطهير تقرب ثوراً من البقر صحيحاً وكبشـاً من الضأن صحيحـاً . وتقربهمـا قدام الـرب ويلقي عليهمـا الكهنة ملحـاً ويصعدونهمـا محرقـة للرب . سبعـة أيـام تعمـل في كـل يـوم تيس الخطية ، ويعملون ثوراً من البقر وكبشاً من الضأن صحيحين . سبعـة أيام يكفّـرون عن المذبـح ويطهرونه ويملأون يده . فإذا تمت هـذه الأيام يكـون في اليوم الثـامن فصاعـداً أن الكهنة يعملون على المذبح محرقاتكم وذبائحكم السلامية ، فأرضى عنكم يقول السيد يهوه» .

وظل القائمون على أمر المؤسسة الدينية التي أنشأها موسى ، يعبّرون بالـطقوس والشعـائر عن علاقتهم بالإله . والواقع أن طقوس الذبح ورش الدم وحرق الشحم وما يرافقها من شعائـر ، تستغـرق قسماً كبيـراً من الكتاب المقـدس . والملاحظ في النصـوص الطقـوسية بغـالبيتها ، أن الحبـر المحرّر لم يُبـدِ اهتماماً بالغاية التي من أجلها كـانت الذبيحـة ـ المـوضـوع الـرئيسي في الـطقوس . وإنمـا حصر همـه في تفصيل وقـوع الذبيحـة من تطهيـر وتكفيـر وتكـريس وتحليـل وتحريم ، وغير ذلك من مراسيم استعدادية ، تكتسب الذبيحة بنتيجتها صفتها التحريمية التامة .

* * *

وفي الاطار ، أراد موسى من الـديانـة التي وضعها أن تكـون رابطة إجتمـاعية تؤلف قلوب جمـاعته وتنـظم سلوكهم . وأمل من الـطقوس والفـرائض التي ألحقها بهـا أن يكون لهـا أثـرهـا الإجتماعي في توثيق العرى وشدّ الأواصر .

أول ما فعله موسى أنه نسب الـديانـة التي وضعها إلى الآبـاء ، في محاولـة لإشهار إرتبـاط جماعته بأولئك الآباء الذي عـاشوا في أرض كنعـان ، وارتبطت ذكـراهم ببعض أماكن البـلاد . ولعلهم كانوا أبطالاً كنعانيين ، انتحلهم بنو إسرائيل المتغربون في مصر ، وانتسبـوا إليهم وربطوا تاريخهم بهم . وكان الإنتساب إليهم يعني باعتبـار موسى وجمـاعته ، اشهـار إرتباطهم بـالأرض التي وعد يهوه (الرب) أولئك الآباء بها . لأن الوعد بالأرض أعطي للآباء ولنسلهم من بعـدهم . «فمع ابرام قطع الرب ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهـر الفـرات . تكـوين ١٥ : ١٨» . ولإسحـاق قـال الـرب «تغـرّب في هـذه الأرض لأني لـك ولنسلك أعـطي جميع هـذه البلاد . تكـوين ٢٦ : ٣» . وليعقوب قـال الرب «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . تكوين ٢٨ : ١٣» .

والأمـر الثاني الـذي فعله موسى أنـه عقد عهـداً بين الإلـه الـذي أعلن عن حضـوره وبين

الجماعة التي خرج بها من مصر . فموسى يعلن عن إلهه (يهوه) ، أو قل إن الإله (يهوه) يعلن عن نفسه ، في التاريخ اليهودي . والتاريخ اليهودي يبدأ بعقد الميثاق أو العهد بين الإله وبيْن إبراهيم : «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك ، في أجيالهم عهداً أبدياً ، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً ، وأكون إلههم . تكوين ١٧ : ٧» .

ثم يجدّد الميثاق أو العهد بين الإله وبين إسحاق ، فيعقوب ، ثم الجماعة بأسرها . فحين «ذهب إسحاق إلى أبي مالك ، ملك الفلسطينيين ، إلى جرار ظهر له الرب وقال . . تغرّب في هذه الأرض . . لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد ، وأفي بالقسم الذي أقسمت إلى إبراهيم أبيك . تكوين ٢٦ : ١ ـ ٣» . وحين «جاء يعقوب من فدان ارام (في الشمال السوري) ظهر الرب ليعقوب وقال له . . الأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق . لك أعطيها ولنسلك من بعدك . تكوين ٣٥ : ٩ ـ ١٢» .

وفي عهده مع الجماعة كلها يقول الرب «قد أصعدتكم من مصر ، وأتيت بكم إلى الأرض التي أقسمت لآبائكم . وقلت لا أنكث عهدي معكم إلى الأبد . سفر القضاة ٢ : ١» .

فجماعة بني إسرائيل لم تأت إلى الوجود من خلال تطور تاريخي ، بل من خلال إرادة الإله . ولم ترتبط بأرض كسائر الشعوب في أوطانها ، لأن إلهها التزم في عهده معها بإعطائها أراضي شعوب أخرى .

الموسوية مؤسسة دينية

لعل الخاصة الأولى التي تميّز الموسوية هي أنها كدين وضعي أو تاريخي ، مؤسسة دينية . أعطى القائمون على الأمر فيها لأنفسهم حق الإتصال بالكائن المطلق . وحصروا بنفسهم طريقة الاتصال به أيضاً . وأرسوا جملة القواعد العملية التي ترسم طريقة عبادته . فمذ التجأ موسى إلى أرض مديان ، هرباً من مصر بعدقتله المصري (خروج ٣ : ١) حتى وصوله بعد أربعين سنة من التبدّي في صحراء سيناء ، إلى أرض مؤاب (في الجنوب الشرقي من سوريا الطبيعية) ، ظل حق الإتصال بيهوه (الرب) محصوراً بموسى . وظلت عبارات من مثل «نادى الله موسى . خروج ٣ : ٤» و «قال الله لموسى . خروج ٣ : ١٤» و «قال موسى لله . خروج ٤ : ١٠» و «كلم الرب موسى قائلاً . خروج ١٣ : ١» ، تتصدّر مواقف الحوار ، وهي كثيرة، بين يهوه وبين موسى . وظل موسى «يضع قدامهم الكلمات التي أوصاه بها الرب» . وموسى «يرد كلام الشعب إلى الرب . خروج ١٩ : ٧ و ٨» . فحين «تقدمت بنات صلفحاد» بدعواهن إلى موسى «قدم موسى دعواهن أمام الرب . فكلم الرب موسى قائلاً : بحق تكلمت بنات صلفحاد . عدد ٢٧ : ١ و ٥ و ٦» . وحين أراد الرب تبليغ الجماعة رسالة ما «دعا يهوه (الرب) موسى وكلمه من خيمة الإجتماع قائلاً : كلم بني إسرائيل وقل لهم . . لاويين ١ : ١» .

وبعد موت موسى انحصر حق الاتصال بيهوه (الرب) بالقائد الجديد يشوع . وظلت عبارات من مثل «وكلم الرب يشوع قائلاً . يشوع ١ : ١» و«كلم يشوع الرب . يشوع ١٠ : ١٢» ، تتصدّر مواقف الحوار ، وهي كثيرة ، بين يهوه وبين يشوع .

وبعد موت يشوع ظل المتزعمون في جماعة بني إسرائيل من كهنة وأنبياء وملوك ، على إتصال بيهوه (الرب) . وظلت العبارات متشابهة في مواقف الاتصال . فمع سموئيل الكاهن مثلاً يقول المحرر «كان كلام الرب إلى سموئيل قائلا . سموئيل الأول ١٥ : ١٠» . و قال الرب لسموئيل . سموئيل الأول ١٦ : ١» . ومع داود «كان كلام الرب إلى ناتان (النبي) قائلاً : اذهب وقل لعبدي داود : هكذا قال الرب : سموئيل الأول ٧ : ٥» . و «داود سأل الرب قائلاً . سموئيل الثاني ٢ : ١» . ومع اشعيا «قال لي الرب . اشعيا ٨ : ١» . و «قال الرب لاشعيا . اشعيا ٧ : ٣» . ومع ارميا «كانت كلمة الرب إليّ قائلاً . ارميا ١ : ٤» . «ثم صارت إليّ كلمة الرب ثانية قائلاً . ارميا ١ : ١٣» . و «قال الرب لي . ارميا ٣ : ٦» . و «الكلمة التي صارت إلى ارميا من قبل الرب قائلاً . لرميا ٧ : ١» . ومع حزق ايل «كان إليّ كلام الرب قائلاً . حزق ايل ١٥ : ١» . ومع هوشع «قال الرب لي . هوشع ٣ : ١» . ومع عاموس «هكذا قال الرب . عاموس ١ : ١٣» . ومع زكريا «كان كلام رب الجنود قائلاً . زكريا ٨ : ١» . وهكذا . .

وبالاضافة إلى هذه الطريقة في الاتصال ، أشار محرّر التوراة إلى طُرق أُخرى ، ظلت أيضاً محصورة بأرباب المؤسسة الدينية التي أنشأها موسى . فحين «كان موسى يرعى غنم يثرون حميه ، كاهن مديان . . ظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط العليقة . . ثم قال له : أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . فغطّى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . خروج ٣ : ١ ـ ٦» . وحين «تذمّر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية . وقال لهما بنو إسرائيل : ليتنا متنا في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع . . ظهر مجد الرب في السحاب . وكلّم الرب موسى قائلاً : سمعت تذمّر بني إسرائيل . كلّمهم قائلاً : في العشية تأكلون لحماً ، وفي الصباح تشبعون خبزاً . خروج ١٦ : ٢ ـ ١١» .

«وقال الرب لموسى : ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمنوا بك أيضاً إلى الأبد . خروج ١٩ : ٩» .

وحين «نزل يهوه على جبل سيناء . . ودعا موسى إلى رأس الجبل» رافق نزوله «رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق شديد جداً . . وكان جبل سيناء كله يدخّن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون . وارتجف كل الجبل جداً . فكان صوت البوق يزداد إشتداداً جداً ، وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت . خروج ١٩ : ١٦ ـ ٢٠» .

وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه وإذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده . فسار يشوع إليه وقال له : هل أنت لنا أم لأعدائنا ؟ . فقال كلاّ بل أنا رئيس جند الرب ، الآن أتيت . يشوع ٥ : ١٣» .

وحين أعطى موسى لنفسه حق الاتصال بيهوه . وحصر بنفسه طريقة الإتصال به ، كان من الطبيعي أن يجعل من اجتماعات القمة بينه وبين يهوه اجتماعات سرية للغاية . وأن يجعل الأمر بناء على تعليمات يهوه نفسه ، الذي ظل يحذر الجماعة في أوامره المشدّدة من اقتحام الجبل أو حتى من الاقتراب إليه . قال لموسى «تقيم للشعب حدوداً من كل ناحية قائلاً : احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسّوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلاً» . وقال «انحدر حذّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون» . وللمرة الثالثة وفي الفصل ذاته يؤكد التحذير بقوله «وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم . خروج ١٩ : ١٢ و ٢١ و ٢٤» . «فكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخّن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . . فوقف الشعب من بعيد . وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله . خروج ٢٠ : ١٨ - ٢١» .

ويبدو أن ابني هارون اقتحما أو تسلّلا إلى «القدس» في خيمة الإجتماع ، حيث يجتمع موسى بالرب ، بحجة التبخير أمام الرب . فبطش بهما موسى زاعماً أن ناراً خرجت من عند الرب وأكلتهما . أما رواية التوراة فتقول إن «ابني هارون ناداب وأبيهو أخذ كل منهما مجمرته وجعل فيها ناراً ووضع عليها بخوراً وقرّبا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها . فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما ، فماتا أمام الرب . لاويين ١٠ : ١» .

وفي الفصل السادس عشر من سفر لاويين «كلم الرب موسى بعد موت ابني هارون عندما اقتربا أمام الرب وماتا . وقال الرب لموسى : كلم هارون أخاك أن لا يدخل كل وقت إلى القدس داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت ، لئلا يموت ، لأني في السحاب اتراءى على الغطاء» .

وقد أرسى موسى ، أو الأحبار الذي تولّوا أمر المؤسسة الدينية التي أنشأها موسى ، جملة قواعد تحدّد طريقة عبادة يهوه أو الاجتماع به . وترسم خطوط وأبعاد الطقوس والشعائر التي تتم بها هذه الطريقة . فعن الاجتماع مثلاً «كلم الرب موسى قائلاً . . تضع الشهادة التي أعطيك في التابوت . وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل . خروج ٢٥ : ١ و ٢١» .

وقد أشرنا في ما تقدم إلى الفصول الطويلة التي دبّجها المحرر في الثياب المقدسة لهارون : الصدرة والرداء وجبة الرداء مع الرمانات والجلاجل ، والعمامة والمنطقة ، والقميص

المخرّم مع بقية ثياب الكهنة (خروج ٢٨) . وإلى الخيمة ـ بيت الرب القابع في التابوت ، التي لا يجوز الدخول إليها . الكهنة وحدهم (خدام الرب) يستطيعون الدخول بعد إرتداء الثياب المقدسة ، وعقب شعائر التطهير المختلفة والمعقدة للقيام بالخدمات الدينية . وإلى الطقوس والشعائر المرافقة لإنعقاد الإجتماع : المحرقة اليومية : الذبح ورش الدم وحرق الشحم . «لمعان وجه موسى وتغطيته إياه ببرقع . خروج ٣٤» . «خروج نار على المذبح من عند الرب . لاويين ٩» . وإلى آخر ما هنالك من طقوس وشعائر ، يضيق المجال عن تفصيلها في هذا البحث.

الموسوية ديانة بدائية

الإله الخاص ، والشعب الخاص

تتميّز الديانة البدائية التي تكون عادة في المراحل الأُولى من تشكّل التجمعات أو الاتحادات البشرية ، بالنزوع إلى التخصيص . ومن هنا فإن أول ما فعله موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، أنه أفرد يهوه إلهاً خاصاً بجماعة بني إسرائيل . وغايته صنع مجموعة قومية ، تربطها عبادة إله واحد في هيكل واحد . فمذ تكشّف يهوه (الرب) ، أو أعلن عن حضوره ، لابرام ، جعل من نفسه أو جعله الأحبار الذي حرّروا التوراة ، إلهاً خاصّاً بابرام ـ الأب الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل . فلابرام ظهر يهوه (الرب) . وإليه تكلم (تكوين ١٢ : ١) . ومعه وحده «قطع الرب ميثاقاً (تكوين ١٥ : ١٨) . وأقام عهداً . يقول محرر التوراة «فلما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له . . أجعل عهدي بيني وبينك . تكوين ١٧ : ٢» . وفي الآية التالية من الفصل ذاته قال له «هوذا عهدي معك» . وزيادة في التأكيد كرّر الإعلان عن إقامة العهد مع ابرام في الآية التالية للمرة الثالثة . وفيها يفصح الرب عن عزمه أو إرادته أو تصميمه على أن يشمل العهد نسل ابرام ـ بني إسرائيل ، وإلى آخر الدهر . يقول «وأُقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك ، في أجيالهم عهداً أبدياً» .

ظل يهوه (الرب) في الأسفار الأُولى مرتبطاً بابرام معرّفاً ومضافاً . فعندما كان عبد ابرام في طريقه إلى ارام النهرين لأخذ زوجة إلى إسحاق ، نادى الرب بقول «أيها الرب ، إله سيدي إبراهيم يسّر لي اليوم . تكوين ٢٤ : ١٢» . وبوصوله إلى العين في مدينة ناحور نادى الرب بقوله «أيها الرب إله سيدي إبراهيم . تكوين ٢٤ : ٤٢» . ومع إسحاق بن إبراهيم يعلن يهوه بنفسه عن إرتباطه أو اقترانه بإبراهيم . يقول محرر التوراة «فظهر الرب لاسحاق وقال له : أنا إله إبراهيم أبيك . تكوين ٢٦ : ٢٤» . ومع يعقوب راح يهوه (الرب) يعلن عن إرتباطه بإبراهيم وإسحاق . فحين كان يعقوب في طريقه إلى حاران . ظهر له الرب وقال «أنا الرب إله إبراهيم وإله إسحاق . تكوين ٢٨ : ١٣» . وحين تآمر يعقوب مع زوجتيه للهرب من وجه خاله بعد أن سرق أغنامه ، قال لهن «ولكن إله أبي كان معي . تكوين ٣١ : ٥» . وحين أدركه لابان بعد

مسيرة سبعة أيام ، قال لـه «في قدرة يـدي أن أصنع بكم شـرّاً ، ولكن إله أبيكم كلّمني البـارحة قائلاً : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر . تكوين ٣١ : ٢٩» .

وبعد خروج بني إسرائيل من مصر راح يهوه يعلن عن ارتباطه بالآباء الثـلاثة . فحين ظهـر لموسى «قال : أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . خروج ٣ : ٦» . «وقال الله أيضـاً لموسى : هكـذا تقول لبني إسـرائيل : يهـوه إله آبـائكم ، إله إبـراهيم وإله إسحـاق وإله يعقوب ، أرسلني إليكم . خروج ٣ : ١٥» .

ومع إرتباطه بالآباء الثلاثة صار يعلن عن نفسـه إلهاً خـاصاً بجمـاعة بني إسـرائيل . فحين دخل موسى وهارون على فرعون «قالا له : هكذا يقول يهوه إلـه إسرائيـل : أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البرية . فقال فرعـون : من هو يهـوه حتى أسمع لقـوله ؟ . . . فقـالا : إله العبـرانيين قد التقانا ، فنـذهب سفر ثـلاثة أيـام في البريـة ونذبـح ليهوه إلٰهنـا . خروج ٥ : ١ ـ ٣» . ويضيف محرّر التوراة «ثم قـال الرب لمـوسى . . إذهب إلى فرعـون . . وتقول لـه : يهوه إلـه العبرانيين أرسلني إليك قائلاً : أطلق شعبي ليعبدوني في البرية . خروج ٧ : ١٤ ـ ١٦» .

وظـل تعريف محـرّري التوراة ليهـوه يرد في أشكـال «إله العبـرانيين إله إبـراهيم وإسحاق ويعقوب . إله آبائنا . إله إسرائيل» . وهذه المقولة ـ المفهوم تتردّد كثيـراً على ألسنة زعمـاء بني إسرائيل وأنبيائهم وكهنتهم ، وبالصيغ الكلامية جميعها . فحين أهوى موسى بضـرباتـه المعهودة على المصريين «دعا فرعون موسى وهارون وقـال : اذهبوا واذبحـوا ليهوه إلٰهكم . . (مخـاطب) فقال موسى . . نذهب سفر ثـلاثة أيـام في البريـة ونذبـح ليهوه إلٰهنـا (متكلم) . خروج ٨ : ٢٥ و ٢٧» . وحين «دخل موسى وهارون إلى فرعون وقالا لـه : هكذا يقـول يهوه إلـه العبرانيين . . أطلق شعبي ليعبدوني . . وقال عبيد فرعون له : أطلق الـرجال ليعبـدوا يهوه إلٰههم (غـائب) . . فقال لهما فرعون : اذهبوا واعبدوا يهوه إلٰهكم . خروج ١٠ : ٣ و ٧ و ٨» .

وظل يهوه من أول سفر في التوراة إلى اخر سفر ، يقـدم نفسه إلى المتسلّط فيهم ، قـائداً كـان أم نبياً أم كـاهناً ، أو إليهم جميعهم ، بقـوله «أنـا يهوه إلٰهـك» و «أنا يهـوه إلٰهكم» . يقـول ارميا (٤٢ : ٢٠) : «أرسلتموني إلى يهوه إلٰهكم قائلين : صلّ لأجلنا إلى يهوه إلٰهنا» .

وحين أفرد موسى يهوه إلٰهاً خاصّاً بجماعة بني إسرائيل ، أفرد الجماعـة بالمقـابل (شعبـاً) خاصّاً بيهوه . ومن هنا ظل يهوه يخاطبهم بلسان موسى بمثل قـوله «اتخـذكم لي شعباً ، وأكـون لكم إلٰهاً . خروج ٦ :٧» . «وتكونون لي خاصة من بين جميـع الشعوب . خـروج ١٩ : ٥» . «وواعدك يهوه اليوم أن تكون له شعباً خاصاً . تثنية ٢٦: ١٨» . «وأكون لكم إلٰهاً . وأنتم تكـونون لي شعبـاً . ارميا ٧ : ٢٣» . و «تكـونون لي شعبـاً ، وأنـا أكـون لكم إلٰهـاً . ارميـا ١١ : ٤» . «وأسير بينكم ، وأكون لكم إلٰهاً ، وأنتم تكونون لي شعباً . لاويين ٢٦ : ١٢» . «أنا يهوه إلٰهكم الـذي أخرجكم من أرض مصـر ليكون لكم إلٰهـاً . أنـا يهـوه إلٰهكم . عـدد ١٥ : ٤١» . وظـل

موسى ينقل رغبة وإرادة إلٰهه يهوه في أن «يقيمك الرب اليوم لنفسه شعباً ، وهو يكون لـك إلٰهاً ، كما قال لك وكما حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب . تثنية ٢٩ : ١٣» .

ومن الطبيعي أن يكون الإلٰـه الخاص بـالجماعـة إلٰهاً لنسلهم من بعـدهم أيضاً . ولـذلك يقول يهوه (الرب) لابرام «وأقيم عهـدي بيني وبينك وبين نسلك من بعـدك ، في أجيالهم عهـداً أبدياً ، لأكون إلٰهاً لك ولنسلك من بعدك . تكوين ١٧ : ٧» .

ومن الـطبيعي أيضاً أن تكـون الجماعـة الخاصـة بالإلٰـه (شعباً) مختـاراً من بين الشعـوب سائرها . ولذلك يقول يهـوه بلسان مـوسى «وقد اختـارك الرب لكي تكـون له شعبـاً خاصّـاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . تثنيـة ١٤ : ١» . وفي سفر لاويين (٢٠ : ٢٤) يقـول «أنا يهوه إلٰهكم الذي ميزكم من الشعوب» . وفي الآية التالية من الفصـل ذاته (٢٠ : ٢٦) يقـول «وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي» .

وبوسعنا التأكيد على أن موسى قد أسبغ على جماعة بني إسرائيـل الطابـع الذي ميّـزهم ، وسيبقى يميّزهم إلى الأبد ، عن الشعوب الأخرى . فقد أوهمهم بأن الإلٰه يهوه اختـارهم من بين الشعوب سائرها . وأنهم مباركون منه ، مقربون إليه . وظل طوال حيـاته يعمـل بجهد لا يستكين على ترسيخ هذا المفهوم في صدور أتباعه . يقول يهوه (الرب) «إياك قد اختار يهوه إلٰهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . تثنيـة ٧ : ٦» . ويقول مـوسى «إن يهوه أحب آباءك واختـار نسلهم من بعدهم . تثنيـة ٤ : ٣٧» . ويقول في فصـل آخر من السفـر ذاتـه «إن يهوه التصق بـآبائـك ليحبهم ، فاختـار من بعدهـم نسلهم الـذي هو أنتم ، فـوق جميع الشعوب . تثنية ١٠ : ١٥» .

وما وضعه موسى من أُسس وأقامه من قواعـد ، سار عليـه من جاء بعـده من زعماء وأنبيـاء وكهنة . يقول صاحب المزامير (١٣٥ : ٤) مثلاً «الرب اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته» . ويقول اشعيا (٤٣ : ٢١) بلسان يهوه طبعاً «هذا الشعب جبلته لنفسي» . «اخترتـه . اشعيا ٤٤ : ١» . «وأما أنت يا إسرائيل عبدي يعقوب الذي اخترتـه ، نسل إبـراهيم خليلي ، الذي أمسكتـه من أطـراف الأرض ، ومن أقطارهـا دعوتـه ، وقلت لك : أنت عبـدي اخترتـك ولـم أرفضـك . اشعيـا ٤١ : ٨» . ويقول ارميـا (١٣ : ١١) بلسان يهـوه طبعـاً «كمـا تلتصق المنـطقـة بحقـوي الإنسان ، هكذا ألصقت بنفسي كل بيت إسرائيـل وكل بيت يهـوذا ، يقول الـرب ، ليكونـوا لي شعباً واسماً وفخراً ومجداً» .

ومن الطبيعي أيضاً وأيضاً أن يكون الشعب المختار مباركاً من الإلٰه . يـقـول يهوه (الـرب) «مباركاً تكـون فوق جميـع الشعوب . تثنيـة ٧ : ١٤» . ويقول مـوسى «يباركـك يهوه إلٰهـك في الأرض التي يعطيك . تثنية ٢٨ : ٨» .

وشعـور الجماعـة بأنهم الشعب الأثيـر والمصطفى والمبـارك أفعمهم كبـريـاء وإعتـزازاً ،

ومنحهم شعوراً بالتفوق وإحساساً بالتعاظم . ثم إن الإرتباط الوثيق الذي أحكمه موسى بين يهوه (الرب) وبين جماعة بني إسرائيل ، دفع الجماعة إلى مقاسمة الإله عظمته .

ويبدو أن يهوه ما جعلهم شعبه الخاص ، واختارهم ، وباركهم ، إلاّ لأنهم أولاده وأحباؤه . جاء في سفر الخروج (٤ : ٢٤) «هكذا يقول الرب : إسرائيل ابني البكر» . ويقول موسى في سفر التثنية (١٤ : ١) مخاطباً بني إسرائيل «أنتم أولاد للرب إلهكم» . ويقول صاحب المزامير (٢ : ٧) «قال لي الرب أنت ابني . أنا اليوم ولدتك» . ويقول اشعيا (١ : ٢) بلسان يهوه (الرب) «ربيّت بنين ونشأتهم» .

ويحكم إختياره لهم وإرتباطه الوثيق بهم قاسموه قدسيته . يقول يهوه (الرب) «تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة . خروج ١٩ : ٦» . «لتعلموا أني أنا يهوه الذي يقدسكم . خروج ٣١ : ١٣» . ويضيف يهوه أيضاً «تكونون لي قديسين . لاويين ١٩ : ١» . وفي الفصل التالي من السفر ذاته يؤكد على هذه المقولة ـ المفهوم بقوله «تكونون قديسين لأني أنا يهوه إلهكم . لاويين ٢٠ : ٧» . ويطيب له هذا التأكيد فيكرره في الفصل ذاته بقوله «تكونون لي قديسين لأني قدوس أنا يهوه.لاويين ٢٠ : ٢٦» . وفي سفر التثنية (٧ : ٦) يقول موسى «لأنك أنت شعب مقدس ليهوه إلهك ، إياك قد اختار يهوه إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» . وفي فصل آخر من السفر ذاته (٢٦ : ١٨) يقول «وواعدك الرب . . أن تكون شعباً مقدساً ليهوه إلهك كما قال» . ويقول ارميا (٢ : ٣) «إسرائيل قدس للرب» .

ويهوه (الرب) يسكب روحه عليهم وعلى نسلهم فيتنبأون ، أو قل يشاركونه في كشف أسرار الغيب . يقول يهوه (الرب) بلسان اشعيا (٤٤ : ٣) «أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك» . ويؤكد يهوه(الرب) قراره بلسان النبي يوئيل بلغة فيها من البلاغة ما يسمى بالتفصيل والشمول . فهو يفصل الجماعة التي تنسكب روحه عليها إلى بنين وبنات وشيوخ وشباب . وهذه البركة (الروح الإلهية) تشمل الجميع حتى العبيد والإماء . يقول «إني أسكب روحي على كل بشر فيكم ، فيتنبّأ بنوكم وبناتكم ، ويحلم شيوخكم أحلاماً . ويرى شبابكم رؤى . وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء اسكب روحي» .

وهذه الهبة أو النعمة الإلهية رفعتهم إلى مصاف الآلهة ، أو قل إنهم قاسموا يهوه ألوهيته . ولذلك يقول موسى «إن قسم يهوه هو شعبه . تثنية ٣٢ : ٩» . ويقول صاحب المزامير (٨٢ : ٦) بلسان يهوه طبعاً «أنا قلت إنكم آلهة . وبنو العلي كلكم» .

الأمل بمكافأة ، بتميز ، ثم بسيطرة على العالم

والخاصة الثانية التي تميّز الديانة البدائية هي اقتناع أعضاء الجماعة بوجود رابط يربط في ما بينهم ، هو صلة القربى بسلف مشترك ، جرى رفع شأنه تدريجاً على مرّ الزمن إلى درجة

التقديس . فمذ تكشّف يهوه ، أو أعلن عن حضوره ، لموسى ، «قال له : أنا إلّه أبيك ، إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب . خروج ٣ : ٦» . وحين أرسله إلى بني إسرائيل قال له «اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم : يهوه إلّه آبائكم ، إلّه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي . خروج ٣ : ١٦» . «ثم كلم يهوه موسى وقال له : أنا يهوه وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب . خروج ٦ : ٢» .

وبما أن يهوه «التصق بآبائك ليحبّهم ، اختار من بعدهم نسلهم الذي هو أنتم ، فوق جميع الشعوب . تثنية ١٠ : ١٥» . وبما أن هؤلاء الآباء أحباء يهوه ومختاروه وأصفياؤه ، عقد ميثاقه معهم (خروج ٢ : ٢٤) . «وأقام معهم عهده أن يعطيهم أرض كنعان ، أرض غربتهم التي تغرّبوا فيها . خروج ٦ : ٣» .

ومثل هذه الديانة البدائية التي تكون عادة في المراحل الأُولى من تشكّل التجمعات أو الإتحادات ، يناط بها الأمل بمكافأة ، بتمييز وإيثار ، ثم بسيطرة على العالم . يقول يهوه (الرب) «وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين . واتخذكم لي شعباً ، وأكون لكم إلّهاً . . وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأعطيكم إياها ميراثاً . خروج ٦ : ٦ ـ ٨» . ويقول موسى «لأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم ، أخرجك بقوته العظيمة من مصر لكي يطرد من أمامك شعوباً أكبر وأعظم منك ، ويأتي بك ويعطيك أرضهم نصيباً . تثنية ٤ : ٣٧» .

«والأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيها لهم ولنسلهم ، أرض تفيض لبناً وعسلاً . . أرض جبال وبقاع . . أرض يعتني بها يهوه إلّهك ، وعينا يهوه إلّهك عليها دائماً من أول السنة إلى آخرها . تثنية ١١ : ٩ ـ ١٢» .

وظل يهوه يؤكد على هذه المكافأة في جميع الظروف والمناسبات «إن يهوه إلّهك آت بك إلى أرض جيدة . أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال . أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان . أرض زيتون زيت وعسل . تثنية ٨ : ٧و٨» . «إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك . إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها . وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها . وآبار محفورة لم تحفرها . وكروم وزيتون لم تغرسها . تثنية ٦ : ١٠ و ١١» .

ومذ خرج بهم موسى من مصر راح يغذّي فيهم عقيدة التفوق كردّ فعل على شعورهم بالعبودية والإضطهاد . ويزرع في صدورهم الرغبة الشديدة بالتميّز والإيثار . خذ مثلاً قول إلّههم (يهوه) لهم «مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك . . ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها . لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك . تثنية ٧ : ١٤» . وقول موسى «وواعدك الرب اليوم أن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها ، في الثناء والاسم والبهاء . تثنية ٢٦ : ١٩» . «لأنك أنت شعب

مقدس ليهوه إلهك . إياك قد اختار يهوه إلهك ، لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . تثنية ٧ : ٦» . وقول اشعيا (٤٤ : ٢١) «يا إسرائيل لا تُنسى مني . قد محوت كغيم ذنوبك ، وكسحابة خطاياك» . وقوله «وقالت صهيون : قد تركني يهوه ، وسيدي نسيني . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها ؟ . حتى هؤلاء ينسين ، وأنا لا أنساك ، هوذا على كفّي نقشتك . اشعيا ٤٩ : ١٤» . وقوله «ها هي الظلمة تغطي الأرض . والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى . فتسير الأمم في نورك ، والملوك في ضياء إشراقك . اشعيا ٦٠ : ٢ و٣» . «فتُرضعون ، وعلى الأيدي تُحملون ، وعلى الركبتين تُدلّلون . اشعيا ٦٦ : ١٢» .

وفي السبي البابلي شعر الأحبار والكهنة بأن عليهم أن يهيّئوا المسبيين نفسياً للرحيل عن بابل ، والعودة إلى أرض فلسطين ، لإنشاء دولة قوية ينطلقون منها للسيطرة على العالم . فخططوا بدقة كي يُبقوا اليهود كتلة قومية واحدة متماسكة . ووضعوا من جديد هذه الشريعة التي ترمي إلى محاربة إندماج اليهود بغيرهم من الأمم والشعوب . وتنظم علاقات الأفراد اليهود بعضهم مع بعض ،ولا تكترث بعلاقاتهم مع غيرهم من أفراد الشعوب . وتهدف إلى تنمية الإعتقاد في نفوسهم بالتفوق والامتياز والاختيار . وتعزيز الشعوربالعرق الخاص والعنصر المتميّز الذي يسود الشعوب ويسيطر على العالم . «هكذا قال يهوه : تعب مصر وتجارة كوش ، والسبئيون ذوو القامة إليك يعبرون ولك يكونون وخلفك يمشون. بالقيد يمرون ولك يسجدون . اشعيا ٤٥ : ١٤» .

«وبنو الغريب يبنون أسوارك ، وملوكهم يخدمونك . . وتنفتح أبوابك دائماً . . ليؤتى إليك بغنى الأمم . وتقاد ملوكهم . اشعيا ٦٠ : ١٠» .

«ويقف الأجانب ويرعون غنمكم . ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أماأنتم فتدعون كهنة الرب . تأكلون ثروة الأمم ، وعلى مجدهم تتأمرون . اشعيا ٦١ : ٥» .

الموسوية ديانة كهنوتية

كانت سلطة رجال الدين في التجمعات البشرية القديمة ذات أثر كبير في توجيه روح الجماعة أو الجماعات التي كانت في نواة أي تجمّع أو إتحاد . وكان للنظام الكهنوتي دور الرائد الموجّه في سلطة المؤسسة الدينية . والكهنوت منظمة خاصّة تدعو إلى الإعتراف بأن لبعض الأشخاص (الكهنة) صلة مباشرة بالآلهة . وأن هذه الصلة تسمو بهم إلى منزلة وساطة لا غنى عنها بين الآلهة وبين سائر الناس . وأن هؤلاء الوسطاء وحدهم قادرون على تبليغ رسالة الآلهة .

وُجد في المجتمع المصري القديم من يمكن أن نطلق عليهم لقب «الكهنة» ، الذين اختصوا بالإتصال بالقوة أو القوى التي تسود الإنسان وتسيطر عليه . وبذلك كانوا يمثّلون

الجماعة التي يتزعمون في علاقتها مع القوة العالية التي افترضوا وجودها وآمنوا بها .

وقد كان لدى المصريين ارتال من الكهنة ، على تعدّد وتشعّب : كهنة لتزيين والباس الإلٰه (تمثاله) . كهنة لنسخ الكتب المقدسة . كهنة لتحديد ساعات بدء العبادة والصّلاة . كهنة لتقديم الذبائح والقرابين ، وحمل الأواني المقدسة . وآخرون يقومون بمختلف الأعمال الطقسية ، فمنهم من اختص مثلاً بالموسيقى ، ومنهم من امتهن تفسير الأحلام . وإلى جانب قيامهم بالخدمات الدينية بذلوا الجهود في طلب العلم والمعرفة ،حتى أن اليونانيين القدماء ظنوا يوماً أن معارفهم وعلومهم كلها صدرت عن الكهنة المصريين .

يبدو أن موسى تتلمذ على كهنة مصر ، وأخذ عنهم الحكمة الخفية . وتمرّس بفنون السحر ، «فكان مقتدراً في الأقوال والأفعال» كما جاء في «أعمال الرسل ٧ : ٢٢» من «العهد الجديد» . وحين «تهذّب بكل حكمة المصريين . أعمال الرسل ٧ : ٢٢» . وتخرّج في معابد مصر ، راح يحاول أسر ألباب جماعته (بني إسرائيل) بممارسة الحكمة (السحر) التي «تهذب بها» أي اتقنها . «ويصنع العجائب والآيات . أعمال الرسل ٧ : ٣٦» ، في محاولة لاقناع الجماعة الذين خرج بهم من مصر ، بدعوته ، وبالتالي الإنصياع لإرادته . ففي أرض مديان أتى موسى بأعمال خارقة بالنسبة لهم ، هي لون من ألوان السحر الذي حذقه على أيدي المصريين . فحين «نادى الله موسى من وسط العليقة وقال . . هلمّ فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر . خروج ٣ : ٤ و ١٠» ، «أجاب موسى قائلاً : ولكن هاهم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي . . بل يقولون لم يظهر لك الرب . فقال له الرب : ما هذه في يدك ؟ . فقال عصا . فقال اطرحها إلى الأرض . فطرحها إلى الأرض فصارت حية .خروج ٤ : ١ ـ ٣» .

وتحويل العصي إلى ثعابين من أكثر الألاعيب السحرية شيوعاً في الشرق المتوسطي القديم ، وأوسعها شهرة . وما فتئت الشعوب المسيحية حتى اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين بعد المسيح) تعتبر هذه الألاعيب السحرية منجزات مقدسة ، هي محط إيمان وموضع إجلال واحترام .

وفي سيناء استغل موسى الظواهر الطبيعية المدهشة بالنسبة للجماعة الخارجة من بيئة مصر . فقد كان لبعض الأصقاع أثر في نفس الجماعة كأثر السحر ، منها جبل يدعى «جبل الله» ، كان كثير من شعوب سوريا الجنوبية يحجوّنه ويخلعون نعالهم عنده . ومنها جبال جسام شواهق شاخصة إلى السماء بقللها الغرانيتية ، تتهوّر منها أجرف من الرمال والأحجار ، باعثة في الفضاء هزيماً كئيباً . وتتناهى إلى المتبدّي فيها أصوات لا تصحبها أشكال . وتتراءى له أحياناً شجيرات يكتنفها الدخان ، وينبعث منها ما يشبه ألسنة اللهب . ويأتي رجع الصدى في أجواء عميقة ، تكتنفها أبعاد سحيقة ، في ما يشبه الهدير والزئير . وقد عبّر موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، عن هذه الأجواء بمثل قوله «صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على

الجبل ، وصوت بوق شديد جداً . خروج ١٩ : ١٦» . «وكان جبل سيناء كله يدخّن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون . خروج ١٩ : ١٨» . «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن . خروج ٢٠ : ١٨» . «ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . خروج ٢٠ : ١٨» . «وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله . خروج ١٨ : ٢١» .

وفي سيناء عمد موسى إلى ابتكار أنواع من الخوارق السحرية المذهلة ، التي يغمض على جماعته فهمها أو الإحاطة بها . فحين «تذمّر الشعب على موسى قائلين : ماذا نشرب ؟ . صرخ موسى إلى يهوه (الرب) ، فأراه يهوه شجرة ، فطرحها في الماء ، فصار الماء عذباً . خروج ١٥ : ٢٤» . وحين «خاصم الشعب موسى وهارون قائلين : لماذا اتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية ، لكي نموت فيها نحن ومواشينا ؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان الرديء ؟ . ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان ، ولا فيه ماء للشرب . . كلم الرب موسى قائلاً : خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهارون أخوك وكلما الصخرة أمام أعينهم أن تعطي ماءها» . ويضيف المحرر أن موسى «رفع يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين ، فخرج ماء غزير ، فشربت الجماعة ومواشيها . عدد ٢٠ : ٣ ـ ١١» . وحين «سمّر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون قائلين . . إن الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟ . عدد ١٦ : ٣ و٤١» . «كلّم الرب موسى قائلاً : كلّم بني إسرائيل وخذ منهم عصاً عصاً لكل بيت أب من جميع رؤسائهم ، حسب بيوت آبائهم ، إثنتي عشرة عصاً . واسم كل واحد تكتبه على عصاه . واسم هارون تكتبه على عصا لاوي . . وضعها في خيمة الإجتماع أمام الشهادة حيث اجتمع بكم . فالرجل الذي اختاره تفرخ عصاه ، فاسكّن عني تذمّرات بني إسرائيل التي يتذمّرونها عليكما . فكلم موسى بني إسرائيل ، فأعطاه جميع رؤسائهم عصاً عصاً . . فوضع موسى العصي أمام الرب في خيمة الشهادة .

وفي الغد دخل موسى إلى خيمة الشهادة وإذا عصا هارون قد أفرخت . أخرجت فروخاً وازهرت زهراً وانضجت لوزاً . عدد ١٧ : ١ ـ ٨» .

وحين «أرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة ، فلدغت الشعب ، فمات قوم كثيرون من إسرائيل . أتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا إذ تكلمنا على يهوه (الرب) وعليك . فصلّ إلى يهوه ليرفع عنا الحيات . فصلّى موسى لأجل الشعب . فقال يهوه (الرب) لموسى : اصنع لك حية محرقة وضعها على راية . فكل من لدغ ونظر إليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية . فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا . عدد ٢١ : ٦ ـ ٩» .

وبالإضافة إلى الخوارق السحرية التي مارسها موسى في مصر وفي سيناء ، أحاط موسى نفسه بحواجز كثيفة من الطقوس والأسرار الغيبية . من ذلك مثلاً أن موسى حين «صعد إلى

الجبل ، غطّى السحاب الجبل ، وحلّ مجد الرب على جبل سيناء ، وغطاه السحاب ستة أيام . وفي اليوم السابع دُعي موسى من وسط السحاب ، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل . ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل . وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة . خروج ٢٤ : ١٥ - ١٨» .

«وحين نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يده ، كان جلدوجهه يلمع في كلامه مع الرب . فنظر هارون وجميع بني إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع ، فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى . . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعاً . وكان موسى لدى دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج . . فإذا رأى بنو إسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع ، كان موسى يرد البرقع حتى يدخل ليتكلم مع الرب ، خروج ٣٤ : ٢٩ - ٣٥» .

وحين «أخذ موسى الخيمة ونصبها للرب خارج المحلة ، ودعاها خيمة الإجتماع . . كان جميع الشعب ، إذا خرج موسى إلى الخيمة ، يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة . وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة . ويتكلم الرب مع موسى . فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفاً عند باب الخيمة . . ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. خروج ٣٣» .

وحين كان موسى يدخل «إلى خيمة الإجتماع ليتكلم مع الرب ، كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذي على تابوت الشهادة من بين الكروبين يكلمه . عدد ٧ : ٨٩» .

وحين «قال موسى للرب : أرني مجدك . . قال له الرب . . لا تقدر أن ترى وجهي ، لأن الإنسان لا يراني ويعيش . وقال الرب هوذا عندي مكان . فتقف على الصخرة ، ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة واسترك بيدي حتى اجتاز ، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي . وأما وجهي فلا يرى . خروج ٣٣ : ١٨ - ٢٣» .

وبالإضافة إلى الحواجز الكثيفة من الطقوس والأسرار الغيبية التي أحاط موسى بها نفسه ، جعل موسى الأمور الدينية أكثر تعقّداً واعتياصاً . فبدت الحاجة إلى انقطاع فئة من الجماعة (الكهنة) لمباشرة هذه الأمور والتعمّق في اكتناه أسرارها .

والكاهن أشبه بالساحر ، أو قل إن الساحر هو الذي عبّد الطريق أمام الكاهن . فهما صنوان ولدا معاً وشبّا وترعرعا معاً ، ولبثا معاً يستعينان بقوى وطاقات من وراء الطبيعة غير منظورة ، وذلك لبلوغ أغراض مخصوصة يتعاصى بلوغها بالوسائل الطبيعية المألوفة والأساليب المنطقية المعروفة .

والكهانة كالسحر صناعة يقصد منها إحداث الخوارق بُطرق خفية . يُضاف إلى ذلك أن القوى الغيبية أو العلوية التي يدعوها الساحر أو الكاهن أو مناجي الأرواح ، لا تقع صورتها في أخيلتهم على أنها شيء يعلوهم فيتطاولون إليه . بل على أنها قرن ينازلونه أو قرين يخادنونه .

وقد يرون لأنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى ما يستطيعون بـه أن يخضعوهـا لأوامرهم ويسخروها لرغباتهم ، كما يسخر الكيميائي عناصر الطبيعـة الماديـة لمآربـه . من ذلك مثـلاً أن مـوسى يخاطب إلهـه (يهوه) كقـرين أو خدين . فحين تكلّم يهـوه (الرب) مـع مـوسى في أرض مديان قائلاً «هلمّ فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر ، قال موسى لله : من أنا حتى أذهب إلى فرعون ، وحتى أخرج بني إسـرائيل من مصـر ؟ . فقال لـه الرب : إني أكون معك . خروج ٣ : ١٠» . «فأجاب موسى وقال : ولكن هاهم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي . بل يقولون لم يظهر لك الرب . فقال له الرب : ما هذه في يدك . فقال عصـا فقال اطـرحها إلى الأرض . فطرحها إلى الأرض ، فصارت حية . فهرب منها مـوسى . ثم قال الـرب لموسى مـدّ يدك وامسك بذنبها . فمد يده وأمسك به ، فصارت عصا في يده . لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله إبـراهيم وإله إسحـاق وإله يعقـوب . ثم قال لـه الرب أيضـاً : أدخل يـدك في عبّك . فادخل يده في عبّه ، ثم أخرجها وإذا يـده برصـاء مثل الثلج . ثم قـال له : ردّ يـدك إلى عبّك . فرد يده إلى عبّه . ثم أخرجها من عبّه وإذا هي قد عادت مثـل جسده . . ويكـون إذا لم يصدقـوا هاتين الآيتين ، ولم يسمعوا لقولك أنـك تأخـذ من ماء النهـر وتسكب على اليابسـة فيصير المـاء الذي تأخذه من النهر دماً على اليابسة . خروج ٤ : ١ ـ ٩» .

وعلى الرغم من هذه المعجزات التي وضعها يهوه (الرب) كسلطات آسـرة وبراهين قـاطعة ، بيـد موسى ، فـإن موسى خـاطب الرب كنـدّ أو قرين قـائلاً : «اسمـع أيها السيـد : لست أنا صـاحب كـلام منـذ أمس ولا أول من أمس ، ولا من حين كلمت عبـدك ، بـل أنـا ثقيـل الفم واللسان . خروج ٤ : ١٠» . ورغم أن الرب قال له «اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به» ، فإن موسى رفض حمل الرسالة التي كلفه يهوه (الرب) بنقلهـا إلى خاصتـه بني إسرائيـل ، «وقال : استمع أيها السيد : أرسل بيد من ترسل . خروج ٤ : ١٠ ـ ١٣» .

ثم إن موسى يرى لنفسه من العلو والسلطان على يهوه (الـرب) ما يستـطيع بـه أن يخضعه لأوامـره ويسخره لـرغباتـه . فحين «صنع بنـو إسرائيـل عجلاً مسبـوكاً وسجـدوا له وذبحـوا له ، وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتـك من أرض مصر ، قـال الرب لمـوسى (الذي كـان مجتمعاً به في الجبل) : اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم ، وأصيّرك شعباً عـظيماً . . فقـال موسى : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عـظيمة ويـد شـديدة ؟» . وفي محـاولة لثني يهـوه عن قراره ، راح مـوسى يحـذّره من مغبـة هيجـانـه وحمـو غضبـه ، مخوفـاً إياه ممـا عسى أن يتقوّل بـه المصريـون عليه : «لمـاذا يتكلم المصريـون قائلين أخـرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجـه الأرض . ارجع عن حمـو غضبـك وانـدم على الشرّ بشعبك» . ولم يزل به مـوسى حتى عدل يهـوه (الرب) عمـا كان قـد عقد العـزم عليه «وندم الرب على الشرّ الذي قال انه يفعله بشعبه . خروج ٣٢ : ٤ ـ ١١» .

ظل الساحر يعبّد الطريق أمام الكاهن حتى اغتصب الكاهن لنفسه وظيفة السـاحر ، وأخـذ

يؤدي الـدور الذي كـان للساحـر في صناعـة السحر : دور كـاشف للحجب ، مستبصر للغيب . ودور المتصل بأرواح الأسلاف لصالح فرد من الجماعة أو قائم على الأمر فيهـا . ولعل خيـر مثل لهـذا الدور الـذي كان للسـاحر هـو ما رواه محـرر سفر سمـوئيـل الأول (٢٨ : ٤ ـ ١٦) ، قـال «اجتمع الفلسطينيون وجاؤا ونزلوا في شـونم . وجمع شـاول جميع إسـرائيل ونـزل في جلبوع . ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً . فسأل شاول من الرب ، فلم يجبه الـرب لا بالاحـلام ولا بالأوريم ولا بـالأنبياء . وطفق الكهنـة يكيدون شـاول ويزعمـون أن يهـوه (الـرب) مال عن مـودته وكفّ عن نصـرته . فتلبّـد الجو في وجهـه وأعيت عليه معـالجة الخـطر المحدق به . وحين أراد أن يستخير ربه تجمّدت قريحته وتبلّدت مخيلتـه حتى استعصى عليه أن يرى رؤيا يفسّرها بما تشاء له وساوسه وأوهامـه . فلم يجد بـداً من الإنصراف إلى الجـان عوضـاً عن ربه (يهوه) . واللواذ بالسحرة بدلاً من الأنبياء . «فقـال شاول لعبيـده : فتشوا لي على امـرأة صاحبة جان ، فاذهب إليها وأسألها . فقال لـه عبيده : هـوذا امرأة صـاحبة جـان في عين دور . فتنكّـر شاول . . وذهب إلى المـرأة ليلاً ، وقـال : اعـرفي لي بـالجـان واصعـدي لي من أقـول لك . . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ . فقال : أصعدي لي سموئيل» . وحين صعد سمـوئيل من المـوت «قال لشـاول : لماذا أقلقتني بـإصعادك إيـاي ؟ . فقال شـاول : قد ضـاق بي الأمـر جـداً : الفلسطينيـون يحاربـونني ، والرب فـارقني ولم يعد يجيبني لا بـالأنبياء ولا بـالأحـلام ، فـدعوتـك لكي تعلمني ماذا أصنـع . فقال سمـوئيل : ولمـاذا تسألني والـرب قد فـارقك وصـار عدوك» .

أما الكاهن فلا يتصل بأرواح الأسلاف كصـاحبة الجـان في عين دور . وإنما يتصـل بيهوه (الرب) مباشرة ، فيفتح له الرب أستار الحجب ويكشف له أسرار الغيب . أو قل يـطلعه على مـا يكنّه في صدره من نوايا . من ذلك مثلاً أن «يهوشفط ملك يهوذا نزل إلى آخاب ملك إسـرائيل . فقال ملك إسرائيل لعبيده : أتعلمون أن راموت جلعاد لنا ونحن ساكتون عن أخذها من يـد ملك آرام . وقال ليهـوشفط : أتـذهب معي للحـرب إلى رامـوت جلعـاد ؟ . فقــال يهـوشفط لملك إسرائيل : اسأل اليوم عن كلام الرب . فجمـع ملك إسرائيـل الأنبياء نحـو أربعمائـة رجل وقـال لهم : أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم امتنع ؟ . فقـالوا اصعـد فيدفعهـا السيد ليـد الملك . فقال يهوشفط : أما يوجد هنا بعد نبي للرب فنسأله منه ؟ . فقـال ملك إسرائيـل ليهوشفط : إنـه يوجد بعد رجل واحد لسؤال الرب به ولكني أبغضه لأنه لا يتنبّأ عليّ خيراً بل شراً ، وهو ميخا بن يملة . فقال يهوشفط : لا يقل الملك هكذا . فقال ملك إسرائيـل : إليّ بميخا» . وحين وصـل ميخا تنبّأ ، ولكن نبوءته جاءت مناقضة لنبوءة الأنبياء الأربعمائة . قال «رأيت كل إسرائيل مشتّتين على الجبـال كخراف لا راعي لهـا . سفـر الملوك الأول ٢٢ : ١٧» . أي تنبّـأ لملك إسـرائيـل بالموت . وفي تبريره لنبوءته المناقضة لنبوءة الأنبياء الأربعمائة قال «قد رأيت الـرب جالسـاً على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره . فقال الرب مَنْ يغـوي آخاب فيصعـد

ويسقط في راموت جلعاد ؟ . فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا . ثم خرج الروح ووقف أمام الرب وقال أنا أغويه . وقال له الرب بماذا ؟ فقال أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه . فقال إنك تغويه وتقتدر ، فاخرج وافعل هكذا . والأن هوذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء ، والرب تكلّم عليك بشرّ . فتقدم صدقيا بن كنعنة وضرب ميخا على الفك وقال : من أين عبر روح الرب مني ليكلّمك . سفر الملوك الأول ٢٢ : ١٩ - ٢٤» .

أما ملك إسرائيل فضرب بنبوءة ميخا عرض الحائط ، وأخذ بنبوءة الأنبياء الأربعمائة . «فصعد إلى راموت جلعاد . . ودخل الحرب . ملوك أول ٢٢» فقُتل «ولحست الكلاب دمه . ملوك أول ٢٢ : ٣٨» .

وهكذا يبدو أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يمثّلون جميعاً دور المتصل بيهوه (الرب) . ولكن الرب ، في كشفه لهم أستار الحجب أو هتكه أسرار الغيب ، قد يجعل «روح كذب في أفواههم» ، وقد يكون روح صدق .

ومن الأمثلة ، وهي كثيرة ، على هذا الدور الذي كان الكاهن يمثّله على مسرح الحياة في جماعة بني إسرائيل ، أن «ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك ادوم ذهبوا إلى مؤاب للحرب ، وفي طريق برية ادوم داروا مسيرة سبعة أيام ، ولم يكن ماء للجيش والبهائم التي تبعتهم . . فقال يهوشفط ملك يهوذا : أليس هنا نبي للرب فنسأل الرب به ؟ . فأجاب واحد قائلاً : هنا ايليشع . . فنزل إليه ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك ادوم . سفر الملوك الثاني ٣ : ٩ - ١٢» . وبوصولهم إليه قال ايليشع «اتوني بعوّاد . ولما ضرب العوّاد بالعود كانت عليه روح الرب ، فقال : هكذا قال الرب : اجعلوا هذا الوادي جباباً جباباً لأنه هكذا قال الرب : لا ترون ريحاً ولا ترون مطراً ، وهذا الوادي يمتلىء ماء ، فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم . . وفي الصباح عند اصعاد التقدمة إذا مياه آتية عن طريق ادوم ، فامتلأت الأرض ماء . الملوك الثاني ٣ : ١٥» .

وحين اغتصب الكاهن لنفسه وظيفة الساحر ، اختلطت شعائره وطقوسه بأدوات الساحر . وتداخلت صلواته مع تعاويذ الساحر . وصار الكاهن يخلع على نفسه أردية السحرة ، ويستخدم العدة السحرية أثناء القيام بأعماله . وراح يمارس وظيفة الساحر : القدرة على التنبؤ ، والوقوف على أسرار الغيب . شفاء الأمراض أو إحداثها . إحياء الموتى أو إماتة الأحياء . الإتيان بخوارق سحرية مبهرة مثل عكس مسارات القوانين الأزلية للعالم الطبيعي أو تعطيلها . التحكّم في الرياح والأمطار واخضاعها لإرادته . والتحكّم في النار بإشعالها أو إطفائها بكلمته .

فمن أمثلة الأردية السحرية نذكر رداء ايليا الذي «لفّه وضرب به نهر الأردن ، فانفلق إلى هنا وهناك ، فعبر ايليا وايليشع في اليبس . الملوك الثاني ٢ : ٨» . وحين «صعد ايليا في العاصفة إلى السماء . . أخذ ايليشع رداء ايليا الذي سقط عنه ، وضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك ، فعبر ايليشع . الملوك الثاني ٢ : ١١ - ١٤» .

ومن أمثلة العدة السحرية نذكر عصا موسى التي صنع بها الآيات الكثيرة (خروج ٤ : ١٧) . منها مثلاً أن العصا تحوّلت في أرض مديان إلى حية (خروج ٤ : ٣) . وفي مصر «طرحها أمام فرعون فصارت ثعباناً . خروج ٧ : ٩» . «وضرب بها الماء الذي في النهر فتحوّل دماً . خروج ٧ : ١٧» . «ومدّها نحو السماء فأعطى الرب رعوداً وبَرَداً . وجرت نار على أرض مصر . فكان بَرَد ونار متواصلة في وسط البَرَد . خروج ٩ : ٢٣» . ونذكر قرني صدقيا النبي . فحين «جمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعمائة رجل» وسألهم عن رأي الرب في حربه مع الأراميين ، «قالوا اصعد فيدفع الرب الأراميين ليدك . ملوك أول ٢٢ : ٦» . «وعمل أحد الأنبياء ، صدقيا بن كنعنة ، لنفسه قرني حديد ، وقال : هكذا قال الرب يهوه : تنطح الأراميين حتى يفنوا . ملوك أول ٢٢ : ١١» .

وخير من مارس وظيفة الساحر : القدرة على التنبؤ ، والوقوف على أسرار الغيب . شفاء الأمراض ، وإحداثها . إحياء الموتى ، وإماتة الأحياء . التحكم في الرياح والمطر وإخضاعهما لإرادته . هما النبيّان ايليا وايليشع . والأمثلة كثيرة ، منها مثلاً أن ايليشع «جاء إلى دمشق ، وكان بن هدد ملك أرام مريضاً . فقيل له قد جاء رجل الله إلى هنا . فقال الملك لحزائيل : خذ بيدك هدية واذهب لاستقبال رجل الله ، وأسأل الرب به : هل أشفى من مرضي هذا ؟» . وبوصوله «قال له ايليشع . . قد أراني الرب أنه يموت . . ثم بكى رجل الله . فقال حزائيل : لماذا يبكي سيدي ؟ . فقال ايليشع لأني علمت ما ستفعله ببني إسرائيل من الشرّ» . وحين استوضحه حزائيل هذه النبوءة ، «قال ايليشع قد أراني الرب إياك ملكاً على ارام . الملوك الثاني ٨ : ٧ ـ ١٣» . فايليشع تنبّأ بموت بن هدد . وبتملّك حزائيل على ارام . وبأن هذا الملك الجديد سيفعل ببني إسرائيل من الشرّ ما جعل ايليشع يبكي .

ومن الأمثلة أيضاً أن «نعمان رئيس جيش ملك ارام كان أبرص . . فجاء بخيله ومركباته ووقف عند باب بيت ايليشع . فأرسل ايليشع رسولاً إليه قائلاً : اذهب واغتسل سبع مرّات في الأردن ، فيرجع لحمك إليك وتطهر . . فنزل نعمان في الأردن وغطس سبع مرّات حسب قول رجل الله ، فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر . الملوك الثاني ٥ : ١ ـ ١٤» .

وبرص نعمان ألصقه النبي ايليشع بغلامه لأنه أخفى عليه أمراً عرفه النبي بقدرته النبوية ، فقال له «برص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد . فخرج الغلام من أمامه أبرص كالثلج . سفر الملوك الثاني ٥ : ٢٧» .

وكان للنبيّين ايليا وايليشع قدرة على إحياء الأموات . فحين مات ابن الأرملة التي كانت تعول ايليا ، «تمدّد ايليا على الولد ثلاث مرّات وصرخ إلى الرب قائلاً : يا يهوه إلٰهي : لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت ايليا ، ورجعت نفس الولد إلى جوفه ، فعاش . ملوك أول ١٧ : ٢١» .

أما ايليشع فقد وهب ابناً لأبوين غير منجبين . ثم أعاده إلى الحياة بعد موته . فحين قال له خادمه إن المرأة الشونمية التي تستضيفنا «ليس لها ابن ، ورجلها قد شاخ . قال ايليشع : ادعها . فدعاها الخادم . فقال لها ايليشع في هذا الميعاد نحو زمان الحياة تحتضنين ابناً. فقالت لا يا سيدي رجل الله لا تكذب على جاريتك .

فحبلت المرأة وولدت ابناً في ذلك الميعاد نحو زمان الحياة كما قال لها ايليشع . وكبر الولد . وفي ذات يوم . . مات . . فانطلقت المرأة إلى رجل الله إلى جبل الكرمل» . فجاء ايليشع «ودخل البيت وإذا بالصبي ميت . . فاغلق الباب وصلّى إلى الرب ، ثم صعد واضطجع فوق الصبي ، ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه ، وتمدّد عليه ، فسخن جسد الولد . . ثم عطس الصبي ، ثم فتح عينيه . الملوك الثاني ٤ : ١٤ ـ ٣٥» .

ويبدو أنه كان للنبي ايليا سلطة التحكّم في الرياح والأمطار ، وفي النار أيضاً . فقد قال مرة لاخاب ملك إسرائيل «إنه لا يكون طلّ ولا مطر في هذه السنين إلاّ عند قولي . ملوك أول ١٧ : ١» . وحين «صعد إلى رأس الكرمل وخرّ على الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه . . اسودت السماء من الغيم والرياح ، وكان مطر عظيم . ملوك أول ١٨ : ٤٢» .

وقد أعطيت سلطة التحكم بالنار اشعالاً لأنبياء بني إسرائيل جميعاً. ولم يحدث مرة أن قدّم نبي أو كاهن تقدمة للرب إلاّ وسقطت عليها النار من السماء وأكلتها . من ذلك مثلاً أن ايليا ، في صراعه مع أنبياء البعل قال ، بعد تقطيع الثور ووضعه على الحطب ، «املأوا أربع جرات ماء ، وصبوا على المحرقة وعلى الحطب . ثم قال ثنّوا فثنّوا ، وقال ثلّثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء» . ثم دعا ربه «فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة . ملوك أول ١٨ : ٣٣ ـ ٣٨» .

أما سلطة التحكّم بالنار اطفاء ، فقد برز فيها موسى . فحين كان بنو إسرائيل متبدّين في صحراء سيناء «اشتكوا شرّاً في أذني الرب . وسمع الرب فحمي غضبه . فاشتعلت فيهم نار الرب وأحرقت في طرف المحلة . فصرخ الشعب إلى موسى . فصلّى موسى إلى الرب فخمدت النار . عدد ١١ : ١» .

تبقى مسألة عكس مسارات القوانين الأزلية التي برع فيها يشوع . فحين «قال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي ايلون . . وقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل . يشوع ١٠ : ١٢ و١٣» .

وبهذه الطريقة احتكر الأنبياء والكهنة سرّ الإتصال بالإله ، والوقوف على إرادته . ونشأ في نفوس أتباعهم فكرة مؤداها أن «الحقيقة» يوحى بها إلى أشخاص ذوي استعداد خاص . وأنه لم يُعطَ لكل إنسان أن يعرف «الحقيقة» بنفسه . «الحقيقة» كما هي في الحاضر وفي المستقبل موجودة لدى الآلهة ، ولا يمكن إلاّ للكهنة أو الأنبياء أن يعرفوها .

وعندما سادت طبقة من المتخصّصين (الكهنة) كوسطاء بين الجماعة وبين إله الجماعة، بدأ التخصّص. وصار الكاهن يلبس ثوب القداسة، ويربط الإنسان العادي بالكائن الإلهي. أي يسعى في حاجة الفرد والجماعة لدى رب الجماعة، سواء أعن طريق الذبيحة التي لا تقبل إلاّ إذا قام الكاهن بشعائرها. أم عن طريق الغفران الذي لا يصح إلاّ إذا نطق به فم الكاهن. فعن الذبيحة والشعائر المرافقة لتقديمها تحدث يهوه (الرب) إلى موسى مطولاً، ومن أمثلة ذلك قول المحرر «وكلّم الرب موسى قائلاً: إذا خان أحد خيانة وأخطأ سهواً في أقداس الرب، يأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً من الغنم بتقويمك من شواقل فضة على شاقل القدس ذبيحة إثم. ويعوّض عما أخطأ به من القدس، ويزيد عليه خمسه، ويدفعه إلى الكاهن فيكفّر الكاهن عنه بكبش الإثم، فيُصفح عنه.

وإذا أخطأ أحد وعمل واحدة من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها، ولم يعلم، كان مذنباً وحمل ذنبه. فيأتي بكبش صحيح من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن، فيكفّر عنه الكاهن من سهوه الذي سها وهو لا يعلم، فيُصفح عنه. لاويين ٥ : ١٤ - ١٨».

ومن الأمثلة عن الغفران الذي لا يصح إلاّ إذا نطق به فم الكاهن، قول الجماعة لارميا «ليت تضرّعنا يقع أمامك، فتصلّي لأجلنا إلى يهوه إلهك. ارميا ٤٢ : ٢».

وهكذا راح الكاهن يقوم بخدمة الجماعة في ما يتصل بإقامة الشعائر وممارسة الطقوس وتقديم القرابين، وكل ما له علاقة بالإحتفالات الدينية.

وبهذه الوظيفة المقصورة على الكاهن تمكن الكهنة من التسيّد والتزعّم على جماعة بني إسرائيل. وبالتالي تمكنوا من سوْقهم في صحراء سيناء قرابة نصف قرن. ومن ثم دفعهم إلى غزو أرض فلسطين، مفردين في وجوههم مجموعة من عوامل الترغيب والترهيب، منها مثلاً أنهم نسبوا إلى إلههم يهوه وعده لهم بأن يأتي بهم «إلى مدن عظيمة جيدة، لم يبنوها. وبيوت مملوءة كل خير، لم يملأوها، وآبار محفورة، لم يحفروها. وكروم وزيتون، لم يغرسوها. تثنية ٦ : ١٠». «فتأكلون العتيق المعتّق. وتخرجون العتيق من وجه الجديد. لاويين ٢٦».

وفي المقابل نسبوا إليه تسليطه على رقاب أتباعه سيف الوعيد والتهديد، إذا هم ضعفوا عن تحقيق المشيئة اليهوهية، في الإستيلاء على أرض كنعان، وإفناء شعوبها. يقول «وإن لم تسمعوا لي.. وإن كرهت أنفسكم أحكامي.. فإني أسلّط عليكم رعباً وسلاً وحمى تفني العينين وتتلف النفس.. وأجعل وجهي ضدكم، فتنهزمون أمام أعدائكم.. وأصيّر سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس. لاويين ٢٦ : ١٤ - ١٩».

وحين جعل موسى الكهانة مهنة، خصّص لها مكانة رفيعة في السلّم الإجتماعي. فصار الكهان يشكلون طبقة قوية ومميّزة. ومع مرور الوقت وصل الكهنة إلى قمة الهرم الإجتماعي في ظل الطبقة الحاكمة أولاً، ثم بجوارها. ثم أصبح الكاهن حاكماً (سموئيل). ومع صعودها إلى

قمة الهرم الإجتماعي تعاظمت ثراء وتوسعت نشاطاً ، وباختصار تمتعت المؤسسة الكهنوتية بمكانة عظيمة وقوة نافذة ، وكان لها مصالح واسعة .

والجدير بالذكر أن الطبقة الكهنوتية كانت تسير بتوجيه موسى . وبعد موته صار الحاكم يسير بتوجيه طبقة الكهنة . وهذا الموضوع يخصّص له بحث مستقل ، لا مجال له في هذه الدراسة .

مفهوم الألوهة في الذهن الاسرائيلي القديم

الإله الراعي ، والقائد ، والمحارب

أدرك موسى ، بثاقب بصره وبعد نظره ، أن خير وسيلة ترفعه إلى النفوذ والملك ، وتؤدي به إلى المجد والسلطان ، هي في تجميع أتباعه في وحدة سياسية - دينية . أي وحدة سياسية يجمع شملها الدين . ووحدة دينية هدفها تحقيق الأغراض السياسية . فقرّر أن يكوّن جيشاً من الجماعة التي خرج بها من مصر ، يقوده للإستيلاء على أراضي الشعوب الأخرى ، وتأسيس دولة أو إقامة ملك . ووجد من الضرورة أن يكون لجماعته إلٰه ، يرعاهم ويطعمهم ويحميهم ويخطط لهم في المعارك ويقودهم في الحروب أو يحارب عنهم . ويكون بينه وبين أتباعه نوع من المنفعة المتبادلة : فهم يعبدونه ويقدمون له الذبائح والقرابين . وهو يجعلهم قومه المختارين وينصرهم في الحروب ويملّكهم أراضي الشعوب . وهكذا أفرد يهوه إلٰهاً خاصاً بجماعته . وغايته صنع مجموعة قومية تربطها عبادة إلٰه واحد في هيكل واحد .

يبدو أن موسى حاول أول ما حاول ، بكل ما أُوتي من جهد وقوة وتأثير ، أن يغرس في نفوس أتباعه الشعور بالتبعية لمشيئة أُخرى ، ركّزها في يهوه ، أي في الناطق باسم يهوه ، نبياً كان أم كاهناً . وأن يضع أُسس علاقة بين جماعته وبين قوة غيبية (يهوه) نسب لها السلطان المطلق على توجيه نشاط الجماعة ، والسهر على رعايتها . فحين «ذهب إسحاق إلى أبي مالك ، ملك الفلسطينيين ، إلى جرار ، ظهر له الرب وقال . . تغرّب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك . تكوين ٢٦ : ١» . وحين «صعد من هناك إلى بئر سبع ظهر له الرب وقال أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك . تكوين ٢٦ : ٢٣» . وحين كان في طريقه إلى خاله في فدان ارام قال له الرب «ها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض ، لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به . تكوين ٢٨ : ١٥» .

وحين «خدع يعقوب قلب لابان الارامي» خاله وحميه ، وسطا على مواشيه بلباقة داهية محتال ، وهرب من وجهه ، «سعى لابان وراءه مسيرة سبعة أيام» . وحين «أدركه في جبل جلعاد أتى الله إلى لابان في حلم الليل وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شرّ . تكوين ٣١ : ٢٠ ـ ٢٤» .

وحين غدر ابنا يعقوب بأهل شكيم ، إذ «أتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر . . ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة . . غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه . وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ، ونساءهم ، وكل ما في البيوت . تكوين ٣٤ : ٢٥ ـ ٢٩» كان الله يرعاهم ، فبعدما أتموا ، على وجه مُرضٍ ، المجزرة الرهيبة التي أنزلوها بأهل شكيم ، مباغتة وغدراً ، هداهم الله إلى مكان آمن إذ «قال ليعقوب : قم اصعد إلى بيت ايل وأقم هناك» . ثم نشر الله خوفه على المدن التي حولهم ، وظلّلهم بحمايته، فلم يسع أحد وراءهم ، كما يقول المحرر «وكان خوف الله على المدن التي حولهم ، فلم يسعوا وراء بني يعقوب . تكوين ٣٤ : ٢٥ و ٣٥ : ١» .

وحين همّ يعقوب بالرحيل إلى مصر قال له الله «لا تخف من النزول إلى مصر ، لأني أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر ، وأنا أصعدك أيضاً . تكوين ٤٦ : ٣» .

ويعقوب هذا «أحاط به الرب ولاحظه وصانه كحدقة عينه . كما يحرك النسر عشّه ، وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه ، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي . أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء . وأرضعه عسلاً من حجر ، وزيتاً من صوان الصخر . تثنية ٣٢ : ١٠ ـ١٣» .

وبعد خروجهم من مصر هرباً ، تبعهم جيش فرعون ، «فرفع بنوإسرائيل عيونهم ، وإذا المصريون وراءهم ، ففزعوا جداً . . وقالوا لموسى : هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ؟ . ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ . ألم نقل لك في مصر كفّ عنا لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية ؟ . فقال موسى للشعب : لا تخافوا . . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون . خروج ١٤ : ١٠ ـ ١٤» . وبلمح البرق «انتقل ملاك الرب السائر أمام عسكر إسرائيل ، وسار وراءهم . وانتقل عمود السحاب من أمامهم ، ووقف وراءهم . فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل . وصار السحاب والظلام وأضاء الليل . خروج ١٤ : ١٩» .

ويبدو أن يهوه كان رهن إشارة من موسى ، فقد «جعل البحر يابسة . وانشق الماء ، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . . وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب ، وأزعج عسكر المصريين ، وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة . خروج ١٤ : ٢١ ـ ٢٥» .

إذاً فالرب قاتل عنهم ، كما قال موسى ، إذ «جعل البحر يابسة . وأزعج عسكر المصريين ، وخلع بكر مركباتهم» . والأدهى أنه أغرق المصريين حتى «لم يبق منهم ولا واحد . خروج ١٤ : ٢٨» .

وفي رعايته لهم بعد خروجهم من مصر «كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق . وليلاً في عمود نار ليضيء لهم . خروج ١٣ : ٢١» . وفي سيره أمامهم ، يقول محرر التوراة «إن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال (في نفسه) لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ، ويرجعوا إلى مصر . فأدار الله الشعب في طريق برية بحرسوف . خروج ١٣ : ١٧» .

«وفي برية سيناء تذمّر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون . وقال لهما بنو إسرائيل ؛ ليتنا متنا في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكل خبزاً للشبع . فانكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع . . فكلم الرب موسى قائلاً : سمعت تذمر بني إسرائيل . كلمهم قائلاً في العشية تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً . خروج ١٦ : ٢ - ١٢» . وظل يهوه يمطر عليهم الخبز واللحم والمنّ والسلوى ، ويفجّر لهم المياه من قلب الصخر ، أربعين سنة . يقول موسى مبيّناً فضل يهوه على الجماعة «وفي البرية رأيت كيف حملك يهوه إلٰهك كما يحمل الإنسان ابنه ، في كل الطريق التي سلكتموها . تثنية ١ : ٣١» . ويقول يهوه في دالّة على جماعته «وأنا حملتكم على أجنحة النسور ، وجئت بكم إليّ . خروج ١٩ : ٤» .

وفي رعايته لهم على أبواب الأرض يقول موسى في وصيته ليشوع «يهوه إلٰهك هو عابر قدامك . هو يبيد هؤلاء الأمم من قدامك ، فترثهم . تثنية ٣١ : ٣» . «وبعد موت موسى كلم الرب يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : كما كنت مع موسى أكون معك . لا أهملك ولا أتركك . . لا ترهب ولا ترتعد لأن يهوه إلٰهك معك حيثما تذهب . يشوع ١ : ١ - ٩» .

وبما أن غاية الشريعة الموسوية هي ربط اليهود بعضهم ببعض في فئة قتالية منظمة تنظيماً شبه عسكري يجعلها أهلاً للاستيلاء على أرض فلسطين ، والسيطرة على الشعوب سائرها ، فإن المهمة التي قصر يهوه (الرب) جهده على تحقيقها هي تمليكهم الأرض . ولذلك تجلّت رعايته لهم أكثر ما تجلت في قيادته لهم والسير أمامهم والمقاتلة عنهم . أو إرسال ملائكته لإبادة شعوب الأرض أو طردها . وقد أشرنا في فصل سابق (يهوه والأرض) إلى صور من قيادته لأتباعه ومقاتلته عنهم ، من مثل «إن ملاكي يسير أمامك . . وأرسل هيبتي أمامك . وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم . وأعطيك جميع أعدائك مدبرين . وأرسل أمامك الزنابير . خروج ٢٣ : ٢٣» . «وأطرد الأمم من قدامك ، وأوسع تخومك . خروج ٣٤ : ٢٤» .

وفي سفر التثنية يقول المحرر «يهوه إلٰهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم ١ : ٣٠» .

«وهو العابر أمامكم ناراً آكلة . هو يبيدهم ويذلهم ٩ : ٣» . «وهو السائر معكم لكي يحارب عنكم ٢٠ : ٤» . «وهو يبيد هؤلاء الأمم من قدامك فترثهم ٣١ : ٣» .

وفي سفر يشوع يقول الحبر المحرر إن يشوع «لم يبق شارداً ، بل حرّم كل نسمة . . لأن يهوه إله إسرائيل حارب عن إسرائيل ١٠ : ٤» . وسيبقى «هو المحارب عنكم كما كلمكم ٢٣ : ١٠» . ولهذا السبب ، يقول محرر سفر القضاة ، ضرب جدعون بثلاثمائة من أتباعه «المديانيين والعمالقة وكل بني المشرق الذين كانوا حالّين في الوادي كالجراد في الكثرة . . لأن الرب جعل سيف كل واحد منهم بصاحبه ٧ : ١٢ و٢٢» .

وحين «كان الفلسطينيون متسلّطين على إسرائيل . قضاة ١٤ : ٤» . «حلّ روح الرب على شمشون الموثق بحبلين جديدين . . فانحل الوثاق عن يديه ، ووجد لحي حمار طرياً ، فمد يده ، وأخذه وضرب به ألف رجل . . ثم شق الله اللحي فخرج منه ماء ، فشرب . قضاة ١٥ : ١٤ ـ ١٩» . «فلما سمع بنو إسرائيل خافوا من الفلسطينيين ، وقالوا لسموئيل : لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى يهوه إلهنا ، فيخلّصنا من يد الفلسطينيين . . فصرخ سموئيل إلى يهوه من أجل إسرائيل ، فاستجاب له يهوه . وبينما كان سموئيل يصعد المحرقة تقدم الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل ، فأرعد يهوه (الرب) بصوت عظيم في ذلك اليوم على الفلسطينيين ، وأزعجهم ، فانكسروا أمام إسرائيل . سموئيل الأول ٧ : ٧ ـ ١٠» .

«وسمع الفلسطينيون أن داود قد مُسح ملكاً على إسرائيل . فصعد الفلسطينيون ليفتشوا على داود . . فسأل داود من يهوه (الرب) قائلاً : أأصعد على الفلسطينيين فتدفعهم إلى يدي ؟ . فقال له يهوه : اصعد ، فأدفعهم ليدك .

ثم عاد الفلسطينيون وانتشروا في الوادي . فسأل أيضاً داود من الرب . فقال له الرب : لا تصعد وراءهم . تحوّل عنهم وهلمّ عليهم مقابل أشجار البكا . فاخرج حينئذ للحرب لأن الرب يخرج أمامك لضرب محلة الفلسطينيين . ففعل داود كما أمره الرب ، وضربوا محلة الفلسطينيين . أخبار الأيام الأول ١٤ : ٨ ـ ١٦» .

وحين «أتى سنحاريب ملك أشور ، ودخل يهوذا . . صلّى حزقيا الملك واشعيا بن آموص النبي . . فأرسل يهوه (الرب) ملاكاً ، فأباد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملك اشور . أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ١ و ٢١» . «وضرب من جيش أشور مائة وخمسة وثمانين ألفاً . اشعيا ٣٧ : ٣٦» .

وفي أحد مواقف الصراع ، وهي كثيرة ، بين ملوك إسرائيل ويهوذا وبين كهنتهم وأنبيائهم ، «قال ايليا التشبي من مستوطني جلعاد ، لآخاب بن عمري ملك إسرائيل : حي هو يهوه إله إسرائيل . . أنه لا يكون طلّ ولا مطر في هذه السنين إلاّ عند قولي» . فغضب عليه آخاب . فهرب ايليا من وجهه واختبأ عند نهر كريث (ملوك أول ١٧ : ١ ـ ٣) . وبما أن الله

يرعى شؤونه «أمر الغربان أن تعوله هناك» . فراحت «الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساء . ملوك أول ١٧ : ٤ ـ ٦» .

وحين هرب النبي ايليا من وجه ايزابل زوجة آخاب ، «أتى إلى بئر سبع . . واضطجع ونام تحت الرتمة . وإذا بملاك قد مسّه وقال : قُم وكل . فتطلع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه . فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع . ملوك أول ١٩ : ٣ ـ ٥» .

والمواقف أو المناسبات المعبّرة عن رعاية الله لهم كثيرة . ولعل أبلغ الصور تعبيراً عنها ما نجده عند اشعيا النبي . يقول مثلاً مخاطباً يهوذا «هوذا إلهك . . كراع يرعى قطيعه . بذراعه يجمع الحملان ، وفي حضنه يحملها ، ويقود المرضعات . اشعيا ٤٠ : ١١» .

ويقول يهوه مخاطباً إسرائيل «وأما أنت يا إسرائيل عبدي ، اخترتك ولم أرفضك . لا تخف لأني معك . . قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري . اشعيا ٤١ : ٨ ـ ١٠» . «هكذا يقول الرب ، خالقك يا يعقوب وجابلك يا إسرائيل . لا تخف لأني فديتك . . إذا اجتزت في المياه فأنا معك . وفي الأنهار فلا تغمرك . إذا مشيت في النار فلا تلذع . واللهيب لا يحرقك لأني أنا يهوه إلهك قدوس مخلّصك . اشعيا ٤٣ : ١ ـ ٣» . ويقول أيضاً «اسمعوا لي يا بيت يعقوب وكل بقية بيت إسرائيل ، المحمّلين عليّ من البطن ، المحمولين من الرحم ، وإلى الشيخوخة . أنا هو ، وإلى الشيبة أنا أحمل . اشعيا ٤٦ : ٣» .

«وقالت صهيون قد تركني الرب . وسيدي نسيني . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها ؟ حتى هؤلاء ينسين ، وأنا لا أنساك . هوذا على كفّي نقشتك . اشعيا ٤٩ : ١٤» .

وبلسان النبي هوشع يقول يهوه (الرب) «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته . ومن مصر دعوت ابني . . وأنا درّجت افرايم ممسكاً إياهم بأذرعهم . . كنت أجذبهم بربط المحبة . وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم . هوشع ١١ : ١ ـ ٤» .

ومقابل هذه الرعاية التي يسبغها يهوه على أتباعه ـ بني إسرائيل ، والحماية التي يخصّهم بها ، يقدّم له أتباعه الذبائح والقرابين كنوع من التعويض أو المنفعة المتبادلة . يقول موسى «ويكون متى أدخلك يهوه أرض الكنعانيين كما حلف لك ولآبائك ، وأعطاك إياها ، أنك تقدم للرب كل فاتح رحم وكل بكر من نتاج البهائم التي تكون لك . الذكور للرب . ولكن كل بكر حمار تفديه بشاة . وكل بكر إنسان من أولادك تفديه . خروج ١٣ : ١١ ـ ١٣» . «ومتى عبرتم الأردن وسكنتم الأرض التي يقسمها لكم يهوه إلهكم . وأراحكم من جميع أعدائكم . . فالمكان الذي يختاره يهوه إلهكم ليحل اسمه فيه ، تحملون إليه كل ما أنا أوصيكم به : محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم وكل خيار نذوركم . تثنية ١٢ : ١٠» .

والواقع أن يهوه (الرب) هو الذي أوصى بقربانه ووقائده ، مفصلاً الذبائح وطرق تقديمها ، ومحدّداً الأيام التي يتم فيها الفصح والأكل والعمل والإحتفال والتقريب وغير ذلك من

طقوس ، في قوله لموسى «أوصِ بني إسرائيل وقل لهم : قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سروري تحرصون أن تقرّبوه لي في وقته . وقل لهم : هذا هو الوقود الذي تقربون للرب : خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة . الخروف الواحد تعمله صباحاً والخروف الثاني تعمله بين العشائين . وعشر الأيفة من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرض تقدمة . محرقة دائمة . هي المعمولة في جبل سيناء لرائحة سرور وقوداً للرب . وسكيبها ربع الهين للخروف الواحد . في القدس اسكب سكيب مسكر للرب . والخروف الثاني تعمله بين العشائين كتقدمة الصباح ، وكسكيبه تعمله وقود رائحة سرور للرب .

وفي يوم السبت خروفان حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمة مع سكيبه ، محرقة كل سبت فضلاً عن المحرقة الدائمة وسكيبها .

وفي رؤوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ابني بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل ثور. وعشرين من دقيق ملتوت بزيت تقدمة للكبشِ الواحد . وعشراً واحداً من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل خروف محرقة رائحة سرور وقوداً للرب . وسكائبهن تكون نصف الهين للثور وثلث الهين للكبش وربع الهين للخروف من خمر . هذه محرقة كل شهر من أشهر السنة . وتيساً واحداً من المعز ذبيحة خطية للرب . فضلاً عن المحرقة الدائمة يقرّب مع سكيبه . عدد ٢٨ : ١ ـ ١٥» .

هذابعض من فصل . والفصول التي أفردها محرر التوراة للحديث عن الذبائح والقرابين طويلة ومملّة . خذ مثلاً بعض ما ذكره المحرر في الفصل التالي (عدد ٢٩) «وفي الشهر السابع في الأول من الشهر يكون لكم محفل مقدس . عملاً ما من الشغل لا تعملوا . يوم هتاف بوق يكون لكم . وتعملون محرقة لرائحة سرور للرب ثوراً واحداً ابن بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة. وتقدمتهن من دقيق ملتوت بزيت ثلاث أعشار للثور وعشرين للكبش ، وعشراً واحداً لكل خروف من السبعة الخراف . وتيساً واحداً من المعز ذبيحة خطية للتكفير عنكم . فضلاً عن محرقة الشهر وتقدمتها والمحرقة الدائمة وتقدمتها مع سكائبهن كعادتهن رائحة سرور وقوداً للرب» .

وهذا الكلام يردّده المحرر لليوم الثاني ولليوم الثالث ، والرابع والخامس والسادس والسابع «وفي اليوم الثامن يكون لكم اعتكاف . عملاً ما من الشغل لا تعملوا . وتقرّبون محرقة وقوداً رائحة سرور للرب ثوراً واحداً وكبشا واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة . وتقدمتهن وسكائبهن للثور والكبش والخراف حسب عددهن كالعادة . وتيساً واحداً لذبيحة خطية فضلاً عن المحرقة الدائمة وتقدمتها وسكيبها» .

وينهي المحرر الفصل بقوله «هذه تقربونها للرب في مواسمكم فضلاً عن نذوركم ونوافلكم من محرقاتكم وتقدماتكم وسكائبكم وذبائح سلامتكم . فكلم موسى بني إسرائيل

حسب كل ما أمر به الرب موسى» .

وقد أفرد محرر التوراة الأسفار والفصول الطوال للحديث عن ذبيحة السلامة وذبيحة الخطية وذبيحة الإثم . وعن شرائع تقديمها من مثل شريعة المحرقة وشريعة التقدمة . وأعتقد أن ما اقتبسناه كافٍ لإلقاء بقعة من الضوء على فرادة هذه الشرائع . والواقع أن القارىء ، مهما يكن له من عمق الإيمان وسذاجة التفكير ورحابة الصدر ، لا يقوى على الإستمرار في قراءة هذه النصوص المقدسة دون أن يطفر من صدره التعب والسأم والملل .

والملاحظ أن يهوه (الكهنة) ظل حتى الأسفار الأخيرة في التوراة ، طلوباً للذبائح والقرابين والعشور ، وغير ذلك من التقدمات . وهو يعد أتباعه في حال تقديمها له ، بتعويضهم عنها أضعافاً مضاعفة . يقول «هاتواجميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام ، وجربوني . بهذا قال رب الجنود ، إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات ، وأفيض عليكم بركة حتى لا توسَع . سفر ملاخي ٣ : ١٠» .

وخلاصة القول إن الكهنة أرادوا ليهوه أن يظل مدلّهاً بحب أتباعه ، ساعياً وراءهم ، متوسلاً إليهم أن يرضوا عنه ، وأن يقبلوه إلٰهاً . ويقبلوا بالتالي كهنته كرؤساء روحيين ودنيويين .

والصورة التي تبقى في ذاكرتك عنه أنه أبداً راكض وراء الجماعة ، في محاولة لنيل قبولها له ، وبالتالي عبادته وتقديم القرابين له . ومن الطبيعي أن قبول الجماعة (الشعب) له يعني قبولها لمخططات الكهنة . وبالتالي فإن القرابين المقدمة له هي في نهاية المطاف إلى الكهنة .

يعمل لخيرهم وحدهم

وبحكم اختياره لهم ، وإرتباطه الوثيق بهم ، يسكن بينهم . يقول يهوه «واسكن في وسط إسرائيل ، وأكون لهم إلٰهاً . خروج ٢٩ : ٤٥» . وهو يعمل لخيرهم وحدهم . أو قل ليس من غرض أو قصد ليهوه إلاَّ (الشعب) الذي اختير من بين الشعوب جميعها ليكون محط عطفه وموضع رعايته . ولذلك فهو لا يعمل شيئاً لغير صالحهم . ولا يلتفت إلاَّ لتحقيق طموحات كهنتهم : «الخير العظيم لبيت إسرائيل ، الذي كافأهم به حسب مراحمه وحسب كثرة إحساناته . وقد قال حقاً إنهم شعبي . اشعيا ٦٣ : ٧» .

والطريف أو المؤسف أن عمل الخير لاتباعه لا يتم إلاَّ بإلحاق الأذى والشر بالشعوب الأخرى . يقول موسى في «تسبيحة للرب» : «الرب رجل الحرب . . مركبات فرعون وجيشه ألقاهما في البحر . . ترسل سخطك فيأكلهم كالقش . . تمد يمينك فتبتلعهم الأرض . ترشد برأفتك الشعب الذي فديته . تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك . يسمع الشعوب فيرتعدون . تأخذ الرعدة سكان فلسطين . حينئذ يندهش أمراء ادوم . أقوياء مؤاب تأخذهم الرجفة . يذوب جميع سكان كنعان . تقع عليهم الهيبة والرعب . بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر ، حتى يعبر

شعبك يا رب . حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته . خروج ١٥» . ويقول المحرر في سفر التثنية (٦ : ١٠) إن يهوه آت بإسرائيل «إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها . وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها . وآبار محفورة لم تحفرها . وكروم وزيتون لم تغرسها» . ويقول يهوه في دالّة على أتباعه «وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها . ومدناً لم تبنوها ، وتسكنون بها . ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون . يشوع ٢٤ : ١٣» .

أما هم «فلا يبنون وآخر يسكن . ولا يغرسون وآخر يأكل . . ولا يتعبون باطلاً . اشعيا ٦٥ : ٢٢» .

ويهوه يضرب الشعوب ويهلك الأمم . وفي الوقت ذاته يفيض على جماعته روح النعمة . يقول بلسان النبي زكريا (١٢ : ٤ - ١٠) «في ذلك اليوم يقول يهوه ، أضرب كل فرس بالحيرة ، وراكبه بالجنون . وأفتح عيني على بيت يهوذا . وأضرب كل خيل الشعوب بالعمى . في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب ، وكمشعل نار بين الحزم ، فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار . . ويخلّص الرب خيام يهوذا . . ويكون في ذلك اليوم أني التمس هلاك كل الأمم الآتين على أورشليم . وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة» .

ويهوه يميّز أتباعه ، أو بالأحرى أراد له أتباعه أن يميزهم عن الشعوب سائرها ، تعبيراً عن عنصريتهم العرقية وغرورهم القومي . ولذلك يطلب موسى إلى يهوه أن «نمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . خروج ٣٣ : ١٦» . فيرد عليه يهوه بقوله «أنا يهوه إلٰهكم الذي ميزتكم من الشعوب . لاويين ٢٠ :٢٤» . وفي الآية التالية مباشرة يؤكد يهوه حكمه أو قراره ، بقوله «وقد ميّزتكم من الشعوب لتكونوا لي . لاويين ٢٠ : ٢٦» .

ويهوه أراد ، أو بالأحرى أرادوا له ، أن يجعلهم أسياد البشرية . يقول يهوه (الرب) بلسان صاحب المزامير (٢ : ٨) «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك ، وأقاصي الأرض ملكاً لك . تحطّمهم بقضيب من حديد . ومثل إناء خزّاف تكسّرهم» . ويقول اشعيا بلسان يهوه «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوه يكون ثابتاً في رأس الجبال . ويرتفع فوق التلال ، وتجري إليه كل الأمم . اشعيا ٢ : ٢» .

«وبنو الغريب يبنون أسوارك ، وملوكهم يخدمونك . . وتنفتح أبوابك دائماً . . ليؤتى إليك بغنى الأمم ، وتقاد ملوكهم . لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد ، وخراباً تخرب الأمم . اشعيا ٦٠ : ٢ - ١٢» .

«هكذا قال يهوه : تعب مصر وتجارة كوش ، والسبئيون ذوو القامة إليك يعبرون ، ولك يكونون وخلفك يمشون . بالقيود يمرون ولك يسجدون . اشعيا ٤٥ : ١٤» .

«ويقف الأجانب ويرعون غنمكم . ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أما أنتم فتدعون كهنة الرب . تأكلون ثروة الأمم ، وعلى مجدهم تتأمرون . اشعيا ٦١ : ٥» .

يبدو يهوه في هذه النصوص وكأنهاستخلف اليهود في الأرض . وأورثهم أقطارها وشعوبها حقاً مقدساً مقضياً . فهو يرمي إلى تقويض النظم السياسية للمجتمع الدولي بأسره ، وإخضاعه لنير اليهود . واصطناع شعوبه رقيقاً منكر الإنسانية مغموط الحقوق .

والصورة العامة في هذه النصوص وأمثالها : اليهود في علٍ ، يتربعون على عرش السيادة ، وفي يدهم صولجان الحكم . ومن دونهم البشر قاطبة عبيد يتردّون في المواطىء الدنيا من الحضيض ، يعنون لهم الهام ، قد استرقتهم التعاليم اليهودية وقفاً على خدمة اليهود ـ شعب الله المختار .

يصفح عن شرورهم ومنكراتهم

ويهوه يغفر لهم ما يقترفونه من آثام . ويضرب صفحاً عما يأتونه من قبيح المنكرات وشنيع الموبقات . أو بالأحرى ، أرادوا له أن يصفح عن ذنوبهم وأن يغض الطرف عن فسادهم وشرورهم . وإذا عرّضهم للأذى فعلى سبيل التأديب ، إذ لا يلبث أن يندم على فعلته ، ويعود إلى انقاذهم ، والسير بهم ومعهم .

والملاحظ أن أنبياءهم جميعاً نقلوا صوراً من فسادهم وشرورهم ومنكراتهم . والآيات التي أفردوها لنقل هذه المذمّات في نفوسهم ، والممارسات في حياتهم ، تشغل جانباً مهماً من كتابهم المقدس . خذ مثلاً نماذج مما نقله أشعيا . يقول «أيديكم تنجّست بالدم وأصابعكم بالإثم . شفاهكم تكلمت بالكذب ، ولسانكم يلهج بالشر . ليس من يدعو بالعدل . وليس من يحاكم بالحق . يتكلون على الباطل ، ويتكلمون بالكذب . قد حبلوا بتعب وولدوا إثماً . فقّسوا بيض أفعى ، ونسجوا خيوط العنكبوت . الآكل من بيضهم يموت ، والتي تُكسر تُخرِج أفعى . . أعمالهم أعمال إثم ، وفعل الظلم في أيديهم . أرجلهم إلى الشر تجري ، وتسرع إلى سفك الدم الذكي . أفكارهم أفكار إثم . في طرقهم اغتصاب وسحق . طريق السلام لم يعرفوه . وليس في مسالكهم عدل . جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة ، وكل من يسير فيها لا يعرف سلاماً .

تكلمنا بالظلم والمعصية . حبلنا ولهجنا من القلب بكلام الكذب . وقد ارتدالحق إلى الوراء . والعدل يقف بعيداً . لأن الصدق سقط في الشارع . والإستقامة لا تستطيع الدخول . اشعيا ٥٩» .

ويقول اشعيا (٣ : ١٤) «وأنتم قد أكلتم الكرم . وسلب البائس في بيوتكم» . «يا بني الساحرة . نسل الفاسق والزانية . . أنتم أولاد المعصية . نسل الكذب . المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء . اشعيا ٥٧ : ٣» .

ويتحدث اشعيا عن «الشعب الثقيل الإثم ، نسل فاعلي الشر ، أولاد مفسدين . . إنكم تزدادون زيغاناً . أيديكم ملآنة دماً . . رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص . كل واحد منهم

يحب الرشوة . لا يقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم . اشعيا ١ : ٤ ـ ٢٣» .

ومثلاً آخر من صور الفساد التي نقلها ارميا : «كخزي السارق إذا وجد ، هكذا خزي بيت إسرائيل هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم . ارميا ٢ : ٢٦» . «هم حكماء في عمل الشر . ولعمل الصالح ما يفهمون . ارميا ٤ : ٢٢» . «طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا وفتّشوا في ساحاتها ، هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل ؟ . .

لما أشبعتهم زنوا ، وفي بيت زانية تزاحموا . صاروا حصناً معلوفة سائبة . صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه . . في شعبي أشرار يرصدون كمنحن من القانصين . ينصبون أشراكاً يمسكون الناس . مثل قفص ملآن طيوراً ، هكذا بيوتهم ملآنة مكراً . . تجاوزوا في أمور الشر . لم يقضوا في الدعوى ، دعوى اليتيم . وبحق المساكين لم يقضوا . . الأنبياء يتنبأون بالكذب ، والكهنة تحكم على أيديهم . ارميا ٥» . «ومن النبي إلى الكاهن ، كل واحد يعمل بالكذب . . كلهم عصاة متمردون ساعون في الوشاية . . كلهم مفسدون . ارميا ٦ : ١٣ و ١٨» . «تسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً . ارميا ٧ : ٩» . «كيف تقولون نحن حكماء ، وشريعة الرب معنا . حقاً إنه إلى الكذب حوّلها قلم الكتبة الكاذب . . من النبي إلى الكاهن ، كل واحد يعمل بالكذب. ارميا ٨ : ٨» . «زناة جماعة خائنين . يمدّون ألسنتهم كقسيّهم للكذب . . كل صاحب يسعى في الوشاية . ويختل الإنسان صاحبه ، ولا يتكلمون بالحق . وعلموا ألسنتهم التكلم بالكذب . وتعبوا في الإفتراء . . لسانهم سهم قتّال يتكلم بالغش . بفمه يكلم صاحبه بسلام ، وفي قلبه يضع له كميناً . ارميا ٩ : ٢ ـ ٨» . «فأنا أيضاً ، يقول الرب ، أرفع ذيليك على وجهك فيُرى خزيك . فسقك وصهيلك ورذالة زناك على الآكام . في الحقل قد رأيت مكرهاتك . ارميا ١٣ : ٢٦» .

ويضيف ارميا «فقال الرب لي : بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي . لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم . برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم ، هم يتنبأون لكم . ارميا ١٤ : ١٤» . «وقد رأيت في أنبياء السامرة حماقة . . يفسقون ويسلكون بالكذب ويشدّدون أيادي فاعلي الشر . ارميا ٢٣ : ١٣» .

ومن صور الفساد التي نقلها حزق ايل النبي قوله مثلاً «هوذا رؤساء إسرائيل ، كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك لأجل سفك الدم . فيك أهانوا أباً وأماً . في وسطك عاملوا الغريب بالظلم . فيك اضطهدوا اليتيم والأرملة . . في وسطك عملوا رذيلة . فيك كشف الإنسان عورة أبيه . إنسان فعل الرجس بامرأة قريبة . إنسان نجّس كنته برذيلة . إنسان أذل فيك أخته بنت أبيه . فيك أخذوا الرشوة لسفك الدم .

فتنة أنبيائها في وسطها كأسد مزمجر يخطف الفريسة . أكلوا نفوساً . أخذوا الكنز والنفيس . أكثروا أراملها في وسطها . . رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطفة خطفاً لسفك

الدم . . وأنبياؤها قد طيّنوا لهم بالطفال رائين باطلاً ، وعارفين لهم كذباً . حزق ايل ٢٢» .

ونقل النبي هوشع كثيراً من صور الفساد ، نذكر منها قوله : «لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق . هوشع ٤ : ٢» . «وكما يكمن لصوص لإنسان ، كذلك زمرة الكهنة في الطريق يقتلون نحو شكيم . إنهم قد صنعوا فاحشة . هوشع ٦ : ٩» . «قد حرثتم النفاق ، حصدتم الإثم . أكلتم ثمر الكذب . هوشع ١٠ : ١٣» .

ومن الصور التي نقلها عاموس قوله «يخزنون الظلم والإغتصاب في قصورهم . عاموس ٣ : ١٠» . وفي إسرائيل يقول «الظالمة المساكين الساحقة البائسين . عاموس ٤» .

ويخاطب ميخا النبي «رؤساء يعقوب وقضاة بيت إسرائيل ، قائلاً : أليس لكم أن تعرفوا الحق ؟ . المبغضين الخير والمحبين الشر . . اسمعوا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم . الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم . رؤساؤها يقضون بالرشوة ، وكهنتها يعلمون بالأجرة . وأنبياؤها يعرفون بالفضة . ميخا ٣ : ١ ـ ١١» . ويقول«إن أغنياءها ملآنون ظلماً ، وسكانها يتكلمون بالكذب ، ولسانهم في فمهم غاش . ميخا ٦ : ١٢» .

وبعد ، فهذه نماذج من الموبقات التي تردّى فيها بنو إسرائيل فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين . ورغم كل هذه المخازي التي يندى لها الجبين ذلاً أو خجلاً ، فإن يهوه لم يتركهم . وظل مهرولاً وراءهم . أو قل إن الكهنة أرادوا له ذلك ، لأن الغاية هي جمعهم في بوتقة قومية واحدة . يقول يهوه بلسان النبي اشعيا «أنا أنا هو الماحي ذنوبك . وخطاياك لا أذكرها . اشعيا ٤٣ : ٢٥» . «يا إسرائيل لا تُنس مني . قد محوت كغيم ذنوبك . وكسحابة خطاياك . . الرب فدى يعقوب ، وفي إسرائيل تمجّد . الرب فاديك وجابلك من البطن . اشعيا ٤٤ : ٢١ ـ ٢٤» .

ويعبّر ارميا عن «رحمة الرب لشعبه مع شرورهم الباهظة» ، قائلاً بلسان يهوه «إذا طلق رجل امرأته ، فانطلقت من عنده ، وصارت لرجل آخر . فهل يرجع إليها بعد ؟ . ألا تتنجّس تلك الأرض نجاسة ؟ . أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين . لكن ارجعي إليّ يقول الرب . ارفعي عينيك إلى الهضاب ، وانظري أين لم تضاجعي . في الطرقات جلست لهم كاعرابي في البرية ، ونجست الأرض بزناك وبشرّك . . وجبهة امرأة زانية كانت لك» .

ويضيف ارميا «وقال الرب لي : هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل ؟ . انطلقت إلى كل جبل عالٍ وإلى كل شجرة خضراء. زنت هناك . فقلت بعدما فعلت كل هذه : ارجعي إليّ . . ارجعي أيتها العاصية إسرائيل يقول الرب ٣ : ١ ـ ١٢» .

ويقول يهوه بلسان ارميا «هانذا أطهّرهم من كل اثمهم الذي اخطأوا به إليّ . واغفر كل ذنوبهم التي اخطأوا بها إليّ ، والتي عصوا بها علي . ارميا ٣٣ : ٨» .

التشخيص والصفات الملازمة له

لم يكن الإلٰه في مفهومهم حقيقة مثالية ، تحاول الذات الإسرائيلية وعيها أو التطلّع بتهجّد إليها . وإنما كان في أذهانهم حقيقة شبه ذاتية ، يمكن للذات الإسرائيلية إدراكها أو الإحاطة بها . ومن هنا حفلت التوراة بصفات شخصانية للإلٰه ، وإن كانت بمعنى روحاني ، تجريدي ، لأن يهوه بمفهومهم إلٰه غير مرئي ، لم يجسّدوه في أنصاب وتماثيل ، أو قل لم يرمزوا له بأية منحوتات . فحين كان آدم وحواء في الجنة «سمعا صوت الرب ماشياً في الجنة . تكوين ٣ : ٨» . وحين «انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . . صنع الرب لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما . تكوين ٣ : ٧ و ٢١» .

«ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب له . . وتكلم معه . . ولما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم . تكوين ١٧ : ١ و ٢٢» .

«وحين جاء يعقوب من فدان ارام ، ظهر الله له أيضاً وباركه . . ثم صعد الله عنه في المكان الذي فيه تكلم معه . تكوين ٣٥ : ٩ و ١٣» .

وحين «نادى الله موسى من وسط العليقة . . غطّى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . خروج ٢ : ٤ و ٦» .

والواقع أن النصوص التي تتضمن صفات شخصانية للإلٰه كثيرة . نقتبس مثلاً بعض ما دونه منها الحبر المحرر في سفر الخروج . قال «ثم صعد موسى وهارون وسبعون من شيوخ إسرائيل ، ورأوا إلٰه إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف كذات السماء في النقاوة . ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل . فرأوا الله وأكلوا وشربوا ٢٤ : ٩» .

«وقال الله لموسى : اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم ٢٤ : ١٢» .

«ثم أعطى الله موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء ، لوحي الشهادة . لوحي حجر مكتوبين باصبع الله ٣١ : ١٨» . «واللوحان هما صنعة الله . والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين ٣٢ : ١٦» .

وحين كان موسى يدخل خيمة الإجتماع «كان عمودالسحاب ينزل ويقف عند باب الخيمة . . ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه . ٣٣ : ٩ ـ ١١» .

وفي أحد اللقاءات ، وهي كثيرة ، بين يهوه وبين موسى «قال موسى للرب : أرني مجدك . . فقال الرب : لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش . وقال الرب هوذا عندي مكان : تقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة

وأسترك بيدي حتى اجتاز . ثم أرفع يدي فتنظر ورائي ، وأما وجهي فلا يُرى . خروج ٣٣» .

وحين «جمع موسى سبعين رجلاً من شيوخ الشعب وأوقفهم حوالي الخيمة ، نزل الرب في سحابة وتكلم معه ، وأخذ من الروح الذي عليه وجعل على السبعين رجلاً الشيوخ . فلما حلت عليهم الروح تنبأوا ، ولكنهم لم يزيدوا. عدد ١١ : ٢٤» .

وحين تكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها . . نزل الرب في عمود سحاب ووقف في باب الخيمة . . وقال . . إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا استعلن له ، في الحلم أكلمه . . أما عبدي موسى فهو أمين في كل بيتي . فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه ، لا بالألغاز . عدد ١٢ : ٤ ـ ٨» . ولذلك يقول المحرر «لم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه . تثنية ٣٤ : ١٠» .

وحين تسلّط المديانيون على بني إسرائيل «عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال والمغاير والحصون . وذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين . . فأتى ملاك الرب وجلس تحت البطمة التي في عفرة . . وظهر ملاك الرب لجدعون ، وقال له : الرب معك يا جبار البأس . فقال له جدعون : أسألك يا سيدي : إذا كان الرب معنا ، فلماذا أصابتنا كل هذه (البلايا) ؟ . . فالتفت إليه الرب وقال : اذهب بقوتك هذه وخلّص إسرائيل من كف مديان . . فقال جدعون : إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فاصنع لي علامة أنك أنت تكلمني . لا تبرح من ههنا حتى آتي إليك وأخرج تقدمتي وأضعها أمامك . فقال إني أبقى حتى ترجع . فدخل جدعون وعمل جدي معزى وأيفة دقيق فطيراً . . فمد ملاك الرب طرف العكاز الذي بيده ومسّ اللحم والفطير . فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير . قضاة ٦ : ١ ـ ٢١» .

وفي التوراة نصوص كثيرة تظهر الإله متجسداً في هيئة رجل . من ذلك مثلاً أن ابرام حين «كان جالساً في باب الخيمة عند بلوطات ممرا . . رفع عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه (الله وملاكان) . . ثم انصرف الرجلان من هناك . . وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب . . وعندما فرغ الرب من الكلام مع إبراهيم . . ذهب . . ورجع إبراهيم إلى مكانه . تكوين ١٨» .

وفي ما كان يعقوب في طريقه من فدان ارام (في الشمال السوري) إلى أرض فلسطين (في جنوبي سوريا) لقي يهوه (الرب) سائراً في الطريق . فصارعه ، وكان كفؤاً له حتى أنه أوشك أن يظهر عليه ، لولا أن الرب انتهك قواعد المصارعة وضرب يعقوب على حق فخذه . يقول المحرر «وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه» . وانتهى الأمر بأن «باركه الرب هناك» ، وطلب إليه تغيير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل تذكرة بمجاهدته مع الله . «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ، قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه . تكوين ٣٢ : ٢٤ ـ ٣٠» .

وظلت السمات الشخصانية تخلع على الإله حتى الأسفار الأخيرة . يقول اشعيا (٦ : ١ ـ

٥) «في سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد (أدون) جالساً على كرسي عال ومرتفع ، وأذياله تملأ الهيكل . السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة . . وهذا نادى ذاك وقال . . قدوس قدوس قدوس رب الجنود . . فقلت ويل لي إني هلكت . . لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود» . ويقول ارميا (١ : ٩) «ومدّ الرب يده ولمس فمي ، وقال الرب لي : ها قد جعلت كلامي في فمك» . ويقول صاحب المزامير (١٨ : ٦) «صرخت إلى إلهي ، فسمع من هيكله صوتي . وصراخي قدامه دخل أذنيه» .

والملاحظ أن أبطال التوراة من أنبياء وكهنة وملوك ، أو الأحبار الذين حرروها ، لم يكن في نفوسهم وعي أخلاقي قادر على السمو بالخالق وتنزيهه عن التشخيص ، والصفات الملازمة له . فلا عجب أن خلعوا عليه صفات البشر . والأدهى من ذلك أنها صفات غير لائقة أو غير مستحبة ، وأحياناً مستقبحة . فهو في مفهومهم ليس معصوماً عن الوقوع في الغلط أو ارتكاب الخطأ . من ذلك مثلاً أنه يطلب إلى أتباعه حين كانوا متغربين في مصر ، أن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم لكي لا يهلكهم خطأً مع المصريين الذين قرر إهلاكهم . قال لموسى «يكون الدم لكم علامة على البيوت التي أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم . خروج ١٢ : ١٣» . وقد نقل موسى الأمر بدوره إلى جماعته بقوله «إن الرب يجتاز ليضرب المصريين . فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين . يعبر الرب عن الباب . خروج ١٢ : ٢٣» .

وليس معصوماً عن الكذب . ولذلك نسبوا إليه نفيه عن نفسه تهمة ارتكاب هذه الجريرة . يقول «مرة حلفت بقدسي أني لا أكذب لداود . مزمور ٨٩ : ٣٥» . ويضيف «أما رحمتي فلا أنزعها عنه . ولا أكذب من جهة أمانتي . مزمور ٨٩ : ٣٣» .

وكثيراً ما حشروه في مواضع غير لائقة . فحين «تكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها . . حمي غضب الرب عليهما . . وإذا مريم برصاء كالثلج » . وحين تشفع موسى «قال الرب لموسى : ولو بصق أبوها بصقاً في وجهها . أما كانت تخجل وتحجز سبعة أيام خارج المحلة . عدد ١٢» .

وكأن الرب أو محرر شرائع الرب لم يجد من وسيلة يهدّىء فيها من ثورة غضبه غير هذا السلوك الشعبي الساذج : البصق في وجهها وحجزها خارج المحلة .

واتهموه بالخداع . يقول ارميا «آه يا سيد يهوه ، حقاً إنك خداعاً خادعت هذا الشعب وأورشليم قائلاً يكون لكم سلام . وقد بلغ السيف النفس . ارميا ٤ : ١٠» . ويقول أيضاً «قد خدعتني يا رب عن نفسي فانخدعت لأنك أقوى مني . ارميا ٢٠ : ٧» .

ورموه بالعجز عن نصرة أتباعه . يقول الحبر المحرر «وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل . ولكنه لم يقوَ على دحر سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد . قضاة ١ : ١٩» .

وبالتقصير في نجدتهم . فحين «دخل موسى وهارون ، وقالا لفرعون : هكذا يقول يهوه إله إسرائيل : أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البرية . قال فرعون : من هو يهوه حتى اسمع لقوله فأطلق إسرائيل ؟ لا أعرف يهوه ، وإسرائيل لا أطلقه . . وأمر فرعون في ذلك اليوم مسخّري الشعب ومديريه قائلاً : لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن . ليذهبوا هم ويجمعوا تبناً لأنفسهم . . فرجع موسى إلى الرب وقال : يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب ؟ . لماذا أرسلتني ؟ . فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك ، أساء إلى هذا الشعب . وأنت لم تخلّص شعبك . خروج ٥» . «ولما سمع موسى الشعب يبكون (في صحراء سيناء) بعشائرهم ، كل واحد في باب خيمته . وحمي غضب الرب جداً . ساء ذلك في عيني موسى ، فقال موسى للرب : لماذا أسأت إلى عبدك ؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك ، حتى إنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ ؟ . ألعلّي حبلت بجميع هذا الشعب ، أو لعلي ولدته ، حتى تقول لي احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع ؟ . من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب ، لأنهم يبكون عليّ قائلين : أعطنا لحماً لنأكل . . فقال الرب لموسى . . تقول للشعب تقدسوا للغد فتأكلوا لحماً . . تأكلون لا يوماً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً ، بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم . فقال موسى : ست مائة ألف ماش هو الشعب ، وأنت قلت أعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمان . أيذبح لهم غنم وبقر ليكفيهم ، أم يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم ؟ . فقال الرب لموسى : هل تقصر يد الرب ؟ . الآن ترى أيوافيك كلامي أم لا ؟. عدد ١١ : ١٠ ـ٢٣» . وظلوا حتى الأسفار الأخيرة يرمونه بالتقصير . يقول ارميا (١٤ : ٩) «لماذا تكون كإنسان قد تحيّر ، كجبّار لا يستطيع أن يخلّص ؟» .

وتهمة الإساءة إلى موسى أو إلى الجماعة التي رماه بها موسى ، رماه بها أكثر من نبي . فعندما مات ابن المرأة التي كانت تعول ايليا النبي «صرخ ايليا إلى يهوه (الرب) وقال أيها الرب إلهي : أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟» .

وبما أن العلاقة ذاتية بين يهوه (الرب) وبين بني إسرائيل ، فإن يهوه (الرب) لم يتأذ من التهمة (الإساءة) التي رماه بها ايليا . وعلى النقيض من ذلك ، سرعان ما استجاب لطلب ايليا . فما إن «تمدّد ايليا على الولد ثلاث مرّات ، وصرخ إلى الرب : لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه» حتى «سمع الرب لصوت ايليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه، فعاش. ملوك أول١٧» .

ومن الصفات غير اللائقة التي نسبوها إلى الإله في فصل واحد ، أو قل في مقطع من فصل : الغضب ، الخبث ، والندم . والمدهش أن محرري التوراة نسبوا إلى موسى مخاطبته للرب ، تسكيناً له على غضبه ، بأسلوب من اللوم والتأنيب ، دفع يهوه (الرب) إلى التراجع عن القرار الذي اتخذه . والندم على الشر الذي نوى أن يفعله بشعبه . فحين «أبطأ موسى في النزول من الجبل (حيث كان مجتمعاً بالرب) ، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع

لنا آلهة تسير أمامنا . . فصنع لهم هارون عجلاً مسبوكاً . . فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك . . صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له . وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . . فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم . . فتضرّع موسى أمام يهوه إلهه وقال لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر ؟ . لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال . ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك . . فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه. خروج ٣٢».

وهذه المناسبة لم تكن الوحيدة التي ندم فيها الرب على ما كان موشكاً أن ينزله ببني إسرائيل بدافع الغضب . فما أكثر المناسبات التي انطلق فيها رب بني إسرائيل مندفعاً في غضبه ، ثم تراجع متجلبياً في ندمه . من ذلك مثلاً أنه في أُخريات أيام داود «حمي غضب الرب على إسرائيل . . فجعل وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد . فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل . وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها . فندم الرب على الشر وقال للملاك المهلك الشعب : كفى . سموئيل الثاني ٢٤» .

وحين بدأ الصراع بين الكهنة وبين الملوك «كان كلام الرب إلى سموئيل قائلاً : ندمت على أني جعلت شاول ملكاً . سفر سموئيل الأول ١٥ : ١٠» .

ومواقف الندم التي حشره فيها محررو التوراة كثيرة . ولذلك فهو يعترف بنبرة شكوى إلى نبيّه ارميا (١٥ : ٦) : كفى «مللت من الندامة» .

ومن الصفات الشاذة أو المستنكرة التي نسبوها إلى إلههم يهوه ، قيامه بدور سلبي يتمثل ببعث الإضطراب والخلل . من ذلك مثلاً اتهامه بإعطائهم شرائع فاسدة عن عمد . وبفرضه عليهم أحكاماً سيئة بغية إيذائهم والتنكيل بهم . يقول يهوه بلسان حزق ايل (٢٠ : ١٣) «وأعطيتهم أيضاً فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها . ونجّستهم بعطاياهم ، إذ أجازوا في النار كل فاتح رحم لأبيدهم ، حتى يعلموا أني أنا الرب» . وهذا يعني أنه أنزل عليهم هذه الشريعة الفاسدة عن عمد . وفرض عليهم التضحية بأفلاذ أكبادهم بغية إيذائهم والتنكيل بهم ، ليعلموا أنه هو الرب .

كما نسبوا إليه ممارسات بشرية مبتذلة ، يأنف منها الإنسان العادي . من ذلك مثلاً قول المحرر «فاستيقظ الرب كنائم ، كجبّار معيط من الخمر . مزمور ٧٨ : ٦٥» . فالرب بمفهوم صاحب المزامير استيقظ من نومه محتقن العينين ، منتفخ الجفون . فبدا كجبار ظل يعاقر الخمرة حتى انهكت وعيه وهدت قواه .

يبدو يهوه (الرب) في مفهوم أتباعه إلهاً شديد الغضب ، صعب المراس . يلتهب بالغضب فيفني . ويرمي الناس بنار محرقة ، أو يشق الأرض لتبتلع الناس المخالفين لأوامره . أو يرسل

ملاكه على رأس جيش من الوباء فيهلك البشر . فهو «الضارب الشعوب بسخط ضربة بلا فتور ، المتسلّط بغضب على الأمم . اشعيا ١٤ : ٦» . «وهوذا الرب بالنار يأتي ، ومركباته كزوبعة ليرد بحمو غضبه وزجره بلهيب نار ، لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر . ويكثر قتلى الرب . اشعيا ٦٦ ؛ ١٥» . «من سخطه ترتعد الأرض . ولا تطيق الأمم غضبه . ارميا ١٠ : ١٠» . «وهوذا يوم الرب قادم قاسياً بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خراباً . اشعيا ١٣ : ٩» . «فتتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حمو غضبه. اشعيا ١٣».

ويبدو أن «يوم الرب» أتى ، كما يقول داود ، «فارتجت الأرض وارتعشت أسس السموات . ارتعدت وارتجت لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ، ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . . أرسل سهامه فشتتهم ، وبروقاً كثيرة فأزعجهم . فظهرت أعماق المياه ، وانكشفت أسس المسكونة من زجر الرب، من نسمة ريح أنفه. سموئيل الثاني ٢٢».

والملاحظ أن غضبه وسخطه شملا الشعوب ، كل الشعوب . يقول ارميا «هكذا قال لي يهوه إله إسرائيل : خذ كأس خمر هذا السخط من يدي واسق جميع الشعوب . . فيشربوا ويترنّحوا ويتجننوا من أجل السيف الذي أرسله أنا بينهم . فأخذت الكأس من يد الرب وسقيت كل الشعوب الذين أرسلني الرب إليهم . أورشليم ومدن يهوذا وملوكها ورؤساءها لجعلها خراباً ودهشاً وصفيراً ولعنة . وفرعون ملك مصر وكل شعبه . وكل اللفيف وكل ملوك أرض عوص وكل ملوك أرض فلسطين . وأدوم ومؤاب وبني عمون . وكل ملوك صور وكل ملوك صيدون . وملوك الجزائر التي عبر البحر . وددان وتيماء وبوز . وكل ملوك العرب . وكل ملوك زمري . وكل ملوك عيلام . وكل ملوك مادي . وكل ملوك الشمال القريبين والبعيدين . وكل ممالك الأرض التي على وجه الأرض . وتقول لهم : هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل : اشربوا واسكروا وتقيأوا واسقطوا ولا تقوموا من أجل السيف الذي أرسله أنا بينكم . وقل لهم : الرب من العلاء يزمجر . . إن للرب خصومة مع الشعوب . . وتكون قتلى الرب في ذلك اليوم من أقصاء الأرض إلى أقصاء الأرض . لا يُندبون ولا يُضمون ولا يُدفنون . . بادت مراعي السلام من أجل حمو غضب الرب. . صارت أرضهم خراباً من أجل الظالم، ومن أجل حمو غضبه. ارميا ٢٥».

والرب بمفهوم موسى «رجل الحرب . خروج ١٥ :٣» . ولذلك فهو «يعلّم يديّ القتال وأصابعي الحرب» كما يقول صاحب المزمور ١٤٤ : ١ . ويؤكد ذلك في المزمور ١٨ بقوله «الرب يعلم يديّ القتال ، فتحنى بذراعيّ قوس نحاس . . أتبع أعدائي فأدركهم ، ولا أرجع حتى أفنيهم . اسحقهم فلا يستطيعون القيام . يسقطون تحت رجلي . . فأسحقهم كالغبار قدام الريح . ومثل طين الأسواق أطرحهم» . «ويكسّر الرب أرز لبنان ، ويمرحها مثل عجل . لبنان وسريون مثل فرير البقر الوحشي . صوت الرب يقدح لهب نار . صوت الرب يزلزل البرية . يزلزل الرب برية قادش . مزمور ٢٩ : ٥ ـ ٨» . «يأتي إلهنا ونار قدامه تأكل . مزمور ٥٠ : ٣» . «فمن يقف قدامك حال غضبك ؟ . مزمور ٧٦ : ٧» .

وقد نسب موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، بعضاً من سمات خلقه وطباعه إلى يهوه (الرب) مثل الغضب والقسوة والإنتقام ، ما جعل «الرب ناراً آكلة . تثنية ٤ : ٢٤» . «يخرج غيظه كنار . ارميا ٤ : ٤» . تحرق الناس كما القش . ونسبوا له الإغتباط حتى الإنتشاء بالسيف يأكل لحماً ، وبالسهام تسكر بالدم . يقول يهوه (الرب) «أسكر سهامي بدم ويأكل سيفي لحماً . تثنية ٣٢ : ٤٢» . ويقول يوئيل (٣ : ١٦) «الرب من صهيون يزمجر» . ويقول اشعيا (٤٢ : ١٣) «كالجبار يخرج . كرجل حروب يُنهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» . ويضيف اشعيا (٣٠ : ٢٧) «هوذا يأتي من بعيد . غضبه مشتعل ، والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً . ولسانه كنار آكلة ، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة . . بهيجان غضب ولهيب نار آكلة . نوء وسيل وحجارة برد . نفخة الرب كنهر كبريت توقدها» . ويقول ناحوم (١ : ٢ ـ ٦) «يهوه إله غيور . الرب منتقم وذو سخط . . من يقف أمام سخطه ؟ . ومن يقوم في حمو غضبه ؟ . وغيظه ينسكب كالنار» . ويقول موسى في «تسبيحة للرب» : «ترسل سخطك فيأكلهم كالقش . وبريح أنفك تراكمت المياه . انتصبت المجاري كرابية . تجمّدت اللجج في قلب البحر . خروج ١٥ : ٧» . و«يقول السيد يهوه : إن غضبي يصعد في أنفي . وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت . حزق ايل ٣٨ : ١٨» . «هوذا بزجرتي أنشّف البحر ، أجعل الأنهار قفراً . وألبس السموات ظلاماً . اشعيا ٥٠ : ٢» . «دست شعوباً بغضبي وأسكرتهم بغيظي ، لأن يوم النقمة في قلبي . اشعيا ٦٣ : ٤» .

وحين كان الغضب يستبد به كان من الواجب تهدئته من قبل أحد المقربين إليه لكي يستبعد الشر الذي نواه . فحين صنع لهم هارون «عجلاً مسبوكاً» قال الرب لموسى «اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم» . فتوسط موسى مذكراً الرب بقسمه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب . «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه . خروج ٣٢ : ١٠ ـ ١٤» . وحين «تذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى» ، غضب الرب ، وأمر موسى وهارون بالخروج من وسط الجماعة لأنه قرر إفناءهم . فطلب موسى من أخيه هارون الذهاب بسرعة للتكفير عن الجماعة «لأن السخط قد خرج من قبل الرب» . فركض هارون بالمجمرة ، ولكن غضب يهوه كان أسرع «فابتدأ الوباء» . وكان الذين ضربهم الوباء الإنتقامي ١٤٧٠٠ فرد ، قبل أن «يقف هارون بين الموتى والأحياء ، فامتنع الوباء» . سفر العدد ١٦ : ٤١ ـ ٤٨ .

وحين كانت سورة الغضب تأخذه ، يتحوّل إلى وحش مفترس ، يقول يهوه (الرب) عن نفسه «فإني أنا افترس وأمضي . آخذ ولا منقذ . هوشع ٥ : ١٤» . ويقول عن جماعته ـ بني إسرائيل «أصدمهم كدبّة مثكل . وأشق شغاف قلبهم . وآكلهم هناك كلبوة . هوشع ١٣ : ٨» .

العلاقة الشرطيـة

وبالإضافة إلى السمات الشخصانية التي تعبّر عن مفهومهم للإله بـأنه حقيقـة شبه ذاتيـة ، يمكن للذات الإسرائيلية الوصول إليها والإحاطة بها . وإلى الصفات غير الـلائقة أو المستقبحـة التي نسبوها له من مثل سرعة الغضب والخداع والخبث والسخط والندم والغيظ والقسوة والإنتقام والإساءة وغيرها ، حفلت التوراة بمناقشات لا حصـر لها بين الإلـه وبين زعماء بني إسـرائيل من كهنة وقواد . والمناقشات بدورها حفلت بالردود المقتـرنة بـالشرطيـة وعدم التسليم من طـرف . وتوّجت من الطرف الآخر بالمعجـزات وتوثيق العهـود . فعندمـا «صار كـلام الرب إلى ابـرام في الرؤيا ، قائلاً : لا تخف يا ابرام ، أنا ترس لك» . أجابه ابرام «أيها السيد الـرب : ماذا تعـطيني وأنا ماض عقيماً ، ومالك بيتي هو ايليعازر الدمشقي» . فقال له الرب «لا يرثك هذا ، بـل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك . تكوين ١٥ : ١ ـ ٤» . فابرام لا يرضى بأن يكون الرب ترساً له . وأن يكون أجره كثيراً عند الرب . وبالمقابل يفضل أن يكون له وريث من دمه لكي لا يرثه خادمه وأمين بيتـه ايليعازر الـدمشقي . وينزل الـرب عند رغبـة ابرام ويمنحـه بدل الابن الـواحـد ابنين اثنين .

وعندما قال له «أنا الرب الذي أخرجك من اور الكلدانيين ليعطيـك هذه الأرض لتـرثها» ، لم يصدّق ابرام كلام الرب ، وطلب بيّنـة ، دليلاً ، شـاهداً على وعـد الرب : «بمـاذا أعلم أني أرثها ؟» . فما كـان من الرب إلاّ أن وثق عهـده مع ابـرام بدم ذبيحـة «عجلة ثلاثيـة وعنزة ثـلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة . تكوين ١٥ : ٧» على عادة الناس في تلك العصور : توثيق العهود بدم الأضاحي .

وحين كان يعقوب في طريقه إلى خاله لابان الأرامي في فدان ارام ، «نذر نذراً قـائلاً : إن كان الله معي ، وحفظني في الـطريق التي أنا سـائر فيهـا ، وأعطاني خبـزاً لآكل وثيـاباً لألبس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلٰهاً . تكوين ٢٨ : ٢٠» .

فيعقوب يضع على الله شروطاً ، يكون ، في حال خضوعه لها ، إلٰهاً ليعقوب . ولا حاجة للتعقيب بأن هذه العبارة تعني أن الرب ، إن لم يقبل الصفقة ، فإن يعقوب لن يقبله إلٰهاً .

ومثل هذه الشروط التي يفرضها يعقوب (إسـرائيل) على إلٰهـه ، يعطينـا فكرة عن العـلاقة التي كانت قائمة بين بني إسرائيل وبين الإله الذي فرض عبادته عليهم زعماؤهم وكهانهم .

ومـع موسى نـلاحظ الشرطيـة ، وعدم التسليم ، ومنـاقشـة الـرب في أي قـرار يتخـذه ، استنكـاراً أو ردّاً أو تعديـلاً له ، أو تسليمـاً به . ولكن بعـد توثيقـه من الطرف الآخـر ـ الله بقـطع العهـود واجتراح المعجـزات . فعنـدمـا «تـذكـر الله ميثـاقـه مـع إبـراهيم وإسحـاق ويعقـوب . خروج ٢ : ٢٤» . «ونزل لينقـذهم من أيدي المصـريين ، ويصعدهم . . إلى مكـان الكنعانيين

والحثيين والأموريين . . نادى موسى . . وقال له : هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر . فقال موسى لله : من أنا حتى أذهب إلى فرعون ، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر ؟ . فقال الله إني أكون معك . . فقال موسى لله : هـا أنا آتي إلى بني إسـرائيل وأقـول لهم : إلـه آبـائكم أرسلني إليكم . فـإذا قـالـوا لي مـا اسمـه ، فمـاذا أقـول لهم ؟ . فقـال الله لموسى : أهيه الذي أهيه . اذهب واجمع شيوخ إسـرائيل وقـل لهم : يهوه إلـه آبائكم ظهـر لي قـائـلاً إني قـد افتقـدتكم . . فقلت أصعـدكم من مـذلّـة مصـر إلى أرض الكنعــانيين والحثيين والأمـوريين . خروج ٣» . «فـأجـاب مـوسى وقـال : ولكن هـاهم لا يصـدقـونني ولا يسمعـون لقولي . بل يقولون لم يظهر لك الرب . فقال له الرب : ما هذه في يدك ؟ . فقال عصا . فقـال اطرحها إلى الأرض . فطرحها إلى الأرض فصـارت حية . . ثم قـال له الـرب : أدخل يـدك في عبك . فأدخـل موسى يـده في عبه ، ثم أخـرجها وإذا هي بـرصاء مثـل الثلج . . ويكون إذا لم يصـدقوا هـاتين الآيتين ولم يسمعوا لقـولك ، أنـك تأخـذ من ماء النهـر وتسكب على اليابسـة ، فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دمـاً على اليابسـة . فقال مـوسى للرب : استمع أيهـا السيد : لست أنا صاحب كلام . . بل أنا ثقيل الفم واللسان . . فقال لـه الرب . . اذهب وأنـا أكون مـع فمك وأعلمك ما تتكلم به . فقال موسى : استمـع أيها السيـد : أرسل بيـد من ترسـل . فحمي غضب الرب على موسى وقال : أليس هارون الـلاوي أخاك ؟ . أنـا أعلم أنه هـو يتكلم . . وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلّمكما ماذا تصنعان . وهو يكلم الشعب عنك . وهو يكون لك فماً . وأنت تكون له إلهاً . خروج ٤» .

فحين يستنكر موسى قرار الرب بإرساله إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل من مصر ، شعوراً منه بقلة شأنه وضآلة حاله ، يؤكد له الرب وقوفه إلى جانبه . وحين يـزعم موسى أن جمـاعة بني إسـرائيل لا يسمعـون له ولا يصـدقون مـا ينقله لهم من قـرارات الـرب ، بـإخـراجهم من مصـر وإدخـالهم إلى أرض الكنعـانيين والحثيين والأمـوريين . يسلّحـه الـرب بقـوة ربـانيـة لاجتــراح المعجزات . وحين يتنصّل موسى من حمل الـرسالـة التي كلفه الإلـه بإبـلاغها إلى جمـاعة بني إسرائيل ، زاعماً أنه ثقيل الفم واللسان ، وليس صاحب كلام . يطمئنه الإله بأن يكون مع فمه . ويبالغ في التأكيد فيجعل منه إلهاً ، ويجعل من أخيه هارون فماً .

وفي حـوار آخر يقـول الحبـر المحـرر إن «رؤسـاء الجمـاعـة ، مـائتين وخمسين» راحـوا «يقاومون موسى» . قالـوا «أقليل أنـك أصعدتنـا من أرض تفيض لبناً وعسـلاً لتميتنا في البـرية ، حتى تترأس علينا ترؤساً . كذلك لم تـأتِ بنا إلى أرض تفيض لبنـاً وعسلاً ، ولا أعـطيتنا نصيب حقول وكروم . . فاغتاظ موسى جداً وقـال للرب : لا تلتفت إلى تقدمتهمـا» ـ (داثان وأبيـرام) . «وكلّم الرب موسى وهارون قائلاً : افترزا من بين هذه الجماعـة فإني أفنيهم في لحـظة . . فقام موسى . . وكلّم الجماعة قائلاً : اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة» . وأضاف موسى «إن مات هؤلاء القـوم كموت كـل إنسان . . فليس الـرب قـد أرسلني . ولكن إن ابتـدع الـرب بـدعـة .

وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية ، تعلمـون أن هؤلاء القوم قد ازدروا الرب» .

وكان من الطبيعي أن يستجيب يهوه (الرب) لطلب موسى . ومـا لبث أن «انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فـاهـا وابتلعتهم وبيـوتهم . . فنـزلـوا وكـل مـا كـان لهم أحيـاء إلى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ـ عدد ١٦ : ١٣ ـ ٣٢» .

والتوراة غاصة بمناقشات كثيرة وطـويلة بين يهوه (الـرب) وبين قوّاد بني إسـرائيل وكهنتهم وأنبيائهم . وليت الذي وضع هذه المناقشات فطن إلى الإحتفاظ لها بما ينبغي أن تكون عليه من سمو ووقار . ولكنه أجراهـا على مستوى من السخف والتفـاهة لا يكـون إلاّ بين الأنداد الحمقى من الناس . وقد وصل الأسفاف في المناقشات أحياناً إلى حـد جعلوا إلٰه إسـرائيل يسـأل موسى ذات يـوم : «حتى متى يهينني هـذا الشعب ؟ . وحتى متى لا يصـدقـونني بجميـع الآيـات التي عملت في وسطهم ؟ . إني أضربهم بالوباء وأبيدهم ، وأصيّرك شعباً أكبر وأعظم منهم . . فقـال موسى للرب . . فإن قتلت هذا الشعب يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبـرك قائلين : لأن الـرب لم يقـدر أن يـدخـل هـذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم ، قتلهم في القفـر . . فـالآن . . اصفح عن ذنب هذا الشعب . . فقال الرب قـد صفحت حسب قولـك . . ولكن جميع الـرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية وجرّبوني الآن عشرات المـرّات ، ولم يسمعوا لقولي ، لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم ، وجميـع الذين أهـانوني لا يـرونها . سفـر العدد ١٤ : ١١ ـ ٢٣» .

وهذا الموقف الحواري بين يهوه وبين موسى يتكرر في سفـر التثنية (٩) . فحين قـال يهوه لمـوسى «اتركني فـأبيدهم وأمحـو اسمهم من تحت السماء» . «فـزع موسى من الغضب والغيظ الـذي سخـطه الـرب عليهم» . فصـام وصلّى لكي «لا يهلك يهـوه شعبـه وميـراثـه الـذي فـداه بعظمته» . ولكي «لا تقول الأرض التي أخرجتنـا منها إن الـرب لم يقدر أن يـدخلهم إلى الأرض التي كلمهم عنها» . «فسمع لي الرب تلك المرة أيضاً» .

فموسى يهدّد يهوه بأنه سيكون عرضة لـلأقاويـل إن لم يفِ بوعـده . وسيتهمه المصـريون بـالضعف والعجز لأنـه لم يقدر أن يدخل جمـاعتـه إلى الأرض التي وعـدهم بهـا . وأمـام هـذه التهديدات يتراجع يهوه عن قراره. ويلغة موسى «سمع الرب لي» .

وظلت العلاقة بين يهوه وبين أتباعـه محكومـة بشروط ، يـطرحها كـل طرف على الـطرف الآخـر . فمن شروط يهـوه مثلاً قـوله «فـالآن إن سمعتم لصوتي وحفـظتم عهدي ، تكـونون لي خاصة من بين جميع الشعوب . خروج ١٩ : ٥» . وقولـه «متى أتى بك يهـوه إلٰهك إلى الأرض التي أنت داخـل إليهـا لتمتلكهـا ، وطـرد شعـوبـاً كثيـرة من أمـامـك : الحثيين والجـرجـاشيين والأمـوريين والكنعانيين والفـرزيين والحويين . سبـع شعوب أكثـر وأعظم منـك . ودفعهم يهـوه

إلٰهك أمامك وضربتهم ، فإنك تحرّمهم . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم . . لأنك أنت شعب مقدس ليهوه إلٰهك . اياك قد اختار يهوه إلٰهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . تثنية ٧ : ١ - ٦» .

ومن شروط بني إسرائيل قولهم مثلاً «انقذنا من يد أعدائنا فنعبدك . سموئيل الأول ١٢» .

في هذه العلاقة الشرطية إله يهتم بجماعة معينة من البشر (بني إسرائيل) . فهو يعدهم بسحق الشعوب في جنوبي سوريا ، ومنح أراضيهم لجماعته . ومحبته ليست محبة إله للبشر ، سائر البشر . وإنما هي خاصة بجماعة معينة (بني إسرائيل) دون غيرهم . هذه العلاقة بين الإله وبين جماعة معينة من البشر ، لا يمكن أن تنبع عن «محبة» بمعناها الصافي . إنها اختيار كيفي ومن نوع خاص . وهي خالية من محبة البشر للإله ، ومن محبة الإله للبشر أيضاً .

وعلاقتهم بيهوه هي علاقة ملك قادر بجماعة قليلة من البشر، يعانون من الشعور بالضعف والعجز والقهر والإضطهاد . وعدهم بتمليكهم أراضي أقوام أخرى . ولذلك انحصرت وعوده ومواثيقه بقيادته لهم ، وإخراجهم من أرض وإدخالهم إلى أخرى . إذا عطشوا يفجر لهم المياه من قلب الصخر . وإذا جاعوا يمطر عليهم المنّ والسلوى .

الإلٰه رهن إشارة منهم

وعلاقتهم الذاتية بيهوه (الرب) فرضت عليه أن يكون رهن إشارتهم وطوع رغبتهم . يلبّي طلبة الواحد منهم ، ويجعل نواياه حقائق تدرج على الأرض . فعندما «شاخ إبراهيم . . قال لعبده . . استحلفك بالرب . . أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب ، وتأخذ زوجة لابني إسحاق . .

فقام العبد وذهب إلى ارام النهرين . . فأناخ الجمال عند بئر الماء . . وقال : أيها الرب إله سيدي إبراهيم يسّر لي اليوم واصنع لطفاً إلى سيدي إبراهيم . ها أنا واقف على عين الماء ، وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء . فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك لأشرب . فتقول اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً ، هي التي عيّنتها لعبدك إسحاق ، وبها أعلم أنك صنعت لطفاً إلى سيدي» .

وكان من الطبيعي أن يكون الرب رهن طلبة العبد . فامتثل لرغبته ، وأحضر الفتاة فوراً (بقدرة إله طبعاً) . وما نواه العبد حققه الرب . يقول المحرر «وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا رفقة التي ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم ، خارجة وجرتها على كتفها . . فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت . فركض العبد للقائها وقال اسقيني قليل ماء من جرتك . فقالت اشرب يا سيدي . وأسرعت فأنزلت جرتها على يدها وسقته . ولما فرغت من سقيه قالت استقي لجمالك . . فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة وركضت أيضاً إلى البئر

لتستقي ، فاستقت لكل جماله» .

ويبدو أن الرب قرأ خواطر العبد وخواطر سيده إبراهيم . فجعل الفتاة ، كما أرادوا لها أن تكون ، «حسنة المنظر جداً ، وعذراء لم يعرفها رجل . تكون ٢٤» .

وعلاقة موسى المميّزة بيهوه (الرب) جعلت هذا الأخير يمتثل لكل كلمة تنبس بها شفتا موسى . ويحقق كل رغبة يلهج بها صدره . فعندما ضرب يهوه (الرب) أرض مصر بالضفادع ، «دعا فرعون موسى وهارون وقال صلّيا إلى يهوه ليرفع الضفادع عني وعن شعبي» . «فصرخ موسى إلى يهوه من أجل الضفادع التي جعلها على فرعون . ففعل الرب كقول موسى ، فماتت الضفادع . خروج ٨ : ٨ ـ ١٣» .

وفي ضربة الذبان يقول المحرر إن «موسى خرج من لدن فرعون وصلّى إلى الرب . ففعل الرب كقول موسى . فارتفع الذبان عن فرعون وشعبه . لم تبق واحدة . خروج ٨ : ٣٠» .

وفي واحدة من ضربات موسى العشر لمصر «مدّ موسى عصاه نحو السماء ، فأعطى الرب رعوداً وبرداً . وجرت نار على الأرض . . فكان بَرَدٌ ونار متواصلة في وسط البَرَد . . ثم بسط يديه إلى الرب ، فانقطعت الرعود والبرد . خروج ٩ : ٢٣ ـ ٣٣» .

وفي ضربة الجراد «مدّ موسى عصاه على أرض مصر ، فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية . . حملت الجراد على كل أرض مصر . . ثم صلّى موسى إلى الرب . فردّ الرب ريحاً غربية ، حملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف . لم تبق جرادة واحدة في كل تخوم مصر . خروج ١٠ : ١٣ ـ ١٩» .

ومع يشوع جرى عكس مسارات القوانين الأزلية للعالم الطبيعي ، أو تعطيلها ، بأمر من يهوه (الرب) طبعاً الذي كان رهن إشارة من إصبع يشوع . فحين كان يشوع يحارب الأموريين «قال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جبعون ، ويا قمر على وادي ايلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه» . ويضيف الحبر المحرر «فوقفت الشمس في كبد السماء ، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل . يشوع ١٠ : ١٢» .

وبعد ثمانية قرون جاء نبي آخر (اشعيا) يعبث بنواميس الكون . فحين ابتلى حزقيا ملك يهوذا بالقروح ، جأر إلى إلهه بالدعاء ، فاستجاب له يهوه . وأرسل إليه النبي اشعيا قائلاً : «قال الرب : قد سمعت صلاتك وقد رأيت دموعك . هانذا أشفيك وأزيد على أيامك خمس عشرة سنة . الملوك الثاني ٢٠ : ٥» . فلم يصدّق الملك نبوءة اشعيا التي تضمّنت رسالة الرب . وطلب برهاناً على صحة النبوءة ـ الرسالة . فاجترح اشعيا معجزته الباهرة إذ «دعا الرب ، فأرجع الظل عشر درجات إلى الوراء . سفر الملوك الثاني ٢٠ : ١١» . فهو لم يكتف بوقف الأرض عن الدوران ، كما فعل يشوع . بل تمادى فركسها ، فانقلبت تدور في الإتجاه المعاكس .

وكان امتثال يهوه (الرب) لرغبات سموئيل الكاهن عنوان العلاقة القائمة بينهما . ففي مسألة الصراع بين الكاهن (سموئيل) وبين الملك (شاول) ، ظل سموئيل وقتاً يحاول إقناع الجماعة بخطر الرضوخ إلى حكم الملكية . وفي إحدى جولات الإقناع أراد سموئيل أن يوهمهم بأن (الرب) معه ، وأنه طوع إرادته أو رغبته ، فقال «امثلوا الآن وانظروا هذا الأمر العظيم الذي يفعله الرب أمام أعينكم . أما هو حصاد الحنطة اليوم ؟ . فإني أدعو الرب فيعطي رعوداً ومطراً . . فدعا سموئيل الرب ، فأعطى رعوداً ومطراً في ذلك اليوم . سموئيل الأول ١٢».

وكانت العلاقة بين يهوه (الرب) وبين سليمان خاصة وحميمة . فقبل أن يتفوّه سليمان ، في صلاة أو تهجّد ، بطلبته إلى الرب ، بادره الرب بالسؤال عن الرغبة التي يريد تحقيقها . «قال الله : اسأل ماذا أعطيك ؟ . فقال سليمان . . أعطِ عبدك قلباً فهيماً لأحكم على شعبك ، وأميّز بين الخير والشر . . فقال له الله . . هوذا قد فعلت حسب كلامك . هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك ، ولا يقوم بعدك نظيرك . ملوك أول ٣ : ٥ ـ ١٢» .

ويبدو أن يهوه (وهو الرب الكاشف الغيوب والعليم بالنوايا) لم يكن يدري أن سليمان ، الذي أعطاه قلباً حكيماً ومميزاً ،سيتحول عنه إلى عبادات شعوب الأرض . فقد «أحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة : مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات . من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . . فذهب سليمان وراء عشتورت إلٰهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وبنى مرتفعة لكموش رجس المؤابيين . سفر الملوك الأول ١١ : ١ ـ ٧» .

وفي مسألة الصراع بين جماعة إسرائيل وبين جماعة يهوذا ، أراد «شمعيا رجل الله» أن يحوّل جماعة إسرائيل من وراء يربعام بن نباط إلى سلطة رحبعام بن سليمان ملك يهوذا . وكان أسلوب الإقناع هو ذاته مع جميع الكهنة والأنبياء ـ إيهام الجماعة بأن يهوه (الرب) معه ، وأنه رهن إشارة من يده أو كلمة من فمه . فحين قال «رجل الله . . هوذا المذبح ينشق ويذرى الرماد الذي عليه . . مدّ يربعام يده عن المذبح قائلاً : امسكوه . فيبست يده التي مدها نحوه . ولم يستطع أن يردها إليه . وانشق المذبح وذري الرماد من على المذبح حسب العلامة التي أعطاها رجل الله . . فقال الملك (يربعام) لرجل الله : تضرّع إلى وجه يهوه إلٰهك . . فترجع يدي إليّ . فتضرع رجل الله إلى وجه يهوه ، فرجعت يد الملك إليه . ملوك أول ١٣ : ٣ ـ ٦» .

وحين «قال ايليا التشبي ، من مستوطني جلعاد ، لآخاب بن عمري ملك إسرائيل ، حيّ هو يهوه إلٰه إسرائيل . . أنه لا يكون طلّ ولا مطر في هذه السنين إلّا عند قولي . ملوك أول ١٧ : ١» . نزل يهوه(الرب) عند رغبة أو إرادة ايليا ، فتوقفت الطبيعة عن المطر (على رواية التوراة) حتى جفت مياه الأودية وأمحلت الأرض . ولم يتراجع يهوه عن قراره : حبس المطر عن الأرض ، حتى ضحّى له إيليا النبي بدماء ٤٥٠ إنساناً . والحكاية كما رواها محرر التوراة «قال

ايليـا للشعب أنا بقيت نبيـاً ليهوه (الـرب) وحدي . وأنبيـاء البعل أربعمـائـة وخمسـون رجـلاً . فليعطونا ثورين ، فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب ، ولكن لا يضعوا نـاراً . وأنا أقـرّب الثور الآخـر ، وأجعله على الحطب ، ولكن لا أضـع ناراً . ثم تدعون بـاسم آلهتكم . وأنا ادعو باسم يهوه . والإله الذي يجيب بناء فهو الله . ملوك أول ١٨ : ٢٢» .

وقد كان من الـطبيعي ألاّ تنزل النـار على الثور الـذي قدّمـه كهنة البعـل . أما ايليـا الذي أحسن الأعـداد لمعجزتـه ، فما أن تغمغم ببضـع كلمـات ، طبقـاً للخـطة المـوضـوعـة ، حتى «سقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجـارة والتراب ولحست الميـاه التي في القناة . فلمـا رأى الشعب ذلك سقـطوا على وجوههم وقـالوا : يهـوه هو الله . يهـوه هو الله . وقـال ايليا امسكوا أنبياء البعل . . فنزل بهم ايليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك .

ثم قال إيليا لآخاب : اصعد كل واشرب لأنه حس دوي مطر . . وكان من هنا إلى هنـا أن السماء اسودت من الغيم والريح ، وكان مطر عظيم . ملوك أول ١٨ : ٣٨ ـ ٤٥» .

والحـديث عن ايليا التشبي طـويل . والـواقع أن يهـوه (الرب) كـان بين يـدي هـذا النبي كالخاتم المارد ، ولسان حاله يقول «لبيك اطلب مـا تشاء . بين يـديك مـا تريـد» . فحين ذهب ايليا وايليشع إلى الأردن «أخذ ايليا رداءه ولفّه وضرب الماء، فانفلق الماء إلى هنا وهنـاك ، فعبرا كـلاهمـا في اليبس . الملوك الثـاني ٢ : ٨» . وحين «صعـد ايليـا في العـاصفـة إلى السمـاء» بـ «مركبة من نار وخيل من نار . . أخذ ايليشع رداء ايليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال : أين هـو يهوه إلـه إيليا . ثم ضـرب الماء أيضـاً ، فـانفلق إلى هنـا وهنـاك ، فعبـر ايليشـع . الملوك الثاني ٢ : ١٤» .

وايليشع النبي استطاع ، وعلى رواية التوراة طبعاً ، أن يحوّل نبع المياه الردية إلى نبع مياه نقيـة ومنعشة . فحين «قـال رجال المـدينة لايليشـع : هوذا مـوقع المـدينة حسن . وأمـا الميـاه فردية ، والأرض مجدبة . قال ايليشع ايتوني بصحن جديد وضعوا فيه ملحاً . فـأتوه بـه . فخرج إلى نبع الماء وطـرح فيه الملح وقـال : هكذا قـال يهوه قـد أبرأت هـذه المياه . . فبـرئت المياه حسب قول ايليشع . الملوك الثاني ٢ : ١٩ ـ ٢٢» .

ويبدو أن صاحبنا ايليشع الذي صنع هذه المعجزات ، وكان بلا شك بطل غيرها ، بـدعم ومساندة يهوه (الرب) ، لم يكن معروفاً بالنسبة «لصبيان صغار خـرجوا من المـدينة وسخـروا منه وقالوا له : اصعد يـا أقرع . فـالتفت إلى ورائه ولعنهم بـاسم الرب . فخـرجت دبّتان من الـوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً . الملوك الثاني ٢ : ٢٣» .

فهذا النبي (الجليل) يلعن أطفالاً باسم الرب . وكان الرب سريع الإستجابة . أو قل رهن إشارة من هذا النبي الكبير . فسرعان ما خرجت دبتان وافترستا الأطفال .

وباختصار ، كان يهوه (الرب) مع ايليشع كماكان مع ايليا التشبي ومع غيره من كهنة وأنبياء

بني إسـرائيل : لبيـك اطلب ما تشـاء . بين يديـك مـا تـريـد . فحين كـان «ملك ارام يحـارب إسرائيل . . أرسل خيلاً ومركبات وجيشـاً ثقيلاً ، إلى مـدينة دوثـان حيث يقيم ايليشع . «فصلّى ايليشـع إلى يهوه (الـرب) وقال : اضـرب هؤلاء الأمم بالعمى . فضـربهم الرب بـالعمى كقـول ايليشع» . . «ولما دخلوا السـامرة قـال ايليشع : يـا رب افتح أعين هؤلاء فيبصـروا . ففتح الـرب أعينهم ، فأبصروا . سفر الملوك الثاني ٦ : ٨ ـ ٢٠» .

سيـف الادانــة

عـاش بنو إسـرائيل بين الأمم والممـالك الـراقية ، الممتـازة عليهم حضارة وغنى وقـوة . وكـانوا ، لضعفهم وفقـرهم وقلة عـددهم ، يتلظّون بنـاء الحسـد من الممـالـك الأخـرى ذوات الحضارات العريقة ، لوفرة ما ترتع فيـه من خصب ، وما يُفـاض عليها من رخـاء . فحقدوا على عظمتها ، ورجوا موتها وتحطيمها من قبل إلههم يهوه ، ليقيم لهم مملكة أرضية على أنقاضهـا . فعندما لم يستطيعوا تسديد ضرباتهم المعهودة إلى المصريين . الضربات التي اشتهـروا بإنـزالها بالأفراد والشعـوب المطمئنـة مباغتـة وغدراً . ابتكـروا وسيلة أخرى للنيـل من المصريين الـذين أعـطوا مثلاً في المحبـة والرحمـة والحنو الصـادق وحسن المعاملة . هـذه الوسيلة هي نـوع من الشماتة أو التشفّي ، تبرّد غلة الحقد العنصري المستعر في قلوبهم . وتهدّىء من وحشية الحسد الذي ينهش أكبادهم من الأمم المستقـرة في أرضها ، المـطمئنة في بيـوتها ، والـرخيّة بخيـرات أرضهـا وجهـد شعبهـا . أعني بهـذه الـوسيلة ، الإدانـة . فـالضـربـات التي اشتهـوا إنــزالهـا بالمصريين ، زعموا أن إلههم أنزلها بهم . خذ مثلاً ما فعله هارون بأمر يهوه الرب حين «مدّ يـده بعصاه وضرب تراب الأرض ، فصار بعوضاً على الناس وعلى البهائم . وكـل تراب الأرض صار بعوضاً في جميـع أرض مصر . خـروج ٨ : ١٧» . وما فعله رب بني إسـرائيل ذاتـه حين ضرب مواشي مصر بالوبـاء ، «فماتت جميـع مواشي المصـريين . أما مـواشي إسرائيـل فلم يمت منها واحـد . خروج ٩ : ٦» . ومـا فعله موسى حين «أخـذ رماد الأتّـون وذرّاه نحو السمـاء ، فصـار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم . خروج ٩ : ١٠» . وما فعله موسى أيضاً حين «مدّ يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر . . ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نـور في مساكنهم . خروج ١٠ : ٢٠» . وما فعله يهوه (الـرب) حين ضرب «كـل بكر في أرض مصـر . من بكر فرعـون إلى بكر الجـارية إلى بكـر البهيمة .خـروج ١١ : ٥» ، وما فعلتـه بأرض مصـر وشعبها الضفادع والـذبان والجـراد ، والنهر الـذي تحول دمـاً . وبأمـر يهوه ، رب بني إسـرائيل طبعاً . أو قل إن يهوه (الرب) ، كما يقول صاحب المزمور ٧٨ ، هو الذي «حوّل خلجـانهم إلى دم . . أرسـل عليهم بعوضـاً فـأكلهم ، وضفـادع فـأفسـدتهم . أسلم للجـردم غلتهم ، وتعبهم للجراد . أهلك بالبَرَد كرومهم . . ودفع إلى البرد بهـائمهم ، ومواشيهم للبـروق . أرسل عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً جيش ملائكة أشرار . . دفـع حياتهم للوبـاء . وضرب كـل بكر

في مصر» .

فهذه الضربات وغيرها التي اشتهوا إنزالها بالمصريين . وزعموا أن إلٰههم يهوه قد أنزلها بهم ، هي نماذج فريدة في الشماتة والتشفّي والإنتقام . أو قل الشعور بالإنتقام ولو بالوهم والزعم .

وحين عجزت قبائل بني إسرائيل الضعيفة المستضعفة عن قهر الأُمم والشعوب واستعبادها . وبالتالي لم يستطع قضاتهم وملوكهم تحقيق وعود يهوه ، تسعّرت ألسنة الخيبة في صدورهم . وصاروا يتلمظون مرارة الفشل الذي ظل يرافقهم دائماً . ونهشت أكبادهم ضراوة الذل الذي عانوه في حياة العبودية في مصر وفي أرض كنعان . فأوكل أحبارهم أمر الإدانة إلى إلٰههم يهوه . وقد تمثلت الإدانة في أشكال من الضربات ، اشتهوا إنزالها بالشعوب . وزعموا أن إلٰههم أنزلها، أو هو على وشك إنزالها بها. خذ مثلاً من هذه الضربات قول يهوه (الرب) بلسان النبي أشعيا عن البابليين «ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من يجمعها . . تُحطّم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم . اشعيا ١٣ : ١٤ و١٦» . ويقول يهوه (الرب) «هانذا أهيّج عليهم الماديين. فتحطم القسي الفتيان ، ولا يرحمون ثمرة البطن ، ولا تشفق عيونهم على الأولاد . وتصير بابل ، بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين ، كتقليب الله سدوم وعمورة . لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور . ولا يخيّم هناك أعرابي . ولا يربض هناك رعاة . بل تربض هناك وحوش القفر ، ويملأ البوم بيوتهم . . وتصيح بنات آوى في قصورهم ، والذئاب في هياكل التنعّم . اشعيا ١٣ : ١٧ ـ ٢٢» . و «يقول رب الجنود : وأقطع من بابل اسماً وبقية ونسلاً وذرية ، يقول يهوه (الرب) . وأجعلها ميراثاً للقنفذ ، وأكنسها بمكنسة الهلاك . اشعيا ١٤ :٢٢» .

وعن بابل يقول يهوه (الرب) بلسان النبي ارميا «اقطعوا الزارع من بابل . وماسك المنجل في وقت الحصاد . . لا يكن ناج . . يسقط شبانها في الشوارع وكل رجال حربها يهلكون في ذلك اليوم يقول الرب . . لذلك تسكن وحوش القفر مع بنات آوى ، وتسكن فيها رعال النعام . . لا يسكن هناك إنسان ولا يتغرب فيها ابن آدم . ارميا ٥٠ : ١٦ ـ ٤٠» . وبلسان أرميا أيضاً يقول يهوه(الرب) «وأرسل إلى بابل مذرّين فيذرونها ويفرغون أرضها . . وأسحق بك الرجل والمرأة . وأسحق بك الشيخ والفتى . وأسحق بك الغلام والعذراء . وأسحق بك الراعي وقطيعه . وأسحق بك الغلام وفدانه . وأسحق بك الولاة والحكام . . وتكون بابل كوماً ومأوى بنات آوى ، ودهشاً وصفيراً بلا ساكن . ارميا ٥١ : ٢ و٢٢ و٣٧» .

ومثلاً آخر من هذه الضربات قول يهوه (الرب) عن دمشق بلسان اشعيا(١٧ : ١) «هوذا دمشق تُزال من بين المدن ، وتكون رجمة ردم» . وعن دمشق أيضاً يقول يهوه (الرب) بلسان النبي ارميا (٤٩ : ٢٤) «ارتخت دمشق والتفتت للهرب . أمسكتها الرعدة وأخذها الضيق

والأوجاع كماخض. يسقط شبانها في شوارعها، ويهلك كل رجال الحرب في ذلك اليوم، يقول رب الجنود. وأشعل ناراً في سور دمشق».

وعن كنعان يقول النبي اشعيا (٢٣ : ١١) «أمر يهوه (الرب) أن تخرب حصون كنعان». وعن مملكة مؤاب يقول يهوه بلسان اشعيا (١٥ : ١) «خربت مؤاب وهلكت.. على سطوحها وفي ساحاتها يولول كل واحد منها سيالاً بالبكاء». «وتكون بنات مؤاب كطائر تائه، كفراخ منفرة ١٦ : ٢». «ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة. وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه، يضعه، يلصقه الرب بالأرض إلى التراب ١٥ : ١٠». وبلسان ارميا (٤٨ : ٤ و ٩) يقول يهوه «قد حطمت مؤاب.. يصعد بكاء على بكاء.. وتصير مدنها خربة بلا ساكن فيها». وبلسان عاموس (٢ : ٢) يقول يهوه «أرسل ناراً على مؤاب فتأكل قصور قريوت. ويموت مؤاب بضجيج.. واقطع القاضي من وسطها. واقتل جميع رؤسائها، قال الرب». وبلسان النبي صفنيا (٢ : ٩) يقول يهوه (الرب) عن مؤاب وبني عمون «حيّ أنا يقول رب الجنود إله إسرائيل إن مؤاب تكون كسدوم، وبنو عمون كعمورة. ملك القرّيص وحفرة ملح، وخراباً إلى الأبد. تنهبهم بقية شعبي، وبقية أمتي تمتلكهم». وعن «ربة بني عمون» - (عمان الأردن الحالية) يقول يهوه بلسان ارميا (٤٩ : ٢) «تصير ربة بني عمون خرباً. وتحرق بناتها بالنار». وبلسان حزق ايل (٢٥ : ٧) يقول يهوه «هانذا أمد يدي عليك، وأسلمك غنيمة للأمم، واستأصلك من الشعوب وأبيدك من الأراضي». وبلسان النبي عاموس (١ : ١٤) «قال الرب: أضرم ناراً على سور ربة فتأكل قصورها».

وعن مملكة ادوم يقول يهوه (الرب) بلسان اشعيا (٣٤ : ٦ - ١٣) «إن للرب ذبيحة في بصرة، وذبحاً عظيماً في أرض ادوم.. تتحول أنهارها زفتاً، وترابها كبريتاً. وتصير أرضها زفتاً مشتعلاً ليلاً ونهاراً لا تنطفىء. وإلى الأبد يصعد دخانها.. إلى أبد الآبدين لا يكون من يجتاز فيها. ويرثها القوق والقنفذ.. ويمد عليها خيط الخراب ومطمار الخلاء.. ويطلع في قصورها الشوك، وفي حصونها القرّيص والعوسج. فتكون مسكناً للذئاب وداراً لبنات النعام». وعن بصرة عاصمة ادوم يقول يهوه بلسان ارميا (٤٩ : ١٣ و ١٨) «بذاتي حلفت يقول الرب أن بصرة تكون دهشاً وعاراً وخراباً ولعنة. وكل مدنها تكون خرباً أبدية.. لا يسكن هناك إنسان، ولا يتغرّب فيها ابن آدم». وبلسان حزق ايل (٢٥ : ١٣) يقول يهوه «وأمد يدي على ادوم وأقطع منها الإنسان والحيوان وأصيّرها خراباً».

وعن الفلسطينيين يقول يهوه بلسان ارميا (٤٧ : ٢) «يصرخ الناس ويولول كل سكان الأرض.. بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين.. لأن الرب يهلك الفلسطينيين». وبلسان حزق ايل (٢٥ : ١٦) يقول يهوه «هانذا أمد يدي على الفلسطينيين.. وأجري عليهم نقمات عظيمة». ويقول الرب بلسان النبي عاموس (١ : ٧) «أرسل ناراً على سور غزة، فتأكل قصورها. وأقطع الساكن من أشدود، وماسك القضيب من اشقلون. وأرد يدي على عقرون،

فتهلك بقية الفلسطينيين ، قال السيد يهوه» . وبلسان النبي صفنيا (٢ : ٤) يقول يهوه «تكون اشقلون للخراب . . وعقرون تستأصل . . يا كنعان أرض الفلسطينيين إني أخربك بلا ساكن» .

وفي صيدون «قال السيد يهوه : أرسل عليها وباء ودماً . . ويسقط الجرحى في وسطها بالسيف . حزق ايل ٢٨ : ٢٣» . وقال يهوه في صور «تكون غنيمة للأمم . وبناتها اللواتي في الحقل تقتل بالسيف . . تتزلزل الجزائر من صوت سقوطك ، عند صراخ الجرحى ، عند وقوع القتل في وسطك . . أصيّرك مدينة خربة . . أصيّرك أهوالاً ، يقول السيد يهوه . حزق ايل ٢٦ : ٥ ـ ٢١» . وقال يهوه بلسان عاموس (١ : ١٠) «أرسل ناراً على سور صور ، فتأكل قصورها» . وفي حاصور قال يهوه «وتكون حاصور مسكن بنات آوى ، وخربة إلى الأبد . لا يسكن هناك إنسان ، ولا يتغرّب ابن آدم . ارميا ٤٩ : ٣٣» . وفي أهل جبل سعير قال يهوه «هانذا عليك يا جبل سعير . . اجعل مدنك خربة ، وتكون أنت مقفراً . . وأستأصل منه الذاهب والآئب . وأملأ جباله من قتلاه . حزق ايل ٣٤ : ٣ ـ ٨» .

وعن اشور يقول اشعيا (١٤ : ٢٤) «قد حلف رب الجنود قائلاً : إنه كما قصدت يصير ، وكمانويت يثبت : أن أحطّم أشور في أرضي ، وأدوسه على جبالي» . ويقول النبي صفنيا (٢ : ١٣) «ويمد يده على الشمال ويبيد اشور ، ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر . . القوق والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدها . صوت ينعب في الكوى ، وخراب على الأعتاب . . هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة . . كيف صارت خراباً ، مربضاً للحيوان . كل عابر بها يصفر ويهز يده» . وعن نينوى يقول النبي ناحوم (٢ : ١٠ ـ ١٣) «فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع في كل حقو . . ها أنا عليك يقول رب الجنود ، فأحرق مركباتك دخاناً ، وأشبالك يأكلها السيف ، وأقطع من الأرض فرائسك» . وفي الفصل الثالث من سفره يقول ناحوم «هانذا عليك يقول رب الجنود ، فاكشف أذيالك إلى فوق وجهك . وأري الأمم عورتك والممالك خزيك . وأطرح عليك أوساخاً ، وأهينك واجعلك عبرة . ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول : خربت نينوى ، من يرثي لها . . تأكل النار مغاليقك . . تأكلك نار ، يقطعك سيف ، يأكلك كالغوغاء» .

وعن مصر يقول يهوه بلسان اشعيا (١٩ : ٢ ـ ١٠) «وأهيّج مصريين على مصريين ، فيحاربون كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه . مدينة مدينة ، ومملكة مملكة . . وتنشّف المياه من البحر . ويجف النهر وييبس . وتنتن الأنهار . . وكل مزرعة على النيل تيبس . . وتكون عمدها مسحوقة» . وبلسان حزق ايل (٢٩ : ١٠ ـ١٢) يقول يهوه (الرب) «وأجعل أرض مصر خِرَباً خربة مقفرة من مجدل إلى اسوان إلى تخم كوش . لا تمر فيها رجل إنسان ، ولا تمر فيها رجل بهيمة . . وأجعل أرض مصر مقفرة . . وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضي» . «وأجعل الأنهار يابسة . . أنا الرب تكلمت . حزق ايل ٣٠ : ١٢» . «وأطرحك على وجه الحقل ، وأقر عليك كل طيور السماء ، وأشبع منك وحوش الأرض كلها . وألقي

لحمك على الجبال . وأملأ الأودية من جيفك . وأسقي أرض فيضانك من دمك إلى الجبال . وتمتلىء منك الآفاق . . وأظلم فوقك كل أنوار السماء . وأجعل الظلمة على أرضك . يقول السيد يهوه . حزق ايل ٣٢ : ٤ ـ ٨» . «وعن يد اشعيا بن آموص تكلم يهوه قائلاً . . اذهب وحلّ المسح عن حقويك ، واخلع حذاءك عن رجليك . ففعل هكذا ومشى معرّى وحافياً . فقال الرب : كما مشى عبدي اشعيا معرّى وحافياً ثلاث سنين آية واعجوبة على مصر وعلى كوش . هكذا يسوق ملك اشور سبي مصر وجلاء كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفي الأستاه خزياً لمصر . اشعيا ٢٠» .

وهكذا يبدو أن الحقد على مصر أفقد أولئك الأنبياء اتزانهم ، حتى طوّعت لاشعيا نفسه أن ينضو عنه ثيابه ويمشي عارياً في الأسواق ، كاشفاً عن سوأته ، يدعو إلهه أن يسلّط اشور ذات البأس والقوّة والجبروت على مصر ، فتلحق بها هزيمة ساحقة ، وتسوق أهلها عراة حفاة ، يرسفون في اغلال الأسر ، على النحو الذي يعرضه اشعيا على إلهه يهوه ، متخذاً من نفسه وسيلة إيضاح .

وباختصار ، إن الضربات ـ الإدانة التي قال أنبياء بني إسرائيل إن إلههم يهوه أنزلها ، أو هو على وشك إنزالها ، بالشعوب والممالك التي عاش بنو إسرائيل في ظلها ، أو احتكوا بها ، مثل ممالك مصر ، بابل ، اشور ، صور ، صيدون ، دمشق . . وممالك الكنعانيين مثل ادوم ، بني عمون ، مؤاب ، وحاصور . . ومدن الفلسطينيين مثل غزة ، اشقلون ، وعقرون ، هي كثيرة جداً ، لدرجة أن ضربات يهوه (الرب) شملت أمم الأرض بأسرها كما يقول النبي اشعيا (٣٤ : ٢) «إن للرب سخطاً على كل الأمم، وحمواً على كل جيشهم . قد حرّمهم ، دفعهم إلى الذبح . فقتلاهم تطرح ، وجيفهم تصعد نتانتها . وتسيل الجبال بدمائهم» . وإلى حد أن قارىء التوراة يخلص إلى نتيجة ، مفادها أن تنبؤات أنبياء التوراة كانت أشبه بشلال لعن متدفق ، لدرجة أن «اللعنة أكلت الأرض» كما يقول النبي اشعيا (٢٤ : ٦) .

وبعد ، فإن ما عرضناه من الصور الغاضبة ، الحاقدة ، الساخطة الناقمة ، في أطر من السحق والقتل والذبح ، يعبّر عن مفهوم بني إسرائيل القدماء للإله ، وللصورة التي حملوها في نفوسهم عنه .

والمؤسف أن مثل هذه الصور شحنهم بأمصال الحقد المقدس ، فابتعث فيهم مشاعر نفسية معقدة ، أوغرت صدورهم ، وبث في نفوسهم الحقد والغلّ للمجتمع البشري . فراحوا ينشدون بدأب وحرص أسباب الكيد للبشرية ، ويلتمسون طرائق الإنتقام تشفّياً ، وشفاء لغليلهم ، منها .

إفـراديهـوه

ذكرنا أن الأديان التاريخية أو الوضعية تبدأ بالموسـوية التي وضعهـا موسى ، ووضـع للقوة العـالية اسمـاً هو يهـوه . ومن هنا صـارت الصفات التي أطلقتهـا الشعوب القـديمـة في الشـرق المتوسطي على القوة العالية ، صارت ، باعتباره ، أسماء آلهة . فـالبعل (السيـد) ، باعتبـاره ، إله . وبعل فغور(سيد فغور) إله . وأدون (السيد) إله ، واون (السيد) إله . وعشتـروت (السيدة) إلهة . وملكوم أو مولك (الملك) إله . وإلى ما هنالك من صفات للقوة العالية ، اعتبـرها مـوسى اسماء آلهة .

وراح القائد السائر على رأس الجماعة ، موسى أو غيره ، يـطلق الجمع (آلهـة) في وجوه أتبـاعه كلمـا واتت الفرصـة ، في محاولـة لإقناعهم بـأن لكل شعب إلهـاً ، بل آلهـة . وأن إلـه الجماعة (يهـوه) أعظم وأقـوى من الألهة الأخـرى جميعها . وأنـه سيبيد شعـوب أرض فلسطين وآلهتها ، ويملّك جماعته أراضيها .

وهذا الإله الخاص بجماعـة بني إسرائيـل أضفى عليه مـوسى أو الأحبار صفـة الوحـدانية والفرادة بين ما اعتبروه آلهة متعدّدة . فهو ، باعتبارهم ، فريد ، لا مثيل له . يقول يهوه لمـوسى «ليس مثلي في كل الأرض . خروج ٩ : ١٤» . ويقول موسى لفـرعون «ليس مثـل يهوه إلهنـا . خروج ٨ : ١٠» . وفي «تسبيحة للرب» يقول موسى «من مثلك بين الآلهة يا يهوه. خروج ١٥ : ١١» . ويقـول سليمان «يـا يهوه إلـه إسرائيـل ، ليس إله مثلك في السمـاء من فـوق ، ولا على الأرض من أسفل . ملوك أول ٨ : ٢٣» . ويقـول صاحب المـزامير «لا مثيـل لك بين الآلهـة يـا يهـوه . مزمـور ٨٦ : ٨» . و «من يشبـه يهـوه بين أبنـاء الله . مـزمـور ٨٩ : ٦» . ويقـول النبي ارميا (١٠ : ٦) «لا مثل لك» .

ويهوه في الوحدانية عظيم وكبير وقدير . أو قل هو أعظم وأكبر وأقدر من «الآلهة الأخـرى» التي زعموا وجودهـا . خاصـة آلهة مصـر ، التي خرج مـوسى بهم منها ، وآلهـة شعوب الأرض

التي عقد العزم على غزوها وطرد شعوبهـا منها أو إبادتهم ، ليقيم فيها كيـاناً قـومياً خـاصاً ببني إسـرائيل . ولـذلك يقـول يهوه متـوعداً «وأصنـع أحكـامـاً بكـل آلهـة المصـريين . أنـا يهـوه . خـروج ١٢ : ١٢» . ويقول مـوسى مؤكداً أن يهـوه قد نفّـذ وعيده «وصنـع أحكـامـاً بـآلهتهم . عدد ٣٣ : ٤» . ويضيف موسى مخاطباً يهوه في نوع من الإقرار بجدارته والإعتراف بفضله «أي إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك ؟ . تثنيـة ٣ : ٢٤» . ويسترسـل موسى في المبالغة بتمجيـد إلهه ، فيجعله أعـظم الآلهة طـرّاً . ومن منطلق الإستئثار جعله«إله الآلهـة ورب الأرباب . تثنية ١٠ : ١٧» . ويبدو أن موسى أفاض في الحديث إلى حميه يثرون ، كاهن مديان ، عن يهوه ، وعن الضربات التي أنزلها بالمصريين والويلات التي ألحقها بهم ، ممـا دفع يثرون إلى القول «الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة . خروج ١٨ : ١١» .

والتعابير التي تنقل هذا المفهوم كثيرة ومتشابهة . فهـو مثلاً لـدى محرر سفـر أخبار الأيـام الأول (١٦ : ٢٥) «فوق جميع الآلهة» . وهو في أخبار الأيام الثـاني (٢ : ٥) «أعظم من جميـع الآلهة» . وفي سفر يشـوع (٢٢ : ٢٢) يعبّر المحـرر عن هذا المفهـوم بتأكيـد جازم قـاطع «إلـه الآلهة يهوه . إله الآلهة يهوه» . وفي سفر سموئيل الثاني (٧ : ٢٢) يقول داود «أيها الرب الإله ، ليس مثلك وليس إلـه غيرك» . ويهـوه لدى صـاحب المزاميـر (٥٠ : ١) «إلـه الآلهـة» . و «إلـه عظيم ، ملك كبير على كـل الآلهة . ٩٥ : ٣» . ويهـوه«عظيم وحميـد جداً ، مهـوب على كل الآلهة ٩٦ : ٤» . و «يهوه قائم في مجلس الآلهة . في وسط الآلهة يقضي ٨٢ :١» .

وبمثـل هذه التـأكيدات يقـول صـاحب المـزمـور (١٣٥ : ٥) بلغـة المتكلم ، «إن يهـوه عظيم . وأدونينو (سيدنا) فوق جميع الآلهة». ويقول صاحب المزمور (٩٧ : ٩) بلغة الخـطاب «علوت جداً على كل الآلهة» . ولذلك يطلب صاحب المزمور (١٣٦ : ٢) إلى الآخـرين وبلغة الأمر أن «احمدوا إله الآلهة . احمدوا رب الأرباب » . ويوجّه صاحب المزمـور (٩٧ : ٧) الأمر إلى الآلهة جميعها أن تسجد له «اسجدوا له يا جميع الآلهة» .

وباختصار ، إن أسفـارهم جميعها لا تشيـر إلى الإله الـواحد إلاّ من خـلال علوه وعظمتـه وسيطرته على الآلهة التي زعموا وجودها.يقول النبي صفنيا (٢ : ١١) «إن يهـوه رهيب يستأصـل جميع آلهة الأرض» .

ويهوه ، باعتبار موسى وأحبار بني إسرائيل ، واحد . ولكنه ليس الإله الوحيد في العالم . وبالتالي ليس إله البشر أجمعين . وهـذا الإله الـواحد مقصـور على بني إسرائيـل وحدهم . أمـا الشعوب والأمم الأخرى فلها ، باعتبارهم طبعاً آلهتها التي تحميها وترعاها . يحدثنا سفر راعوث عن رجل من يهوذا اسمه ايلي ملك ، ذهب «ليتغرّب في بلاد مؤاب هو وامـرأته وابنـاه» . وهناك «أخذا لهما امرأتين مؤابيتين . اسم إحداهما عرفة ، واسم الأخرى راعوث . . وأقاما هناك نحـو عشر سنين . ثم ماتـا كلاهمـا» . «فقالت الحمـاة لكنتيها : ارجعـا كل واحـدة إلى بيت أمها . . فقبّلت عـرفة حمـاتها ، وأمـا راعوث فلصقت بها. فقالت: هـوذا قد رجعت سلفتـك إلى شعبها

وآلهتهـا . ارجعي أنت وراء سلفتك . فقـالت راعـوث : لا تلحّي عليّ أن أتـركـك . . شعبـك شعبي ، وإلٰهك إلٰهي . راعوث ١ : ١ ـ ١٦» .

ويحدثنا محـرر سفر القضـاة (١١ : ٢ و ٢٤) عن القاضي يفتـاح الذي «أرسـل رسلاً إلى ملك بني عمون يقول : ما لي ولك أنك أتيت إليّ للمحاربة في أرضي ؟ . فقال ملك بني عمون لرسل يفتاح : لأن إسرائيل قد أخذ أرضي عند صعوده من مصر . . فالآن ردها بسلام . . فأرسل يفتاح رسلاً إلى ملك بني عمون قائلاً : أليس ما يملّكـك إياه كمـوش إلٰهك تمتلك ؟ . وجميـع الذين طردهم يهوه إلٰهنا من أمامنا ، فإياهم نمتلك ؟» .

ويحدثنا محرر سفر دانيـال (١ : ١) عن «نبوخذ نصر ملك بـابل الـذى ذهب ، في السنة الثالثة من ملك يهوياقيم ملك يهوذا ، إلى أورشليم ، وحاصرها . . وأخذ بعض آنية بيت يهوه ، وجاء بها إلى أرض شنعار إلى بيت إلٰهه ، وأدخل الآنية إلى خزانة بيت إلٰهه» .

وكان لجوء الفرد منهم أو طرده إلى الشعـوب الأُخرى ، يعني عبـادة آلهة تلك الشعـوب . فعندما لجأ داود إلى الفلسطينيين هرباً من شاول ، أصبح عاجزاً عن عبادة إلٰه آسـرائيل (يهـوه) ، لأن يهوه ، كإلٰـه قومي ، لم يكن يعبـد في غيرمـواضع سلطانـه ، وقد اعتـذر داود إلى شاول من ذلـك عندمـا التقى به في مـا بعد ، وشكـا إليه قـومه بني إسـرائيل قـائلاً : «إنهم طـردوني اليوم قائلين : اذهب اعبد آلهة أُخرى . سفر سموئيل الأول ٢٦ : ١٩» .

وخلاصة القول ، لم ينكر بنو إسرائيل وجودآلهة أُخرى غير إلٰههم . تمامـاً كعدم إنكـارهم لوجود شعوب وقبائل أُخرى غيـر قبيلتهم . ووجود الأربـاب المختلفة لـدى الشعوب الأُخـرى ، وباعتبارهم طبعاً ، لا يتعارض مع إيمانهم بـربهم (يهوه) الـذي يتميّز عن الآلهـة الأُخرى ، التي زعموا وجودها ، بقوته وجبروته . وكثيراً ما نسبوا إلى إلٰههم (يهـوه) الإشتعال بنـار الغيرة منهـا . يقول يهوه «لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي . . لأني أنا يهوه إلٰهـك إلٰه غيـور . خروج ٢٠ : ٣» . وهذه الآية يكرّرها المحرر حرفياً في سفر التثنية (٥ : ٧) . ويقول يهـوه «لا تسجد لإلٰـه آخر لأن يهوه اسمه غيور . إلٰه غيور هو . خروج ٣٤ : ١٤» . ويقول موسى «لا تسيروا وراء آلهـة أُخرى من آلهة الأُمم التي حولكم ،لأن يهوه إلٰهكم إلٰه غيور . تثنية ٦ : ١٤» . وكثيراً ما يقـرن أُسلوبي التحذير والنهي بالتهديـد بأن غيـرة يهوه نـار آكلة ، يقول مثـلاً «احترزوا من أن تنسـوا عهد يهـوه إلٰهكم الذي قطعه معكم ، وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً ، صورة ، كـل ما نهـاك يهوه إلٰهـك عنه . لأن يهوه إلٰهك هو نار آكلة ، إلٰه غيور . تثنية ٤ : ٢٣» .

وظل موسى يحثّهم على افـراد يهوه من بين «الآلهـة الأُخرى» . يقـول يهوه مثـلاً «تعبدون يهـوه إلٰهكم. خـروج ٢٣ : ٢٥» . ويقول مـوسى «يهـوه إلٰهـك تتقي ، وإيـاه تعبـد ، وبـاسمـه تحلف . تثنية ٦ : ١٣» . وهذا التعبيـر يتردد في التـوراة في أكثر من مـوضع كقـوله مثـلاً «وراء إلٰهكم تسيرون . . ووصاياه تحفظون وصوته تسمعـون وإياه تعبـدون وبه تلتصقـون . تثنية ١٣ :

٤» . ويقول يشوع (٢٢ : ٥) «احرصوا . . أن تحبوا يهوه إلٰهكم ، وتسيروا في كل طرقه وتحفظوا وصاياه وتلتصقوا به» . ويقول صموئيل الكاهن «اعبدوا يهوه بكل قلوبكم . صموئيل الأول ١٢ : ٢٠» . وفي الآية التالية (١٢ : ٢٤) يؤكد صموئيل على هذا الترجّي بقوله «اتقوا يهوه واعبدوه بالأمانة من كل قلوبكم» .

وظل موسى يحذرهم من مغبّة السجود للآلهة الأُخرى ، أو الذبح أو تقديم القرابين لها ، والإنغواء وراءها . يقول «من ذبح لآلهة غير يهوه وحده يهلك . خروج ٢٢ : ٢٠» . ويقول «احترز من أن تنسى يهوه إلٰهك . تثنية ٨ : ١١» . ويؤكد قوله بصيغة الجمع «احترزوا من أن تنغوي قلوبكم ، فتزيغوا ، وتعبدوا آلهة أُخرى ، وتسجدوا لها . تثنية ١١ : ١٦» . وكثيراً ما يرد التحذير بصيغة النهي عن الميل إلى الآلهة الأُخرى : «لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي . خروج ٢٠ : ٣» . «لا تذكروا اسم آلهة أُخرى . خروج ٢٣ : ١٣» . «لا تسجد لآلهتهم ، ولا تعبدها . خروج ٢٣ : ٢٤» . «لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . خروج ٢٣ : ٣٢» . «لا تسجد لإله آخر . خروج ٣٤ : ١٤» . «لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي . تثنية ٥ : ٧» . «لا تسيروا وراء آلهة أُخرى من آلهة الأُمم التي حولكم . تثنية ٦ : ١٤» . «ولا تعبد آلهتهم ، لأن ذلك شرك لك . تثنية ٧ : ١٦» . «وإذا عبدت آلهتهم فإنه يكون لك فخّاً . خروج ٢٣ : ٣٣» . «ولا تزيغ عن جميع الكلمات التي أنا أوصيك بها لكي تذهب وراء آلهة أُخرى لتعبدها . تثنية ٢٨ : ١٤» . ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها . يشوع ٢٣ : ٧» .

وبالإضافة إلى صيغتي الأمر والنهي ، كثيراً ما يسوق موسى ، أو الحبر الذي حرّر شريعة موسى ، تحذيره بأسلوب التهديد . يقول مثلاً «إن نسيت يهوه إلٰهك ، وذهبت وراء آلهة أُخرى وعبدتها وسجدت لها ، أشهد عليكم اليوم أنكم تبيدون لا محالة . تثنية ٨ : ١٩» . ويقول أيضاً «إذا قام في وسطك نبي أو حالم . . قائلاً : لنذهب وراء آلهة أُخرى ونعبدها . . فذلك النبي أو الحالم يُقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء يهوه إلٰهكم . تثنية ١٣ : ١ ـ ٥» . «وإذا أغواك سراً أخوك أو ابنك أو إبنتك أو صاحبك . . قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أُخرى . . من آلهة الشعوب الذين حولك . . فلا تسمع له ولا تشفق عينك عليه . . بل قتلاً تقتله . تثنية ١٣ : ٦ ـ ٩» . «وإذا وجدت في وسطك . . رجل أو امرأة يفعل شراً في عيني يهوه إلٰهك ، بتجاوزه عهده . ويذهب ويعبد آلهة أُخرى ويسجد لها . . فاخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة . . وارجمه بالحجارة حتى يموت . تثنية ١٧ : ٢ ـ ٥» . ويقول أيضاً وأيضاً «إن غويت وسجدت لآلهة أُخرى ، وعبدتها ، فإني أنبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون . تثنية ٣٠ : ١٧» .

وفي سفر يشوع يجمع المحرر صيغ النهي والأمر والتحذير فالتهديد في خطبة واحدة أو مقطع من فصل . يقول «تشدّدوا جداً لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى ، حتى

لا تدخلوا إلى هؤلاء الشعوب ، أُولئك الباقين معكم ، ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها . ولكن الصقوا بالرب إلٰهكم . . ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب ، أُولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم ، فاعلموا يقيناً أن يهوه إلٰهكم لا يعود يطرد أُولئك الشعوب من أمامكم . فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً في أعينكم ، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إيّاها يهوه إلٰهكم . . ولكن حين تتعدّون عهد يهوه إلٰهكم . . وتعبدون آلهة أُخرى ، وتسجدون لها ، يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعاً عن الأرض الصالحة التي أعطاكم . يشوع ٢٣ : ٧» .

ويبدوا أن يهوه ، أو القائد الناطق باسم يهوه ، قد نفّذ تهديده في إحدى المرات ، على رواية التوراة . فبعد خروجهم من مصر بزمن يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً قضوها متبدّين في صحراء سيناء ، وبوصولهم إلى تخوم أرض فلسطين ، «ابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب . فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن . فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلّق إسرائيل ببعل فغور . فحمي غضب يهوه (الرب) على إسرائيل . فقال يهوه لموسى : خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم ليهوه مقابل الشمس ، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل : اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور . . وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً . عدد ٢٥ : ١ ـ ٩» .

وظل ميل الجماعة إلى آلهة شعوب الأرض يثير حفيظة يهوه . ولا يحجم عن إفناء الجماعة كلها على اعتبار أن الفعل الفردي ملزم جماعياً للجماعة كلها في طور بدائيتها . فعندما وصلوا «إلى دائرة الأردن التي في أرض كنعان ، بنى بنو رأوبين (أحد الأسباط) هناك مذبحاً عظيم المنظر . . فأرسل بنو إسرائيل إليهم (قائلين) : . . ما هذه الخيانة التي خنتم بها إلٰه إسرائيل بالرجوع اليوم عن يهوه ، ببنيانكم لأنفسكم مذبحاً لتتمرّدوا اليوم على يهوه ؟ . أقليل لنا اثم فغور . . والوباء في جماعة يهوه ، حتى ترجعوا أنتم اليوم عن يهوه . فيكون أنكم اليوم تتمرّدون على يهوه . وهو غداً يسخط على كل جماعة إسرائيل . يشوع ٢٢ : ١٠ ـ ١٨» .

وقد يصل السخط على الجماعة حدّ التهديد بإزالة إسرائيل عن وجه الأرض . أو باقتلاعهم من هذه الأرض ، وطردهم إلى أرض لم يعرفوها من قبل «إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي . . فتذهبون وتعبدون آلهة أُخرى ، وتسجدون لها ، فإني اقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها . ملوك أول ٩ : ٦» . وبصيغة الماضي يقول «إن انقلبتم وتركتم فرائضي ووصاياي ، وذهبتم وعبدتم آلهة أُخرى ، وسجدتم لها ، فإني أقلعهم من أرضي التي أعطيتهم إياها . . فيقولون من أجل أنهم تركوا يهوه إلٰه آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر . وتمسّكوا بآلهة أُخرى ، وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلب عليهم كل هذا الشر . أخبار الأيام الثاني ٧ : ١٩ ـ ٢٢» . وقد ردّ ارميا(من جيل السبي) ما حلّ بهم من سبي

إلى بلاد ما بين النهرين ، إلى سخط يهوه عليهم ، لتركهم له ، وتحولهم إلى عبادات شعوب الأرض . يقول «من أجل أن آباءكم تركوني ، يقول يهوه ، وذهبوا وراء آلهة أخرى ، وعبدوها وسجدوا لها ، وإياي تركوا . . وأنتم اسأتم في عملكم أكثر من آبائكم . . فأطردكم من هذه الأرض إلى أرض لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم ، فتعبدون هناك آلهة أخرى . ارميا ١٦ : ١١» .

ويبلغ التهديد أحياناً حالة يطعمهم فيها لحم بنيهم في الحصار والضيق . يقول ارميا (١٩ : ٤ - ٩) «من أجل أنهم تركوني . . وبخّروا لآلهة أخرى . . وبنوا مرتفعات للبعل . . لذلك ها أيام تأتي ، يقول يهوه . . وأجعل هذه المدينة للدهش والصفير . كل عابر بها يدهش ويصفر من أجل كل ضرباتها . وأطعمهم لحم بنيهم . فيأكلون كل واحد لحم صاحبه في الحصار والضيق» .

فرض يهوه بالقوة

هذا الحث اللاهث على إفراد يهوه من بين «الآلهة الأُخرى» . والتحذير من مغبّة السجود لها والإنغواء وراءها . والنهي عن ذكرها أو عبادتها أو الذبح وتقديم القرابين لها . والتهديد باقتلاع الجماعة من الأرض ، أو بإفنائها . أو بإطعامهم لحم بنيهم في الحصار والضيق في حال التبخير لها ، يعني أن إيمانهم بيهوه كان سطحياً . وكان من السهل أن يتحوّل بنو إسرائيل عن عبادة يهوه إلى عبادات الشعوب التي عرفوها أو احتكّوا بها .

والسؤال : «لماذا كان إيمانهم بيهوه سطحياً؟» . يتطلب بحثاً خاصاً . ولذلك سنقتصر في الإجابة ضمن الحدود التي يسمح بها حجم هذه الدراسة .

من البديهي أن معتقدات الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي هي معتقدات طبيعية ، أي فعل عقلي . فعل تأمل في الحياة وفي ما وراء الطبيعة . فحين بدأ الإنسان القديم في سوريا الطبيعية يتأمل في الكون المحيط به . وحين أرهف التأمل حسّه ، وأذكى التطورالحضاري وعيه ، ارتفع بنظرته إلى الاعالي ، فأحس بالكمال والمطلق غير المحدودين بالصورة . والمتعاليين على تجربة الحواس . وخالجه شعور بأن للسماء سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها . وشعور بأن «القوة العالية» المطلقة الكامنة في عالم غير العالم المنظور ، لعلّه في السماء العالية ، هي قوة خفية ، مستقلة عن إرادة البشر . تحرك الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها . وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبارة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية ، بالعلو والسماء . وظلت مشاعره مشدودة أبداً نحو القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء .

هذه القوة السماوية التي أحس الإنسان القديم في سوريا الطبيعية بعظمتها وجلالها ،

اعتبرها السلطة المطلقة التي تدعو إلى الولاء بمجرد وجودها . وهي في الوقت ذاته مصدر كل سلطة ومبدأها الفعّال في كلا المجتمعين : الكوني والبشري . ومصدر القوّة التي تدير شؤون الكون الإنسانية والطبيعية . وهي الطاقة المنظمة للسلطة الفاعلة في الجو والمناخ ، وما ينتج عنهما من تنظيم للطقس والفصول . وهي أيضاً مصدر التنظيم الذي ينقذ المجتمع من الفوضى ، ويجعل منه كلاً منظم التركيب . ومصدر الطاقة التي تضمن طاعة الناس التلقائية للأوامر والقوانين والأعراف الخلقية في المجتمع . ومن هنا كان اعتبار الشعوب القديمة في سوريا الطبيعية أن هذه القوّة هي المبدأ الفاعل في الكون وفي الوجود (الأرض) . وهذا المبدأ الفاعل هو الفعالية المثالية في الكمال والخير والنظام .

أما الظواهر الدينية فهي ظواهر اجتماعية بكل ما يحمل هذا التعبير العلمي من معان . ومن هنا فهي اجبارية الزامية ، أي أن الأفراد مجبرون على الخضوع لها وإلاّ وقعوا تحت طائلة جزاءات دنيوية أو أخروية ، مادية ومعنوية . وهذا الإجبار لا يصدر عن الأفراد ، وإنما عن سلطة عليا تفوقهم ، هي سلطة الإله في الظواهر الدينية . وسلطة المجتمع والشعور الإجتماعي الذي يسود الأفراد في الظواهر الاجتماعية .

والظواهر الدينية تعتمد على الإيمان . والإيمان يعني التصديق ولا يعني العلم . وهذا التصديق يكون في بدء ظهور الدعوات الدينية قائماً على الفرض بالقوة والعنف ، وعلى الإقناع بالمعجزات .

ومن الواضح لكل ذي بصيرة أن الدعوة ـ الديانة التي وضعها موسى ، وساق بها جماعة بني إسرائيل من مصر ، قامت على التصديق الذي فرض على الجماعة بالقوة والعنف والإرهاب . وعلى الإقناع بالمعجزات . وظل أفراد الجماعة مجبرين على الخضوع لها ضمن سلسلة محكمة من أشكال الوعيد والتهديد . وبذلك لم تنغرس عميقاً في وجداناتهم ، لأنها كانت في الصورة أشكالاً وطقوساً . وفي الإطار تنظيماً طائفياً يربط جماعة معينة بمجموعة من الشعائر والتعاليم الخاصة . وكانت في الوضعين : الصورة والإطار ، محاولة فرض بالقوة .

والحقيقة أن موسى كان قاسياً ، فرض على جماعة بني إسرائيل الذين قادهم في هربهم من مصر ، عبادة يهوه بالقوة ، وصلت أحياناً إلى حدّ الإرهاب والعنف . فعندما كان موسى مجتمعاً بيهوه على جبل سيناء «اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قُم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم واتوني بها . . فأخذ ذلك من أيديهم وصورة بالازميل ، وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه وقال غداً عيد للرب . فبكروا في الغد

وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة ، وجلس الشعب للأكل والشرب . ثم قاموا للعب . . » .

فلما نزل موسى من الجبل «ورأى الشعب أنه معرّى . . وقف في باب المحلة وقال : من ليهوه فاليّ . فاجتمع إليه جميع بني لاوي . فقال لهم : هكذا قال يهوه إله إسرائيل : ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومرّوا من باب إلى باب في المحلة ، واقتلوا كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه ، وكل واحد قريبه . ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى . ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل . خروج ٣٢» .

وفي صحراء سيناء أخذ بعض شيوخ العشائر الإسرائيلية يتمرّدون على موسى وهارون اللذين استأثرا بزعامة الجماعة قيادة وكهنوتاً . «فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما : كفاكما إن الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها يهوه ، فما بالكما ترتفعان على جماعة يهوه ؟ .

فلما سمع موسى . . كلم قورح بن لاوى وجميع قومه(الخارجين على زعامة موسى) قائلاً : غداً يعلن الرب من هو له ، ومن المقدس حتى يقربه إليه . . خذوا لكم مجامر . . واجعلوا فيها ناراً وضعوا فيها بخوراً أمام يهوه غداً . فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس . خروج ١٦ :٣-٧» .

وهنا يحجم موسى أو الحبر الذي حرر شريعة موسى ، عن توضيح هذا الخيار الذي وضعه موسى أمام الجماعة المتمردة (المجامر والبخور) . ويسكت عن ذكر الطريقة التي تمّ فيها اختيار الرب للمقدس منهما : موسى وقورح .

ويبدو أن قورح الذي كان يزاحم موسى على مركز القيادة (بزعم أن الرب اختاره وقربه إليه) ، كان يزاحم هارون أيضاً على مركز الكهانة الذي خصّه به موسى . أو يطلب مركزاً في الكهنوت طمعاً بما يدره على صاحبه من قرابين وتقدمات .

«فقال موسى لقورح : اسمعوا يا بني لاوي : أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل ليقربكم إليه ، لكي تعملوا خدمة مسكن الرب . وتقفوا قدام الجماعة لخدمتها . فقربك وجميع اخوتك بني لاوي معك . وتطلبون أيضاً كهنوتاً ؟ . إذاً أنت وكل جماعتك متفقون على الرب . وأما هارون فما هو حتى تتذمروا عليه ؟ . عدد ١٦ : ٨ - ١١» .

فموسى يمننهم بما فعله إلهه يهوه من أجلهم : أفرزهم من بين الجماعة ، وقربهم إليه ، وخصّهم بخدمة مسكن الرب ، والوقوف قدام الجماعة . ولكنه ينكر عليهم طلبهم كهنوتاً ، كما ينكر عليهم تذمرهم على هارون المسكين الذي عبر عن وضعه أو شأنه في الجماعة بقوله «وأما هارون فما هو حتى تتذمروا عليه ؟ .

ثم «أرسل موسى ليدعو داثـان وابيرام (الخـارجين على زعامـة موسى أيضـاً) . فقالا : لا نصعد . أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً ، لتميتنا في البرية ، حتى تتـرأس علينا أيضـاً ترؤسـاً . كذلـك لم تأت بنـا إلى أرض تفيض لبنـاً وعسـلاً . ولا اعـطيتنـا نصيب حقـول وكروم . عدد ١٦ : ١٢ ـ ١٤» .

فابنا ايلي اب (داثان وأبيرام) المتمرّدان الآخران ينكران على موسى إخراجه الجمـاعة من أرض (مصر) تفيض لبناً وعسلاً . وبالمقابل لم يأتِ بهم ، كما وعـدهم ، إلى «أرض تفيض لبناً وعسلاً . ولا أعطاهم نصيب حقول وكروم» . وإنما ، وهنا الطامة الكبرى ، يميتهم في البريـة . وبـالإضافـة إلى التغريـر بهم ، يترأس عليهم . ورداً على تغـريره بهم ، يـوجهـان إليـه أصـابـع الإتهام : «هل تقلع أعين هؤلاء القوم . عدد ١٦ : ١٤» . أي نحن رأينا وعرفناووقفنا على كل ما فعلت . فهل تقلع أعين هؤلاء القوم ؟ .

وهنـا«اغتاظ مـوسى جداً وقـال للرب : لا تلتفت إلى تقدمتهمـا . حماراً واحـداً لم آخـذ منهم . ولا أسـأت إلى أحد منهم . . فكلم الـرب موسى وهـارون قـائـلاً : افتـرزا من بين هـذه الجماعة ، فإني أفنيهم في لحظة . . فـطلعوا من حـوالي مسكن قورح وداثـان وابيرام . . فقـال موسى . . إن مات هؤلاء كموت كل إنسان . . فليس الرب قـد أرسلني . ولكن إن ابتدع الـرب بـدعة ، وفتحت الأرض فـاها وابتلعتهم وكـل مالهم ، فهبـطوا أحياء إلى الهـاوية ، تعلمـون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب» .

وكان من الطبيعي أن يستجيب يهوه لطلب مختاره وصفيه موسى ، فما إن «فـرغ موسى من التكلم بهـذا الكـلام حتى انشقت الأرض التي تحتهم ، وفـتحـت الأرض فـاهـا وابتـلعتـهم وبيوتهم . . فنزلوا وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية . وانطبقت عليهم الأرض . . وخـرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً . عدد ١٦ : ١٥ ـ ٣٥» .

وإزاء هذه المجزرة التي نفذها موسى واتباعه بالجماعة المتمردة ، «تذمـر كل جمـاعة بني إسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين : أنتما قد قتلتما شعب الرب» . فمـا عتم موسى أن شن وأتباعه هجوماً على العصاة في ما هم نيام في خيامهم ، وذبحوا منهم أربعة عشـر ألف رجل غدراً ، ومن دون رحمة . ولكن محـرر التوراة نسب المـذبحة إلى يهـوه (الرب) عقـاباً لهم على تمردهم عليه وعلى مختاره موسى . قـال«لما اجتمعت الجمـاعة على مـوسى وهارون ، انصـرفا إلى خيمة الإجتماع . . فكلم الـرب موسى قـائلاً : اطلعـا من وسط هذه الجمـاعة فـإني أفنيهم بلحظة . . فقال موسى لهارون : خذ المجمرة وكفّر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الـرب . قد ابتدأ الـوباء . فـركض هارون إلى وسط الجمـاعة وإذا الـوباء قـد ابتدأ في الشعب . فـوضع البخور وكفّر عن الشعب . ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء . وكان الذين مـاتوا بـالوبـاء أربعة عشر ألفاً وسبعمائة . عدد ١٦ : ٤١ ـ ٤٩» .

وكنا قد أشرنا في ما تقدم إلى المجزرة التي أنزلها موسى بـالعصاة من بني إسـرائيل ، في أرض مؤاب . والتي نفّـذ قسماً منهـا في عين الشمس حتى يرتـد ، على زعمـه ، «حمـو غضب الرب» . ونفّذ القسم الآخر غدراً وغيلة . ولكن محرر التوراة ، كعادته ، نسبها إلى الوبـاء الذي أنزله يهـوه بالعصـاة ، سخطاً عليهم ، وغيـرة من «الآلهة الأخـرى» التي عبدهـا أتباعـه وسجدوا لها .

الميل والتحوّل إلى عبادات شعوب الأرض

ذكرنا أن الدعوة ـ الديانة التي وضعها موسى لم تنغرس عميقاً في نفوس أتباعه ، ولذلك سرعان ما كانوا ينصرفون عن عبادة إلـه موسى (يهوه) ، إلى عباداتهم السابقة . فحين صعد موسى إلى الجبل ليتصل بإلهه (يهوه) ، استفاد جماعته من غيابه «وصنعوا عجلاً في حوريب . وسجدوا لتمثال مسبوك» كما يقول صاحب المزمور (١٠٦ : ١٩) .

فموسى لم يستطع ردع قطيعه عن عبادة العجل الذهبي . وعن الرقص عراة أمامه . لأن عبادة العجول التي مارسوها في مصر كانت لا تزال حية في ذاكرتهم بعد خروجهم القريب من مصر .

والحقيقة أن بني إسرائيل لم يتخلّوا قط عن عبادة العجل . وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان رمزاً لإلـههم . وقد أشار كتاب التوراة (العهد القديم) إلى عبادتهم للعجول في غير موضع . من ذلك مثلاً أن يربعام ملك إسرائيل أمر بصنع «عجلي ذهب . . وضع واحداً في بيت ايل ، وجعل الآخر في دان . . وذبح للعجلين اللذين صنعهما . . وقال . . هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ملوك أول ١٢ : ٢٨ ـ ٣٢» . وذاعت عبادة العجول بين اليهود في السامرة . يقول هوشع (٨ : ٥) «قد زَنِخَ عجلك يا سامرة» .

وقصة الأفعى التي أدخلها موسى في روعهم ، وحاول أن يجعلها خيطاً في نسيج إيمانهم ، وفريضة دهرية في طقوس عبادتهم ، قصة غريبة ومدهشة . وهي تندرج تحت باب السحر الذي شغل حيزاً مهماً في الديانة التي أنشأها موسى . فحين تقوّل الجماعة على موسى وإلهه . موجّهين إليهما أصابع الإتهام بالتقصير في إدخالهم أرض العسل واللبن التي وعداهم بها . وبلسان محرر التوراة «تكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين : لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية ، لأنه لا خبز ولا ماء . وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف . أرسل الرب

على الشعب الحيّات المحرقة ، فلدغت الشعب ، فمات قوم كثيرون من إسرائيل . فأتى الشعب إلى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك . فصلّ إلى الرب ليرفع عنا الحيات . فصلّى موسى لأجل الشعب . فقال الرب لموسى : اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية ، فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا . عدد ٢١ : ٥ ـ٩» .

وقد عبدها اليهود في الهيكل إلى زمن حزقيا ، ملك يهوذا (٧٢٠ ق.م) «الذي سحق حية النحاس التي عملها موسى ، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ، ودعوها نحشتان ، الملوك الثاني ١٨ : ٤» .

وكانت الترافيم (أشكال من التماثيل) شيئاً عادياً في حياة بني إسرائيل . فحين كان يعقوب (إسرائيل) يرعى غنم خاله لابان الارامي في فدان ارام ، «سرقت زوجته راحيل أصنام أبيها . تكوين ٣١ : ١٩» . وحين «أنزلت ميكال داود من الكوة ، وذهب هارباً» من وجه شاول «وضعت الترافيم في الفراش» إيهاماً لعبيد شاول بأن داود نائم في الفراش . سموئيل الأول ١٩ : ١٢» . وفي تعبيره عن حالة الضعف وقلة الشأن التي كانت لبني إسرائيل ، يقول النبي هوشع (٣ : ٤) «إن بني إسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم» .

وقد لبثوا حتى عصر متأخر يحرقون بنيهم وبناتهم قرابين ليهوه ، أو تكفيراً عن معاصيهم وخطاياهم . يقول النبي ارميا (٧ : ٣١) مثلاً إنهم «بنوا مرتفعات توفه في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار» . ويقول حزق ايل (٢٠ : ٢٦) إنهم «أجازوا في النار كل فاتح رحم» . وقد أنكر أنبياؤهم المتأخرون هذه التضحية . يقول النبي ميخا مثلاً «هل أعطي بكري عن معصيتي . ثمرة جسدي عن خطية نفسي ؟ . ميخا ٦ : ٧» .

وحين وصلوا إلى تخوم أرض كنعان بعد أربعين سنة من التبدّي في صحراء سيناء ، انصرفوا عن عبادة إله موسى (يهوه) ، وراحوا يتقربون إلى عبادات شعوب الأرض . ففي أرض مؤاب (في الجنوب الشرقي من فلسطين) مثلاً ، يقول محرر التوراة ، «أقام إسرائيل في شطيم ، وابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب ، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن . فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلّق إسرائيل ببعل فغور . عدد ٢٥ : ١ ـ ٣» .

ورغم الأوامر الصارمة التي أطلقها في وجوههم كهانهم وزعماؤهم ، كقول يشوع (٢٤ : ١٤) «انزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم في عبر النهر وفي مصر ، واعبدوا يهوه» . وقوله (٢٤ : ٢٣) «انزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم ، وأميلوا قلوبكم إلى يهوه إله إسرائيل» . فقد ظلوا يتقرّبون إلى معبودات شعوب الأرض في هياكلها . يقول محرر سفر القضاة (٢ : ١١ ـ ١٣) «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عيني يهوه ، وعبدوا البعليم . وتركوا يهوه إله آبائهم الذي أخرجهم

من أرض مصـر ، وساروا وراء آلهـة أُخرى من آلهـة الشعوب الـذين حـولهم ، وسجـدوا لهـا . وأغاظوا يهوه . تركوا يهوه ، وعبدوا البعل وعشتـاروت» . ويضيف المحرر إنهم «زنـوا وراء آلهة أُخرى وسجدوا لها . قضاة ٢ : ١٧» . وكثيراً ما «كانوا يفسـدون أكثر من آبـائهم بالـذهاب وراء آلهة أُخرى ليعبدوها ويسجدوا لها . قضاة ٢ : ١٩» .

وكانوا ، كلما ازدادوا اختلاطاً بشعوب الأرض ، كلمـا ازدادوا تأثـراً بمعتقداتهـا ، لضعف ثقتهم بيهوه ، وسطحية إيمانهم بالديـانة التي فـرضها عليهم مـوسى . ولذلـك كان هم أنبيـائهم وكهانهم العمل وبشتى الـوسائـل على محاربـة هذه الـظاهرة (ميـل أتباعهم إلى عبـادات شعوب الأرض) التي تفشّت بشكـل مذهـل بين أتباعهم . وعلى إعـادة عـامـة الجمـاعـة إلى الشـريعـة الموسوية ، ودرء الخطر عن يهوه . وقد تمثّل همهم هذا في اتجاهات عدة ، نذكر منها مثلاً :

١ ـ حثّ الجماعة على تهديم مذابح العبادات التي أقامتها الشعوب في هياكلها . وتكسير الأنصاب التي رفعتها ، و «تخريب جميع الأمـاكن حيث عبدت الأُمم آلهتهـا . تثنية ١٢ : ٢» . يقـول موسى «هكـذا تفعلون بهم : تهدمـون مذابحهم وتكسـرون أنصابهم وتقـطعون سـواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار . تثنية ٧ : ٥» .

٢ ـ الدعاء بالخراب على معابد الشعوب . فالنبي هوشع (١٠ : ٨) مثلاً يدعـو على معبد أون (السيد) ـ (الله بمفهومنا) بالخراب . يقول «وتخرب شوامخ أون ، خطية إسرائيل» .

٣ ـ تـأسيس المدارس الخـاصة لتعليم شـريعة مـوسى ، ولتخريـج الأنبياء الـذين يعملون بدورهم على ربط العامـة بعجلة يهوه . وابعـادهم بالتـالي عن معتقدات شعـوب الأرض . ففي جبعة مثلاً كان لهم مدرسة (سموئيـل الأول ١٠ : ٥) وفي بيت ايل (الملوك الثـاني ٢ : ٣) وفي أريحا (الملوك الثاني ٢ : ٥) وفي الرامة (سموئيل الأول ١٩ : ٢٠) .

٤ ـ الإلحاح على المنجزات التي حققها يهوه للجماعة . من ذلك مثلاً قول يهوه «أنـا يهوه إلٰهكم الـذي أخرجكم من أرض مصـر ، من كونكم عبيـداً لهم ، وقطع قيـود نيركم ، وسيّـركم قياماً ، لاويين ٢٦ : ١٣» . وقول يشوع في العهد (الوصية) الذي قطعه للجماعة في آخـر أيامـه «هكذا قال يهوه إلٰه إسـرائيل : آبـاؤكم سكنوا في عبـر النهر . . وعبـدوا آلهة أُخـرى . فأخـذت إبراهيم أباكم من عبر النهر وسـرت به في كـل أرض كنعان وأكثـرت نسله . . وأما يعقـوب وبنوه فنزلوا إلى مصر . وأرسلت موسى وهارون ، وضربت مصر . . ثم أخرجتكم . فأخرجت آباءكم من مصر . ودخلتم البحر ، وتبع المصريون آباءكم بمركبات وفرسان إلى بحر سوف . فصـرخوا إلى يهوه ، فجعل ظلاماً بينكم وبين المصريين . وجلب عليهم البحر فغـطاهم . . ثم أتيت بكم إلى أرض الأموريين الساكنين في عبر الأردن ، فحاربوكم ، ودفعتهم بيدكم ، فملكتم أرضهم ، وأهلكتهم من أمامكم . ثم عبرتم الأردن وأتيتم إلى أريحا . فحاربكم أصحاب أريحا الأموريون والفـرزيون والكنعـانيون والحثيـون والجرجـاشيون والحـويون واليبـوسيون ، فـدفعتهم بيدكم .

وأرسلت قدامكم الزنابير وطـردتهم من أمامكم . . وأعـطيتكم أرضاً لم تتعبـوا عليها ، ومـدناً لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون . يشوع ٢٤ : ٢ -١٣» .

والواقـع أن الكهـنـة ساقوهم بشبـح ـ وهم ـ فريـة الإستعباد في مصـر . وأرادوا ليهوه أن يبقى دائم المنّ عليهم بإخراجهم من مصر . يقول يهوه «أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين . وأنـا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليّ . خروج ١٩ : ٤» . «أنا يهوه إلٰهك الذي أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية . خروج ٢٠ : ٢» . «وقال يهوه ليشـوع : اليوم قـد دحرجت عنكم عار مصر . يشوع ٥٤ : ٩» .

لقـد رأى الكهنة في هـذا الـوهم ـ الشبـح ـ الفـريـة ، سـوطـاً يلهب نفـوس جمـاعتهم . ويحضّهم على التآلف والإنضواء تحت سلطة يهوه ـ الكهنة .

ويبـدو أن هذه المنجـزات كانت أهم حـدث في تاريـخ الجماعـة . ولذلـك ظل محـررو الكتاب المقدس يؤكـدون على تلك المنجزات في مـواقف لا نهايـة لها ، محـاولين حفرهـا في أدمغة الجماعة . يقول يهوه «لكي تخبر في مسامع ابنك بما فعلته في مصر . خروج ١٠ : ١» . ويقول موسى «واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر ، فأخرجك يهوه إلٰهك من هناك بيـد شديـدة وذراع ممدودة . تثنية ٥ : ١٥ » . ويضيف موسى «إذا سألك ابنك غداً . . تقول له : كنا عبيـداً لفرعون في مصر ، فأخرجنا يهوه من مصر بيـد شديـدة ، وصنع آيـات وعجائب عـظيمة ورديئـة بمصر بفرعون وجميع بنيه أمام أعيننا . تثنية ٦ : ٢٠» .

ومن الأمثلة على منجزات يهوه ما ذكره صاحب المزمـور ٧٨ ، قال «شق البحـر فعبّرهم ، ونصب الميـاه كند . وهـداهم بالسحـاب نهاراً ، والليـل كله بنور نـار . شق صخوراً في البـرية وسقاهم كأنه من لجج عظيمة . أخرج مجاري من صخرة وأجرى مياهاً كالأنهار . . أمـطر عليهم منّاً للأكل ، وبرّ السماء أعطاهم . . وأمطر عليهم لحماً مثل التراب ، وكرمل البحـر طيوراً ذوات أجنحـة . . جعل في مصـر آيـاتـه وعجـائبـه . . إذ حـوّل خلجـانهم إلى دم ومجـاريهم لكي لا يشـربوا . أرسـل عليهم بعوضـاً فأكلهم ، وضفـادع فأفسـدتهم . أسلم للجردم غلتهم ، وتعبهم للجـراد . أهلك بالبَـرَد كرومهم ، وجميّـزهم بالصقيـع . ودفـع إلى البَـرَد بهـائمهم ومـواشيهم للبروق . أرسلّ عليهم حمـو غضبه سخـطاً ورجزاً وضيقـاً جيش ملائكـة أشرار . . دفـع حياتهم للوباء . وضرب كل بكر في مصر» . وما ذكره صاحب المـزمور ١٠٥ ، قـال «ذهبوا من أمـة إلى أمة ، من مملكة إلى شعب آخر . فلم يدع إنساناً يظلمهم . بل وبّخ ملوكاً من أجلهم ، قـائلاً لا تمسّـوا مسحائي ، ولا تسيئـوا إلى أنبيائي . . حـوّل مياه المصريين إلى دم ، وقتل أسمـاكهم . أفاضت أرضهم ضفادع . . أمـر فجاء الـذبان والبعـوض في كل تخـومهم . جعل أمـطارهم بَرَداً وناراً ملتهبة في أرضهم . ضرب كرومهم وتينهم وكسر كل أشجار تخومهم . . قتـل كل بكـر في أرضهم .

سألوا فأتاهم بالسلوى وخبز السماء أشبعهم . شق الصخرة فانفجرت المياه . جرت في اليابسة نهراً . أخرج شعبه بابتهاج ومختاريه بترنم . وأعطاهم أراضي الأمم . وتعب الشعوب ورثوه» .

٥ ـ ومن الوسائل التي استخدمها الكهنة والأنبياء لربط جماعتهم بيهوه ، غرس فكرة في أذهانهم مؤداها أن يهوه استعمل ويستعمل أعداءهم لقصاصهم . وبذلك كانوا يردّون انحدارهم أمام شعوب الأرض وخضوعهم لهم إلى غضب يهوه عليهم بسبب ابتعادهم عنه ونسيانهم له وتقرّبهم من عبادات شعوب الأرض . يقول صموئيل الكاهن «فلما نسوا يهوه إلٰههم باعهم ليد سيسرا رئيس جيش حاصور ، وليد الفلسطينيين ، وليد ملك مؤاب . صموئيل الأول ١٢ : ٩» . ويقول محرر سفر القضاة «وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني يهوه ، وعبدوا البعليم . وتركوا يهوه إلٰه آبائهم الذين أخرجهم من أرض مصر ، وساروا وراء آلهة أخرى . . وسجدوا لها ، وأغاظوا يهوه . تركوا يهوه وعبدوا البعل وعشتاروت . فحمي غضب يهوه على إسرائيل ، فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم ، وباعهم بيد أعدائهم ، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم . قضاة ٢ : ١١ ـ ١٤» . ويقول «عمل بنو إسرائيل الشرّ في عيني يهوه ، ونسوا يهوه إلٰههم . وعبدوا البعليم والسواري . فحمي غضب يهوه على إسرائيل ، فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك ارام النهرين . فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين قضاة ٣ : ٧ و ٨» . ويضيف «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني يهوه ، فشدّد يهوه عجلون ملك مؤاب على إسرائيل ، لأنهم عملوا الشر في عيني يهوه . . فعبد بنو إسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة . قضاة ٣ : ١٢» .

ويقول المحرر «وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني يهوه ، فدفعهم يهوه ليد مديان سبع سنين . . وبسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال والمغاير والحصون . قضاة ٦ : ١ و ٢» . «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني يهوه ، وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين . وتركوا يهوه ولم يعبدوه . فحمي غضب يهوه على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون . قضاة ١٠ : ٦» . «ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني يهوه ، فدفعهم يهوه ليد الفلسطينيين أربعين سنة ، قضاة ١٣ : ١» .

٦ ـ وكثيراً ما اضطروا إلى اضفاء صفات ما اعتبروه «آلهة أخرى» على إلٰههم يهوه ، في محاولة لاقناع جماعتهم بأن يهوه لا يختلف عن «الآلهة الأخرى» . فالبعل مثلاً في نصوص أوغاريت لقّب بـ «راكب الغيوم» . وهو :

يعطي صوته في السحب
ويرسل ضياءه إلى الأرض بروقاً
ويضع دلاءه في السماء

ويكثر من المطر في أوانه[١٧٩]

ويهوه «الراكب الغيوم . مزمور ٦٨ : ٤» . «يركب السماء والغمام . تثنية ٣٣ : ٢٦» . و «يهوه في الزوبعة ، وفي العاصف طريقه . والسماء غبار رجليه . ناحوم ١ : ٣» . ويهوه «المسقف علاليه بالمياه . الجاعل السماء مركبته . والماشي على أجنحة الريح . مزمور ١٠٤» .

ومثلما يهدّ صوت هدد (الرعد) في السماء هداً . كذلك كان صوت يهوه يهدّ في السماء «اسمعوا سماعاً رعد صوته . أيوب ٣٧ : ٢» . و «إلـه المجد أرعد . مزمور ٢٩ : ٣» .

وفي قصص التكوين والخليقة في الميثولوجيا التي وصلتنا عن شعوب الشرق المتوسطي ، مثّل عماء البدء بتنّين يقتله الإلـه قبل القيام بعملية التكوين وتنظيم الوجود . ففي الميثولوجيا السومرية ينتصر انكي (سيد الأرض) على تنين العماء كور Kur . وفي الميثولوجيا البابلية ينتصر ماردوك (السيد العظيم) - (الله بمفهومنا) على تنين العماء «تعامت» ، وينظم الكون . وكذلك فعل اشور (السيد) - (الله بمفهومنا) في الميثولوجيا الأشورية .

وفي الميثولوجيا الكنعانية مثّل عماء البدء بـ «الحيّة الملتوية ذات الرؤوس السبعة ، لوياثان» . و «الحية الملتوية الهاربة» . قتلها البعل (السيد) قبل القيام بعملية التكوين وتنظيم الوجود .

البعل «يسحق لوياثان الحية المتلوية

العاتية ذات الرؤوس السبعة»[١٨٠] .

وحين بدأ أحبار بني إسرائيل بوضع تاريخهم - كتابهم المقدس (التوراة) في السبي البابلي . اقتبسوا من التراثين البابلي والكنعاني ، من جملة ما اقتبسوا ، قصة التكوين والخليقة . وكان من الطبيعي أن ينسبوا دور قتل تنين العماء إلى إلهِهم يهوه . يقول محرر سفر أيوب (٢٦ : ١٣) عن يهوه :

«بقوته يزعج البحر ويسحق رهب

ويداه محقتا الحية الهاربة» .

ويخاطب صاحب المزمور (٨٩ : ١٠) يهوه بقوله :

أنت أخضعت البحر

أنت سحقت رهب مثل القتيل

وكذلك يخاطب صاحب المزمور (٧٤ : ١٣) يهوه بقوله :

أنت كسرت رؤوس التنانين

أنت رضضت رؤوس لوياثان

ويقول اشعيا (٥١ : ٩) «ألست أنت (ذراع يهوه) القاطعة رهب ، الطاعنة التنين» . ويقول «في ذلك اليوم يعاقب يهوه بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة . لوياثان الحية المتحوية . ويقتل التنين الذي في البحر . اشعيا ٢٧ : ١» .

وتصف نصوص ملحمة التكوين والخليقة البابلية (الاينوماايليش) تعامت ومن حارب معها ، بتعابير شرسة تجسّد العنف والشر . فـ «تعامت تزأر» و «غضبها مخيف» . وهي «تنوي الشر في قلبها» . وتخلق استعداداً لمعركتها أفاعي هائلة :

أسنانها حادة ، لا ترحم في الحرب

تملأ جسدها بالسم عوضاً عن الدم

ولديها تنانين هائلة تلبسها ثوب الارهاب[١٨١]

وقد جاء وصف محرري التوراة لتنين العماء (لوياثان) بتعابير تشبه إلى حد بعيد التعابير التي وردت في وصف تنين العماء في التراثين البابلي والكنعاني . أو قل إنهم اقتبسوها عنهما . من أمثلة ذلك ما ورد في سفر أيوب (٤١) من وصف لتنين العماء :

«دائرة أسنانه مرعبة

من فيه تخرج مصابيح

ويتطاير شرار نار

من منخريه يخرج دخان كأنه من قدر منفوخ أو من مرجل

نَفَسه يشعل جمراً ، ولهيب يخرج من فيه» .

ولكن رغم كل الوسائل التي انتهجها الكهنة في محاربة هذه الظاهرة (ميل أتباعهم إلى عبادات شعوب الأرض) . ورغم منجزات يهوه الكثيرة والتي أكدها محررو التوراة في أكثر من فصل وبأكثر من صيغة ، ظلت الجماعة ترتد عن يهوه كلما واتتهم الفرصة ، أو كلما تراخى الكهنة في التنبيه والتحذير والوعيد والتهديد . يقول محرر سفر القضاة (٣ : ٥) «فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، واتخذوا بناتهم لأنفسهم ، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم» . وفي الفصل العاشر من السفر ذاته يقول «وعبد بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين . وتركوا يهوه ولم يعبدوه» . ويقول محرر سفر الملوك الأول عن سليمان «فذهب سليمان وراء عشتورت إلٰهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني يهوه ، ولم يتبع يهوه . . وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بني عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه

الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن (١١ : ٥ ـ ٨) . وعن يربعام بن نباط ملك إسرائيل يقول «عمل عجلي ذهب وقال . . هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحداً في بيت ايل ، وجعل الآخر في دان . . وبنى بيت المرتفعات ، وصيّر كهنة من أطراف الشعب (١٢ : ٢٨ ـ ٣١) . وعن آخاب بن عمري ملك إسرائيل يقول «عبد البعل وسجد له ، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة . وعمل آخاب سواري لإغاظة يهوه إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل (١٦ : ٣٠ ـ ٣٣) . وفي أيامه لم يبق من «الركب التي لم تجث للبعل ، والأفواه التي لم تقبله ، غير ٧٠٠٠ ، ملوك أول ١٩ : ١٨» . وكذلك «عمل اخزيا بن آخاب ملك إسرائيل ، الشر في عيني يهوه ، وسار في طريق أبيه وطريق أمه . . وعبد البعل وسجد له ، وأغاظ يهوه إله إسرائيل . ملوك أول ٢٢ : ٥٢» .

وفي أيام يهوشفط بن آسا ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات ، بل كان الشعب لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات . ملوك أول ٢٢ : ٤٣» .

وفي أيام يهواش ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات ، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات . الملوك الثاني ١٢ : ٣» .

وفي أيام أمصيا بن يوأش ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات ، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات . الملوك الثاني ١٤ : ٤» .

وفي أيام عزريا بن أمصيا ملك يهوذا «لم تنتزع المرتفعات ، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات . الملوك الثاني ١٥ : ٤» .

وهكذا كان الأمر في أيام ملوك إسرائيل ويهوذا بغالبيتهم . يقول المحرر «وقد اتقى بنو إسرائيل آلهة أخرى . وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم يهوه من أمام بني إسرائيل . . وبنوا لأنفسهم مرتفعات في جميع مدنهم . . وأقاموا لأنفسهم انصاباً وسواري على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء . وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات . . وعبدوا الأصنام . . وصلّبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بيهوه إلههم . . وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين . . وعملوا سواري وسجدوا لجميع جند السماء . وعبدوا البعل . الملوك الثاني ١٧ : ٧ ـ ١٦» . ويقول المحرر عن منسّى بن حزقيا ملك يهوذا «بنى المرتفعات وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل آخاب ملك إسرائيل . وسجد لكل جند السماء وعبدها . وبنى مذابح في بيت يهوه . الملوك الثاني ٢١ : ٣ ـ ٥» . وعن احاز بن يوثام ملك يهوذا يقول المحرر «ذبح لآلهة دمشق الذين ضاربوه . وقال لأن آلهة ملوك ارام تساعدهم ، أنا أذبح لهم فيساعدونني . . فجمع آحاز آنية بيت يهوه ، وقطّع آنية بيت يهوه ، وأغلق أبواب بيت يهوه . وعمل لنفسه مذابح في كل زاوية في أورشليم . وفي كل مدينة فمدينة من يهوذا عمل مرتفعات للإيقاد لآلهة أخرى . أخبار الأيام الثاني ٢٨ : ٢٣ ـ ٢٥» .

وباختصار ، يقول النبي ارميا إنهم «ذهبوا وراء آلهة أُخرى ليعبدوها . . فصارت آلهتك يا يهوذا بعدد مدنك . وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزي ، مذابح للتبخير للبعل . أرميا ١١ : ١٠ ـ ١٣» . و «امتلأت أرضهم أوثاناً» كما يقول النبي اشعيا (٢ : ٨) .

ويبدو أن ميلهم إلى «الآلهة الأُخرى» كان قوياً وجارفاً . فصار «الأبناء يلتقطون حطباً ، والآباء يوقدون النار ، والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكاً لملكة السموات ، ولسكب سكائب لآلهة أُخرى . ارميا ٧ : ٩ و ١٧» . وهذا الميل إلى «الآلهة الأُخرى» الذي تمكّن في نفوسهم دفعهم إلى محاجّة أنبيائهم ومخاصمتهم . فحين كان النبي ارميا ينقل لهم ما يضطرم في صدر يهوه (الرب) من شكوى وتذمر ، كقوله «هذا الشعب الشرير الذي يأبى أن يسمع كلامي . الذي يسلك في عناد قلبه ، ويسير وراء آلهة أُخرى ليعبدها ويسجد لها . ارميا ١٣ : ١٠» . «تركوني ، ويخّروا لآلهة أُخرى . . وبنوا مرتفعات للبعل . . وسكبوا سكائب لآلهة أُخرى . ارميا ١٩ : ٤ و ١٣» . و «وضعوا مكرهاتهم في البيت الذي دعي باسمي لينجّسوه . ارميا ٧ : ٣» . كانوا يقفون بوجه ارميا مدافعين بقناعة راسخة عن ميلهم إلى عبادات شعوب الأرض ، فيقولون له إنهم حين كانوا يعبدون ملكة السموات (عشتروت) شبعوا خبزاً ولم يروا شراً . ولكنهم حين عبدوا يهوه امتنع عنهم الخير . ولذلك «سنعمل كل أمر خرج من فمنا . فنبخّر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم . فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نرَ شراً . ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها ، احتجنا إلى كل ، وفنينا بالسيف والجوع . وإذ كنا نبخّر لملكة السموات ونسكب لها سكائب ، فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكاً لنعبدها ونسكب لها السكائب . ارميا ٤٤ : ١٧» .

والجدير بالذكر أن ميل بني إسرائيل إلى عبادات شعوب الأرض ، والتأثر بمعتقداتها ، ظلاّ ضمن إطار الطقوس والشعائر : التقاط الحطب ، وايقاد النار . صنع الكعك ، وسكب السكائب . إقامة السواري ، ورفع الأنصاب . بناء المذابح ، وتقديم الذبائح . التبخير ، وبناء المرتفعات . لم يستطيعوا الارتقاء إلى درجة الاحساس بالفكرة المطلقة ، غير المحدودة بالصورة ، والمتعالية على تجربة الحواس . القوة المثالية الجبّارة ، والكونية الجامعة . التي أخرجت الكون من العماء وحرّرته من الفوضى وجعلته في بنية منظمة . ولم يتمكنوا من تقبّل أو إدراك فكرة تقرّب الإله من البشر ، فيشعرهم بمحبته و (إنسانيته) ، وقبوله التضحية ، بذاته من أجل البشر .

تحدثنا النصوص التي سلمت من تراث الشرق المتوسطي القديم ، أنّ «ان» ـ (السيد) أو ايل ـ (العالي) أو ماردوك ـ (السيد العظيم) ـ (الله بمفهومنا) بقي في ذهن الإنسان القديم ، بعد الإنتهاء من عملية التكوين والخليقة ، وتنظيم الوجود ، بقي بعيداً ، وبعيداً جداً . فهو «سيد الأبدية» و«سيد المخلوقات» و «ملك السماء والأرض» و «الكلي القدرة» و «الكلي الحكمة»

و «المدبّر للكون» . وهو لجلاله وعظمته وسموّه ، بقي متعالياً وبعيداً ، لا يرافق الإنسان في شؤونه اليومية ، ولا يهتم بمشكلات البشر الحياتية بمعناها العادي والمعبّر .

ومن هنا كان شعور الإنسان القديم في هذه المنطقة من العالم ، بالحاجة إلى قوة أو قوى أخرى «سيدة» و «عالية» أيضاً ، ولكنها تستمد سلطتها أو قوتها من القوة العليا المطلقة «ان» ـ (السيد) أو «ايل» ـ (العالي) . تتقرّب من البشر بمحبة فتتنبّه إلى ظروف حياتهم المادية والروحية . وتعمل على تخفيف الأعباء عنهم ، ورفع سويتهم ، وإعطائهم آمالاً جديدة لعالم أفضل على الأرض وما بعد الموت .

هذه القوى كانت بمثابة الفعل المسند الذي يلتزم بشيء . . ولذلك فقد اندمجت بحياة الناس ومظاهر الطبيعة حولهم . وواكبت يوميات حياتهم الإقتصادية والإجتماعية . فكان لكل بلدة بعل (سيد) أو بعلة (سيدة) ، تتيمّن باسمه أو باسمها ، وتنظّم له أو لها طقوساً احتفالية دينية تتفق مع مشاعر الإنسان وحاجاته الفردية والإجتماعية العامة ، وترتبط بعواطفه وتطلعاته .

وهذه القوى أو بعضها عاشت على الأرض ، وتقرّبت من الناس بغية تعليمهم أسس الحضارة . عاملتهم بمحبة ، وسهّلت وسائل حياتهم ، وكانت عوناً لهم . أو قل إنها سهرت على حياة الإنسان بمختلف مرافقها . وغرست الأمل في نفسه . فشعر الإنسان بقربها منه وبمحبتها له أكثر مما شعر بمحبة الصانع الأول رغم تقديسه لجلاله وعظمته ، ولجلالة وعظمة الأعمال التي قام بها هذا الصانع القادر .

ويبدو أن التغيّرات الكبرى التي تطرأ كل سنة على وجه الأرض ، تركت أثراً قوياً في أذهان القدماء ، وحدت بهم إلى التأمل فيها وفي الأسباب التي تؤدي إليها . فالزرع الأخضر الذي ينبت من الأرض كل عام لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة . والحبة التي بذرها الزارع نبتت واخضرّت وآتت ثمارها . ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة . ويبدو أن الإنسان القديم في الشرق المتوسطي لاحظ في تأمله دورة الحياة النباتية أن النباتات المخضرّة تذوي كل عام ، وتتراءى لناظرها وكأنها ماتت وفارقت الحياة . ولكنها تعود في فصل آخر إلى حياتها ونضرتها . وهنا راح يفكر في تلك الحياة المتجدّدة التي لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً . وكان من الطبيعي أن يدخل في روعه الشعور أو الاعتقاد بأن قوة ما تعمل بدأب وراء مشاهد الطبيعة المتغيّرة . وأن هذا الشيء الحي الذي لا يموت هو «فوق» الموجودات التي على الأرض . «أعلى» من الكائنات التي يدركها . لم يسمّه . وكيف يسمي شيئاً لا يدركه بحواسه ؟ . أعطاه في سومر صفة «دموزي» التي تعني «الابن البار للمياه العذبة» . وهل يكون الابن البار للمياه العذبة غير الخصب «سيد» الحياة . وفي بابل حرّف اللفظ بفعل البيئة واللسان إلى «تموز» . وفي سوريا الغربية كان لـ «البعل» ـ (السيد) و «أدون» ـ (السيد) الدور الذي كان لدموزي السومري وتموز البابلي .

المهم أن القدماء في سوريا الطبيعية نعتوا الخصب بسيد (دموزي ، تموز ، البعل ، أدون) لا يموت . يتوارى عن الأرض لحين ، ثم يعود في دورة الحياة الجديدة .

وموت «السيد» وانبعاثه ضروريان في مفهومهم من أجل استمرار الحياة في مظاهر الطبيعة . وتعبير عن وعيهم بالحياة المتجددة دائماً وأبداً . وهكذا كان البعل مثالاً للموت الخلاق للحياة . فبموته علم الإنسان أن في الموت حياة ، وأن ما بعد الموت حياة . وفي هذا نوع من التفسير لبعض الغوامض في نواميس الطبيعة .

وإذا كانت الاحتفالات بموت البعل وانبعاثه تتباين من منطقة إلى أُخرى في شكلها وموعدها . وكانت مراسم الطقوس تختلف من اقليم إلى آخر في الاسماء والتفاصيل ، فقد كانت متشابهة في الجوهر . وإذا كان «السيد» - (دموزي ، تموز ، البعل ، أدون) قد تقبل صفات كثيرة تبعاً للبيئات والألسنة ، فإنه في جوهره واحد . فهو قوة الحياة في النبات والحيوان وفي الإنسان أيضاً . يموت كل سنة في فصل معين (الصيف مثلاً) ، ولكن من الضروري إنبعاثه حياً في فصل آخر (الربيع مثلاً) من أجل استمرار الحياة في مظاهر الطبيعة . فموته اذن لا يعتبر فناء لأنه يؤدي إلى عملية خلق جديدة في الطبيعة ، في عودة الخصب والخضرة . وفي الإنسان في تطوير داخله وتزويده بأمل جديد بحياة جديدة ومستمرة في ما بعد الموت ، كما استمرت حياة «البعل» - (السيد) الذي مات ليبعث من جديد ، ويصعد إلى السماء فيصبح «بعل» الأزمنة الجديدة . ومن الواضح أن هذه العقيدة (البعل الذي يموت ثم يقوم من الموت) أضحت في ما بعد من جوهر الديانة المسيحية .

ولعل أبرز ما تميّزت به هذه العقيدة هو أن «السيد» - (دموزي ، تموز ، البعل ، أدون وأخيراً المسيح) يعطي بمحبة عطاء سخياً ومن دون مقابل . وهذا العطاء العفوي والسخي وصل إلى ذروة المحبة المتمثّلة في التضحية . تضحية «السيد» بذاته من أجل الإنسان . فموت «السيد» شرط ضروري لاعادة الخلق من جديد في الطبيعة ، وللاخصاب ، وتعميم الخير ، مثلما هو ضروري موت حبة القمح (دفنها في الأرض) لتبعث من جديد (خلق جديد) .

وهكذا أدرك القدماء ، كمجتمعات زراعية في سوريا الطبيعية ، أن القوة التي تكمن في حبة القمح لاحيائها وانمائها ، هي قوة البعل (السيد) . أي أن حبة القمح جسد لبعل (سيد) نزل تحت الأرض ، وقبل الموت ليبعث من جديد في خضرة الربيع . «إن لم تقع حبة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها . ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير . انجيل يوحنا ١٢/٢٤» .

فالبعل (السيد) يحيا في مخلوقاته . وتناول الإنسان جسده بواسطة رمز مادي (حبة القمح) تدليل على الإحتفاظ به داخل الإنسان . ومن هنا تعلم الإنسان بأن الموت ليس فناء . وأنه سيموت كما مات «البعل» - (السيد) . ولكن بعد الموت بعثاً وحياة . وبذلك أدرك الجوهر الذي

تميزت به المسيحية من بعد : في الموت حياة ، وبعد الموت حياة .

أما يهوه فكان يلعب على مسرح الحياة اليهودية دور إلٰهين : دور الإله صانع الكون ، ودور إله قريب من البشر . ولكننا لا نستطيع أن نصنّف يهوه كإله صانع للكون ، فهو لم ينسحب إلى السماء بعدما أتمّ عملية التكوين والخليقة . وبالتالي لم يبتعد عن البشر نهائياً كالإله الصانع . وإنما ظل يتدخل في شؤون جماعته مذ أعلن عن نفسه ، أو أعلن موسى عن حضوره بينهم . فـ «لابرام ظهر» و «لابرام قال» و «مع ابرام قطع الرب ميثاقاً» . و «لما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : أقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك . تكوين ١٧ : ١» . و «لما فرغ الرب من الكلام مع إبراهيم ، صعد الله عن إبراهيم ، تكوين ١٧ : ٢٢» . «وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم . تكوين ١٨ : ٣٣» .

ومع يعقوب عقد جولة مصارعة ، «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ، قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه . تكوين ٣٢ : ٣٠» . وفي رعايته ليعقوب «كلم الله يعقوب قائلاً : أنا الله إله أبيك . لا تخف من النزول إلى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر ، وأنا أصعدك منها أيضاً . تكوين ٤٦ : ٢» .

وحين ظهر الرب لموسى «غطّى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب إني قد رأيت مذلّة شعبي في مصر . . فنزلت لانقذهم من أيدي المصريين . . وأصعدهم إلى مكان الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . خروج ٣ : ٨» .

وبعد خروجهم من مصر «كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق . وليلاً في عمود نار ليضيء لهم . خروج ١٣ : ٢١» . «وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب ، وأزعج عسكر المصريين . وخلع بكر مركباتهم . خروج ١٤ : ٢٤» .

ولما «نزل الرب على جبل سيناء . خروج ١٩ ؛ ٢٠» ، «اقترب موسى إلى الضباب حيث كان الله . خروج ٢٠ : ٢١» . «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ، ورأوا إلٰه إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف وكذات السماء في النقاوة . ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل . فرأوا الله وأكلوا وشربوا . خروج ٢٤ : ١٠» . وكان «الرب يكلم موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه . خروج ٣٣ : ١١» .

وهكذا كان يهوه (الرب) مع ملوك وأنبياء وكهنة بني إسرائيل جميعهم . يقول ليشوع «كما كنت مع موسى أكون معك . لا أهملك ولا أتركك . يشوع ١ : ٥» . «وإلى جدعون التفت الرب وقال : اذهب بقوتك وخلّص إسرائيل من كف مديان . أما أرسلتك ؟ . قضاة ٦ : ١٤» . ويبدو أن الرب عدل عن قراره وأراد إن يخلّص إسرائيل من كف مديان بنفسه «فقال لجدعون إن

الشعب الذي معك كثير عليّ لادفع المديانيين بيدهم ، لئلا يفتخر عليّ إسرائيل قائلاً يدي خلّصتني . . فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفاً . قضاة ٧ : ٢» .

ويقول الرب لداود «أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل . سموئيل الثاني ٧ : ٨» . «وكان الرب يخلّص داود حيثما توجّه . سموئيل الثاني ٨ : ٦» . ويقول لسليمان «أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك ، ولا يقوم بعدك نظيرك . ملوك أول ٣ : ١٢» .

وقد رأينا في ما تقدم أن الرب كان مع ايليا وايليشع كالخاتم المارد : «لبيك أطلب ما تريد . بين يديك ما تشاء» .

وباختصار ، كان يهوه قريباً من أتباعه بمفهوم مادي بحت ، وسياسي عنصري . فهو لا يهتم بغير نصرهم على شعوب الأرض، وتمكينهم من الإستيلاء على الأرض التي وعدهم بها . وقربه منهم لم يكن له المعنى الميثولوجي المتمثّل في محبة البشر ، والموت من أجلهم . فهم لم يستطيعوا ، لعنصريتهم وانغلاقهم، تقبّل فكرة الإله الذي يأتي لخلاص سائر البشر ، ولتعليم كافة الأمم . ولم يفهموا مغزى قرب الإله من البشر ، الإله المتجسّد الذي يخضع لدرام إلٰهي ، ويؤدي موته إلى عملية خلق جديد ، في الطبيعة : عودة الخصب والخضرة . وفي الإنسان : تزويده بأمل جديد بحياة جديدة . أي زرع الأمل في صدره بحياة مستمرة بعد الموت ، كما استمرت حياة الإله الذي قبل الموت ليُبعث من جديد .

ومن هذا المنطلق لا يمكن اعتبار يهوه كالآلهة القريبة التي تقرّبت من البشر ، وعملت على تخفيف الأعباء عنهم ، ورفع سويتهم ، وإعطائهم آمالاً جديدة لعالم أفضل على الأرض وما بعد الموت . ومحبته لا تعني محبة إلٰهية للبشر ، كل البشر ، ولا تنبع من «محبة» بمعناها الصافي والمعبّر ، لأنها خاصة بجماعة معينة (بني إسرائيل) دون غيرهم .

والملاحظ أن بني إسرائيل ، في تقليدهم للكنعانيين في طقوسهم وشعائرهم . وفي تأثّرهم بجوانب من التراث الكنعاني ، أطلقوا على أبنائهم ، كما يفعل الكنعانيون ، وعلى الاعلام في تاريخهم ، أسماء يدخل في تركيبها صفة القوة العالية «ايل» ـ (العالي) ، أو صفة القوة التي تقرّبت من الإنسان أو شعر الإنسان بقربها منه «البعل» ـ (السيد) . فمن الاسماء التوراتية المضافة إلى «ايل» نذكر : ايلاسار ، اوبئيل ، ايليفاز ، ايليصافان ، ايلشبع ، ايليصور ، ايليساف ، اسرئيل ، ايليداد ، ايليعازر ، اريئيل ، ايليشمع ، ايليآب ، ايلقاين ، ايلفلط ، ايليملك ، اسماعيل ، ايليشع ، ايليداع ،ايليحنن ، ايليحيا ، ايليعام ، أوريئيل ، اشريئيل ، بتوئيل ، بصلئيل ، جمليئيل ، جديئيل ، جأوئيل ، حنيئيل ، حيئيل ، حموئيل .حزيئيل ، حزقئيل ، دعوئيل ، دانيئيل ، يريئيل ، رعوئيل ، شلوميئيل ، شموئيل ، شوئيل ، شألتيئيل ، شبوئيل ، صوريئيل ، عزيئيل ، عشيئيل ، عسائيل ، عميئيل ، عديئيل ،

عبديئيل ، عزريئيل ، عميئيل ، فوطيئيل ، فجعيئيل ، فلطيئيل ، فدهئيل ، فنوئيل ، نثنائيل ، نحليئيل ، نعيئيل ، قموئيل ، قبصئيل ، متوشائيل ، مهيطبئيل ، مجديئيل ، ميشائيل ، ميخائيل ، محويائيل ، مهللئيل ، ملكيئيل ، هابيل ، يدعئيل ، يحيئيل ، يحزيئيل ، يحزقئيل ، يشمعئيل ، يقتئيل ، يرفئيل ، يموئيل ، ياحلئيل ، يزرعئيل ، ينيئيل ، يفتحئيل ، يرحمئيل ، يهللئيل ، يوئيل ، يسميئيل ، يعيئيل ، يحديئيل .

ومن الاسماء التوراتية المضافة إلى «البعل» نذكر : اشبعل ، مريبعل ، بعل يدع .

والجدير بالذكر أن الاسماء المضافة إلى «ايل» في الشرق المتوسطي كثيرة جداً . وما سلم لنا منها يشير إلى سمو معانيها وعمق دلالاتها واتساع دائرة شعاعها التي شملت ، بالاضافة إلى سوريا الطبيعية والعربيتين الشمالية والجنوبية ، بلاد الاغريق .

وكان لهذه الاسماء مدلول معتقدهم الديني : التقرّب من «ايل» ، والتيمّن به ، ولها معان جميلة وسامية تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والقابلية للعطف والاستجابة للتوسل والشعور بالواجب و . . التي اسبغتها الشعوب القديمة في الشرق المتوسطي على «ايل» ـ (العالي) . ومن أمثلة الاسماء التوراتية التي تشير إلى سمو معانيها وعمق دلالاتها ، نذكر : هب ايل (الله يعطي) . ايليعازر وعزريئيل (الله يعين) . اسماعيل وايليشمع (الله يسمع) . رعوئيل (الله يرعى) . ايلشبع (الله يزيد) . فلطيئيل وايليفلط (الله ينقذ) . يحيئيل (الله يشفي) . حنيئيل وايليحنن (الله يحن) . حزيئيل (يعطف الله) . دانئيل (يقضي الله) . يرحميئيل (يرحم الله) . يرفئيل (يشفي الله) . سموئيل (اسم الله) . ايليشع (يخلّص الله) . عزيئيل (يقوّي الله) . نثنائيل (يعطي الله) . حزقيئيل (يعزّز الله) . ايل شداي (يقوّي الله) . ايليسار (الله ييسّر) .

فمثل هذه الاسماء ، وهو كثير ، يعبّر عن ايمان القدماء في سوريا الطبيعية بأن ايل (الله) يحفظ ، يرعى ، يصون ، يحمي ، يساعد ، يكافىء ، يعين ، يسند ، يخلّص ، ينقذ ، ينعم ، يسعد ، يرحم ، يعطف ، يحن ، يشفي ، يرحم ، يعطي ، يقوّي ، ييسّر . . وباختصار ، يحقق أمل الطالب ورجاءه . أو قل هو معقد الأمل والرجاء في مساعدتهم على تحقيق كل ما يندرج في حياتهم تحت عنوان حق وخير وفضيلة .

ولكن بني إسرائيل قصّروا في فهم معاني هذه الاسماء ، وفي الوقوف على دلالاتها العميقة . ومن الشواهد الدالة على تقصيرهم نذكر «بابل» ـ (باب ايل ـ باب الله) التي قال عنها محرّر سفر التكوين (١١ : ٩) إن «اسمها دعي بابل لأن الرب بلبل هناك لسان كل الأرض» . ونذكر اسم «اسرائيل» ـ (الله ييسّر) ، الذي اعتبره محرر السفر بمعنى (اصرع ايل) . فحين كان يعقوب في طريقه من فدان ارام (في الشمال السوري) إلى أرض كنعان (في الجنوب السوري) «صارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه ، فانخلع حق

فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك ؟ . فقال : يعقوب . فقال : لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . سفر التكوين ٣٢ : ٢٤ ـ ٢٨» .

فيعقوب ، باعتبار محرِّر التوراة ، صارع الله . وبذلك استحق لقب إسرائيل الذي يعني ، وباعتبار المحرر أيضاً ، «اصرع ايل» .

والواقع أن الذهنية التي حرّرت كتاب التوراة (العهد القديم) كانت تعاني من تقصير مدقع في فهم معنى العالي (ايل ـ الله) . وبالتالي لم يكن لها السمو النفسي والوعي الأخلاقي اللذان يؤهلان للوقوف على حقيقة هذا المفهوم . ومن هنا كان تناول محرر التوراة لمفهوم الألوهة مجرّداً من أي فهم أو احترام . من ذلك مثلاً ما ذكره المحرر في سفر التكوين (٦) قال «إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . ودخل بنو الله على بنات الناس ، وولدن لهم أولاداً» .

ويهوه ، باعتبار صاحب المزامير، واحد من أبناء الله . ولكنه ، وباعتباره أيضاً ، أعظم وأقدر وأقوى و . . من الأبناء الآخرين ، لدرجة لا تجوز فيها المقارنة أو المشابهة بينه وبين أبناء الله . وبلغة صاحب المزمور (٨٩ : ٦) «من يشبه يهوه بين أبناء الله؟» .

ويبدو أن أبناء الله كانوا يعقدون اجتماعات دورية برئاسة الله . وفي أحد الأيام حشر الشيطان نفسه بينهم . يقول محرر سفر أيوب (١ : ٦) «وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم» .

وعندما أرسل يهوه (الرب) موسى إلى فرعون ليخرج بني إسرائيل من مصر ، حاول موسى التنصّل من المهمة التي ألقاها يهوه على عاتقه بحجة أنه «ثقيل الفم واللسان ، وليس صاحب كلام» . «فحمي غضب الرب على موسى وقال : أليس هارون اللاوي أخاك ؟ . . هو يكون لك فماً ، وأنت تكون له إلهاً . سفر الخروج ٤» .

وفي مناسبة أُخرى «قال الرب لموسى : انظر أنا قد جعلتك إلٰهاً لفرعون . وهارون أخوك يكون نبيّك . خروج ٧ : ١» .

يقول المحرر «ثم كلّم الله موسى وقال له أنا الرب ، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني ايل شداي . وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم . خروج ٦ : ٢» . ومن الواضح هنا أن ايل شداي من الأسماء المنسوبة أو المضافة إلى ايل (الله) ، ومعناه «الله يقوّي» .

وفي رعاية يهوه (الرب) ليعقوب (إسرائيل) ، ولاتباعه من بعده ، يقول موسى في نشيده «أحاط يهوه بإسرائيل ولاحظه وصانه كحدقة عينه . كما يحرك النسر عشه ، وعلى فراخه يرفّ ، ويبسط جناحيه ، ويأخذها ويحملها على مناكبه ، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إلٰه أجنبي . سفر التثنية ٣٢ : ١٠» . وهذا الكلام لا يحتاج إلى شرح أو تفسير ، فالرب وحده اقتاد

شعبه وليس معه إله اجنبي .

وحين قال شاول لـ «صاحبة الجان في عين دور . . اصعدي لي سموئيل (من أرض الاموات) . . قالت المرأة لشاول : رأيت آلهة يصعدون من الارض . سفر سموئيل الأول ٢٨ : ١٣» . وهذا الكلام لا يحتاج إلى شرح أو تفسير أيضاً . فالأشباح التي صعدت من أرض الأموات ، باعتبار المرأة صاحبة الجان ، عبّرت عنها بـ «الآلهة» .

وقد ذكرنا في فصل سابق «افراد يهوه» أن موسى أو الأحبار أضفوا على يهوه صفة الوحدانية أو الفرادة بين ما اعتبروه آلهة متعددة . يقول موسى «من مثلك بين الآلهة يا يهوه . خروج ١٥» . ويقول سليمان «يا يهوه إله إسرائيل ، ليس إله مثلك في السماء من فوق ، ولا على الأرض من أسفل . ملوك أول ٨ : ٢٣» . ويقول صاحب المزامير (٨٦ : ٨) «لا مثيل لك بين الآلهة يا يهوه» . و«يهوه قائم في مجلس الآلهة . في وسط الآلهة يقضي . مزمور ٨٢ : ١» . ولذلك يطلب صاحب المزمور (١٣٦ : ٢) إلى الآخرين وبلغة الأمر أن «احمدوا إله الآلهة . احمدوا رب الأرباب» . ويوجّه صاحب المزمور (٩٧ : ٧) الأمر إلى الآلهة جميعها أن تسجد له . يقول «اسجدوا له يا جميع الآلهة» .

وقد بلغ تقصير صاحب المزامير في الالمام بمفهوم الألوهة حداً دفعه إلى اعتبار بني إسرائيل جميعاً آلهة ، وأبناء العلي . يقول ، بلسان يهوه (الرب) طبعاً «أنا قلت إنكم آلهة . وبنو العلي كلكم . مزمور ٨٢ : ٦» .

خاتمة

أشرت في مواضع متفرقة من هذا البحث إلى الدوافع التي دعتني إلى الكتابة في تاريخ يهوه (الرب) . فقلت في «المقدمة» مثلاً إن ما يحملني وكثيراً من الباحثين المختصّين ، على التعرّض لنصوص دينية ، هو أن جماعة بني إسرائيل يتخذون من هذه النصوص وثيقة شرعية تجيز لهم ، باعتبارهم طبعاً ، اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه بالطرد أو بالإبادة ، وإقامة وطن قومي يهودي فوق هذه الأرض .

ثم ان تناولنا لهذه النصوص الدينية بالنقد ، وبالتجريح أحياناً ، تبرّره الإنحرافات الأخلاقية التي ولدتها هذه النصوص . والاذى والويل اللذان سببتهما للمؤمنين بها ، ولآخرين دفعوا ثمن هذا الايمان .

وقلت في «التمهيد» إن الحديث عن «يهوه» الذي يترجمه كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) المقدس لدى الطوائف المسيحية كافة ، إلى «الله» ، له مبرّراته بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني الذي اقتلعه الصهيونيون من أرض فلسطين في أواسط القرن العشرين بعد المسيح ، باسم هذا الإله . وبالنسبة للشعوب المسيحية ، المغسولة الأدمغة المعطّلة العقول التي رضيت بهذا التفسير وأخذت به إيماناً وعقيدة .

وبقي عليّ أن أُشير في خاتمة هذا البحث إلى دوافع أُخرى هي باعتباري على جانب كبير من الأهمية . فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى استجلاء المفاهيم الأساسية في حياتنا الاجتماعية ، وأهمها مفهوما الحضارة والألوهة . الأول لاعتقاد في نفسي يزداد تمكّناً يوماً بعد يوم ، أن الحضارة هي الإطار الذي تنتظم فيه وتنطلق منه القضايا القومية والإنسانية سائرها . وأن معالجة مشكلة أو قضية ما من المشكلات والقضايا التي تزدحم في حياتنا ، لا تكون بإدراك أو بجهد معين ، سياسي أو اقتصادي أو غيره ، بل تستوجب تفهّماً حضارياً في بلوغ ذلك الإدراك . ولأننا عندما ننظر في أوضاعنا أو في أوضاع المجتمعات الأُخرى بمضموناتها

الحضارية وبشمولها الحضاري ، ننفذ إلى جذور هذه الأوضاع ونجابه مشكلاتها في أعمق المستويات ، ونتجهّز بما يمكننا من الحكم في شؤونها حكماً واعياً وسديداً .

ثم إن النظر الحضاري الواعي يوسّع آفاقنا ويعمّق مداركنا ويساعدنا على وضع مفاهيم الحياة الأخرى في مواضعها من ضمن الروابط التي تربطها والوحدة التي تجمعها . ذلك أن الوضع الحضاري هو الوضع الذي تلتقي به وتبيّن على ضوئه شتى الأوضاع الأخرى القائمة في مجتمع من المجتمعات . ولأن الحضارة هي الوحدة الأساسية والمعقولة في أي دراسة تاريخية[١٨٢] .

والثاني (مفهوم الألوهة) لاعتقاد في نفسي أيضاً أن هذا المفهوم متأصّل ومتأسس في كل لحظة وفي كل إنسان . وبذلك يصبح دائم الجدّة ودائم الحضور في الإنسان . ولذلك فأنت تعرف الإنسان بالإله الذي آمن به وتعبّد له هذا الإنسان . وتعرف الإله بالإنسان الذي (اكتشف) أو تكشّف له هذا الإله . وإذا أردت أن تعرف حضارة ما فعليك أن تكون على علم بآلهتها .

الحضارة في جوهرها قيم فاضلة وأخلاق . وهي لا تقوم بمظاهرها ، ولا تبدو في ما ينتظم به الشعب من شرائع وأحكام ومؤسسات ، أو في ما يبدعه من الأدب والعلم والفن . أو في ما يحققه من إنجازات عمرانية وعلمية فحسب . وإنما تقوم الحضارة أيضاً بالمفاهيم الأخلاقية التي ترجع إليها آداب ذلك الشعب ونظمه ومعتقداته . وبالقيم التي تتضمّنها وتتميّز بها . وتبدو في ما يتحلّى به الشعب من فضائل ، وفي ما يمارسه أفراده من سلوك أخلاقي لا يزال شرطاً لاستمرار أي حضارة وأي مؤسسة أو مجتمع إنساني .

وتحت تأثير القيم والمعتقدات الأخلاقية تتكوّن العلاقات في المجتمع على اختلافها . ولا يكون للإنسان أي قيمة في المجتمع إلاّ بمقدار ما يكون له من مواقف أخلاقية ثابتة وعميقة من العالم والحياة . ولا يكون التجمّع البشري مجتمعاً إنسانياً من دون أخلاق . لأن الأخلاق هي العامل الأول في تكوّن أي مجتمع . ولا يتحدد الطابع الجوهري للحضارة بانجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان ، وباهتمام السلطة وتأكيد القوانين على تحسين الأحوال الإجتماعية والسياسية للشعوب في مجموعها . وإذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة . أو قل يستحيل قيام الحضارة من دون أخلاق[١٨٣] .

أما المعتقدات أو الديانات فهي التعبير عن جوهر الشعوب . تعبير عكسه في التاريخ المقدس الآباء ، الأنبياء ، الملوك ، الشعراء ، في شكل تنفيذ مثالي لجوهرهم . ففي معتقدات وفي ديانة أي شعب ، أو في تاريخه المقدس ، يكشف هذا الشعب عن طبيعته الداخلية ، عن جوهره .

ومن المفروض في الدين أن ينمّي الوازع الخلقي ، ويرعى الفضائل الاجتماعية ، ويدعو إلى الأخلاق القويمة وإلى اشاعة المحبة والوئام والعلاقات الإنسانية الفاضلة . وأن يترجم عن

المثل العليا والمقومات الخلقية التي تضمن للمجتمع كيانه الخلقي والروحي . ومن الواجب أن يعتبر مصدراً للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية ، وامتثالاً للتعاليم الأخلاقية التي تحكم سلوك البشر ، قبل أن يكون عبادة للخالق أو تعبيراً عن الأمل بحياة خيّرة على الأرض وبثواب في الآخرة .

والسؤال : ما هي الإنجازات الحضارية التي حقّقها بنو إسرائيل فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ؟ . وكيف تحكم على مستوى فعلهم الحضاري ؟ . أمن خلال إزدهار مدنهم ؟ أم من خلال الإنجازات الحضارية التي أتحفوا بها العالم ؟ . أم من خلال القيم الأخلاقية التي احتضنوها ورفعوها مشعل هداية للبشرية ؟ . وإلى أي مدى وصل اسهامهم في تطوّر حضارة البحر الأبيض المتوسط ؟ .

أين هي المبادىء القويمة التي نادى بها أنبياؤهم وحكماؤهم ؟ . وأين هي المفاهيم اللاهوتية والأفكار الأخلاقية التي يزعم مفكروهم أنهم زوّدوا بها البشرية ؟ .

أعتقد أني ألقيت بقعة من الضوء على حضارة بني إسرائيل في أرض فلسطين . وأشرت إلى مظاهر من سلوكهم وممارساتهم . وألمحت إلى جوانب من شريعتهم التي أباحت لهم هذا السلوك أو الممارسات . وخاصة الوصايا العشر التي يتشرّبها بفكره ووجدانه كل طفل مسيحي في الشرق والغرب . ولكني لم أعثر على «القيم الروحية والحضارية اليهودية» ، (المقولة التي تبنتها وتتبناها المؤتمرات الصهيونية جميعها) . ولم أعرف شيئاً عن «القيم الثقافية التي أنماها الشعب اليهودي طيلة إقامته في وطنه الأم» (كما يزعم يهوشفط حركبي) . أو عن «اليهودية المتسامحة التي حققت السلام والمحبة بين البشر» ، (كما يدّعي موسى هس) . ولم أقف على شيء من «القيم الأخلاقية العظيمة التي قدّمها بنو إسرائيل إلى العالم» ، (كما يزعم ابراهام إسحق كوك) . ولم ألتقِ بالرجال الذين «أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العالم» ، (كما يجاهر حاييم نحمن بياليك) . ولم أصادف في بحثي المتواصل والدؤوب تلك «القيم العظيمة» و «الرسالة الأخلاقية» ، (التي يراها مارتن بوبر) . ولا «القيم الروحية والثقافية» ، (التي يؤكد عليها هارون دافيد غوردون) . ولا «القيم الحضارية ذوات المغزى القومي والإنساني» (كما جاء في بيان اعلان استقلال إسرائيل ليل ١٥ أيار ١٩٤٨) . ولم أستطع أن أتبصّر في التوراة (ربما لأني أعاني من ضعف في البصيرة وضحالة في الوعي) تلك «الحقائق والوصايا الأخلاقية العظيمة» التي تبصّرها بن غوريون . و «الرسالة الأخلاقية العظيمة ، والمثل الدينية والأخلاقية والإجتماعية» التي تبصّرها يهوذا ماغنس . و «التراث العريق في الحياة الثقافية والقيم الروحية» الذي تبصّره احاد هاعام في التوراة أيضاً . ولم أتنبّه إلى «الثقافة الأخلاقية العظيمة التي كانت نوراً للأغيار (الامم) ، كما يرى ميخا برديشفسكي . أو إلى «القيم الإنسانية والفضائل الخلقية» التي أكدت عليها الكاتبة الصهيونية ترودفايس ـ روزمارين في كتابها «البقاء اليهودي» .

وبـاختصار ، لم أطلع على شيء من «القيم العظيمة» و «الرسالة الحضارية» و «التراث الروحي» و «النظام الأخلاقي» و «الفضائل الخلقية» و «الحضارة الدينية أو الدين الحضاري» ، وما شابه ذلك من مزاعم وادعاءات يبوّق بها الصهيونيون وأنصارهم في كل سمع ، ويرفعونها في كل وجه .

وإنما عثرت على نماذج من شريعتهم التي تُبيح ارتكاب جميع الآثام والموبقات في سبيل الوصول إلى غاياتهم . وعلى صور من الانحرافات الأخلاقية التي ولدتها معتقداتهم . وعلى أمثلة من الفضائح والمنكرات التي يزخر بها تاريخهم .

واطلعت على الكثير من دروس الحقد والغدر والمكر ، المحفوظة بين دفتي التوراة . واستمعت إلى رب الجنود ، وهو يملي على شعبه الخاص دروساً في الحقد والقسوة والوحشية . وشنفت أذني إلى اللازمة التي تتكرر في كل نشيد يمجد عملية فتك وإبادة : اقتل ، اذبح ، حرّم ، لا تبق شارداً . وتمثلت رب الجنود في احدى محاضراته الحربية ، يخطب بروح ساخطة ، ناقمة ، حاقدة ، على جميع الشعوب . وكأنه قائد مقهور يروي غلة حقده بتمثل دماء أعدائه تسقي الجبال ، ونتانة جيفهم تصعد في الهواء . ويلجم أنياب الانتقام التي تنهش صدره ، برؤيا سيفه المتخم بلحم اعدائه ، وسهامه السكرى بدمهم ، فيقول «إن للرب سخطاً على كل الأمم . ومحوا على كل جيشهم . قد حرّمهم . دفعهم إلى الذبح . فقتلاهم تطرح ، وجيفهم تصعد نتانتها . وتسيل الجبال بدمائهم . سفر اشعيا ٢/٣٤» .

وقد يقف «رب الجنود يعرض جيش الحرب . اشعيا ٤/٣» . «فيرتاعون . . ويبهتون . . لأن يوم الرب قادم قاسياً بسخط وحمو غضب ، ليجعل الأرض خراباً . . يزلزل السموات وتتزعزع الأرض ، في سخط رب الجنود ، وفي يوم حمو غضبه . . فيكونون كظبي طريد ، وكغنم بلا راع . . تحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم ، وتفضح نساؤهم . سفر اشعيا ١٣» .

«ويأتي الرب من بعيد ، غضبه مشتعل ، والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً ، ولسانه كنار آكلة ، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة . اشعيا ٢٧/٣٠» . يخطب في شعبه المختار ، فيقول «أنا أنا هو . وليس إله معي . . اسكر سهامي بدم ، ويأكل سيفي لحماً . بدم القتلى والسبايا ، ومن رؤوس قواد العدو . . الرب ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أعدائه . ويصفح عن أرضه وعن شعبه . تثنية ٣٩/٣٢» .

ووجدت في الكتاب المقدس ، الشريعة التي تدعو إلى اعتزال الناس ، واحتقارهم واستعبادهم . يقول المشرع في كتاب العهد القديم «لا تقطع لهم عهداً . . ولا تصاهرهم . تثنية ٢/٧» . «وإذا رجعتم ولصقتهم ببقية هؤلاء الشعوب ، أولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم ، وهم إليكم . فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من

أمامكم ، فيكونوا لكم فخاً وشركاً ، وسوطاً على جوانبكم ، وشوكاً في أعينكم . سفر يشوع ٢٣/١٢» .

ويقول المشرع «لا تستعبد أخاك استعباد عبد . . ولا تتسلط عليه بعنف . . وأما عبيدك واماؤك فيكونون لك من الشعوب الذين حولكم . . تستملكونهم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى نهاية الدهر . لاويين ٢٥/٣٩» .

ورأيت في هذه الشريعة صوراً من الفسق والفجور والخبث والغدر والحقد والختل والدهاء والعبث بكل القيم الإنسانية . ومواقف صارخة من المثالب الاجتماعية والمباذل الجنسية ، يحمر وجه الإنسان حياء لدى قراءته عنها أو سماعه لها . وتأخذه دهشة صاعقة حين يعلم أنها محفوظة بين دفتي كتاب مقدس .

وخلاصة القول إن القيم الأخلاقية تختفي كلية من شرائع التوراة . والمشرع التوراتي لم يهتم بالابعاد الأخلاقية والصلات الاجتماعية . ولم يلتفت مطلقاً إلى مشاعر الناس ومشكلاتهم ، كما يبدو من سائر شرائع موسى التي تدور حول طقوس خاصة وشعائر معينة ، كانوا يرون فيها وسيلة يستطيع بها اليهودي أن يكسب رضا ربه .

وهذا التركيز من شرائع موسى على وصف الشعائر ، بدقة وتفصيل غريبين . والدوران في حلقة مفرغة حول الطقوس المرافقة لهذه الشعائر ، دليل على أن التجمّع اليهودي ، في عصر تدوين هذه الشرائع ، لم يكن قد قطع أي مرحلة من مراحل المدنية ، التي ينمو فيها الاتجاه العام في المجتمع نحو تأكيد سمو القيم الأخلاقية فوق الشعائر . كما نرى في مجتمعات مصر وسوريا الطبيعية . فقد كان الإنسان المتحضّر في هذين المجتمعين لا يعنى بالشريعة إلاّ بقدر ما تكشف له عن العناصر ذوي التأثير والفاعلية الايجابية في العلاقات الإنسانية . وكأنه كان يعي بسموّه الفكري ورقيّه الاجتماعي ، أن أبرز الوظائف الاجتماعية للمعتقد أو للشريعة الدينية هي الرقابة الاجتماعية على قواعد السلوك الأخلاقية في المجتمع .

إن المشرّع التوراتي لا يعنى إلاّ بالاشكال والطقوس الخالية من أي مضمون . ولا يستشعر المتعة الحقيقية إلا عندما يتعرّض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتقديم الذبائح والقرابين . ووصف تقاليد الكهنة وطقوس الهيكل . وتفاصيل الاثاث والملابس الدينية .

أما الجانب العميق من الدين فهو بالنسبة إليه كتاب مغلق . فهو يغفل عن الجوهر في الدين : القيم والفضائل والمفاهيم الاجتماعية . كما انه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر . تلك المشكلات التي أثارت النفوس المتسائلة عنها في جميع العصور . لقد كان المشرّع التوراتي ، باستغراقه في تفاصيل الطقوس التافهة ، وولعه بالتقويم والأنساب والتواريخ والأرقام ، واهتمامه على الجملة ، بالهيكل العظمي للتاريخ أكثر من اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ، كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين في العصور الوسطى ، الذين كانوا

ينظرون إلى الحياة العريضة من خلال كوّة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذي الألوان المتعددة[١٨٤] .

وهذا المشرّع أو المحرّر التوراتي لا يكلّ على الاطلاق من ذكر مجموعات صكوك التمليك اليهوهية الطويلة . ولا يجد هذا الرجل الاثري الجاف ، والطقوسي الجامد ، مجالاً يسترخي فيه استرخاء معقولاً من صرامته المألوفة . ويسلك فيه مسلكاً خالياً من التوتر والتحفظ ، إلاّ عندما يسهب في موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه .

وبما أن المحور الأساسي في شريعة موسى هو الوعد بالأرض ، فقد جاءت الفرائض والأحكام التي نسبها الأحبار اليهود إلى يهوه (الرب) ، والعهود والمواثيق التي عقدها يهوه مع أتباعه ، لا تعني غير غزو الأرض ومن ثم استملاكها . وبعد السبي ارتبط عهد يهوه مع أتباعه باعادتهم إلى الأرض الموعودة . وهذه المكافأة المادية ـ الأرض محور أساسي في الشريعة الموسوية .

وهكذا يمكن تلخيص التفكير اليهودي أو النصوص الدينية اليهودية بكلمة واحدة : الأرض ، الأرض . اعطاء ، وتمليكاً ، ومن ثم بناء مملكة أرضية .

ومن الواضح أن ارتباط النصوص الدينية الوثيق بالأرض ، يجعل الكفر بتعاليم الدين لا نكوصاً عن القيم الأخلاقية المطلقة ، كما هو الحال في الديانات الأخرى ، بل نوعاً من «الخيانة الوطنية» . والأشد وضوحاً أن مثل هذا التفكير لا علاقة له بالدين أو بالرسالات الدينية .

والطريف أو المؤسف أو المؤلم ، لا فرق ، أن مثل هذه النصوص والحكايات المقدسة التي عرضنا نماذج منها ، يقف في حلوق كثير من المفكرين ، لا يجرأون على لفظها ، ولا يقوون على ابتلاعها ، كما ابتلعتها الشعوب المسيحية على مدى ألفي سنة . وستظل تمارس ابتلاعها إلى زمن لا يعرف إلاّ الله مداه .

وبقي علينا أن نشير في هذه الخاتمة إلى ما ينسبه بعض الباحثين إلى الإلـه الموسوي (يهوه) من تطوّر في السبي البابلي ، مفردين لذلك الفصول الطوال في مؤلفاتهم . والحقيقة أن بني إسرائيل لم يعرفوا في تغرّبهم في مصر ، وفي تبدّيهم في جنوبي سوريا ، ثقافة ولا علوماً . فقد عاشوا منعزلين عن الشعوب التي عرفوها أو احتكوا بها ، فلم يتفاعلوا مع حضاراتها ، ولم يتأثروا بالسمو الفكري والإنساني الذي كان يشع من جميع المعابد والمدارس والمكتبات في مختلف منائر الشرق المتوسطي القديم . وظل عالمهم وإلههم محصورين بتصوراتهم القبلية الضيقة . فكانوا غير قادرين على تصوّر عالم غير عالمهم . ولم يقووا على تصوّر إلـه غير محدود . فالمطلق بطبيعته شامل وعالمي ، يتخطّى الزمان والمكان . ولكن مطلقات اليهود مقصورة عليهم وحدهم . ويظهر هذا في التصوّر اليهودي للخالق . فيهوه ، في مفهومهم ، واحد ، ولكنه مقصور عليهم وحدهم . أما الأغيار (الأمم) فلهم ، باعتبار بني إسرائيل طبعاً ،

آلهتهم التي تحميهم وترعاهم . وإذا كان يهوه يسمو على الزمان فلأنهم ، كأي شعب بدائي ، لم يكونوا قادرين على تصوّر الزمان . أو كانوا يعيشون في غفلة عنه . فبقي يهوه محدوداً بمكان معين ، محصوراً بتصوّرات قبلية وأفكار بدائية ضيقة .

وفي السبي البابلي هانت ثقتهم بإلههم يهوه لما استبان من عجزه وقصوره ، فاستبيح حماه ودمّر بيته وتشتت أتباعه . فاستحال معبوداً مهيض الجناح مقهوراً . وغامت صورته من وجوههم . وفي المقابل بدت لأنظارهم معبودات بابل متألقة عملاقة ، تبهرهم وترهبهم ، فأقبلوا عليها مشدوهين ، وتهيأت أذهانهم للانصراف عن إلههم الذي خذلهم ، والتحوّل إلى عبادات شعوب الأرض الجديدة (بابل) .

وهذا التطوّر الخطير هال أحبار اليهود وكهانهم المتأخرين ، فعكفوا على ما يسميه الباحثون تطوير الديانة الموسوية . وكل ما فعلوه أنهم أعطوا إله أسلافهم القبلي قيمة أخلاقية ، فأضحى يهوه في مفهومهم لا يلتفت إلى دم الثيران ولحم الماعز يقدّم له كرشوة ، بقدر ما يهتم بالحق والعدل والرحمة . يقول يهوه بلسان النبي عاموس (٥ : ٢١) «إذا أصعدتم لي محرقاتكم وقدمتم تقدماتكم ، لا أرتضي بها . ولا ألتفت إلى ذبائح السلامة من مسمناتكم . . وليجرِ الحق كالمياه ، والبرّ كنهر دائم» . ويقول بلسان هوشع (٦ : ٦) «إني أريد رحمة لا ذبيحة» . ويتساءل ميخا مستنكراً «بمَ اتقدم إلى الرب وأنحني للإله العلي ؟ . هل أتقدّم بمحرقات ، بعجول حولية ؟ . هل يسرّ الرب بألوف الكباش ، بربوات أنهار زيت ؟ . هل أعطي بكري عن معصيتي ؟ . ثمرة جسدي عن خطية نفسي ؟ . قد أخبرك الله أيها الإنسان ما هو صالح . وما يطلب منك الرب هو أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك . ميخا ٦ : ٦» .

والحقيقة أن يهوه ظل مرتبطاً بحوادث تاريخية وآمال سياسية خاصة بجماعة بني إسرائيل . لأن فكرهم ظل مشحوناً بالمطامع الأرضية والشهوات السياسية . وكل نبي تمنّى لليهود ، دون غيرهم ، الانقاذ والخلاص وتحقيق الملكية .

ومن هنا يبدو لكل ذي بصيرة أن الديانة الموسوية ، بانغلاقها وبارتباطها بالشؤون السياسية ، هي أكثر الأفكار الميثولوجية في الشرق المتوسطي القديم بعداً عن جوهر المسيحية . وعن إمكانية التحضير لمجيء المسيح المسيحي . فجماعة بني إسرائيل لم يدركوا معنى أو مفهوم قرب الإله من البشر ، وتجسّده ، وموته في سبيل البشر . لم ترتفع أذهانهم أو تسمو نفوسهم لإدراك جوهر المحبة والفداء . لم يفهموا معنى الدرام الإلهي الذي عبّر عنه تموز والبعل وأدون ، والذي عبر عنه المسيح المسيحي في ما بعد ، بتجديد الإنسان ، ورفع «الملكوت» عن الأرض إلى السماء .

وهنا يندلق السؤال بين العيون جرّة ماء بارد أو ساخن ، لا فرق : كيف ، ولماذا تعتبر الشعوب المسيحية كتاب التوراة اليهودية «عهداً قديماً» لـ «العهد الجديد» ـ انجيل المسيح ؟ .

يُضاف إلى ذلك أن المسيح لم يذكر يهوه بلسانه مطلقاً . وإنما كان يعبّر عن القوة العالية المطلقة بالصفة التي ظلت شعوب الشرق المتوسطي تعبّر بها منذ ما قبل التاريخ المدون حتى اليوم ـ «ايل» أو «أب» . ففي انجيل متى مثلاً يقول إلى تلاميذه «فليضيء نوركم هكذا قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات ٥ : ١٦» . «صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات ٥: ٤٥». «احترزوا من أن تصنعوا صدقة قدام الناس لكي ينظروكم . وإلاّ فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات ٦ : ١» . «أباكم يعلم ما تحتاجون إليه ٦ : ٨» . «فإنه متى غفرتم للناس زلاّتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي ٦ : ١٤» . وقال يسوع في صلاته «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض ١١ : ٢٥» . وقال إلى تلاميذه «متى صلّيت فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يحبّون أن يصلّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلّ إلى أبيك الذي في الخفاء . فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية . . صلّوا هكذا : أبانا الذي في السماوات . ليتقدّس اسمك ٦ : ٥ ـ ٩» .

وفي أيامه الأخيرة «كان يصلّي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ٢٦ : ٣٩» . (كأس الموت) . وعندما كان على الصليب «صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً ايلي ايلي لما شبقتني ٢٧ : ٤٦» بلسانه الارامي ، أي إلٰهي إلٰهي لماذا تركتني ؟ .

مختارات من التوراة (العهد القديم)

ـ «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة . تكوين ٢١ : ٣٤» .

ـ «وماتت سارة في قرية اربع التي في حبرون في أرض كنعان . . فقام إبراهيم وكلّم بني حثّ قائلاً : أنا غريب ونزيل عندكم . اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث قائلين لإبراهيم . . في أفضل قبورنا ادفن ميتك . . فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض . تكوين ٢٣ : ٣» .

ـ «وجاء يعقوب (إسرائيل) إلى إسحق أبيه إلى ممرا قرية اربع التي هي حبرون ، حيث تغرّب إبراهيم واسحق . تكوين ٣٥ : ٢٧» .

ـ «وسكن يعقوب (إسرائيل) في أرض غربة أبيه ، في أرض كنعان . تكوين ٣٧ : ١» .

ـ «وأرسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك ادوم . . قائلاً نحن في قادش ، مدينة في طرف تخومك ، دعنا نمرّ في أرضك . لا نمر في حقل ولا في كرم ، ولا نشرب ماء بئر . في طريق الملك نمشي ، لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك . سفر العدد ٢٠ : ١٤» .

ـ «وأرسل إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأموريين قائلاً : دعني أمرّ في أرضك . لا نميل إلى حقل ولا إلى كرم ، ولا نشرب ماء بئر . في طريق الملك نمشي حتى نتجاوز تخومك . عدد ٢١ : ٢١» .

ـ «وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ، ونزلوا عند حجر المعونة . وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق . واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل . واشتبكت الحرب ، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين . سموئيل الأول ٤ : ١» .

ـ «وأخذ الفلسطينيون تابوت الله . . وأدخلوه إلى بيت داجون . سموئيل الأول ٥ : ١».

ـ «وكان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر . فدعا الفلسطينيون الكهنة والعرّافين

قائلين : ماذا نعمل بتابوت الرب . سموئيل الأول ٦ : ١» .

ـ «وتجمّع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل . . فلما رأى رجال إسرائيل أنهم في ضنك ، لأن الشعب تضايق . اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار . سموئيل الأول ١٣ : ٥» .

ـ «وقال داود في قلبه إني سأهلك يوماً بيد شاول ، فلا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين ، فييأس شاول مني ، فلا يفتش عليّ . . فقام داود وعبر هو والست مائة الرجل الذين معه إلى أخيش ملك جت . . فقال داود لاخيش : إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في احدى قرى الحقل ، فأسكن هناك . ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك . فأعطاه أخيش في ذلك اليوم صقلغ . . وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر . سموئيل الأول ٢٧ : ١» .

ـ «وحارب الفلسطينيون إسرائيل ، فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين ، وسقطوا قتلى في جبل جلبوع ، فشدّ الفلسطينيون وراء شاول وبنيه . وضرب الفلسطينيون يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أبناء شاول ، واشتدت الحرب على شاول ، فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً . سموئيل الأول ٣١ : ١» .

ـ «وذهب داود ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض . فكلّم اليبوسيون داود قائلين : لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج . أي لا يدخل داود إلى هنا . فأخذ داود حصن صهيون ، وأقام في الحصن وسمّاه مدينة داود . سموئيل الثاني ٥ : ٦» .

من شرائع التوراة :

ـ «إذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد . كأجير كنزيل يكون عندك . إلى سنة اليوبيل يخدم عندك . ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته . . لا تتسلّط عليه بعنف . . وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم . منهم تقتنون عبيداً وإماء . وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم . منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم ، فيكونون ملكاً لكم . وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى الدهر . وأما اخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلّط إنسان على أخيه بعنف . لاويين ٢٥ : ٣٩» .

ـ «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش ، الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أُمماً . وأحقاء ملوك أحلّ . .

لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك . لقّبتك (بالمسيح) وأنت لست تعرفني . أنا الرب وليس آخر . لا إله سواي . اشعيا ٤٥» .

يقول النبي ارميا :

ـ «وقد رأيت في أنبياء السامرة حماقة . . وفي أنبياء أورشليم رأيت ما يُقشعرّ منه :

يفسقون ويسلكون بالكذب ويشدّدون أيادي فاعلي الشرّ . .

من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق في كل الأرض . هم أنبياء خداع . ارميا ٢٣» .

ـ «كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا ؟ ! . حقاً إنه إلى الكذب حوّلها قلم الكتبة الكاذب . ارميا ٨ : ٨» .

ـ «فقال الرب لي : بالكذب يتنبّأ الأنبياء باسمي . لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلّمتهم . برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبّأون لكم . ارميا ١٤ : ١٤» .

ـ «الأنبياء يتنبّأون بالكذب ، والكهنة تحكم على أيديهم . أرميا ٥ : ٣١» .

ـ «ومن النبي إلى الكاهن ، كل واحد يعمل بالكذب . أرميا ٦ : ١٣» .

ـ «أنبياؤك رأوا لك كذباً وباطلاً . مراثي أرميا ٢ : ١٤» .

ـ «أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الخرب . . رأوا باطلاً وعرافة كاذبة . حزقايل ١٣ : ٤» .

ـ «اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل ، الذين يكرهون الحق ويعوّجون كل مستقيم . الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم . رؤساؤها يقضون بالرشوة ، وكهنتها يعلّمون بالأجرة ، وأنبياؤها يعرفون بالفضة . سفر ميخا ٣ : ٩» .

ـ «يهوه إله غيور ومنتقم . الرب منتقم وذو سخط . . من يقف أمام سخطه ؟ ومن يقوم في حموّ غضبه ؟ . غيظه ينسكب كالنار . ناحوم ١ : ٢» .

ولذلك يقول المرشد الأيديولوجي العام لجماعة غوش ايمونيم ، الحاخام موسى ليفنغر «إن الله هو رب الإنتقام» ـ جيروسالم بوست ٢٣ شباط ١٩٨٣ .

وللسبب عينه أنشأ جماعة حركة كاخ مستعمرة في أرض فلسطين ، أطلقوا عليها اسم ايل نقم (انتقام الله) . جيروسالم بوست ١ آذار ١٩٨٣ .

هوامش

1 - The letters and papers of Chaim Weizmann, Israel 1984 .
2 - J.L.Talmon, The unique and The universal, London 1965 .
3 - Oskar K. Rabinowicz. «Herzl and England» Herzl year book, OP. cit., Vol. III, N.Y. 1960
6 - G.H. Jansen, Zionism, Israel and Asian Nationalism, Beirut 1971 .
7,8,9,10,11,12,13,14,15,16,17,18 - Arthur Hertzberg, The Zionist Idea, N.Y. 1959 .
١٩- هرتزل في كتاب «الفكرة الصهيونية» .
20 - The Complete diaries of Theodor Herzl, N.Y. 1960 .
٢١- وايزمن في كتاب «الفكرة الصهيونية» . .
22 - Weizmann, Chaim, Trial and error, London 1950 .
٢٣ - زفي فيربلوفسكي في «الأزمنة الحديثة» العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧ .
24 - Litvinoff, Barent, Ben Gurion of Israel, London 1954 .
25 - Israel Government year book (1957) Jerusalem .
٢٦ - ليتفينوف : المرجع السابق .
27 - Ben Gurion looks back, in talks With Moshe Pearlman , N.Y. 1965 .
28 - Moshe Menuhim , The decadence of Judaism in our times , 1965 .
٢٩ - فيربلوفسكي : المرجع السابق .
30 - Meir Ben Horin, Max Nordau, London 1956 .
31 - Georges Friedmann , The End of the Jewish people , N.Y. 1967 .
32 - Uri Avnery, Israel without Zionists, N.Y. 1968 .
33 - David Lloyd George, The Truth about the peace Treaties, London 1939 .
34 - Essays, Letters, Memories, by Ahad Haam (Trans.) by Leon Simon, Oxford 1946 .
35 - Geoffrey Aronson, Israel, Palestinians and the Intifada, London 1990 .
36 - Ehud Sprinzak, Gush Emunim, N.Y. 1986 .
37 , 38 - Ian S. Lustick, Jewish Fundamentalism in Israel. N.Y. 1988 .
39 , 40 - Tzvi Yehuda Kook in Artzi, Vol. 1 (1982) .
41 , 42 , 43 - Harold fish, The Zionism of Zion (in Hebrew) Tel Aviv 1982 .
44 , 45 - Hanan Porat, Artzi, Vol. 4 (1986) .
46 - Jacob Ross, A chosen people, Jerusalem, n. d.

47 , 48 , 49 - Shlomo Aviner, Artzi, Vol. 1.2. (1982) .

50 , 51 - Yehuda Etzion, Nekuda, No. 88, June 24, 1985 Nekuda, No. 94, December 20, 1985 .

52 - Esther Azolai, Nekuda, No. 77, August 31, 1984 .

٥٣ ـ أفينر : المرجع السابق .

٥٤ ـ كوك : المرجع السابق .

55 , 56 - Ezer Weizmann, The battle for peace, N.Y. 1981 .

٥٧ ـ أرونسون : المرجع السابق .

٥٨ ـ يعقوب تالمون في هآرتس ٣١ آذار ١٩٨٠ .

٥٩ و ٦٠ ـ لوستك : المرجع السابق .

61 - David Grossman, Kateret Roshit, No. 230, April 29, 1987 .

62 - Joseph Badi, Fundamental Laws of the state of Israel, N. Y. 1961 .

٦٣ ـ انظر «برنامج تعليم التوراة «القدس ١٩٧١ (عبري) .

٦٤ ـ أنظر مثلاً المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين (٩ ـ ١٩ حزيران ١٩٦٨) وبرنامج المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين (١٨ ـ ٢٧ كانون الأول ١٩٧٢) .

65 - Lee Obrien, American Jewish organizations and Israel, Washington 1986 .

٦٦ ـ دافيد بن غوريون . ولد في بولندا ١٨٨٦ . يعتبر أبرز الصهيونيين الذين أسسوا دولة إسرائيل . وقد ظل رئيساً لحكومتها خمسة عشر عاماً . راجع مقالته في كتاب «الفكرة الصهيونية» لهرتزبرغ .

67 - Ben Gurion in Jewish Frontier, March 1952 N.Y. .

68 - Jerusalem Post, July 19, 1957 .

69 - Ben Gurion, The rebirth and distiny of Israel, N.Y. 1954 .

٧٠ ـ بن غوريون : الهامش ٦٦ .

٧١ ـ ناحوم غولدمان . ولد في بولونيا١٨٩٤ . تسلّم رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي . ثم أصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية . انظر مقالته في «الأزمنة الحديثة» العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧ .

٧٢ ـ مئير يعري . ولد في بولونيا ١٨٩٧ . عمل ضابطاً في الجيش الروسي في الحرب العالمية الأولى . انظر مقالته في «الأزمنة الحديثة» العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧ .

٧٣ ـ فرانتس شايدل «إسرائيل أمة مفتعلة» (بالإلمانية) ترجمه إلى العربية محمد جديد ـ دمشق ١٩٦٩ .

٧٤ ـ مجلة «الازمنة الحديثة» العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧ .

٧٥ ـ المرجع السابق .

٧٦ ـ موسى هس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) ولد في المانيا . وضع كتابه «روما والقدس» عام ١٨٦٢ وفيه قدّم حلاً للمشكلة اليهودية على أساس توطين اليهود في فلسطين . يقول عنه هرتزل «كل شيء حاولناه يمكن العثور عليه في آثاره» . .

٧٧ ـ حاخام اميركا وأول رئيس للجامعة العبرية في القدس .

٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ ـ كتاب «الفكرة الصهيونية» .

٨٣ ـ لوستك : المرجع السابق .

٨٤ ـ ولد في روسيا . شاعر كرّس شعره لخدمة الأحياء القومي اليهودي . اعتبره الصهيونيون بمثابة الشاعر القومي اليهودي . لا تخلو كتاباته من احتقار العرب ونفث سموم الحقد ضدهم . راجع عنه كتاب «الفكرة الصهيونية» . .

٨٥ ـ ولد في فيينا . تعاون مع هرتزل ووايزمن . هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٨ .

86 - Palestine : A study of Jewish, Arab and Britsh policies, Esco Foundation, Vol. 1, N. Haven 1947 .

٨٧ ـ من أبرز الشخصيات الصهيونية في المجتمع الاميركي . عيّنه الرئيس ولسـون قاضيـاً في محكمة العـدل العليا في الـولايات المتحـدة عام ١٩٢٦ وبقي في هـذا المنصب حتى عام ١٩٣٩ انـظر مقالتـه في كتـاب «الفكـرة الصهيونية» لهرتزبرغ .

88 - Samuel Clement Leslie, The Rift in Israel, London 1971 .

89 - The Jewish Encyclopedia, 1901 , N. Y .

٩٠ و ٩١ ـ مارتن بوبر : الهامش ٨٥ .

٩٢ ـ ولد في روسيا . هاجر إلى فلسطين . يعمل استاذاً للتاريخ في الجامعة العبريـة في القدس . انـظر مقالتـه في «الازمنة الحديثة» العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧ .

٩٣ ـ فيربلوفسكي : الهامش ٢٣ .

٩٤ ـ ولد في رومانيا . انظر كتاب «الفكرة الصهيونية» .

٩٥ ـ ولـد في روسيا . اعتنق مبـادىء حركـة «أحباء صهيـون» . هاجـر إلى فلسطين ١٩٠٤ . انـظر كتاب «الفكـرة الصهيونية» .

٩٦ ـ هذا ما يقوله في روايته «دافيد آلروي» التي كتبها عام ١٨٣٣ ، قبل أن يصبح رئيساً للوزارة البريطانيـة . راجع عنها كتاب : .

Edgar Rosenberg, From shylock to svengali, London 1960 .

٩٧ ـ ولـد في روسيا . مؤرخ يهودي مشهور. عـرف بكتابـه «التاريـخ العالمي للشعب اليهـودي» . ظهـر في عشـرة أجزاء .

98 - Weiss - Rosmarin, T. «Jewish survival» N. Y. 1949 .

99 - Raphael Patai, The Jewish Mind, N.Y. 1977 .

100 - Leon Uris, Exodus, N.Y. 1959 .

101 - Alfred Lilienthal, The other side of the coin, N. Y. 1965 .

102 - Jehudah Halevi, Juzari, N.Y. 1972 .

١٠٣ ـ بياليك : الهامش ٨٤ .

١٠٤ ـ ولد في بولندا ١٩٠٥ . هاجر إلى فلسطين ١٩٣٥ يعمل قاضيـاً في محكمة العـدل العليا . انـظر جيروسـالم بوست ٢ شباط ١٩٧٠ .

105 - Alfred Lilienthal, What price Israel ?, Beirut 1969 .

١٠٦ ـ دوبنوف : الهامش ٩٧ .

١٠٧ ـ لوستك : الهامش ٣٧ .

١٠٨ ـ ليلنتال : الهامش ١٠١ .

١٠٩ ـ برانديس : الهامش ٨٧ .

110 - Sokolow, Nahum. History of zionism, London 1919 .

١١١ ـ هاعام في كتاب «الفكرة الصهيونية» .

١١٢ ـ اتينغر : الهامش ٩٢ .

١١٣ ـ هس : الهامش ٧٦ .

١١٤ ـ طبيب روسي وزعيم صهيوني ، انظر كتاب «الفكرة الصهيونية» .

١١٥ ـ هاعام : الهامش ١١١ .

١١٦ ـ غولدمان : الهامش ٧١ .
١١٧ ـ انظر دراسة آلان تايلور في كتاب «تحويل فلسطين» الذي أعده إبراهيم أبو لغد ـ ايفانستون ١٩٧١ .
١١٨ ـ المرجع السابق .
١١٩ ـ ماغنس : الهامش ٧٧ .
١٢٠ ـ اتينغر : الهامش ٩٢ .
121 - Sigmund Freud, Moses and Monotheism, N.Y. 1962 .
١٢٢ ـ منوحن : الهامش ٢٨ .
123 - Nekuda, No. 36, November 27, 1981 .
١٢٤ ـ الهامش ٣٣ .
١٢٥ ـ بياليك : الهامش ٨٤ .
126 - J. Frazer, The golden bough , London 1976 .
127 - J. Smith, God and man in early Israel .
128 - M. Selzar, The Arganization of the jewish state, N.Y. 1967 .
١٢٩ ـ بن غوريون : الهامش ٦٦ .
١٣٠ ـ سيلزار : المرجع السابق .
١٣١ ـ شمعون دوبنوف : الهامش ٩٧ .
١٣٢ ـ بن غوريون : المرجع السابق .
١٣٣ ـ يعقوب كلاتزكين : الهامش ٧٩ .
١٣٤ ـ بوبر : الهامش ٨٥ .
١٣٥ ـ مئير بار ايلان (١٨٨٠ ـ ١٩٤٩) حاخام وزعيم صهيوني . ولد في روسيا . هاجر إلى المانيا ومنها إلى الولايات المتحدة الاميركية . أطلق اسمه على الجامعة الدينية في دولة إسرائيل (جامعة بار ايلان) . انظر المختارات التي جمعها له هرتزبرغ في كتابه «الفكرة الصهيونية» .
١٣٦ ـ روزمارين : الهامش ٩٨ .
١٣٧ ـ كوك : الهامش ٨٢ .
138 - Jewish Encyclopedia, N.Y. 1905 .
١٣٩ ـ روزمارين : المرجع السابق .
١٤٠ ـ كوك : المرجع السابق .
١٤١ ـ هوراس ماير كالن . ولد في المانيا ١٨٨٢ . انظر ما جمعه له هرتزبرغ في «الفكرة الصهيونية» .
١٤٢ ـ سيركين : الهامش ٨٠ .
143 - Louis Finkelstein The Jews : Their Religion and culture, N.Y. 1975 .
١٤٤ ـ روزمارين : المرجع السابق .
١٤٥ ـ بوبر : الهامش ٨٥ .
146 - William Zukerman , The Jew in revolt, London 1937 .
- Jewish News letter, No. 7 N.Y. 1950 .
١٤٧ ـ روزمارين : المرجع السابق .
148 - William F.Albright, The Archaeology of palestine, London1960 .
١٤٩ و١٥٠ و١٥١ ـ غوستاف لوبون ـ الحضارات الأولى ـ باريس ١٨٨٩ .
152 - H. G. Wells, The out line of history, N.Y. 1921 .

153 - D. Bates and D. Garrod, The stone age of mount Carmel, Oxfard 1937 .
- W. F. Albright, «Palestine in the earliest historical period» - Journal of the palestine oriental Society, Vol. XV 1935 .
- H. Frankfort, Studies in the ancient oriental Civilization, Chicago 1932 .
154 - W. F. Albright, The Archaeology of palestine, London 1960 .
155 - A. Toynbee, Mankind and Mother earth, Oxford 1976 .
156 - W. Durant, The story of civilization, N.Y. 1981 .
157 - A. Toynbee, A study of history, Oxford 1955 .
158 - H. and H.A. frankfort, The intellectual adventur of ancient man, chicago 1946 .
١٥٩ ـ د . يوسف حوراني ـ البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم ـ بيروت ١٩٧٨ .
160 - M. Eliade, Patterns in comparative religions, London 1976 .
١٦١ ـ انظر كتاب المؤلف «مفهوم العالي (ايل ـ الله) في الذهن العربي القديم ـ بيروت ١٩٩٤ .
162 - L. De Vogue, Inscriptions sémitiques, paris 1868 .
- G. Ryckmans, Les Noms propres sudsémitiques, Louvain 1934 .
- J. B. Segal, Aramaic texts from north saqqara, London 1983 .
163 - E. Littmann, Semitic inscriptions, N.Y. 1904 .
- G. L. Harding, Some thamudic inscriptions from jourdan, Leiden 1952 .
- Alb. Van den Branden, Les inscriptions Dédanites, Beyrouth 1962 .
- J. Cantineau, Le Nabatéen, Paris 1930.
- F. V. Winnett, Safaitic inscriptions from Jourdan, Leiden 1952 .
- F. V. Winnett and W. L. Reed, Ancient records from north Arabia, toronto 1970.
١٦٤ ـ ابن منظور : لسان العرب .
165 - H. Holzinger, Exodus, Tübingen, 1900 .
166 - J. Wellhousen, Israelitische und Jüdische Geschichte, Berlin 1895 .
167 - Robert Graves, The white Goddess, Londn 1984 .
168 , 169 - S. Kramer, History begins at Sumer, Philadelphia 1981 .
١٧٠ ـ مفهوم العالي ـ المرجع السابق .
171 - Will Herberg, in Arguments and Doctrines, ed. by Arthur Cohen .
- Bernard Bamberger, The story of Judaism, N.Y. 1965 .
١٧٢ ـ التعبير لدوستويفسكي ، في مقالاته «المسألة اليهودية» التي كان ينشرها عام ١٨٧٧ في زاوية «مفكرة كاتب» .
173 - H. G. Wells, A short histoy of the world, London 1938 .
١٧٤ ـ ويلز ؛ الهامش ١٥٢ .
175 - Josephus, Flavius. Antiquities of the Jews .
176 - A. T. Olmstead, history of the persion Empire, 1960 .
177 - Salo W. Baron, A social and religious history of the Jews, N.Y. 1952 .
١٧٨ ـ اتينغر : الهامش ٩٢ .
179 , 180 - G. R. Driver, Canaanite Myths and legends, London 1976 .
181 - A. Heidel , The Babylonian Genesis, Chicage 1951 .
١٨٢ ـ توينبي : الهامش ١٥٧ .
١٨٣ ـ د . قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ـ بيروت ١٩٦٤ .
184 - J. Frazer, Folk - Lore in the old Testament, N.Y. 1923 .

فهرست

* يقول الشاعر القومي اليهودي (الروسي) حاييم نحمن بياليك «إسرائيل والتوراة شيء واحد» .

* ويقول الداعية الصهيوني (الروسي) بيريتز سمولنسكن «التوراة ركيزة دولتنا» .

* ويقول الحاخام الصهيوني الأُصولي مئير كاهانا «لا يمكن التمييز بين الدولة وبين التوراة . لأن دولة إسرائيل لم تقم بفضل قرارات الأمم المتحدة ، بل بفضل التوراة» .

* ويقول رئيس جامعة بار ايلان الدينية في إسرائيل ، هارولد فيش «أبْعد البعد اللاهوتي تتلاشَ الصهيونية ذاتها هباء منثوراً» .

* ويقول الأستاذ في الجامعة العبرية في القدس ، البروفسور يعقوب تالمون «إن الحق اليهودي التاريخي بفلسطين يفتقر إلى أساس ثابت في ما لو تمّ اقصاء مسألة الإيمان بالوعد الإلهي ، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه . مما يؤدي حتماً إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الفاتحين والامبرياليين» .